الكاريكاتير السياسي

منذ ثورة عرابي وحتى ثورة ٢٥ يناير

رانيا صالح



الكاريكاتير السياسي

منذ ثورة عرابي وحتى ثورة ٢٥ يناير

رانيا صالح


مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: الكاريكاتير السياسي
منذ ثورة عرابي وحتى
ثورة ٢٥ يناير

اسم المؤلف: رانيا صالح

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٧٩٤٢

الطبعة الأولى٢٠١٣



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٠٣ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أعز صديق وأقرب إنسان إلى قلبي، إلى روح والدي الحبيب (أ.د. محمد رمضان صالح) الذي أفتقده بشدة.

كما أهدي الكتاب إلى من لا تكتمل سعادتي إلا بسعادتها: والدتي الغالية (أ.د. علية محمد عبد الحافظ).

شكر وتقدير

أود أن أعرب عن امتناني وخالص شكري وتقديري لجميع رسامي الكاريكاتير الذين قابلتهم أو راسلتهم لإتمام هذه الدراسة ولتعاونهم وتشجيعهم ولمساهماتهم الغنية سواء برسومهم أو آرائهم. وأود أن أخص بالذكر كل من الرسام عمرو عكاشة، والراحل رؤوف عياد، ومصطفى حسين، وأحمد طوغان، وجمعة فرحات، وعبد الحليم البرجيني، وجورج بهجوري، وسعد الدين شحاته، وأحمد حجازي، وأحمد عز العرب، والراحل محيى الدين اللباد، وعمرو سليم، وفرج حسن، وأحمد عبد النعيم، وإسماعيل دياب، والراحل ماهر داود، وممدوح طلعت، وناجي كامل، ومحمد حاكم، وشريف عرفه، وهاني شمس، وطه حسين، ومحمد عمر، ونبيل تاج، وعصام حنفي، وتامر يوسف، وسمير عبد الغني، ومحمد حمدي، وعبد العزيز تاج، ومحسن أبو العزم، وحسن المصري.

كما أود أن أشكر كل الرسامين الذين تم الاستعانة برسومهم في هذا الكتاب ولم يتسنى لي مقابلتهم بعد، وأخص بالذكر كل من الرسم محمود، وزكي، ورجائي ونيس، وإيهاب شاكر، ووليد طاهر، وياسر جعيصة، ودعاء العدل، ومحمد مخلوف، وعبد الله، ومحمد أنور، ورمسيس ، وأحمد نادي ، وطنطاوي، وعفت، وأسامة قاسم، وجلال عمران، وحلمي التوني، وإبراهيم مرزوق، وحسن فداوي، ومصطفى الشيخ، وعمر حسونة. وحسانين ، وعمرو فهمي.

كما أود أن أعرب عن تقديري لكل الرسامين الراحلين الذين أمتعونا برسومهم وإبداعاتهم وأخص بالذكر الرسام ألكسندر صاروخان، ومحمد عبد المنعم رخا، وجوان سانتس، ورفقي، وصلاح جاهين، وعبد لسميع، وحسن حاكم، وزهدي العدوي، وبهجت عثمان، وسامي بديوي.

ولأن هذا الكتاب مستمد جزء من مادته من رسالتي للماجستير بالجامعة الأمريكية، فأجدها مناسبة جيدة لأعبر عن شكري وتقديري لوقت وجهود المشرف على رسالتي وأعضاء لجنة التحكيم: الدكتور رالف برينجر والدكتور كيفين كينان والدكتور عماد شاهين.

مقدمة!

قد تكون الرسوم الكاريكاتورية مجرد مجموعة خطوط على ورق أبيض ولكن وقعها كثيرًا ما يكون أشد قوة من الرصاص أو لسعة الكرباج. فقد خطت لحظة بلحظة ملحمة من المشاعر والأحاسيس التي نبض بها الشارع المصري والعربي، فحاربت الاستعمار وناهضت الهيمنة الغربية وناصرت ممثلين للوطن من أمثال سعد زغلول، وتصدت لقرارات حكومية مثل دستور ٣٠ ونادت في وقت ما بالقومية العربية وناضلت ومازالت من أجل القضية الفلسطينية، وتربصت ومازالت بكل مسؤول فاسد وسلطت الضوء ولا تزال على المساحات المظلمة والقبيحة من حياتنا اليومية في قالب فكاهي ساخر.

وإذا كان هناك تضاؤل لدور مصر الريادي في مجال ما لأسباب اقتصادية أو خلافه، ففن الكاريكاتير بكل فخر لا يزال يتربع على عرش الريادة العربية. فالرسوم الكاريكاتورية، التي تزخر بها الصحف والمجلات في أرشيفات المؤسسات الصحفية وعلى أرفف المكتبات وعلى أرصفة سور الأزبكية، هي توثيق لتاريخ مصر الحديث وشاهد إثبات على أحداثه واتجاهاته وتطوراته في سياق مازال قادرًا على إضحاكنا اليوم كما أضحكنا بالأمس منذ ما يقرب على القرن.

ويعتبر الكاريكاتير من أقدم أشكال الفنون ومن أقدم وسائل التعبير والاتصال. والكاريكاتير الذي نتحدث عنه هو المرادف باللغة الإنجليزية لكلمة cartoon ويتكون من عنصرين أساسيين: الكاريكاتير caricature أو الرسم الذي يحمل قدر من المبالغة و illusion أو النسيج الخيالي أو الوهم. فبينما الكاريكاتير يضيف قدرًا من المبالغة في شكل شخص ما مثلًا، فإن الخيال هو الذي يخلق الحالة التي يوضع فيها هذا الشخص[١]. فهو فن يعتمد على المبالغة والتحريف في الملامح الطبيعية أو في خصائص ومميزات شخص أو حيوان أو جسم ما. وغالبًا ما يكون التحريف في الملامح الرئيسية للشخص، أو يتم الاستعاضة عن الملامح بأشكال الحيوانات أو الطيور أو يتم عقد مقارنة بأفعال الحيوانات.

ويعتقد عدد من الباحثين أن قدماء المصريين هم أول من تنبه إلى هذا الفن الذي حقق مقصدهم في النقد والسخرية والتهكم من النواقص ونقاط الضعف في أسيادهم. واستخدم المصري القديم الحيوانات والرموز البسيطة للتعبير عن رأيه الحقيقي في حكامه.

(١) دان باكر: Dan H. Backer. (1996). Uniting Mugwumps and the Masses: Puck's Role in Gilded Age Politics. M.A Thesis, Department of English. Virginia Univ. Retrieved July 4, 2002, from: http://xroads.virginia.edu/~MA96/PUCK/

فعلى سبيل المثال، وجدت رسومًا (شكل ١) ترجع لأكثر من ٣٠٠٠ عام تصور مجموعة من الخدم يحملون سيدهم من مأدبة لمنزله وهو في حالة سكر، كما وجدت رسومًا أخرى تصور كليوباترا وهي في حالات عديدة من السكر[١].





شكل ١: قدماء المصريين والكاريكاتير!
(صمويل تاور، ١٩٨٢)

وصور المصريون القدماء الحيوانات وهي في أدوار آدمية كوسيلة للسخرية من جانب من جوانب الحياة المصرية. ففي إحدى البرديات الساخرة، تم تصوير اثنين من الحيوانات، أسد وظبية، وهما يجلسان في مواجهة بعضهما البعض يلعبان لعبة "السنت"، مثلهما في ذلك مثل الملك آني وزوجته توتو وهما يلعبان. ويظهر على ملامح وجه الأسد نشوة النصر في إشارة إلى أن الأسد في وضع متقدم. وفي نفس البردية، تقود قطة سربًا من الأوز، تذكرنا بلوحة تعداد الأوز على جدران مقبرة نيبامون. وتظهر القطة مدعمة بثعلب يحمل حقيبة من القماش معلقة على عصا يحملها على كتفه ويرعى قطيعًا من الماعز[٢].

---

(١) صمويل تاور:

Samuel A. Tower. (1982). "Cartoons and lampoons: The art of political satire. New York: Julian Messner."

(٢) توماس جارنت هنري جيمس:

James, T. G. H. (Thomas Garnet Henry). (1985). "Egyptian Painting. London: British Museum Publications Limited"



شكل ٢: أسد وظبية يلعبان السنت!

(توماس جيمس، ١٩٨٥)



شكل ٣: قطة تقود سرب من الأوز!

(توماس جيمس، ١٩٨٥)

ازدهار فن الكاريكاتير في مصر يعتبر أمرًا طبيعيًا في الوقت الذي يعشق فيه المصريون النكتة ويقدرون الجيدة منها ويتداولونها. وهذا ليس فقط لأن المصريين يتميزون بحس فكاهي عالٍ، ولكن لأن النكتة تلعب دورًا حيويًا في حياتهم، فهي تعتبر وسيلة آمنة للتعبير عن رفضهم ومعارضتهم وغضبهم تجاه وضع أو شخص ما، كما أنها تساعد على كسر حدة التوتر وتعمل كمتنفسًا لهم من كم الضغوط اليومية التي تحيط بهم. يعتقد الكاتب خالد الكشتاني بأن المصريين من خلال النكت يمارسون حالة من "الهروب" من الأشياء التي قد يصعب عليهم مواجهتها. أما الصحفي والشاعر كامل الشناوي فيرى أن النكت هي ذلك السلاح السري المدمر الذي استخدمه المصريون ضد الغزاة والمحتلين[(١)]. ووفقًا لوزير الداخلية السابق اللواء حسن أبو باشا، تميل النكت في مصر إلى الزيادة في أوقات الأزمات والتوترات لكسر حدة التوتر وتفريغ شحنة الغضب. ولعل هذا هو السبب وراء قيام أجهزة

(١) خالد كشتاني:
Khalid Kishtainy. (1985). Arab political humor. Great Britain: Quartet Books.

الأمن بمراقبة وتحليل النكت كطريقة لقياس الرأي العام. ويؤكد أبو باشا بأنه كان من الممكن منع اندلاع مظاهرات الخبز في عهد السادات لو كان مجلس الوزراء أخذ تقارير النكت من قبل جهاز أمن الدولة على محمل الجد[١].

ويلعب الكاريكاتير دور النكتة المصورة، فهو بالإضافة لدوره الفكاهي يستخدم كوسيلة لتوعية الرأي العام وجمع المعلومات وإيضاح وتبسيط الظروف الراهنة وتسليط الضوء على المناطق المظلمة في حياتنا اليومية وكشف الحقائق. ومع ارتفاع نسبة الأمية، يصبح الكاريكاتير الواحد الجيد أكثر تأثيرًا من مئات المقالات الرفيعة المستوى والمنمقة.

وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر أول صحيفة هزلية وهي "أبو نظارة زرقاء"، التي أسسها يعقوب صنوع في مارس عام ١٨٧٨ والتي كان يكتبها بالعامية المصرية وينشر فيها رسومًا كاريكاتورية تنقد وتسخر من سياسات الخديوي إسماعيل وتحرض ضد الظلم الذي كان يعانيه المصريون في عهده. تشير أغلب المراجع إلى أن صنوع قد عاش بقية حياته في باريس بعد أن تم مصادرة صحيفته، مع استمراره في نشر مطبوعته تحت أسماء أخرى ومنها "رحلات أبو نضارة زرقة" و"أبو صفارة" و"أبو زمارة"، والتي كانت تصل لقرائه عن طريق تهريبها لتوزع داخل مصر.

ظهر بعد ذلك عدد من الصحف والمجلات التي تنشر رسومًا كاريكلتورية مثل "اللطائف المصورة" عام ١٩١٥ و"الكشكول" عام ١٩٢١ و"خيال الظل" عام ١٩٢٤ و"الفكاهة" عام ١٩٢٦ و"الصرخة" عام ١٩٣٠ و"الراديو" عام ١٩٣٤ و"آخر ساعة" عام ١٩٣٤ و"الجمهورية" عام ١٩٥٣ وغيرها، والتي كان بعضها يهادن الاحتلال والقصر والبعض الآخر يقف ضدهما على طول الخط.

وشهد عام ١٩٢٥ ميلاد مجلة "روزاليوسف" التي تعتبر نقطة تحول في تاريخ الصحافة المرسومة في مصر وتعتبر "مدرسة" تخرج منها أكثر الرسامين تأثيرًا في مصر والعالم العربي، وعلى رأسهم الرسام الأرمني الأصل ألكسندر صاروخان الذي يعد العلامة الفنية المسجلة "لروز اليوسف" حتى عام ١٩٣٤ قبل انتقاله إلى "آخر ساعة" ومن ثم إلى "أخبار اليوم". كما أصدرت مؤسسة "روزاليوسف" في عام ١٩٥٦، مجلة "صباح الخير" التي أطل من على صفحاتها رواد فن الكاريكاتير المصري الحديث.

ولكن ما هي ملامح الكاريكاتير الذي يستحق وصفه بالسياسي؟ البيئة المصرية لها طبيعة خاصة جدًا حيث امتزجت فيها السياسة بمعظم أشكال الحياة امتزاج الزبد بالطعام

(١) كرم جبر (١٩٩٨)، التقارير الأمنية عن النكتة! ، "روز اليوسف"، ١٩٩٨، عدد ٣٦٤٢.

وانعكس هذا بالتبعية على طبيعة الكاريكاتير السياسي. فليس بالضرورة أن يصور الكاريكاتير الرئيس حسني مبارك أو الرئيس الأمريكي باراك أوباما حتى يكون سياسيًا. فالكاريكاتير الذي يتناول مشاكل الاقتصاد وارتفاع الأسعار وأزمة المواصلات والمرور والبطولات الرياضية ومشاكل التعليم والدروس الخصوصية وسوء رصف الشوارع وحجم وشكل رغيف العيش هو كاريكاتير سياسي.

ويرى الرسام مصطفى حسين بأن الكاريكاتير السياسي هو الذي يبرز أي نقاط ضعف للنظام ويوجه نقد لأي أعمال غير مقبولة للحكومة ويضغط في اتجاه التغييرات المطلوبة(١). ويعتقد الرسام عبد الحليم البرجيني بأن الكاريكاتير الذي يصور رجل يطلب من الخياط أن يخيط له بنطلون من غير جيوب هو سياسي(٢). ويرى الرسام عمرو عكاشة بأن الكاريكاتير السياسي هو الكاريكاتير الذى يلخص قضية كبيرة تشغل الرأي العام والرأى المضاد لها فى مشهد بسيط يصل للمتلقى بسرعة ويتفاعل معه(٣).

جزء من مادة هذا الكتاب «الكاريكاتير السياسي» مأخوذ عن دراسة بحثية، حصلت بها على درجة الماجستير في الصحافة والاعلام من الجامعة الأمريكية بالقاهرة والتي تناولت تطور الكاريكاتير السياسي في مصر وأهم الأحداث التي ساهم فيها بدور كبير منذ مطلع القرن العشرين(٤). شملت هذه الدراسة استبانات ومقابلات شخصية مع عدد من رسامي الكاريكاتير المعاصرين، الذين سجلوا رؤيتهم وانطباعهم عن دور الرسوم الكاريكاتورية في تناول أهم أحداث القرن، كما تحدثوا عن تنبؤاتهم لمستقبل فن الكاريكاتير ودوره في أهم الأحداث السياسية التي ستواجهها مصر. كما شملت الدراسة تحليل لمضمون الرسوم الكاريكاتورية التي رسمت مواكبة للأحداث السياسية التي شغلت الرأي العام والذي تطلب تحليلها الرجوع إلى الصحف والمجلات التي كانت صادرة وقت وقوع الحدث.

(١) رانيا صالح:

Rania M.R. Saleh (2007). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2), 187-225.

(٢) رانيا صالح، المرجع السابق.

(٣) عمرو عكاشة، مقابلة شخصية، ٢٠١٠.

(٤) رانيا صالح:

Rania Saleh. (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo (AUC).

وأحب أن أنوه هنا بأنه لم يكن من السهل الحصول على نسخ للرسوم الكاريكاتورية خاصة في فترات ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، فكثير من الصحف والمجلات وإن توفرت كما في "دار الكتب" مثلًا، كانت بالية أو في حالة لا يسمح بتصويرها وأحيانًا لا يسمح حتى باستعارتها، والتي تستدعي الدعوة إلى ضرورة حفظها إلكترونيًا وبشكل جيد حفاظًا على هذا التراث النفيس من الضياع والاندثار وتسهيلًا على الباحثين.

يتناول الكتاب ملامح الكاريكاتير السياسي المصري منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ في ستة فصول. يضم الفصل الأول أهم الأحداث السياسية التي تناولها الكاريكاتير المصري منذ ثورة عرابي وحتى ثورة ١٩٥٢، الفترة التي شهدت الثورة العرابية ضد الظلم والاستبداد وضد التميز ضد المصريين، وتصاعد المقاومة الشعبية والحركات الوطنية ضد الاحتلال البريطاني والتي نجحت في إشعال ثورة ١٩١٩ الشعبية على إثر نفي الإنجليز لسعد زغلول ورفاقه، ثم فترة الثلاثينيات التي شهدت مظاهرات ضد إلغاء دستور ٢٣ وضد رئيس الوزراء اسماعيل صدقي وحكومته وحزبه في ظل رقابة صارمة فرضها صدقي على الصحف والمجلات، ثم في فترة الأربعينيات التي شهدت المزيد من سياسات الاحتلال القمعية والتي كان على رأسها حادثة ٤ فبراير، وأخيرًا فترة الخمسينيات التي لعب فيها الكاريكاتير دورًا في التمهيد لثورة ١٩٥٢ والتي بها أسدل الستار عن ١٤٨ عامًا من حكم سلالة محمد علي.

ويتناول الفصل الثاني فترة حكم الرئيس محمد نجيب القصيرة جدًا، وصعود نجم جمال عبد الناصر، وطبيعة الأزمة التي اشتعلت بينهما والتي انتهت بإعفاء نجيب من منصبه من قبل "الضباط الأحرار".

ويناقش الكتاب في الفصل الثالث فترة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر التي اشتعلت فيها روح الانتماء ليس فقط إلى الوطن الأم مصر، بل إلى الوطن الأكبر الوطن العربي تحت دعوة القومية العربية. واتسمت هذه الفترة بسياسات ناصر الاشتراكية المناهضة للإمبريالية الغربية والداعية للوحدة العربية تحت قيادة مصرية والراعية للتنمية الصناعية الداخلية، إلا أنه ولردود فعل لقرارات ناصرية هبت مجموعة من العواصف أثرت بالسلب على عجلة التنمية وعلى الاقتصاد المصري، ومنها قرار تأميم قناة السويس بما يعتبر تحديًا لأقوى إمبراطوريتين في أوروبا والذي أسفر عن عدوان ١٩٥٦، وقرار غلق مضيق تيران أمام السفن الإسرائيلية بما يعتبر تحديًا للقانون الدولي الذي يضمن حرية الملاحة والذي أسفر عن نكسة ١٩٦٧.

ويتناول الفصل الرابع فترة الرئيس الراحل أنور السادات والتي اتسمت بالكثير من المفارقات والمفاجآت السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وعلى رأسها نصر أكتوبر ١٩٧٣ ومباحثات السلام مع إسرائيل في كامب ديفيد ١٩٧٨-١٩٧٩ في ظل رفض شعبي وسياسة الانفتاح التي تسببت في ارتفاع الأسعار واندلاع المظاهرات ضد موجة الغلاء وأخيرًا مأساة اغتيال السادات في يوم الاحتفال بيوم النصر.

ويناقش الفصل الخامس فترة الرئيس "السابق" حسني مبارك والتي لم تختلف كثيرًا من حيث القضايا المطروحة عن الفترتين السابقتين خاصة فيما يتعلق بالقضايا الداخلية، وان اتسمت بالتدهور الريادي لمصر واستشراء الفساد في معظم (إن لم يكن جميع) مؤسسات الدولة. ناقش الكتاب على المستوى الخارجي، ازدياد حدة الصراع العربي الإسرائيلي، وغزو الولايات المتحدة للعراق في ظل غياب تأييد دولي وتبعات ذلك من مسلسل حمامات الدم الذي يشهده العراق منذ سقوطه. أما على المستوى الداخلي، فتناول التدهور الاقتصادي واستشراء الفساد وتجمد الحياة السياسية وارتفاع معدلات البطالة وتدهور مستوى التعليم، وغيرها من الأحداث والمستجدات التي ساهمت في رفع حالة الغليان في الشارع المصري، انتهت بثورة الشباب، ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ التي أبهرت العالم، والتي استطاعت أن تخلع رأس النظام مبارك وإن لا يزال أمامها الكثير من التحديات والصعوبات.

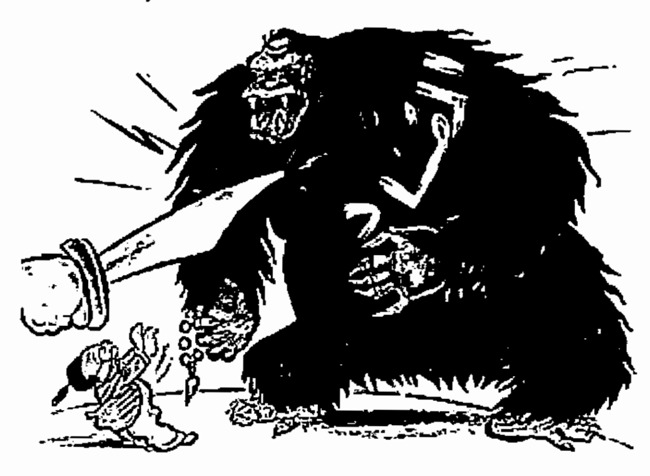
ويلقي الفصل السادس الضوء على مواضيع متنوعة ومنها رؤية رسامي الكاريكاتير لمستقبل الكاريكاتير ما بعد ثورة ٢٥ يناير، والرموز الكاريكاتورية المحلية والعربية والدولية وقضية معاداة السامية والمناسبات الكاريكاتورية المتكررة سنويًا والتي لا يمكن تجاهلها.

أتركك الآن عزيزي القارئ مع لمحات من تاريخنا المعاصر والتي تم تناولها من خلال قالب كاريكاتوري فكاهي يضحكنا ويبكينا في نفس الوقت، ولك أن تلاحظ كم المفارقات والأحداث التي تكررت في عدة حقب تاريخية بما فيها يومنا هذا، بما يجعل الكثير من الرسوم قابلة للنشر اليوم، لتتساءل: هل فعلًا يعيد التاريخ نفسه؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فهل يحدث هذا "صدفة"؟

الفصل الأول

ملامح الكاريكاتير السياسي
منذ ثورة عرابي وحتى ثورة يوليو
(١٨٨١ - ١٩٥٢)





الفصل الأول

ملامح الكاريكاتير السياسي
منذ ثورة عرابي وحتى ثورة يوليو
(١٨٨١ - ١٩٥٢)

كانت مصر دائمًا محطًا للأطماع الاستعمارية وخاصة من قبل الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية اللتين وجدا فيها آفاقًا استثمارية جديدة وطريقًا استراتيجيًا يمكنه أن يصل الهند بالغرب. حاولت الإمبراطوريتان استمالة والي مصر آنذاك محمد علي باشا* لتحقيق أغراضها التوسعية، إلا أن محاولاتها باءت بالفشل، فقد كان محمد علي أكثر إدراكًا لأطماع القوى الاستعمارية التي لا تشبع، كما أنه كان أكثر حرصًا على توجيه جهده وطاقاته لبناء مصر الحديثة والنهوض بها في مختلف المجالات سواء المدنية أو العسكرية. ولكن للأسف لم يسر أبناؤه وأحفاده على نفس منهجه ولم يكن لهم نفس بعد بصيرته للحيلولة دون وقوع مصر فريسة سهلة للتدخل الأجنبي.

وعرفت مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا** الصحافة الشعبية والرسوم الكاريكاتورية التي ظهرت لأول مرة على يد الفنان يعقوب صنوع على صفحات صحفه الهزلية، والتي عرفت بنقدها اللاذع لسياسات الخديوي إسماعيل ومن بعده الخديوي توفيق.

ومع قرب مغيب شمس القرن التاسع عشر أسدل الستار عن قصة كفاح ثورة عرابي العسكرية التي تحولت إلى ثورة قومية حينما أيقظت وجدان الشعب لينتفض ضد الظلم والاستبداد. وتلفحت مصر بالسواد لتسطر صفحات مؤسفة من تاريخ مصر القومي والعسكري بعد هزيمة العرابيين، لتقع تحت براثن الاحتلال البريطاني وليتجرع المصريون كؤوس الهوان والإذلال على يد محتليهم فاق أضعاف ما كانوا يتجرعونه قبل الثورة.

* ولد عام ١٧٦٩ وتوفي عام ١٨٤٩، تولى عرش مصر عام ١٨٠٥ وحتى ١٨٤٨م

** ولد عام ١٨٣٠ وتوفي عام ١٨٩٥، وتولى حكم مصر عام ١٨٦٣ وحتى عزله عام ١٨٧٩. وتولى من بعده الحكم ابنه توفيق حتى وفاته عام ١٨٩٢.

وبذلك دخلت مصر القرن العشرين وهي واقعة تحت الاحتلال البريطاني مثقلة بأعبائه ومساوئه من نهب للثروات وسيطرة على رأس المال وتدخل في شؤون الحكم. ونتيجة لذلك، شهدت مصر تصاعد في حركات المقاومة الشعبية والحركات الوطنية المناهضة للاحتلال والمطالبة بالاستقلال.

وشهدت مصر أهم ثورة على الإطلاق في تاريخها الحديث وهي ثورة ١٩١٩ والتي شارك فيها مختلف طوائف الشعب كرد فعل على نفي الإنجليز لسعد زغلول ورفاقه، إثر سعيهم لعرض مطالبهم في مؤتمر باريس للسلام.

واتسمت فترة العشرينيات والثلاثينيات بالتصعيد ضد الاحتلال الإنجليزي والحكومة والقصر. وشهدت هذه الفترة تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وإصدار دستور ١٩٢٣ ثم اندلاع المظاهرات ضد إلغاء الدستور وضد حكومة إسماعيل صدقي وضد دستوره الجديد واندلاع ثورة الطلبة مطالبين بإعادة الدستور وطرد الاستعمار، كما سيتم عرضه لاحقًا. أما فترة الأربعينيات فقد شهدت توترات على الصعيد الداخلي والدولي مع اقتراب انتهاء الحرب العالمية الثانية والتي أدت إلى حادثة ٤ فبراير الشهيرة التي كشفت عن مدى نفوذ وسيطرة الإمبراطورية البريطانية وعن مدى ضعف وهشاشة القصر. أما فترة الخمسينيات فقد أسدلت الستار عن ١٤٨ عامًا لحكم سلالة محمد علي إثر قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وإجبار الملك فاروق على التنازل عن العرش لابنه فؤاد والرحيل إلى منفاه ثم إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية في عام ١٩٥٣.

ومع أن معظم هذه الفترات اتسمت بفرض رقابة صارمة على الصحف والمجلات، إلا أن فترة الثلاثينيات شهدت ثراءً كبيرًا في حركة الرسوم الكاريكاتورية التي حرضت المواطنين ضد سياسة صدقي وحكومته وحزبه ودستوره الجديد، وصعدت ضد الأحزاب بعضها البعض. كما لعبت الرسوم الكاريكاتورية لاحقًا دورًا في التمهيد لثورة ٥٢ بشحن قوى الشعب ضد الاحتلال وضد فساد القصر

الثورة العرابية (١٨٨١- ١٨٨٢)

"لقد خلقنا الله أحرارا، ولم يخلقنا تراثا وعقارا. فوالله الذي لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم"

(أحمد عرابي يخاطب الخديوي توفيق في ٩ سبتمبر ١٨٨١) [١]

تعتبر الثورة العرابية من الأحداث الخطيرة التي غيرت بهزيمتها معالم وجه الخريطة السياسية والاقتصادية وأدت إلى إعادة تشكيل موازين القوى في المنطقة العربية بشكل عام وفي مصر بشكل خاص. لقد كانت ثورة ضد الظلم والاستبداد وضد التدخل الأوروبي السافر في شؤون مصر الداخلية وضد الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي كانت تمر بها البلاد.

ولابد من الرجوع بذاكرة التاريخ للوراء لرصد لمحات من تطور الأوضاع الداخلية في مصر للوقوف على أسباب اشتعال الثورة العرابية. فمع نهاية حكم محمد علي قام صراع بين الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية على مدى الاستفادة من مصر بتحويلها لطريق يصل الهند بالغرب. فكرت إنجلترا باحتكار خط سكة حديد يربط بين الإسكندرية والقاهرة بينما فكرت فرنسا في حفر قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر لتصبح طريقًا بحريًا عامًا في إمكانه فتح آفاق جديدة أمام جميع دول العالم. إلا أن محمد علي قد رفض هذه المشاريع تمامًا وسجل عنه قوله: "أنا لا أريد أن أجعل وادي النيل ممرًا دوليًا.. كما أني لا أرغب في إيجاد بوسفور آخر"[٢].

لم تفقد الإمبراطوريتان آمالها في تنفيذ مشاريعها الاستعمارية، فمع موت محمد علي استطاعت إنجلترا الالتفاف حول خليفته عباس الأول وإبرام عقد إنشاء خط حديدي يصل الإسكندرية بالقاهرة، أما حلم القناة فقدر له أن يتحقق على يد الخديوي سعيد ويظهر للنور على يد الخديوي إسماعيل، فقد افتتحت رسميًا في ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩[٣] لتصبح جزءًا حيويًا من المعالم الجغرافية ومنطقة صراع للتيارات السياسية في الشرق الأوسط، كما سنرى فيما بعد.

---

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافية في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافية، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٥٠.

(٢) حسن حافظ، "الثورة العرابية في الميزان"، كتب قومية، القاهرة، (--١٩)، ص: ١٤-١٥.

(٣) حسن حافظ، المرجع السابق.

لم تجلب قناة السويس فقط العديد من الصراعات السياسية للمنطقة وإنما كانت بمثابة نكبة اقتصادية ووبالًا شديدًا على مصر التي تحملت لوحدها معظم نفقات إنشاء القناة التي بلغت ١٨ مليون جنيه، لتسقط مصر في وحل من الديون يصل بها إلى بيع حصتها في شركة القناة لإنجلترا بثمن بخس عام ١٨٧٥، ليضيع إسماعيل بهذه الصفقة أي هيمنة لمصر على القناة ويفتح باب للتدخل في الشأن الداخلي من خلال إدارة إنجليزية للمراقبة المالية[1].

وأصبحت مصر مسرحًا لبيوت المال الأوروبية وخاصة الإنجليزية تبرم فيه العقود وتعقد فيه الصفقات ومجالًا لنفوذ السلطان عبد الحميد الثاني، الذي كانت تشهد فيه دولته العثمانية ضعفًا شديدًا وتدهورًا، والذي كان يطمع أن يجر مصر لتكون تحت عباءته بعد أن شملها محمد علي ببعض الاستقلال في ذلك الوقت.

اشتهر الخديوي إسماعيل في ذلك الوقت بشغفه وولعه بالحضارة الأوروبية إلى الحد أنه كان مغرمًا بتقليدها، فقد كان كل همه أن يجعل من مدينتي القاهرة والإسكندرية باريسًا أخرى أو لندنًا، ومع أنه سار على عهد جده (محمد علي) في إرسال الشباب الجاد لبعثات لإتمام دراسته في أوروبا، إلا إنه كان أكثر قربًا من قيادي وموظفي الدول الاستعمارية وأصدقائه من الأوروبيين منهم إلى الشعب المصري.

وشهد عصره ميلاد الصحافة الشعبية التي وجد فيها سمة من سمات الحضارة الأوروبية والتي يمكن الاعتماد عليها في الدفاع عن سياساته ضد السلطان العثماني مثلها في ذلك مثل الصحافة الرسمية التي كانت تحت سيطرته وتوجيهاته، بينما وجدت فيها القوى الوطنية وسيلة لتوصيل أصواتها إلى الأمة. وخان إسماعيل حدسه هذه المرة فقد انتصرت الصحافة الشعبية للأصوات الوطنية ووكبت على نقد سياساته. ففيما يبدو أن إسماعيل كان محاكيًا للغرب في الشكل الظاهري فقط وليس في الجوهر، فهو يمنح التراخيص لإصدار الصحف وفي نفس الوقت يقوم بتعطيل صحف أو إغلاقها لنشرها نقدًا أو أفكارًا لا تروق له.

وكان الفنان يعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) أول من دخل حلبة الصحافة الشعبية بسلسلة من صحفه الهزلية الفريدة التي بدأها بـ "أبو نظارة زرقاء" والتي كانت لونًا مختلفًا عن الموجود وقتها وذات طابع خاص، فقد حررها باللهجة العامية المصرية، كما

(١) عبد الرحمن الرافعي، "عصر إسماعيل"، دار المعارف، القاهرة، الجزء الأول. الطبعة الرابعة ١٩٨٧، ص. ١٠٥.

أدخل بعض اللهجات الأخرى كالتركية والشامية والإنجليزية والفرنسية والتي كان معتادًا أن تسمع في ذلك الوقت، واتسمت بالنقد اللاذع للخديوي إسماعيل وحاشيته ومن بعده الخديوي توفيق وحاشيته وللإنجليز وأطماعهم الاستعمارية، وحرضت ضد الظلم والاستبداد الذي كان يعانيه المصريون في ذلك الوقت من خلال المقالات والحكم والمواعظ والرسوم الكاريكاتورية التي كان بعضها أشبه بلوحات تشكيلية ساخرة، ليكون بذلك أول من أدخل فن الكاريكاتير إلى مصر.

ومن الجدير بالذكر أن اسم الصحيفة يشير إلى صنوع شخصيًا، فقد كان يعاني قصر نظر ويرتدي نظارة ذات عدسات سميكة زرقاء، وفي يوم بينما كان مشغول الذهن يبحث عن اسم لصحيفته، نادى عليه أحد الفلاحين قائلًا يا "أبا نظارة زرقا"[(١)]، فأعجبته العبارة وقرر أن يتخذها اسمًا لصحيفته، وتشير كثير من المراجع إلى صنوع كما أشار هو إلى نفسه بـ "أبي نظارة".

ولد صنوع وترعرع في مصر لأبوين* يهوديين، ووفقًا لمذكراته فقد وهبته أمه للإسلام فنشأ مسلمًا** وهو يتقن العديد من اللغات مثل الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والأسبانية والألمانية والعربية والتركية والروسية، وله العديد من التجارب المسرحية الساخرة، وكان يرى نفسه "مؤسس التياترات العربية في الديار المصرية[(٢)]"، ويعتبره عدد من المؤرخين زعيمًا للمسرح وأحد رواده بمصر.

عاش صنوع بقية حياته في باريس بعد أن تم مصادرة صحيفته "أبو نظارة زرقاء"، واتجهت أغلب المراجع إلى أن صنوع قد تم نفيه من قبل الخديوي إسماعيل، بينما تساءلت مراجع أخرى ما إن كانت باريس منفاه الاختياري أي برغبته أم أنها كانت رغمًا عنه، فمن الجائز أن صنوع قد ترك مصر لتضرره وسعى إلى مكان يتيح له قدرًا من الحرية. استكمل

(١) عفاف لطفي السيد مارزوت:
Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot. (1971, January). The Cartoon in Egypt. Comparative Studies in Society and History. 13(1), 2-15.

* يذكر أن أبيه كان ايطالي المولد.

** وفقا لما كتبه صنوع عن نفسه "اليهودي المسلم"، أنه كان وحيد أبويه لم يرزقا غيره من البنين، فقد مات قبله أربعة أطفال، كل طفل كان يموت بعد فترة قليلة من ولادته، وعندما حملت أمه به، نصحتها إحدى صديقاتها بأن تذهب إلى شيخ مسجد الشعراني ليحصنها هي وطفلها. وفعلا ذهبت إليه ترجوه أن يتوسل إلى الله أن يحفظ لها جنينها، فطمأنها الشيخ قائلا "ان ربنا سيبارك ثمرة أحشائك وسترزقين بولد"، وأكمل بقوله.."وإن نذرته للدفاع عن الإسلام فلسوف يعيش،" وبالفعل أصغت الأم لكلام الشيخ وأطاعته ووهبت ابنها للإسلام، ...ارجع إلى كتاب إبراهيم عبده "أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر" ص: ١٧-١٨.

(٢) إبراهيم عبده، "أبو نظارة: إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، ١٨٣٩-١٩١٢"، مكتبة الآداب بدرب الجماميز، الطبعة الأولى، ١٩٥٣، ص: ٩٩.

صنوع إصدار صحيفته من باريس تحت مسميات مختلفة نتيجة لمصادرة صحفه الواحدة تلو الأخرى، وكانت تصل لقرائه عن طريق تهريبها لتوزع داخل مصر.

والحقيقة أن حياة صنوع الشخصية والمهنية عرضة للتأويلات والتفسيرات، وسبب ذلك هو افتقاد الباحثين لأدلة موثقة للأحداث التي تناولها صنوع في كتاباته إلا ما كتبه صنوع بنفسه عن نفسه. وأيضًا لم تشر إليه أغلب الشخصيات المعروفة آنذاك والتي عاصرت وكتبت عن تلك الحقبة التاريخية والأدبية التي عاش فيها صنوع! فأنت في النهاية أمام سيرة ذاتية مرجعها الوحيد صاحبها! وبالتالي، لم تجد معظم الدراسات إلا والاعتماد على أقوال صنوع التي خصها في صحفه أو نقلها عنه أصدقاؤه!

وفيما يبدو أن حياة صنوع الشخصية كانت أقرب للرسوم الكاريكاتورية التي استخدمها من ناحية المبالغة والمغالاة، فقد اتسمت الكثير من كتاباته بالمبالغة_ خاصة عندما يتحدث عن شخصه_ والتي شابها كثير من لغرور والشطحات. فأحيانًا يضع نفسه في مصاف الأولياء الصالحين زاعمًا بأن له تنبؤ ت قد تحققت ومنها نبؤته بخلع الخديوي إسماعيل ليكني نفسه بـ "الشيخ أبا نظارة"، وأحيانًا أخرى يضع نفسه في منزلة الزعيم البطل الوطني الذي يتنقل من مكان إلى مكان ليلقي الخطب ويحشد الحشود حوله، إلى الزعم بأنه قائد الثورة المصرية (العرابية) ومحركها[١].

أصدر صنوع ثلاث صحف بلغات أجنبية وكان على رأسها صحيفة "Le Bavard Egyptien" أي (الثرثار المصري)، التي طبعت بـ ٨ لغات ولاقت رواجًا كبيرًا. كما أصدر صحيفة هزلية باللغة الفرنسية سماها La Moustique أي (البعوضة) ثم أنشأ صحيفة أخرى باللغة الايطالية سماها L'occhialino أي (النظارة)[٢].

مجمل ما أصدره صنوع من صحف بلغ ١٥ صحيفة، فمن "أبو نظارة زرقاء" إلى "رحلة أبي نظارة زرقا الولي" (صدرت في ٧ أغسطس ١٨٧٨)، وكان يوقع "بقلم جمس سانووا محرر جريدة أبي نظارة زرقه الباهية..والدة النظارات المصرية"، ثم "أبو نظارة زرقا" (صدرت في ٢١ مارس ١٨٧٩) وكان يوقع "مديرها ومحررها الاستاذ جمس سانووا المصري مؤسس التياترات العربية في الديار المصرية"،ثم "النظارات المصرية" (صدرت في ١٦ سبتمبر ١٨٧٩)، إلى "أبو صفارة" (صدرت في ٤ يونيو ١٨٨٠ ولم ينشر منها إلا ثلاثة أعداد فقط)، إلى "أبو زمارة" التي كانت صورة طبق الأصل من "أبو صفارة"، إلى

(١) إبراهيم عبده، المرجع السابق، ص: ٦٢.
(٢) إبراهيم عبده، المرجع السابق، ص: ٤٠.

"الحاوي" (صدرت في ٥ فبراير ١٨٨١)[١]، والتي كتب تعريفًا لها قائلًا: "الحاوي الكاوي اللي يطلع من البحر الداوي عجايب النكت للكسلان والغاوي ويرمي الغشاش في الجب الهاوي". ثم منذ شهر إبريل عام ١٨٨١ حتى وقف صدور صحفه لمرضه عام ١٩١٠، صدرت "أبو نظارة" (١٣ يناير ١٨٨٢)، و"أبو نظارة زرقا" (١٧ إبريل ١٨٨٢)، و"أبو نضاره" وهي أسماء ثلاثة لصحيفة واحدة، غلب عليها الاسم الأخير، الذي عاشت عليه الصحيفة أكثر من عشرين عامًا[٢]، و"الوطني المصري" مصر للمصريين (٢٩ سبتمبر ١٨٨٣)، و"أبو نظاره زرقاء" (١٩ يناير ١٨٨٤).

ويبدو أن تأثر صنوع بالمسرح كان له وقعه في تنوع أفكار الرسوم الكاريكاتورية ومضمون التعليقات المصاحبة لها والتي كان أغلبها عباره عن حوارات (كثيرًا ما تكون في شكل زجل) بين شخصين أو أكثر وكأنها تياترات كاريكاتورية. فعندما تتصفح أحد صحف صنوع تجد وكأنك أمام مشاهد لمسرحية هزلية، لعبت فيها الرسوم حينًا شخصيات حية على خشبة المسرح وفي حين آخر كلوحات تشكيلية تعمل كافتتاحية فصل أو مشهد من المسرحية. ومن أهم شخصيات صنوع "شيخ الحارة" (رمزًا للخديوي إسماعيل)، و"كريم حليم" (الأمير حليم ابن محمد علي)، و"الحدق" (هو شخصيًا)، و"أبو الغلب" (الفلاح). وكان يسخر من نوبار رئيس الوزراء فيلقبه بـ "غبار" ويسخر من مجلس النواب فيسميه "جمعية الطراطير".

وليس معروفًا بشكل مؤكد حتى الآن من هو رسام صحف أبي نظارة، فقد ظهرت الرسوم خالية من أية توقيع، كما لم ينسب صنوع إلى نفسه رسمها، ولكن كان جليًا أنها من وحي أفكاره لتماشيها بشدة مع ملامح ما يكتبه! ويعتقد المؤرخ إبراهيم عبده بأن صنوع كان له رسامًا يقوم برسم الصور والأشكال وكان له مساعد يكتب له صحيفته التي تطبع على الحجر[٣]، مع الأخذ في الاعتبار أنه قد أشيع بأن أغلب ما كتبه صنوع في صحيفته كان بخط يديه، ولم يكن خطًا جميلًا أو سهل القراءة في أحيان كثيرة.

كان صنوع ينتقد سياسات إسماعيل التي ورطت مصر في سلسلة من القروض والديون لا طائل لها بها. ظهر الخديوي في إحدى الرسوم وقد أجبر على السجود أمام ملك بيوت المال روتشيلد متوسلًا أن يمنحه قرض، في الوقت الذي يتفاوض فيه أصحاب

---

(١) أحمد المغازي. "الصحافة الفنية في مصر: نشأتها وتطورها من الحملة الفرنسة ١٧٩٨ إلى مصر الدستورية ١٩٢٤"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨، ص: ٥٩-٦٠

(٢) إبراهيم عبده، "أبو نظارة: امام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، ١٨٣٩-١٩١٢"، مكتبة الأداب بدرب الجماميز، الطبعة الأولى، ١٩٥٣.

(٣) إبراهيم عبده، المرجع السابق، ص: ٨٣.

المصارف مع روتشيلد لإقناعه بمنح الخديوي القرض، في إشارة إلى سياسة إسماعيل الفاشلة التي أوقعت مصر تحت عباءة بيوت المال لآل روتشيلد التي سبق وأن قدمت تمويلًا لبريطانيا لشراء أسهم قناة السويس من الحكومة المصرية عام ١٨٧٥، كما أرسلت مندوبيها للتشجيع على الاقتراض منها للقيام بمشروعات تخدم مصالحها بالدرجة الأولى.



شكل ٤: الخديوي إسماعيل وملك بيوت المال روتشيلد!

"البنكرية يجبروا إسماعيل بأن يسجد امام روتشيلد ملك الكنوز – وويلسون يترجاه يأمر بسلفة ملايين لمصر ويقدم له الضمانة اللازمة"

(بول دي بينير، ١٨٨٦)[١]

وظهر إسماعيل في كاريكاتير في صحيفة "أبو نظارة" بباريس (٢٢ أكتوبر ١٨٧٨) بدينًا بشكل ملحوظ في مقارنة مع فلاح مصري نحيل جدًا، ويظهر التعليق المصاحب للكاريكتير يقول: "الفلاحين يلعنوا إسماعيل اللي ضجهم بظلمه وجوره في عدم وندم"[٢]، في إشارة إلى أنه في الوقت الذي يزداد فيه إسماعيل سمنة يزداد فيه الفلاح المصري نحافة. وظهر أيضًا إسماعيل في كاريكاتير آخر وهو يبيع صحيفة "الأهرام"[٣] في إشارة إلى أهرامات الجيزة التي يكاد لم يتبق غيرها ليبيعها ليصرف على حبه للمظاهر.

---

(١) بول دي بينير:
Paul de Baignières. (1886). L'Égypte satirique : album d'Abou Naddara, illustré de 48 pages de gravures. Paris: Lefebvre. p. 4..

(٢) بول دي بينير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ٥٦، ٧٥.

(٣) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، انترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٣١.

وفي كاريكاتير آخر، يظهر إسماعيل وهو يرقص طربًا وبإحدى يديه دف وعلى جانبيه راقصات.



شكل ٥: الخديوي يرقص!

قولوا على أبو نظاره : صبح مسلفر يا اخواني * في مصرنا كان نواره . يعيش ويرجع بالتاني
قولوا على شيخ الحارة : صبح مشقرق يا اخواني * راح في داهيه ابو نظاره . ماعنه يرجع بالتاني.

(بول دي بينير، ١٨٨٦ [١])

ومن الجدير بالذكر أن بعض مجموعة الرسوم التي ضمها الكاتب الفرنسي Paul de Baignières [٢] في كتابه عن أعمال صنوع مختلفة عن تلك التي نشرت بالفعل في صحف صنوع من حيث الرسم وان احتفظت بالمعنى! فالكاريتير السابق على سبيل المثال قد عرضه بول من ضمن مجموعتة في كتابه، في حين نجده يختلف عن الكاريكاتير الذي نشر بالفعل في " رحلة أبي نظارة زرقا الولي" (انظر الكاريكاتير التالي) والذي تناول نفس الفكرة بتصويره مثلا الخديوي وهو يرقص!

---

(١) بول دي بينيير:
Paul de Baignières. (1886). L'Egypte satirique : album d'Abou Naddara, illustré de 48 pages de gravures. Paris: Lefebvre. P.2..

(٢) بول دي بينيير:
Paul de Baignières. (1886). L'Egypte satirique : album d'Abou Naddara, illustré de 48 pages de gravures. Paris: Lefebvre.





شكل ٦: الخديوي يرقص ٢!

(رحلة أبي نظارة زرقا الولي، ٨ سبتمبر ١٨٧٨[١])

وكثيرًا ما يصور إسماعيل وله جناحين خلف ظهره، لعلها إشارة لقدرته على الطيران والانفلات والهروب بعيدًا بأعماله.



شكل ٧: الخديوي إسماعيل!

"شيخ الحارة: يا موسيو ويامستر ويا سنيور وي جندي..ما تتعبوش وتبنوا علي حيطان..لان أعطاني أجنحة الشيطان..بهم أطير..وبهم أطيَر"

(أبو نظارة زرقا، ١٦ مارس ١٨٧٩[٢])

---

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "رحلة أبي نظارة زرقا الولي"، ٨ سبتمبر ١٨٧٨، العدد الخامس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ١٧.

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "أبو نظارة زرقا" ١٦ مارس ١٨٧٨، العدد التاسع، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٣٣.

سجل صنوع في العدد الأول من "رحلة أبي نظارة زرقا الولي" حوار شيق بين شيخ الحارة (الخديوي إسماعيل) وأبي نظارة وأبي الغلب (الفلاح). ظهر صنوع وهو يرتدي نظارته المميزة وقبعته كأحد أعيان فرنسا ويلوح بعصا، بينما شيخ الحارة ساجد يطلب الصفح من أبي نظارة وأن يشفق عليه من صحيفته ونقدها اللاذع، أما أبو الغلب فيقف شامخًا ينصح أبي نظارة بأن لا تأخذه شفقة ولا رحمة بشيخ الحارة (انظر الشكل التالي).



شكل ٨: شيخ الحارة وأبو نظارة وأبو الغلب!

رحلة أبي نظارة زرقا الولي من مصر القاهرة * إلى باريز الفاخره* بقلم جمس ساندرا محرر جريدة ابي نظارة زرقة ...والدة النظارات المصرية* * * * *

"شيخ الحارة — التوبه من دالنوبه أشفق يابو نظاره. على عمك شيخ الحاره. جريدتك ضربها قاسي أخاف منها على راسي. دي حطت في قلبي الرعبه. بأقوالها المخفية الصعبة. إذا رفعت عني الجريدة. أرجع لطرايقي الحميدة.

أبو نظارة — أنت عمرك ما تتوب . ولو رجموك بالطوب . ده إنت أمرك عند الجميع معلوم . بقى كيف أشفق عليك يا مشوم . والله ما أرحمك يا مطعم الناس للسمك . يا خبيث يا مسموم الريق . يا قاتل الأمير الصديق.

أبو الغلب الفلاح — ما تشفجش يابو نظارة . الشفجة في الغارده خسارة. ده جتلنا من الظلم والجور ونازل علينا زي ما ينزل السواج عالتور . جبر يلمه . ويعتقنا من ظلمه".

(رحلة أبي نظارة زرقا الولي — العدد الأول ٧ أغسطس ١٨٧٨ [١])

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "رحلة أبي نظارة زرقا الولي"، ٧ أغسطس ١٨٧٨، العدد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ١.

وتخبط حكم الخديوي إسماعيل من جراء أزمة الديون التي لاحقته، ورأت إنجلترا أن الطريق أصبح ممهدًا لها لاحتلال مصر بمجرد إشهار إفلاسها، إلا أن زعماء الوطنية وعلى رأسهم محمد شريف باشا قد قفلوا عليها الطريق بتقديمهم لائحة وطنية إلى الخديوي لإنقاذ مصر من ورطة الديون والتصدي للتدخل الأجنبي. كانت اللائحة تضم بندين وهما: "تسوية الديون الأجنبية على أساس أن الإيرادات تكفي المصروفات والوفاء بحقوق الأجانب...وتعديل النظام البرلماني وتخويل مجلس شورى النواب السلطات المعمول بها في البرلمانات الحديثة، وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية بحيث تكون الحكومة مسؤولة أمام المجلس النيابي – وليس أمام الخديو"[1]. ووافق الخديوي على اللائحة التي رآها منقذة له ولبلاده بعد أن لاح في الأفق تخلي أصحابه من الأوروبيين عنه وتزايد الأطماع الاستعمارية حول مصر. وبالفعل وفي ٧ إبريل ١٨٧٩ كلف الخديوي شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة وفقًا للمبادئ التي تضمنتها اللائحة الوطنية[2].

لم تعجب الدول الأوروبية بسياسة الخديوي الجديدة في إدارة الأزمة وارتمائه في أحضان شعبه وخشيت من تلك الروح الوطنية التي أبدت استعدادها في تسوية أزمة الديون والوقوف خلف الخديوي ومساندته. وبالتالي خططت إنجلترا لخلع الخديوي قبل أن تنجح المساعي الوطنية في احتواء الأزمة، وأرسل وكلاء الدول الأوروبية لإسماعيل احتجاجهم على اللائحة ويهددونه بالخلع والعزل إن أصر على موقفه منها. ولم يجد إسماعيل مساندة من السلطان العثماني الذي رضخ لمطالب الدول الأوروبية. وبالفعل وفي ٢٦ يونيو ١٨٧٩ صدر الأمر السلطاني بعزل إسماعيل وتعيين ابنه محمد توفيق باشا في منصب الخديوية، ليستقل إسماعيل يخت "المحروسة" ويبحر على متنها إلى نابولي حيث منفاه بعد أن حرمه السلطان لسنوات من أن تطأ قدمه أي أرض تابعة للسلطنة. وليتجاهله أصدقاؤه بالأمس الذين كان يغدق عليهم بالسهرات والعطاءات بعد تبدل حاله من حال إلى حال[3].

لم يرحم صنوع الخديوي المخلوع في منفاه من انتقاداته اللاذعة، فقد تصدر غلاف صحيفته "النظارات المصرية" في عددها ١ ابريل ١٨٨٠ كاريكاتير وفيه إسماعيل راكعًا،

(١) جمال بدوي، "محمد علي وأولاده: بناة مصر الحديثة"، مكتبة الأسرة: مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٩، ص: ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) جمال بدوي، المرجع السابق، ص: ٢٥٣-٢٥٧.

(٣) جمال بدوي، المرجع السابق، ص: ٢٥٣-٢٥٧.

وخلفه اثنان من حريمه منتقبات ومجموعة من الحقائب، يترجى مسؤول فرنسي (الذي لا يبدي أي تعاطفًا) بالسماح له بالبقاء في باريس، ويبدو في الرسم أيضًا أبو نظارة [صنوع] هو الآخر يترجى المسؤول بالموافقة على بقاء إسماعيل.

ووعي توفيق الدرس وما حل بأبيه جيدًا وكان جليًا له بأن رضى الإنجليز هو الضمان الوحيد للاحتفاظ بعرشه، فغالى في استرضائهم اتقاءً لشرهم. وفي ظل هذه الظروف يمكننا أن نتخيل مدى معاناة المواطن المصري الذي لم يجد من الظروف المعيشية إلا أدناها وأكثرها مشقة ومذلة والذي تم التميز ضده لصالح المستوطن الإنجليزي والشركسي والتركي وغيرهم وفي كل مجالات الحياة التي خلت من الحرية والمساواة والضمانات القانونية التي تكفل للناس حقوقهم.

وقد أصاب أيضًا الضباط الوطنيين لعنة التمييز ضدهم لصالح غير المصريين بصفة عامة والشركسيين والأتراك بصفة خاصة وعانوا من سوء معاملة رؤسائهم الذين كانوا يتعصبون لبني جنسهم ويؤثرونهم في الترقيات والتعيينات، وقد زاد الأمر سوءًا في ولاية عثمان رفقي لوزارة الحربية في عهد وزارة مصطفى رياض باشا والتي كانت بمثابة الشرارة التي أوقدت الثورة[١].

في ١٧ يناير عام ١٨٨١، قدم الأميرالاي أحمد عرابي وصاحباه الأميرالاي علي فهمي قائد الحرس الخديوي والأميرالاي عبد العال حلمي قائد طرة عريضة لرئيس الوزراء يطالبون فيها بعزل عثمان رفقي وإسناد منصبه إلى وزير وطني، وبدلا من فحص هذه الشكوى تقرر اعتقالهم وتقديمهم إلى مجلس عسكري لمحاكمتهم، وبالفعل تم اعتقالهم، فثار ضباط الجيش ونظموا كتائب سارت إلى قصر النيل حيث أطلقت سراحهم ثم واصلت طريقها إلى عابدين حيث طالبت بإقالة رفقي[٢].

كان تمرد الضباط واحتشادهم يعد إنذارا للخديوي وحاشيته ومدعاة للقلق، فلم يرى الخديوى بدًا إلا النزول عن كبريائه والإذعان لمطالب الجنود، وبالفعل استقال عثمان باشا رفقي وأصدر الخديوي أمره بإسناد وزارة الحربية إلى محمود سامي باشا البارودي، أحد زعماء الثورة وعضو الحزب الوطني ووزير الأوقاف وقتها والصديق المقرب للضباط، ومن

(١) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ١٦.
(٢) حسن حافظ، المرجع السابق، ص: ٣٠.

أعلام شعراء القرن التاسع عشر في العالم العربي الذي كان يطلق عليه "رب السيف والقلم"، الذي كانت قيثارته الشعرية تعبر عن معاناة الأمة وآلامها من ظلم وقهر، نستعرض منها[1]:

ومَا مِصْرُ عُمْرَ الدّهْرِ إلا غَنِيمَـــــةً	لِمَنْ حَلَّ مَغْنَاهَا وَنَهْبٌ مُقَسَّمُ
تَدَاوَلَهَـــــا المُـــلاَّكُ مِنْ كُلِّ أُمَّـــةٍ	وَنالَ بها حظًا فصيحٌ وَ أعجمُ
فَمَا أَهْلُهَا إلاَّ عَبِيدٌ لِمَنْ سَطَـــــــا	وَلاَ رَبْعُهَا إلاَّ لِمَنْ شَاءَ مَغْنَمُ

وبالفعل سعى البارودي في وضع خطط إصلاحية لتحسين وضع الجيش، ونتيجة لمساعيه صدر مرسومان يقضيان بزيادة رواتب الضباط والجنود وببحث القوانين والنظم العسكرية المعمول بها من خلال تأليف لجنة برئاسة كل من وزير الحربية والبحرية[2]، بما يمثل إضافة أخرى إيجابية لمساعي عرابي الوطنية.

وكان لواقعة قصر النيل أثرها الكبير في لتحول الذي حدث لثورة عرابي من كونها ثورة عسكرية إلى ثورة قومية تتكلم بلسان حال الشعب وتعبر عن معاناته، فقد أعلت من شأن عرابي فأصبح يشغل مكانة كبيرة في صدور المصريين لشجاعته في الوقوف ضد الخديوي ولمناصرته الضباط الوطنيين، مما جعله زعيمًا قوميًا اتجهت نحوه الأنظار آملة أن يحقق مآربها هي الأخرى على النطاق الشعبي ويعبر عن آلامها.

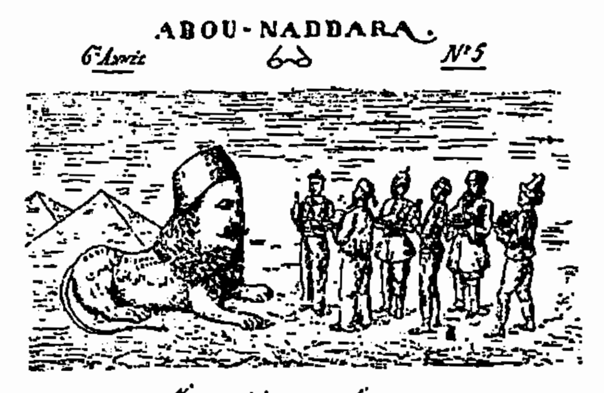
كان للحزب الوطني في ذلك الوقت دور كبير في الترويج للثورة العرابية، وقد تأسس من مجموعة من الناقمين من سياسة رياض باشا والمتذمرين من تغلغل النفوذ الأوروبي في الحكومة، والذين نشروا أول بيان سياسي لهم في ٤ نوفمبر من عام ١٨٧٩، مطالبين بتقليل الامتيازات للإنجليز وتنظيم عملية تسديد الديون والفائدة وإقامة إدارة مراقبة وطنية خاصة يكون من ضمنها ثلاثة من الأجانب[3]. وكان معظم رجال الحزب الوطني من مفكري مصر الذين تولوا مهمة التوجيه في هذه المرحلة الحرجة والذين كان

(١) الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، "البارودي: حياته وشعره"، قدم له وأعده للنشر الدكتور محمد مصطفى هدارة، يصدر بمناسبة توزيع جوائز المؤسسة في دورتها الثالثة، دورة محمود سامي البارودي، أكتوبر ١٩٩٢، ص: ٦٤.

(٢)عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، المرجع السابق، ص: ٤٣.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، ، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، المرجع السابق، ص: ٢٣-٢٤.

على رأسهم عرابي ومحمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم[(١)]. وفي كاريكاتير في صحيفة "أبو نظارة"، تم تصوير الحزب الوطني المصري على هيئة أبو الهول، جسد أسد ورأس الزعيم أحمد عرابي.



شكل ٩: الحزب الوطني!

"لما راؤنا الجماعة دخلنا عصر جديد – وحزبنا الوطني أصبح أسد شديد – بطلو الزعيق والتهديد – وظنوا أن التملين ومسح الجوخ مفيد – ربنا كريم حليم الفرج ماهو ش بعيد".

(أبو نظاره، ١٦ مارس ١٨٧٨[(٢)])

ومن الشخصيات البارزة وقتها عبد الله النديم الذي اشتهر بكونه خطيب الثورة العرابية، وهو أول من أطلق شعار "مصر للمصريين"، وأصدر صحيفته اللاذعة "التنكيت والتبكيت" في ٦ يونيو ١٨٨١ التي ملأها بالشخصيات المصرية الفكاهية مثل "المعلم حنفي" و"لطيفة" و"الشيخ مرعي" و"الفلاح" و"العطار" و"التاجر الحمار". كما أصدر صحيفة "اللطائف" التي كان لها دور كبير في حشد الناس لمؤازرة عرابي والتي أصبحت صحيفة الثورة الأولى في السنة التي عاشتها (سبتمبر ١٨٨١ إلى موقعة التل الكبير في

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافية في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافية، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٨٤.

(٢) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)،"أبو نظارة" ، ٤ مارس ١٨٨٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص١٧.

١٣ سبتمبر ١٨٨٢) وأخيرًا "الأستاذ" (١٨٩٢) التي أصدرها بعد الاحتلال وكان يدعو فيها للإصلاح الاجتماعي وينتقد فيها دور جامع الأزهر في ذلك الوقت[(١)].

ومن الشخصيات أيضًا التي أثرت في الحياة الفكرية في مصر ما قبل الثورة جمال الدين الأفغاني والذي كان في المنفى وقت الثورة، والذي كانت لأفكاره قبل المنفى دورًا في إشعال لهيب الثورة العرابية. وبعد هزيمة الثورة، سمح للأفغاني بالسفر إلى أوروبا عام ١٨٨٣، حيث تقابل في باريس مع تلميذه الإمام محمد عبده الذي كان منفيًا هو الآخر واشتركا في إصدار وتحرير صحيفة "العروة الوثقى" التي أصبح لها صدى واسع وكانت تنادي بمقاومة الاستعمار والإصلاح، كما شارك أيضًا من باريس الأديب والصحفي أديب إسحق في تحرير صحيفة "مصر" وصحيفة "مصر الفتاة" و"مصر القاهرة"[(٢)].

وفي ٩ سبتمبر ١٨٨١، قاد عرابي مظاهرة عسكرية أمام سراي عابدين للضغط على الخديوي توفيق لتنفيذ مطالب وطنية والتي كان على رأسها إقالة وزارة مصطفى رياض باشا وتأليف المجلس النيابي وزيادة عدد الجيش[(٣)]. ولقد كللت هذه المظاهرة بالنجاح ونالت مباركة ومشاركة لوفود من الأقاليم والعلماء والأعيان وزعماء البدو الذين آزروا عرابي وساندوه. ولم يرى الخديوي بدًا إلا بتنفيذ هذه المطالب تدريجيًا فأقال رياض وعهد الوزارة إلى محمد شريف باشا في ١٤ سبتمبر ١٨٨١، وهكذا حققت الثورة انتصارًا تلو الآخر في مسار الإصلاح.

وقد كان شريف باشا أكبر مكسب للثورة، حيث عرف عنه وطنيته الشديدة ويعد مؤسس النظام الدستوري في مصر، ففي فترة وزارته للداخلية عام ١٨٦٦، تم إنشاء مجلس شورى النواب، وفي فترة رئاسته للوزارة عام ١٨٧٩، تم إقرار سلطة المجلس بمبدأ المسؤولية الوزارية أمامه، وفي فترة وزارته الثالثة ١٨٨١، تم إنشاء مجلس النواب على غرار المجالس النيابية الحديثة[(٤)].

(١) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، انترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٤٨.
(٢) الدكتور عبداللطيف أحمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، --١٩، ص: ٤٤.
(٣) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ٥٥.
(٤) عبد الرحمن الرافعي، "عصر إسماعيل"، دار المعارف، القاهرة، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص:٢٣٣.

ونشر صنوع في "الحاوي" (٥ فبراير ١٨٨١) كاريكاتيرًا يصور فيه تمرد الضباط بقيادة عرابي وضغطهم على الخديوي لتلبية طلباتهم. الكاريكاتير نشر تحت عنوان: "ثورة الظابطان"، ويصحبه تعليق ساخر يلخص القصة: "أفلطون باشا قلعوا عينه وضربوه..واستون باشا نزعوا ثيابه وكركبوه..فخاف توفيق ورياض من قطع الروس..فتحاموا بالتروس..ورفدوا عثمان..وراضوا خاطر الظابطان"[١].

وقد سبق وأشرنا بأن صنوع قد حرر صحفه باللهجة العامية المصرية، وكان يدخل عليها بعض اللهجات الأخرى إذا تطلب الحوار الذي يؤلفه ذلك، وهي اللهجات التي كان معتادًا أن تسمع في ذلك الوقت. إلا أن عامية صنوع لم تكن تخلو في كثير من الأحيان من عبارات بذيئة ومبتذلة يعف اللسان عن ترديدها والتي يصل بعضها إلى الحد الذي لا يصلح معها إعادة النشر لتدني الألفاظ بها، والتي استخدمها صنوع في مهاجمة خصومه من أول الخديوي لكبار موظفي الدولة. ويقدم سيد علي إسماعيل، أستاذ الأدب الحديث بكلية دار العلوم بجامعة المنيا، مثالًا على هذا النوع من الألفاظ ما أورده صنوع في مشهد تخيلي (صحيفة "أبو زمارة" في ١٧ يوليو ١٨٨٠) يجمع بين الخديوي توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا والوزير مصطفى فهمي باشا، حيث قال: "..ويعتوا ندهوا الواد مصطفى (أي مصطفى فهمي باشا) وبالأقلام ورموا له الخد والقفد وقالوا له: شابرق شابرق أحجز جريدة الصفارة ولا نحطك على خازوق. فارتعش فهمي وخرى في لباسه"[٢].

وكان صنوع يبدي تعاطفًا ملحوظًا في الرسوم التي ينشرها تجاه الأمير حليم، آخر أبناء محمد علي، والذي كان يرى بأحقيته في العرش من إسماعيل، وكان يتطلع لخلع إسماعيل ليحل حليم مكانه، ولكن خابت أمانيه في النهاية مع تولي توفيق العرش خلفًا لوالده. ففي إحدى الرسوم المروجة لحليم لاعتلاء عرش مصر، يظهر حيدر باشا (وزير المالية في وزارة شريف) وشريف باشا يحاولان الإطاحة برياض من أعلى قمة هرم، ليسقط رياض، وفي سقوطه يسقط معه توفيق، في الوقت الذي يقوم الشعب في الجانب الآخر من الهرم بمساعدة الأمير حليم في الصعود والوصول للقمة[٣]. وفي كاريكاتير آخر، الشعب

---

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "الحاوي"، ٥ فبراير ١٨٨١، العدد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص:١٣٠.

(٢) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ٥١.

(٣) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "الحاوي"، ٥ فبراير ١٨٨١، العدد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص:١٢٦.

المصري يهدي العرش لحليم بعد خلع الخديوي إسماعيل [1]. نلاحظ أن صنوع قد زج بالشعب في الرسمتين ليوحي بأن اعتلاء حليم للعرش هو مطلب شعبي.

ولعل هذه الرسوم هي ما دفعت سيد علي إسماعيل [2] إلى الاعتقاد بأن مهاجمة صنوع للخديوي لم تكن بريئة وبدافع الوطنية والوقوف في وجه حاكم ظالم كما يزعم وإنما قد تكون بتجنيد من الأمير عبد الحليم شخصيًا لمساندته والدفاع عن أحقيته لتولي حكم مصر، الحق الذي سلب منه بفرمان عام ١٨٦٦ الذي غير نظام الوراثة في الحكم في مصر من أكبر أبناء أسرة محمد علي إلى أكبر أبناء الوالي.

وفي كاريكاتير آخر يظهر توفيق يقف منتظرًا غلامًا له "يحلب" له بقرة (مصر) ذات رأس انسان وتقف في منطقة جدباء، في الوقت الذي ينهره "أبو الحلم" (الأمير حليم) قائلًا: "ارحم على البقرة..أبوك مصها ولا خلى فيها نقطة لبن..وحش البرسيم اللي قدامها..انت ايه!..مفيش في قلبك شفقة.. ما أذرط من الوحل إلا الطين".



شكل ١٠: البقرة الحلوب!!
(أبو نظارة زرقا، ٢١ يناير ١٨٧٩ [3])

(١) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ١٠٠.
(٢) بول دي بينيير، المرجع السابق، ص: ٦٤.
(٣) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "أبو نظارة زرقا"، ٢١ يناير ١٨٧٩، العدد الرابع، السنة السادسة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ١٣.

وعندما اشتد النقد وعلا صوت المعارضة تم تضييق الخناق على الصحف سواء التي تنشر في مصر أو التي تأتي من الخارج، فتم مصادرة بعض الصحف وتعطيل البعض الآخر. وتم إصدار قانون المطبوعات في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ كأول تشريع للصحافة في مصر يحدد واجباتها وحقوقها وأيضًا يضع العقبات أمام تدفق الصحف ويعطي الحكومة نفوذًا وسيطرة على أرباب المطابع[١].

وقد أيدت أغلب الصحف الثورة العرابية خاصة في أولى مراحلها، وتحت مظلة حكومة الثورة، تم تشجيع ظهور صحف جديدة موالية للثورة والتي أطلق عليها عرابي "لسان الأمة"، مثل صحيفة "اللطائف" للنديم و"المفيد" ثم "السفير" ثم "النجاح" لحسن الشمسي و"الفسطاط" لعبد الغني المدني، في حين ضغطت حكومة الثورة على الصحف الموالية للخديوي فاضطرت صحيفة مثل "البرهان" أن تعزل الشيخ حمزة فتح الله من تحريرها حتى لا يتم تعطيلها وحتى لا تتعرض للبطش. وتوقعت الصحف الموالية للثورة أن تقوم حكومة الثورة بإلغاء قانون المطبوعات وتشكيل لجنة للنظر في قانون جديد، ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، فقد كثرت الأوامر والإنذارات وقرارات التعطيل بحجة عدم تحري الدقة، ففيما يبدو أن حكومة الثورة وجدت نفسها مسلحة بسلاح خطير ومؤثر وطوع أمرها ورأت أن تستخدمه وتروضه لصالحها[٢].

حقق شريف الكثير من الإصلاحات في مدة زمنية وجيزة شملت الدستور وإنشاء المحاكم الأهلية وإجراء انتخابات عامة نزيهة (نوفمبر ١٨٨١) أسفرت عن مجلس شورى النواب[٣]. كان أول ما كان يتطلع إليه شريف هو إعادة النظام للجيش، فثورة عرابي بوصفها ثورة عسكرية كادت من وجهة نظره أن تخرج الجيش عن مهامه الأصلية وهي حفظ النظام، فما أن تقلد شريف رئاسة الوزارة حتى نبه زعماء الثورة من الضباط وعلى رأسهم عرابي بضرورة إبعاد الجيش عن السياسة بقوله: "في علمكم ما قاله الأقدمون: آفة الرئاسة ضعف السياسة، ولا حكومة إلا بقوة، ولا قوة إلا بانقياد الجيش انقيادًا تامًا، وامتثالهم امتثالًا مطلقًا"[٤]. وما لبث وأن نشب الخلاف بين العرابيين وشريف انتهت

(١) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، إنترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٥٤.

(٢) الدكتور سامي عزيز، "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٥٣-٥٤.

(٣) الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافة في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، ١٩٦١. ص: ٥٨.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، "عصر إسماعيل"، دار المعارف، القاهرة، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص: ٢٣٦.

بإسقاط وزارته في ٤ فبراير ١٨٨٢، لتكون بمثابة نقطة تحول في مسار الثورة العرابية التي بدأ يصيبها بعض التخبط والإخفاقات.

استقبلت بريطانيا وفرنسا ذاتا النفوذ الأكبر في مصر التطورات على الساحة الداخلية بعدم ارتياح ورأتا في اتساع الفجوة ومساحة الخلاف بين الخديوي ووزارة البارودي (التي حلت محل وزارة شريف) ما يشكل ثورة تهدد مصالحهما وتستدعي تدخلهما، وبالتالي أرسلتا ست بوارج إلى مياه الإسكندرية في ١٩ مايو ١٨٨٢، وقدمتا إنذارًا شديد اللهجة للحكومة المصرية يتضمن طلبات على رأسها استقالة الوزارة وخروج عرابي من القطر المصري. قوبل إنذارهما بالرفض من قبل مجلس النظار (الوزراء)، في حين وافق عليه توفيق[١].

تم انعقاد مؤتمر الآستانة في ٢٣ يونيو ١٨٨٢ بحضور ممثلي الدول الست العظمى (بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإيطاليا والنمسا) وفي غياب للسلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض تدخل الدول ومناقشتها المسألة المصرية. وتم إقرار في أولى فعاليات المؤتمر إعلان "ميثاق النزاهة" (Self-Denying Protocol) ونصه: "تتعهد الحكومات الممثلة في هذا المؤتمر بأنها فيما ستتخذه من قرارات بشأن المسألة المصرية لا تريد أن تأخذ لنفسها أو لرعاياها أي امتياز إقليمي أو تجاري في مصر يكون خاصًا بها ولا يكون للدول الأخرى الحق في الحصول عليه!"[٢].

واجتمع المؤتمر مرة ثانية في ١٥ يوليو ١٨٨٢ بعد ضرب الإسكندرية بمشاركة السلطان الذي أمام إلحاح بريطانيا عزم على إرسال جنود إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها، وأصدر إعلان عصيان عرابي والذي نشر في الآستانة، والذي تسبب في انخفاض الروح المعنوية لبعض أفراد الجيش والشعب الذين رأوا في هذا الإعلان خروج عرابي على الخليفة، وليس كما يدعي مدافعًا عن حقوق الخليفة[٣].

وقد انتقد صنوع سياسة إنجلترا الاستعمارية تجاه مصر في كاريكاتير نشر عام ١٨٨٤، وفيه ممثلو الدول العظمى يبحثن في الشأن المصري، في الوقت الذي يصيح فيهم اللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا (يرتدي زي البحارة) قائلًا: "اسكتوا يا

(١) عادل أحمد سركيس المحامي، "الخيانة هزمت عرابي"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ١٩.

(٢) حسن حافظ، "الثورة العرابية في الميزان"، كتب قوميه، القاهرة، (--١٩)، ص: ٥٦.

(٣) حسن حافظ، المرجع السابق، ص: ١٠٥.

خواجات..الحكومة الإنكليزية هي هنا في بلادها فلا ينبغي أن تتكلموا بخصوص المسألة المصرية إلا في الأشياء التي تعجبها هي وتخلصها". يرد سفير ألمانيا قائلًا: "أي وقاحة". وسفير النمسا: "أما...". وسفير الوسيا: "مع كل ذلك". وسفير فرنسا: "طيب..لما نشوف". ليستطرد جرانفيل قائلًا: "بقى لما باقول لكم اسكتوا وانتم قاعدين تتكلموا..اخرجوا من هنا يا عالم زفت". يرد سفير ألمانيا وباقي السفراء وهم [قايمين] "ادحنا مروحين يا عم..إنها نتتظرك في برلين وهناك نسمعك وسخ أودانك. اعلم يا مستر بول ان آخر كلمة ماهيش كلمتك لا في مصر ولا في غيرها.. (١)"

غيرت فرنسا قبل ساعات قليلة من ضرب الإسكندرية موقفها وأمرت أسطولها بمغادر المدينة، أما بريطانيا فقد كانت عازمة على المضي قدمًا في التدخل المسلح حتى ومن قبل انعقاد المؤتمر ولم يبق أمامها سوى إيجاد المبرر، فأوعزت إلى قائد أسطولها أن يخلق أية وسيلة للتحرش لإثارة الحرب على مصر (٢). وبالفعل سرعان ما وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الإسكندرية في ١١ يونيو والتي يرى بعض المحللين أنها كانت مفتعلة، والتي بدأت باعتداء أحد المالطين على أحد الأهليين فأسفر عن مقتله وعندما هاج رفاقه للإمساك بالقاتل، أطلق المالطيون واليونانيون القريبون من الحادث وابلًا من الرصاص على الأهالي ليسقط منهم عدد من القتلى والجرحى، والذي تسبب في إثارة نفوس الجماهير مطالبة بالقصاص (٣).

وفي ١١ يوليو عام ١٨٨٢ بدأت البوارج الإنجليزية في دق حصون الإسكندرية، وآثر العرابيون الانسحاب بعد أن أضرموا النيران في المدينة ليحول من وجهة نظرهم دون نزول الإنجليز بها، على حسب اعتقاد المؤرخ عبد الرحمن الرافعي (٤)! ومن الجدير بالذكر أن حريق الإسكندرية قد اختلف حوله المؤرخون، فمنهم من يرى أنه لا يزال لغزًا محيرًا لافتقار الدلائل المادية والوثائق التاريخية التي تقود للفاعل، ومنهم من يجزم بأنه من تدبير

(١) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ١٢٨.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ١٤١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ١٢٢.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ١٥٤.

الإنجليز وقد يكون بالاتفاق مع الخديوي ليسهل عليهم دخول المدينة، وليكون ذريعة لتدخلهم العسكري.



شكل ١١: عرابي وفرنسا!

"عرابي باشا وموسيو دوليس يأكلوا عيش وملح الأخوية..أسد العرب يقول تعيش فرنسا والآخر يقول تعيش مصر وأهلها"

(أبو نظارة، ٤ أغسطس ١٨٨٢[(١)])



شكل ١٢: إنجلترا تقتل الأهالي!

"انظروا كيف العساكر الإنكليز بتقاتل أهالي مصر..الظابط بيسكر وعساكره بتبندق"

(أبو نظارة، ٤ أغسطس ١٨٨٢[(٢)])

---

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤). "أبو نظارة"، ٤ أغسطس ١٨٨٢. العدد الثالث عشر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٤٩.

(٢) "صحف أبو نظارة"، المرجع السابق، ص: ٤٩.

أدرك الخديوي ما للدعاية من تأثير على تعبئة الرأي العام ضده وإثارة شعور البلاد العدائي نحوه، فقرر أن يستعين بنفس السلاح لتعبئة الرأي العام ضد عرابي، فأصدر في ٧ أغسطس منشورًا يعلن فيه عصيان عرابي وينذر الأهالي بالانفضاض من حوله. كما تلقى من الآستانة مئات النسخ من صحيفة "الجوائب"، وبها المنشور الذي أصدره السلطان في ٦ سبتمبر واصفًا عرابي فيه بالعصيان ومطالبًا مساعدة الإنجليز في القضاء على الاضطرابات[1]. وهكذا نجح توفيق في بث روح التردد والانقسام بين صفوف الثوار والجيش بين موالين له وموالين لعرابي وبين أطياف الشعب أنفسهم، مما كان أحد الأسباب التي أدت للهزيمة.

وعين عرابي بعد ضرب الإسكندرية محمود فهمي باشا رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصري، الذي وضع خطة محكمة لو كانت اتبعت بإحكام لكانت نجحت في صد الإنجليز وغيرت مسار الأحداث. وقد أبلى المصريون بلاءًا حسنًا في أكثر من موقعة حربية، إلا أن سوء التقدير والخيانة ممن استطاع الإنجليز شراءهم بالأموال من أمثال الأميرالاي علي يوسف خنفس، قد أصابت الثورة في مقتل في المعركة الفاصلة (١٣ من سبتمبر ١٨٨٢) بالتل الكبير[2].



شكل ١٣: موقعة التل الكبير!

"دمعة تل الكبير..توفيق باعنا بمليون جنيهات.."بمليون جنيهات..ماية ألف اشترى حراس الاستحكامات"

(أبو نظارة، ٦ أكتوبر ١٨٨٢[3])

(١) الدكتور سامي عزيز، "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٥٨- ٥٩.

(٢)الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافية في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافية، القاهرة، ١٩٦١، ص: ١١٧-١١٨.

(٣)"صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "أبو نظارة"، ٦ أكتوبر ١٨٨٢، العدد الرابع عشر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٥٣.



شكل ١٤: معاملة الإنجليز لتوفيق قبل وبعد الاحتلال!

قبل دخول الإنكليز في مصر: "قال ماليت لتوفيق: إن كنت زعلان من إخوتك فانكلترا ترميهم ورا جبل قاف"

بعد تسلط الإنكليز على مصر: "قال دوفرين لتوفيق:.. بلا بكا يا واد.. انكلترا قبلت بخشيش اخوتك فلازم يدخلوا مصر".

(أبو نظاره زرقا، ٤ مايو ١٨٨٣[١])



شكل ١٥: عصاة سيدنا دوفرين اللي شق بها بحر النيل!

"(قال لورد دوفرين الثعلب الى شريف باشا المطوس) بقى فهمت يا حبيبي شريف لازم انك تامر بتبطيل الكرباج اللي صبح أسمه عار وعوضًا عنه ارجوك تقبل مني العصاية دي. (قال شريف) فهمت يا حبة عيني يا لورد دوفرين وبحياة شرفي لا أخالف كلامك.. يا أعظم رجال السياسة.. بقى ما نغيرش شي بالقطر المصري.. نبطل الكرباج ونستعمل العصاية"

(أبو نظاره زرقا، ٢٦ مايو ١٨٨٣[٢])

(١) صحف أبو نظارة، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "أبو نظاره زرقا". ٤ مايو ١٨٨٢، العدد السادس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٨٥.

(٢) صحف أبو نظارة (١٨٨٢-١٨٨٤). أبو نظاره زرقا. ٢٦ مايو ١٨٨٢. العدد السابع، السنة السابعة. دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٨٩.

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن أحد أهم أسباب الهزيمة تكمن في العرابيين أنفسهم، فقد كانت تنقصهم "الحصانة في الرأي وبعد النظر السياسي"، وكانوا أغلب الظن يعتمدون في تحديد حقيقة الموقف السياسي على أخبار يتلقونها من أوربيين قد تكون ملفقة، فلم يكن لهم قلم أخبار في مصر أو في الخارج يطلعهم على حقيقة الموقف وتطوراته(١). كما أن عرابي قد اعتلاه الغرور فعصب عينيه عن تقدير الموقف حق تقديره والإنصات لآراء الآخرين، فحينما تحفزت بريطانيا لضرب الإسكندرية لوح له البعض بخطورة الحرب وعواقبها، فكان يرد ويقول: "أنا أقوى من دولة الإنجليز ودولة فرنسا"، وقال: "إن الطوابي والعساكر المصرية لا تقاوم الإنجليز فقط، بل جميع الدول مدة ثلاث سنين.. بحيث لا يمكن لأحد الدخول إلى مصر"(٢). أضف إلى ذلك أن عرابي لم يكن على قدر كبير من الكفاءة الحربية، فهو لم يتدرب على ضروب القتال ولم يخض حروبًا من قبل، بما فيها حروب الثورة نفسها!(٣)

تم اعتقال زعماء الثورة العرابية السبعة (عرابي والبارودي وفهمي ويعقوب سامي باشا وعبد العال حلمي باشا وعلي فهمي باشا وطلبة باشا عصمت) ونفيهم إلى جزيرة "سيلان" (سيريلانكا حاليًا)، ليسدل الستار على نهاية قصة درامية بدأت بكفاح شعب نادى بالحرية والعدالة وانتهت بوقوعه تحت الاحتلال.

بدأ الاحتلال حياته في مصر بتعطيل وإلغاء أكثر الصحف التي تعتمد في بعض مواردها على أموال القنصلية الفرنسية أو الأموال التركية. وكان قرار التعطيل لا يحتوي سوى العبارة التقليدية بأن ما نشر "مما يشوش الأفكار ويخدش الأذهان"(٤). واختلفت ردود فعل الصحف على هزيمة ثورة عرابي وتباين موقفها من عرابي نفسه بعد الهزيمة، فوصفته صحيفة "الأهرام" بـ"العاصي" وانتقدت بحدة الخديوي وعرابي ورفاقه، ليصدر أمر بتعطيلها شهرًا في ١٩ أغسطس ١٨٨٤ جزاءً على حدتها(٥). في حين استقبلت بعض الصحف (مثل صحيفة "الوطن") الاحتلال البريطاني والحكومة الجديدة أحسن استقبال

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ١٣٦.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٢١٣.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٢١٤.

(٤) الدكتور سامي عزيز، "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٨١.

(٥) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، انترناشيونال بر س، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٥٥.

وعملت على تشويه صورة عرابي والتجني عليه. واعتمد الاحتلال على صحيفة "المقطم" فأمدها بالمال والأخبار وبكافة المواد الصحفية التي تكفل لها الرواج[١].

استمر صنوع في نقد سياسة الخديوي توفيق والاحتلال الإنجليزي في صحفه التي يصدرها من باريس، فنشر كاريكاتير مسلسل (كومكس) من أربعة مشاهد يصور فيها علاقة توفيق بالفلاحين. في المشهد الأول يظهر الفلاحون وهم يشتغلون "بالسخرة في الجسور بأمر [من] نوبار وبوغوص ومونكريف"، وفي المشهد الثاني، يظهر كل من نوبار وبوغوص ومونكريف ورأسهم على هيئة قطط يتوعدن الفلاحين إذا لم يحسنوا استقبال الخديوي، فيقول نوبار "القط السنحوط": "يا فلاحين يا جديان إذا قلتم إنكم بتخدموا بدون أجرة وبدون طعام..وإذا ما زعقتم ربنا يطول عمر أفندينا أموتكم". أما "بغوص القط" فيقول: "وراس بابا يا فلاحين إن إذا ما قلتم لأفندينا إن الأتي عظام لجلب المياه وإذا ما قلتم يعيش توفيق أموتكم". ويقول مونكريف "القط": "يا لخنزير فلاحين إذا ما تقولوا لأفندينا إن ما فيش مهندس في الدنيا مثلي انا اقطع عنكم المياه وتموتوا من العطش". وفي المشهد الثالث يصل الخديوي توفيق راكبًا عربه مكشوفة يجرها خيل ء"الفلاحين يزعقوا يعيش توفيق". هنا يحدث توفيق نفسه قائلًا: "شيء غريب كلما يزيد ظلمي في الفلاحين كلما يزيد [حبهم] في". وفي المشهد الأخير، يقول الفلاحون أول "ما يشوفوا توفيق مسافر الله يلعنك أنت وأبوك ويخلصنا منكم ويشملنا بحلمه عن قريب".

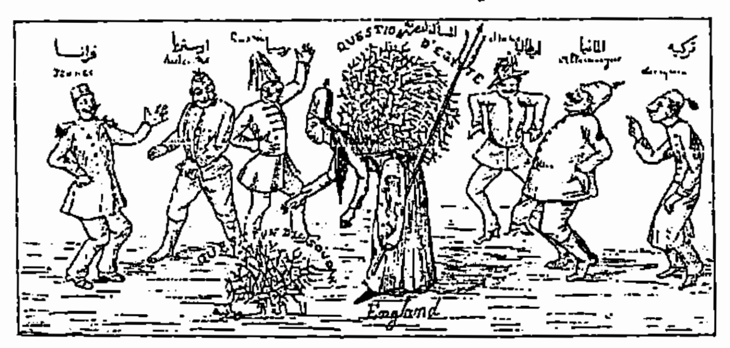


شكل ١٦: الفلاحون وتوفيق!

(أبو نظاره، ٢٦ سبتمبر ١٨٨٥)

(٥)الدكتور عبد اللطيف أحمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، --١٩، ص: ٧١.

كما انتقد صنوع سياسة إنجلترا الاستعمارية في السودان، ففي كاريكاتير نشر في "أبو نظارة" عام ١٨٨٥، تظهر إنجلترا على هيئة امرأة عجوز تحمل على ظهرها سلة فيها شوك وتبدو منحنية الظهر وهي تجمع مزيد من الشوك، في حين زعماء أوروبا وروسيا ينفجرون من الضحك سخرية منها ويقولون: "..يا امرأة يا عجوزة..ياما بتجبي الشوك..ما يكفيكيش شوك مصر حتى تدوري على شوك السودان".



شكل ١٧: سياسة إنجلترا في السودان!

(أبو نظاره، ٧ فبراير ١٨٨٥)

وفي حوار ساخر مصحوب بمشهد كاريكاتوري فيه مندوب فندق "شبرد" يأتي للخديوي توفيق بفاتورة حساب، فيصطدم توفيق فور اطلاعه على "الفاتورة"، في حين يقف عن بعد "أبو نظارة" (صنوع) وإلى جانبه فلاح مصري. يدور الحوار بينك "أنت" القارئ و"أبو نظارة" لشرح قصة الرسم (انظر الشكل التالي). "الله يا سيدي على دا الرسم العجيب..ده مين ده اللي قاعد؟ ده توفيق ابو وش كئيب ∴ والمستر ده اللي واقف قدامه مين؟ ده يا حفيظ رؤيته رؤية شياطين ∴ ده المستر بول صاحب لوكانده شبت الخماره الإنكليزية. اللي نزل فيها الباشا اللي جاب لتوفيق نيشان الدولة العلية ∴ فالخمرجي بيقدم لتوفيق الحساب. لان الضيف مابدفعشي لما ينعزم عند الأصحاب ∴ أما الواد الأهبل طلع زي أبوه إسماعيل.... طيب والاتنين اللي واقفين من بعيد دول مين؟ ده أبو نظاره وده شيخ من مشايخ الفلاحين ∴ لما نسمع كلامهم ∴ ∴ ∴ ∴ توفيق لصاحب الخمارة بيقول ∴ ∴ ∴ ∴ ده مش حساب ده نهب جوديم يا بلاد الفول ∴ وصاحب الخمارة يرد عليه وقال ∴ الباشا التركي احتقر طبيخنا الإنكليزي وما أكل إلا طبيخ فرنساوي عال ∴ فالطبيخ الفرنساوي ثمنه الطاق طاقين يا عزيز. آدي جزا اللي يحتقر طعام ملكة الإنكليز. صحون الفراخ الشاسور والمارنجو ولحم الشاتوبريان اللي الباشا التركي هو وتباعه أكلوها. وقزائز الشامبانيا وكاسات العنبري اللي شربوها ∴ تساوي يا أفندينا فلوس كتير. والخديوي غني ماهوش فقير ∴ بقى أأمر بدفع الحساب وإلا نعمل عليه بورتستو في

الحقانية. وتلزمك بدفعه حكومتك الإنكليزية ∴ ∴ ∴. فقال أبو نظارة اي هتيكه وأي عار كيف يا توفيق تشتكي من حساب خمار ∴ اكتر مما تشكيت يا ولد من احتقار رعائتك وخراب البلاد ∴ يحقلك أنت تشكي يا فلاح يـ أبوشادوف. لان من جيبك بيطلع كل المصروف ∴ ∴ ربنا كريم حليم ∴ ∴"



شكل ١٨: توفيق وفاتورة الحساب!
(أبو نظاره، ٢٦ ديسمبر ١٨٨٥)

نجد في هذا الحوار المصاحب للكاريكاتير عدد من المفارقات الذكية التي لها دلالات مهمة، فقد أوجزت الحالة التي تمر بها مصر وقتها وبشكل مسرحي، ولخصت طبيعة العلاقة بين السلطة والدول العظمى خاصة بريطانيا وفرنسا. فاختيار الضيف أن يأكل بالمطبخ الفرنسي وهو داخل الفندق الإنجليزي مثل إهانة لإنجلترا فوجب أن يكون أسعار الطعام بالمطبخ الفرنسي بضعف الثمن لمثيله داخل المطبخ الإنجليزي، كمغزى سياسي حول العراقيل التي تضعها إنجلترا في طريق من يريد التعامل مع فرنسا.

وهناك أيضًا دلالة مهمة، فعندما أراد توفيق إكرام محمد باشا الذي بعثه السلطان ليسلمه نيشان أو وسام الامتياز الكبير، تسبب اضيف في خراب بيت توفيق لشدة إسرافه، مما يحمل مغزى سياسيًا آخرًا لطبيعة العلاقة بين السلطان والخديوي، وهو أن ما يعطيه السلطان باليد اليمنى يأخذ أضعافه باليسرى.

المفارقة الثالثة والتي لا يمكن تجاهلها وهي أن هذا المشهد المسرحي الكاريكاتوري تم على مسمع ومرأى من الفلاح المصري الذي يصاحبه صنوع، وهنا تكمن حجم المفارقة بين الخديوي الذي لا يستطيع دفع فاتورة حسبه فما بال الفلاح الفقير، ليحرضه صنوع بأن الأموال التي "يبعزقها" توفيق على ضيوفه إنما هي من أمواله ومن أموال باقي أفراد الشعب.

ثورة ١٩١٩ وقضية الاستقلال:

شهدت الفترة ما قبل ثورة ١٩١٩ حراكًا سياسيًا خطيرًا خاصة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وكشفت النقاب عن خطورة ومساوئ الاحتلال الإنجليزي ومدى استغلاله للثروات الطبيعية ومدى إذلاله وقهره للمصريين، ونواياه الاستعمارية والتي من أهمها إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ وظهور تحركات واسعة النطاق لجمعيات صهيونية مدعمة من الاحتلال. كل ذلك دفع الحركات الوطنية إلى سرعة العمل على الحصول على الاستقلال والتخلص من الاحتلال.

عندما بدأت الحرب العالمية، تم إصدار عدد من القوانين الاستثنائية ومنها قانون منع التجمهر في ١٨ أكتوبر ١٩١٤، ثم إعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحف في ٢ نوفمبر من نفس العام، ثم أعقبه إعلان بريطانيا الحماية على مصر في ١٨ ديسمبر وخلع الخديو عباس الثاني وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر في ١٩ ديسمبر، والذي كان له وقع مرير على الشعب المصري.

في حين رحبت الصحف الموالية مثل "المقطم" و "الجريدة" خبر الحماية، وكان محتم على الصحف نشر قرار الحماية البريطانية دون مناقشة أو اعتراض، فآثر أمين الرافعي رئيس تحرير صحيفة "الشعب" بالاتفاق مع الكاتب عبد الرحمن الرافعي إيقافها عن الصدور ابتداء من ٢٨ نوفمبر ١٩١٤، تبرمًا من شدة الرقابة، ورفض إغراء وتهديد رجال السلطة لإثنائه عن قراره. ويعتبر احتجاب صحيفة "الشعب" أول احتجاج مصري على الحماية تمثلت في التضحية الكبيرة المترتبة على إيقاف الصحيفة، والتي بها لا شك فيه قد رفعت من المكانة الوطنية للصحيفة ورئيس تحريرها[١]. كما أنه نتيجة لشدة الرقابة على الصحافة، احتجبت بعض الصحف نهائيًا ومن بينها صحيفتان حزبيتان كبيرتان: صحيفة "الجريدة" (لسان حال "الحزب الوطني") توقفت ابتداء من أول يوليو ١٩١٥ وصحيفة "المؤيد" (لسان حزب "الإصلاح على المبادئ الدستورية") في مايو ١٩١٥ تعطيلًا مؤقتًا ثم نهائيًا في ٨ ديسمبر ١٩١٥[٢]، كما احتجبت صحفًا لأسابيع وقلصت موادها الاخبارية وقللت من عدد صفحاتها لأزمة الورق وارتفاع سعره خلال الحرب وصعوبة استيراده مثل صحيفة "الأهالي"[٣].

(١) رمزي ميخائيل، "الصحافة المصرية والحركة الوطنية ١٨٨٢-١٩٢٢"، مصر النهضة: مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص: ١٣٠.

(٢) رمزي ميخائيل، المرجع السابق، ص: ١٣٩.

(٣) رمزي ميخائيل، المرجع السابق، ص: ١٤٣.

ومن المثير للدهشة أن في أوج أزمة الرقابة على الصحف، صدرت صحفًا جديدةً ومنها صحيفة "اللطائف المصورة" (صدرت عام ١٩١٥) لصاحبها اسكندر مكاريوس، التي تنوعت موادها ما بين سياسية وأدبية وتاريخية وفكاهية، وقد كانت كثيرًا ما تعيد نشر رسومًا كاريكاتورية عالمية تساند الحلفاء في حربهم ضد دول المحور. فقد نشرت في عددها في ١٥ يناير ١٩١٧ كاريكاتير يصور النسر الألماني (إشارة إلى ألمانيا) وهو ينازع البقاء بعد أن سالت دماؤه فوق أوروبا. وفي ١٢ فبراير نشرت كاريكاتير آخر يصور ديفيد لويد جورج رئيس وزارء بريطانيا وقتها، الذي توعد بضرب الأعداء الضربة القاضية، على هيئة مدرعة تسير باندفاع في اتجاه مواقع الأعداء لإلحاق الهزيمة بهم وإجبارهم على الاستسلام.



شكل ١٩: لويد جورج في مواجهة الأعداء!
(اللطائف المصورة، ٢، فبراير ١٩١٧)

وكثيرًا ما كانت "اللطائف المصورة" في أولى أعدادها تشير إلى الرسوم الكاريكاتورية "بالرسوم" أو "الصور الهزلية"، كما أشارت إلى رسامها بـ "الرسام الهزلي الأستاذ كيم". كما ظهر على صفحاتها الرسام إيهاب خلوصي الذي رسم في هذه الفترة رسومًا كاريكاتورية وقصص قصيرة مصورة من نوعية الكومكس أغلبها ذات طابع اجتماعي. ففي ٢ إبريل من عام ١٩١٧، رسم كومكس من ستة مشاهد يصور نتيجة اللامبالاة وعدم تحمل المسؤولية مجسدة في فتى قد توفي والده فأول ما فعله هو حرق كتبه الدراسية، ثم بدد ثروته التي ورثها عن أبيه في الشرب وارتياد صالات القمار لينتهي به الحال إلى الشحاذة يمد يده للناس طالبًا

"حسنه لله". ومن الجدير بالذكر أن معظم الكومكس التي نشرت لإيهاب كانت باللغة العامية ولكنها كانت تقرأ من الشمال لليمين وليس العكس وأحيانًا يصاحبها شرح موسع لفكرة أو قصة الكومكس! ولعل شدة الرقابة على الصحف في تلك الفترة هي السبب في اتجاه اللطائف إلى هذه النوعية من الكاريكاتير الاجتماعي لتكون بمنأى عن مقص الرقابة واضطهادها من قبل سلطات الاحتلال!

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، عادت الحركات الوطنية للظهور مرة أخرى وهي أكثر حراكًا وإصرارًا على القضاء على الاحتلال، وقد زاد من تأججها تأثرها في ذلك الوقت بخطب الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون ومبادئه الأربعة عشر الذي كان يؤمن بحق كل أمة في تقرير مصيرها. وفي ١٣ نوفمبر ١٩١٨، تم تشكيل وفد بزعامة سعد زغلول لمطالبة المعتمد البريطاني بالسماح له بالسفر لعرض مطالبه من أجل الاستقلال في مؤتمر فرساي للسلام بباريس[(١)].

انزعج الإنجليز بشدة من نشاط الحركات الوطنية وتفاعل الشعب معها خاصة بعد أن ذاع صيت سعد زغلول وتحوله في نظر العامة إلى زعيم وطني، فتم القبض عليه وعلى ثلاثة من رفاقه (إسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا) في ٨ مارس من عام ١٩١٩، ونفيهم إلى مالطة. كانت هذهبمثابة الفتيل الذي أشعل ثورة مارس-إبريل ١٩١٩، والتي شارك فيها كل فئات الشعب المصري في كل مدينة وقرية ونجع وكفر ومن كل الأعمار والانتماءات والتيارات والأطياف والطبقات من باشاوات لفلاحين لموظفين لعمال في مظاهرات حاشدة ضد ترحيل سعد. كما خرجت النساء لأول مرة في تاريخ مصر مشاركة في المظاهرات يهتفن ضد نفي الزعماء وضد الاحتلال. كما اضرب التجار عن العمل وقطعت خطوط السكك الحديد وخطوط التلجراف، وتم تدمير بعض المنشئات الأجنبية.

كان من أهم مظاهر الثورة هو الإخاء بين الهلال والصليب، فلم يعرف في حركتي عرابي ومصطفى كامل أن أحدًا من الأقباط في زعامتها، ولكن في ثورة ١٩١٩ كان كبار الأقباط من زعماء الثورة، كان هذا تطور عميق ودفعة للأمام وترسيخ لمفهوم القومية المصرية، فلم يعد الجهاد الوطني مقصورًا على المسلمين فقط، ولكنه أصبح جهاد جميع

(١) سلمى بوتمان:
Selma Botman. (1991). Egypt from independence to revolution, 1919 – 1952. New York: Syracuse University Press.

المصريين مهما كانت عقائدهم كشعب له جنسيته وتقاليده وتاريخه. وقد دهش المحتلون لهذا التطور الكبير وأكثر ما أغاظهم هذا الاتحاد بين المسلمين والأقباط، وركزوا كل جهدهم في تشويه الثورة وتشويه زعمائها[1].

كما ظهرت أثناء الثورة ما يعرف بـ "الشرطة الوطنية"، حيث نظم الأهالي جماعة منهم لحفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي الاجتماعات التي كانت تعقد لسماع الخطب الحماسية وحمايتهم ممن يندس بينهم من الغوغاء، وكان لأفرادها شارات خاصة تميزهم عن سواهم، عبارة عن شريط من القماش الأحمر يحيط بالذراع الأيسر مكتوب عليه بالقماش الأبيض "بوليس وطني"، إلا أنه ما لبث أن أصدرت السلطة العسكرية أمرًا في ١٨ إبريل عام ١٩١٩ بمنع هذه الجماعة الأهلية، وتوعدت من ينتمي إليها بالاعتقال والمحاكمة[2].

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن اعتقال سعد زغلول ورفقائه كان بمثابة الشرارة التي أشعلت الثورة ولكن لم يكن السبب الرئيسي أو الوحيد لقيامها، وأكبر دليل على ذلك أنه عندما اعتقل سعد مرة ثانية في ديسمبر عام ١٩٢١ بعد أن علت وعظمت منزلته لدى الشعب لم تقم في البلاد أي ثورة للإفراج عنه. فثورة ١٩١٩ ترجع إلى تذمر الشعب واستيائه من الاحتلال الأجنبي، الذي نقض وعوده بالجلاء التام ودأب على السعي لفصل السودان عن مصر وتقطيع أوصال الدولة المصرية وإلغاء الجيش وتجريد البلاد من أي قوة حربية وإسناد كبرى المناصب للبريطانيين في مختلف المصالح والدواوين وسوء معاملة واحتقار المصريين[3].

كما كان للحزب الوطني دورًا كبيرًا في الكفاح ضد الاحتلال منذ عام ١٨٩٠ وحتى ١٩١٩ (على يد مؤسسه مصطفى كامل ومن ثم محمد فريد وأنصارهما)، والذي كان بمثابة التمهيد للثورة عندما عمل على إحياء الصحوة والمبادئ الوطنية الصادقة. كما كان من أسباب قيام الثورة، تأليف الوفد المصري في نوفمبر ١٩١٨، وانضمام حسين رشدي باشا رئيس الوزارة وقتها إلى الحركة الشعبية. وهنا يتضح كيف اختلفت ثورة ١٩١٩ عن الثورة العرابية، فالثورة العرابية كان من أسباب اشتعالها الاستياء الشديد من الوزارة القائمة آنذاك (وزارة رياض باشا) ليكون أولى مطالبها إسقاطها، أما ثورة ١٩١٩ فقد لقيت تأييدًا كاملًا

(١) محمد زكي عبد القادر، "محنة الدستور ١٩٢٣-١٩٥٢"، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص: ٤١.

(٢)عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١"، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٧، ص: ٢٣٥.

(٣)عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٧٨.

من وزارة رشدي، التي بمساندتها عبدت لها الطريق وعملت كورقة ضغط على الحكومة البريطانية للإفراج عن سعد ورفاقه والسماح لهم بتمثيل قضية مصر في مؤتمر الصلح بباريس[1].

وثارت ثائرة بريطانيا وهي تتابع تحول سعد زغلول إلى زعيم وطني، فأصدرت قرارًا بتحريم ذكر اسمه ومنع إذاعة أو إنشاد أي أغاني فيها اسمه، وقبل المصريون التحدي فأطلقوا اسمه على نوع من أنواع البلح، "بلح زغلول"، ليصبح إلى يومنا هذا من أشهر الأنواع وأطيبها طعمًا، كما قدم الموسيقار الشعبي سيد درويش أغنية بعنوان "يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح"، التي انتشرت انتشار النار في الهشيم لتصبح من أكثر الأغاني الشعبية رواجًا في تلك الفترة، ليتكرر اسم سعد في كل ربوع البلاد وعلى مرأى ومسمع من الإنجليز الذين لم يجدوا لمنع ذكر اسمه سبيلا، ومطلع الأغنية يقول:

يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح**يا بلح زغلول**
يا زرع بلدي عليك ياوعدي
يابخت سعدي زغلول يا بلح
يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح**يا بلح زغلول**
عليك أنادى في كل وادى
قصدي ومرادي زغلول يا بلح
يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح**يا بلح زغلول**

كما قدم سيد درويش في ذلك الوقت رائعته " قوم يا مصري مصر دايمًا بتناديك" (كلمات بديع خيري) لتأجيج المشاعر الثورية ضد الاحتلال وضد نفي سعد والتي مازالت تنشد حتى يومنا هذا في المناسبات التي تحتاج إلى رفع روح النضال والعزيمة والإصرار لتحقيق أهداف وطنية.

لم تستطع بريطانيا الوقوف أمام هذه المظاهرات الشعبية ولم تستطع السيطرة عليها، وبالتالي لم يكن أمامها إلا الخضوع للمطالبة الشعبية بالإفراج عن سعد ورفاقه في ٧ إبريل والسماح لهم بالذهاب إلى باريس لحضور مؤتمر السلام، فيما اعتبره المصريون نصرًا سياسيًا كبيرًا لهم وإنها فقط البداية لقناعتهم أن ثورتهم مازالت مستمرة.

(١) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٨٥-٨٦.

اعتمدت الثورة في أول قيامها على المنشورات والصحافة السرية، فقد كان على سبيل المثال للطلبة جريدة سرية باسم "المصري الحر" ولهم مطبعة سرية خاصة، وكان الناس يتلقفون بلهف هذه النشرات[1]. ولم يكن للوفد المصري الذي يمثل مصر وقتها صحف خاصة به، لكن كان هناك من يدافع عنه وعن القضية الوطنية مثل أمين الرافعي في صحيفة "الأخبار" وعبد القادر حمزة في "الأهالي"[2]. وخلال شهري يوليو وأغسطس عام ١٩١٩، انضمت ثلاثة صحف إلى حزب الوفد وهي "مصر" و"وادي النيل" و"النظام"، وصارت أكثر الصحف المؤيدة للوفد دون أي يمتلك أي صحيفة منها[3].

صدم الشعب صدمة شديدة وأصيب بخيبة الأمل عندما اعترف الرئيس ويلسون بالحماية البريطانية على مصر في شهر إبريل من عام ١٩١٩، مخالفًا بذلك "مبادئه" التي تكلم عنها والتي كانت تشكل آمالهم. وصدمت الحركة الوطنية صدمة أخرى عندما أعلنت شروط الصلح التي قررها الحلفاء، حيث جاءت النصوص الخاصة بمصر مؤيدة للحماية[4].

وفي ٢٢ سبتمبر ١٩١٩، تم تأليف لجنة برئاسة اللورد ألفريد ملنر وزير المستعمرات للتحقيق في أسباب الثورة وإيفاد حلول لتهدئة الوضع، والتي قوبل نبأ تأليفها في مصر بالسخط والاحتجاج واندلعت مزيد من المظاهرات الرافضة للمساومة على الاستقلال، وما أن وصلت اللجنة مصر في ديسمبر، حتى انقلبت العاصمة إلى حالة من الهياج والاضطرابات والإضرابات التي بدأها الطلبة وأعقبهم الموظفون والمحامون.

وعندما رأت اللجنة أن مقاطعة الشعب لها عامة، عادت إلى لندن تجر أذيال الخيبة والتي لم تجد بدًا من النزول للرغبة الشعبية والاتصال بسعد زغلول (الذي كان في باريس) ووفده ودعوته للتفاوض. لبى سعد ووفده لدعوة وأسفرت المفاوضات عن مشروع معاهدة بين مصر وإنجلترا قدمه اللورد ملنر إلى الوفد، واتفق الوفد على تأجيل المفاوضات حتى تتم استشارة الأمة في المشروع[5]. وبعد مضى ما يقرب من شهر من المباحثات في مشروع المعاهدة، غادر أعضاء الوفد إلى باريس مرة أخرى في أوائل أكتوبر عام ١٩٢٠

(١) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٣٩٤.
(٢) الدكتور عبد اللطيف احمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، --١٩، ص: ٦٦، ١١٣.
(٣) رمزي ميخائيل، "الصحافة المصرية والحركة الوطنية ١٨٨٢-١٩٢٢"، المرجع السابق، ص: ١٥٤.
(٤) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١"، المرجع السابق، ص: ٣٣٢-٣٣٣.
(٥) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٤٧٩.

وقدموا التحفظات التي أبدتها الأمة على المشروع، إلا أن ملنر رفض بحث هذه التحفظات متمسكًا برأيه، وهو إما قبول المشروع كله أو رفضه كله، في حين تمسك الوفد برفضه الدخول في مفاوضات رسمية قبل إقرار هذه التحفظات[1].

أخذ بعض المؤرخين ومنهم عصام محمد سليمان على سعد أنه قبل التفاوض مع الإنجليز مما أضر بالقضية المصرية، لأنه بقبوله جعلها موضع مساومة، فهو بموافقته على التفاوض قد أعطى للإنجليز حقًا ليس لهم، وكأنه اعتراف ضمني بحقهم في احتلال مصر. كما أدى فشل المفاوضات إلى إعطاء الإنجليز الفرصة في تثبيت أقدامهم والتحايل على الجلاء الكامل حتى عام ١٩٥٦[2].

وتزامنًا مع المظاهرات الشعبية لثورة ١٩١٩، ظهر عدد قليل من الرسوم الكاريكاتورية تؤكد على أن كل طوائف الشعب بكل الأعمار، رجالًا ونساءً، شيوخًا وأطفالًا، مؤيدة لسعد ومطالبة بالاستقلال التام. ففي الكاريكاتير التالي الذي نشر في اللطائف المصورة، اللورد ملنر وهو ينظر من شرفته بفندق سميراميس إلى الجموع الغاضبة الرافضة للتفاوض معه، فكل طوائف الشعب التي تمر به لا تنطق إلا بعبارة واحدة: "الاستقلال التام".



شكل ٢٠: الاستقلال التام!

"ملنر في لوكندة سميراميس: ماذا؟ أين؟...لماذا؟ متى؟"

"جميع طوائف الشعب: الاستقلال التام"

(اللطائف المصورة، ١٩١٩)

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٥٤٢.

(٢) عصام محمد سليمان، "أزمة الحكم في مصر (١٩١٩-١٩٥٢)"، مطبعة الفكرة شارع منشأة الفاضل، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤، ص: ٣٦.

وشهد عام ١٩٢٠ احتجاب جماعي للصحف المصرية لمدة ثلاثة أيام احتجاجًا على قرار السلطة العسكرية البريطانية بإعادة الرقابة على الصحف، وقد نشرت صحيفة "الوقائع المصرية" إعلان اللورد اللنبي بإعادة الرقابة وكان نصه: "نظرًا لما تنشره الصحف باستمرار من المقالات التي تخل بسلطة الحكومة، والتي من شأنها الإغراء على إحداث اضطرابات وإتيان أعمال مناقضة للنظام والأمن العام، ستكون المراقبة على الصحف سابقة للنشر ابتداء من ٦ مارس سنة ١٩٢٠"[(١)].

وظهرت على الساحة صحيفة "الكشكول" (صدرت عام ١٩٢١) اللاذعة لصاحبها سليمان فوزي والمسلحة بالرسوم السياسية الكاريكاتورية المعادية "للوفد" فقد كانت كثيرًا ما تشن هجومًا عنيفًا ضد سعد زغلول وحزبه، وكان يرسم بها الفنان الأسباني الأصل جوان سانتس وأيضًا مدرس الفنون الجميلة محمد حسن والنحات محمود مختار. ثم ظهرت صحيفة "خيال الظل" (صدرت عام ١٩٢٤) لصاحبها أحمد حافظ عوض التي كانت تروج لسياسة سعد وترد على الهجوم العنيف الذي تشنه "الكشكول"، وكان من أهم رساميها علي رفقي التركي، لتشتعل المنافسة الشديدة بين الصحيفتين.

وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢، أصدرت بريطانيا تصريحًا أعلنت فيه إنهاء الحماية البريطانية على مصر وأن مصر دولة مستقلة وبالتالي مهيئة للحكم الدستوري، وألغت الأحكام العرفية الصادرة بعد الحرب العالمية الأولى. في نفس الوقت، احتفظت بسيطرة كاملة على قناة السويس والجيش بدعوى حقها في حماية شؤونها الخارجية ومصالحها وأبقت الوضع في السودان على ما هو عليه حسب اتفاقية الحكم الثنائي لعام ١٨٩٩. ومع أن هذه القيود تبقي مصر تحت السيطرة البريطانية، الا أنها اعتبرت من قبل البعض خطوة على الطريق نحو الحصول على الاستقلال التام.

في حين يرى المؤرخ عبد العظيم رمضان بأن اتفاق فبراير قد حقق لمصر مكاسب شكلية فقط من ملك وعلم ووزارة خارجية، وأن بريطانيا قد قصدت نفي سعد قبل عقد هذا الاتفاق لما كان وجوده في مصر كفيلًا بإحباط المشروع[(٢)]. وقد صرح سعد من منفاه

(١) ماهر حسن، الصحف المصرية تشهد أول احتجاب لها عام ١٩٢٠.. واستمر ٣ أيام احتجاجًا على الرقابة عليها، "المصري اليوم"، ٢٠٠٧، عدد ١٢٣٧

(٢) د. عبد العظيم رمضان، "الصراع الاجتماعي والسياسي في عصر مبارك"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص: ٦٥٦.

في سيلان بأن هذا التصريح "نكبة وطنية" ووصف الاستقلال الذي أتى به التصريح أنه استقلال مزيف[١].

وفي نفس العام، تم تأليف حزب جديد وهو "حزب الأحرار الدستوريين" برياسة عدلي يكن، وهو امتداد لحزب "الأمة" القديم، وكان من الأحزاب الأقلية إلا أن له دورًا مشهودًا في الميدان السياسي، وقد أصدر صحيفة "السياسة" لمحررها محمد حسين هيكل لتكون لسان حالة.

وإحياءً لمناسبة ثورة ١٩١٩، سجل الرسام رفقي في كاريكاتير نشر في "خيال الظل" في عام ١٩٢٤ خضوع بريطانيا للمطالب الشعبية ومنها القبول بالتفاوض مع سعد زغلول كممثل للأمة. فقد قارن رفقي بين حالة البريطانيين مع سعد قبل الثورة والتي اتسمت بالعداء الشديد له وبين ما بعد الثورة عندما اضطر البريطانيون أنفسهم بالترحيب به ويقبول التفاوض معه.

ورسمت "الكشكول" ضد سياسة بريطانيا "المتلونة" بعد الحماية. ففي كاريكاتير تصدر غلاف الكشكول (٣١ يوليو ١٩٢٥)، أقنعت إنجلترا المندوب السامي البريطاني "السير جورج لويد" ارتداء ملابس فرعون معللة: "عشان قالوا الفرعون من فرعنك قال مش لاقي حد يردني"



شكل ٢١: السير جورج لويد في ملابس فرعون!

السير جورج لويد: "الملابس دي جميلة جدًا بس مش فاهم ألبسها عشان إيه؟؟"

إنجلترا: "عشان قالوا الفرعون من فرعنك قال مش لاقي حد يردني"

(الكشكول، ٣١ يوليو ١٩٢٥)

(١) الدكتور عبد اللطيف احمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، المرجع السابق، ص: ٦٦، ١٠٥.

والحقيقة أن "الكشكول" لم تكن على طول الخط ضد سعد زغلول وحزب "الوفد"، فهي كانت تهاجم فكرة "لا رئيس إلا سعد"، فهي في أكثر من مناسبة (وإن كانت معدودة) أكدت على وصفه بالزعيم وذكرت بكفاحه هو وزعماء آخرين منتمين "للوفد" ضد الاحتلال ولأجل الاستقلال. فعندما استقالت وزارة زيور باشا وشكل عدلي يكن باشا الوزارة التي تستند وقتها إلى أغلبية مجلس النواب، هاجت الصحف الإنجليزية وشنت هجومًا عنيفًا على مصر منذرة بأن الفوضى لا محالة قادمة وبأن المصالح الأجنبية في خطر، فقد كان واضحًا رفض الإنجليز أن يكون زمام الحكم في أيدي "الوفد"، في الوقت الذي تنفست فيه مصر الصعداء باستقالة وزارة زيور باشا وبعودة الحياة النيابية. فانتقدت الكشكول في عددها ١١ يونيو ١٩٢٦ الحملة الشعواء على مصر، واتهمت وزارة زيور باشا بأنها السبب وراء تعود المندوب السامي البريطاني في التدخل في ما يعنيه وفي ما لا يعنيه. ولهذه المناسبة، نشر كاريكاتير في "الكشكول" في ٢٥ يونيو ١٩٢٦ وفيه سعد باشا واقفًا بحذائه على مجموعة صحف إنجليزية ومنها "التايمز" يهدد "جون بول" (رمز يمثل بريطانيا) بأن الأمة المصرية أصبح لا يعنيها ما تكتبه الصحف الإنجليزية ولا يخوفها الأسطول الإنجليزي.

يلاحظ أن في مجموعة الرسوم لهذه الفترة، دائمًا ما يصور سعد زغلول بالطرف الأقوى أمام بريطانيا (الطرف الضعيف)، فيبدو ممشوق وطويل القامة جدًا بالمقارنة بجون بول مثلًا ممثلًا لبريطانيا.



شكل ٢٢: أمام إنجلترا!

جون بول: "تمشي زي الناس والا أخبطك بوكس يوديك سيشل".

سعد باشا: "اسمع يا سي جون بول، أنا صحيح بقيت عيان، ولكن الأمة موش عيانه، لا كلام جرايدكم يهمها ولا اسطولكم يخوفها".

(الكشكول، ٢٥ يونيو ١٩٢٦)

كما نقدت الرسوم سياسة بريطانيا وأطماعها التوسعية في السودان، ففي كاريكاتير نشر "بالكشكول" (٢٩ يناير ١٩٢٦) يصور "جون بول" وهو يغسل قدميه في نهر النيل بالسودان وبجانبه حذائيه في كل واحد منهما فنجان ماء وهو يقول: "أنا آخذ كفايتي من ماء النيل لمصالحي في السودان، والمصريين بزياده عليهم غسالة رجلي"!

كانت "الكشكول" تساند قضية الاستقلال وترفض الحلول الوسط ومبدأ المساومة مع المحتل لأجل الحرية والاستقلال. ففي كاريكاتير نشر في ٢١ يناير ١٩٢٧، يقف سعد زغلول أمام تمثال "نهضة مصر" يخاطب عدلي باشا قائلًا: "قل لي يا دولة باشا، تمثال نهضة مصر ما بيظهرش ليه في المكان اللي حا يوضع فيه؟ ليرد عدلي باشا قائلًا: "بيقولوا انه مكسوف يظهر قبل احنا ما نظهر الاستقلال..."! وتمثال "نهضة مصر" هو من أشهر أعمال النحات محمود مختار الذي كشف عنه الستار عام ١٩٢٨، وهو عبارة عن تمثال من حجر الجرانيت لفلاحة مصرية تمثل مصر تقف بجانب أبو الهول الذي هو في وضع النهوض وتضع يدها على رأسه وهي تنظر إلى الأمام، في إشارة إلى النهوض والتطلع إلى المستقبل: استقلال مصر.

ونشرت "اللطائف المصورة" كاريكاتيرًا في ٧ مارس ١٩٢٧، وفيه فتاة (مصر) تحلي وسطها بالهلال والثلاثة نجوم ومقيدة اليدين (قيود سياسية)، في الوقت الذي يقوم فيه كل من "جون بول" وموسوليني بقص قطعة من ملابسها، ترمز القطعة الأولى لسيناء والقطعة الثانية لجغبوب، وكان التعليق: "لا ندري مبلغ صحة الإشاعة التي راجت في هذين اليومين عن عزم ولاة الأمور على فصل سيناء وضمها إلى فلسطين فإذا صح الخبر أغنتنا صورتنا هذه عن مقالة طويلة في الموضوع واللبيب من الإشارة يفهم -والفتاة هي مصر طبعًا...!"

ومن الملاحظ هنا أن "شائعة" وجود مخطط لدول عظمى لفصل سيناء عن مصر لصالح اللاجئين الفلسطينيين لوضع نهاية للنزاع العربي الإسرائيلي مازالت قائمة حتى يومنا هذا!



شكل ٢٣: تجزئة مصر!

مصر: "اختشوا على عرضكم شوية.......! آه من قيودي".

جون بول: "بس حته صغيره لأجل فلسطين جارتك المسكينة".

موسوليني: "بس حته صغيره لأجل طرابلس جارتك الفقيره".

(اللطائف المصورة، ١ مارس ١٩٢٧)

ونشر كاريكاتير آخر في ٢١ مارس تحت عنوان "مدد يا رفاعي مدد"، صور فيه الشعب المصري على هيئة رجل يحمل سيفًا (الصحافة) ويمتطي حصانًا (الحكومة) ويقاتل تنينا (الامتيازات الأجنبية).



شكل ٢٤: مدد يا رفاعي مدد!

(اللطائف المصورة، ٢١ مارس ١٩٢٧)

ومن أجمل ما رسم في تصوير مصر في الكاريكاتير السياسي ما نشر في ٢٠ يونيو، وفيه الأمة المصرية على هيئة ملكة فرعونية شابة وجذابة ذات قوام جميل، وترتدي ملابس فرعونية أنيقة وتجلس على أريكة ذات طابع فرعوني وهي مربعة اليدين، وتنظر غير راضية إلى "جون بول" الذي يحاول كسب ودها وصداقتها!



شكل ٢٥: جون بول والأمة المصرية!

جون بول: "ونحن الآن بقينا...أصحاب...أليس كذلك...؟"

الأمة المصرية: "الأمر يتوقف على ما أناله من ترضية وكرامة وحرية واستقلال كأمة "ذات سيادة""

التعليق المصاحب للكاريكاتير: "نحمد الله على انتهاء الأزمة السياسية التي أزعجت البلاد حينًا ليس بالقصير. وإذا كانت التجارب خير معلم للإنسان فان هذه التجربة علمت إنجلترا إن مصر أمة مسالمة تتمسك بحقها وتفهمه تمامًا. فلا ترهبها المدافع والأساطيل والجحافل والطيارات لأن القوة إذا امتلكت الأجساد فهي لن تمتلك القلوب. وقد كان الشرق مهد الفلسفة والأديان والسلام فهو لا يفهم لغة المدفع والحسام وإنما يفهم أن الحق يعلو ولا يعلى عليه..!"

(اللطائف المصورة، ٢٠ يونيو ١٩٢٧)

وواجهت "اللطائف المصورة" قانون المطبوعات بالنقد لما كان يشكل تهديدًا للصحفيين المصريين عند أداء مهمتهم وقمعًا لأقلامهم، في حين ينعم الصحفيون الأجانب في منأى من أي سوء. ففي الكاريكاتير التالي، ثور هائج (قانون المطبوعات) يطارد المفكر والناقد الصحفي محمود عزمي، أحد دعاة حرية الصحافة وحقوق الإنسان والصحفيين،

لانتقاده مجلس الوزراء في صحفية "السياسة" في مقالة بعنوان "يجب وضع حد لهذه التدخلات وإلا كان الدستور حبرًا على ورق"، التي اعتبرتها النيابة ماسة بالذات الملكية وطلبت محاكمته أمام محكمة الجنايات، في حين يقف اثنان متفرجان يتناقشان في الفرق بين امتيازات مرتدي القبعة ومرتدي الطربوش!



شكل ٢٦: قانون المطبوعات!

- "البرنيطه بتحمي بتوع الامتيازات من هذا الثور ولكن صاحبك مصري!"
- "البرنيطه؟ تحميه من الشمس بزياده عاها!"

وصاحب الكاريكاتير تعليق كان نصه: "مع احترامنا لقوانين الحكومة وأنظمتها فإننا لا نرى بدا من نشر هذه الصورة الكاريكاتورية الرمزية التي تمثل قانون المطبوعات هائجًا يطارد الأستاذ عزمي محاولًا البطش به. وما هذه بأول مرة نشرت اللطائف فيها صورة ما يحيق بالصحافة والصحافيين من الكرب والضيق بسبب هذا القانون الصارم الذي يجعل الصحافي في فزع وقلق يخشى في كل دقيقة أن يشط به القلم فيناله ذلك القانون وينزله من منبر الوعظ والإرشاد وتثقيف الناس بعلمه ومواهبه وأخباره الصحافية ليرمي به في غياهب السجن بين السارقين والسفاحين والقتلة المجرمين. وصورتنا تلمح أيضًا الى الامتيازات الأجنبية التي تشمل بفوائدها الصحافيين الأجانب في مصر فهم في مأمن من ذلك القانون الذي لا يستطيع أن ينالهم بسوء عكس إخوانهم المصريين، ونحن نستسمح من الزميل الأستاذ عزمي عذرًا لتصويره في موقف المنهزم الهارب فهو أكبر من أن يهرب خائفًا وإنما هي صورة كاريكاتورية ومداعبة بريئة تشرح حالة الصحفي المصري المنكود الحظ وموقفه الحرج.

(اللطائف المصورة، ٢٤ أكتوبر ١٩٢٧)

دستور ١٩٢٣ :

يبدو أن الدستور المصري كان ولا يزال شغل شاغل المصريين. فقد تم إصدار دستور ٢٣ في ١٩ إبريل من عام ١٩٢٣، والذي يضمن العدالة والمساواة بين المصريين في ظل القانون ويضمن حرية المعتقدات وإقامة الشعائر الدينية، وحرية الرأي والتعبير وتشكيل الأحزاب السياسية وإنشاء البرلمان مع ممثلين لمجلس الشيوخ والنواب، والذي عرف بعد ذلك بمجلس الشورى ومجلس النواب، كما يكفل حرمة المنازل والرسائل السرية وحرمة الملكية الخاصة وحظر مصادرة الأموال[1]. إلا أن الدستور كان به بعض العيوب والتي من بينها أنه كان يعطي الملك الحق في تعيين وزراء وحل مجلس النواب في أي وقت يشاء وبدون إبداء أسباب، كما يعطي الملك السلطة لإعطاء أوامر لها قوة القوانين.

ومع ذلك فقد قوبل إعلان إصدار الدستور بحفاوة كبيرة من قبل القوى السياسية والحركات الوطنية حيث رأوا فيه وفي النظام البرلماني الطريق الأمثل للحكم في مصر ودليلًا عمليًا على استقلالها والضمان لعدم قيام حكم استبدادي فردي. وبالرغم من ذلك لم تهنأ الأمة بحياة دستورية حقيقية فقد تم الاعتداء عليه من قبل السراي والاحتلال وتم الاستهانة به وبالإرادة الشعبية والالتفاف على بنوده مرات عديدة وكان أخطرها عام ١٩٣٠ عندما تم إلغاؤه كلنتهاك وتحدي حقيقي ضد الرغبة الشعبية.

عقدت أول انتخابات وفقًا لدستور ٢٣ في يناير ١٩٢٤، والتي أسفرت عن فوز حزب "الوفد" برئاسة سعد زغلول بـ ٩٠٪ من المقاعد. ومع أن "الوفد" في الانتخابات السابقة كان أيضًا يقتحم البرلمان بأغلبية ساحقة، إلا أن الملك فؤاد انزعج بشدة لهذه النتائج ورأى أن الدستور الجديد خيب أمله وأعطى "للوفد" ذي الشعبية فرصًا أكبر في التمثيل داخل البرلمان[2].

وفي محاولة لإضعاف حزب "الوفد" والتقليل من نفوذه، أوعزت السراي في يناير ١٩٢٥ بإنشاء حزب جديد وهو حزب "الاتحاد" الذي أشرف على تأسيسه حسن نشأت، وكيل الديوان الملكي. فأغلب الظن أن السراي تصورت أنه من الممكن أن ينال حزبها

---

(١) طارق البشري، "الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢-١٩٧٠"، مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص: ١٣.

(٢) سلمى بوتمان:

Selma Botman. (1991). Egypt from independence to revolution, 1919 – 1952. New York: Syracuse University Press..

الجديد شعبية تنافس بها الوفد، إلا أنه سرعان ما أصابها خيبة الأمل حيث لم يخف على الناس حقيقة الحزب الذي شاع عنه أنه حزب السراي وبالتالي لم يجد الاستجابة المرجوة من الشعب.

شهدت انتخابات عام ١٩٢٥ محاولات مستميتة وانتهاكات للوصول إلى نتائج نهائية ترتضيها السراي، فتم تعديل توزيع الدوائر وتم منع الناس من دخول بعض لجان الاقتراع ووضعت أسماء في جداول الناخبين لا وجود لها، وعلى الرغم من كل ذلك حصل "الوفد" على ١١٦ مقعدًا في حين حصلت الأحزاب غير الوفدية على ٨٧ مقعدًا[١].

لم يطق الملك ذرعًا بالوفد وبفوزه المستمر ورأى أن المشكلة لابد وأنها تكمن في الدستور، فطلب من إسماعيل صدقي تشكيل حكومة جديدة وصيغة دستور جديد يزيد من نفوذه ويعطيه سلطات واسعة. وبالفعل أصاغ صدقي دستورًا جديدًا يعطي مزيدًا من السلطة للملك خاصة فيما يتعلق بالانتخابات وأطلق عليه دستور ٣٠ والذي قوبل بمعارضة شديدة وأصبح معروفًا عند العامة بـ "دستور صدقي" سخرية وتنكيتًا به، وخرجت مظاهرات قوية تندد بالدستور الجديد وبحكومة صدقي ومطالبة أيضًا بعودة دستور ٢٣.

اتسمت فترة حكم صدقي بالدكتاتورية مما جعلها الفترة الأصعب في مصر، فقد شهدت حملة اعتقالات واسعة لصحفيين ومثقفين معارضين[٢](شكل ٢٧). وعلى الرغم من ذلك، شهدت حضورًا قويًا للرسوم الكاريكاتورية ضد دستور ٣٠ وضد سياسات صدقي في ظل رقابة صارمة فرضت على الصحف والمجلات وخاصة على الرسوم الكاريكاتورية التي كان صدقي يكن لها عداءًا شديدًا، والتي تصوره تارة كعدو للشعب موالٍ للقصر وتارة أخرى كخائنٍ موالٍ للإنجليز. وتألقت في تلك الفترة وبشدة مجلة "روزاليوسف"، التي عرفت بحملتها الشرسة على صدقي من خلال عدة رسوم كاريكاتورية قوية لاذعة للدرجة التي دفعت صدقي إلى سحب رخصتها وإصدار قرار إغلاقها. إلا أن هذا لم يمنع صاحبة المجلة السيدة فاطمة اليوسف من الاستمرار في نقد

(١) محمد زكي عبد القادر، "محنة الدستور ١٩٢٣-١٩٥٢"، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص:٦٣- ٦٤.

(٢) سلمى بوتمان، المرجع السابق.

صدقي وسياساته. ففي تحد صارخ، استمرت فاطمة اليوسف في نشر الرسوم في مجلة "الربيع" ثم في مجلة "الصرخة"، وهي تنوه على غلاف المجلتين بأن أسرة "روزاليوسف" مشاركة في التحرير ومسؤولة عن الرسوم الكاريكاتورية المنشورة[١].

ظهر في تلك الفترة الرسام المصري الأرمني الأصل ألكسندر صاروخان الذي يعتبر بحق علامة فنية أثرت الحياة الكاريكاتورية في مصر، والذي تميزت خطوطه كثيرًا عن رواد عصره، فقد كانت خطوطًا سميكة تهتم بالتفاصيل ولكنها أكثر رشاقة تنبض بالحركة والحيوية، وكأنك تشاهد لقطة من فيلم لرسوم متحركة. قدم صاروخان إلى مصر بدعوة العمل في مجلة فكاهية جديدة ولكنها لم تدم أكثر من عددين ليتخبط من مهنة لأخرى حتى اكتشفه رئيس تحرير روزاليوسف آنذاك محمد التابعي، ليظهر أول كاريكاتير له متصدرًا غلاف روزاليوسف في ٣ مارس ١٩٢٨.

وتوصل التابعي وصاروخان إلى ابتكار شخصية "المصري أفندي" التي تعتبر من أهم وأشهر الشخصيات الكاريكاتورية التي شهدها القرن العشرون والتي كان أول ظهور لها على صفحات روزاليوسف في عام ١٩٣٢، لتعبر عن هموم الشعب ولتعكس نبض الشارع ولتعمل كأداة تحريضية لشحن الرأي العام تجاه بعض القضايا والمواقف السياسية (انظر الفصل السادس).

ثم خرج التابعي ومعه صاروخان عام ١٩٣٤ من روزاليوسف ليصدرا مجلة "آخر ساعة"[٢]، التي شهدت نضوجًا في رسومات صاروخان التي عكست مدى ذوبانه في نسيج المجتمع المصري وأحداثه، ثم انتقل مع التابعي عام ١٩٤٦ إلى "أخبار اليوم" ليعملا بها حتى وفاتها، وقد تم منحه الجنسية المصرية عام ١٩٥٥.

(١) رانيا صالح:
Rania Saleh. (2004) Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo.

(٢) ناصر عراق، "تاريخ الرسم الصحفي في مصر"، دار ميريت للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢.



شكل ٢٧: زبون جديد!!

"(دولة رئيس الوزراء): بتعمل ايه يا حسن بك؟...صورة مين دي اللي بتعلقها؟"
"(مدير الأمن العام): دي صورة الدكتور حسين هيكل بتاع السياسة....باعلقها في لوحة الصحفيين المشبوهين اللي تحت المراقبة!"

(الصرخة، ٤ نوفمبر ١٩٣٠)

صور صاروخان المشاعر الشعبية الغاضبة تجاه إلغاء دستور ٢٣ في كاريكاتير تصدر غلاف مجلة "الصرخة" (شكل ٢٨) تحت عنوان : "تحتفل البلاد على مرور أربعين يومًا على وفاة فقيد البلاد المأسوف على شبابه ... دستور ١٩٢٣ !!!" فنجد ضريح دستور ٢٣ تبكيه مصر في هيئة سيدة شابة تتزين بالهلال، ولإضفاء مزيد من الواقعية نجد المقرئ بردائه المميز منهمكًا في التلاوة على قبر المأسوف على شبابه، وفي نفس الوقت يقدم المندوب السامي البريطاني تعازيه لإسماعيل صدقي قائلًا: "كلنا لها!... و البركة فيكم..." ليرد صدقي قائلًا: "استغفر الله!...و فيكم انتم كمان..." في إشارة واضحة إلى أن في القضاء على دستور ٢٣ ما يخدم مصالح الإنجليز وما يثبت ولاء إسماعيل صدقي لهم!



شكل ٢٨: اغتيال دستور ٢٣!
(الصرخة، ٢ ديسمبر ١٩٣٠)

وفي كاريكاتير آخر، صدقي منهمك في صياغة الدستور الجديد بينما رئيس الوزراء السابق أحمد زوار باشا (١٩٢٤-١٩٢٦) يؤكد له بأن الأهم من صياغة دستور جديد القدرة على تطبيقه، قائلًا: "طيب وأنا ما عملت قانون انتخاب في سنة ١٩٢٦ وطبعته وجلدته ونشرته والذي منه...وآخرتها انسحب!...الشطارة مش في عمل القوانين...الشطارة في تنفيذها!"



شكل ٢٩: عمل الدستور شيء...وتنفيذه شيء آخر!
(الصرخة، ٤ نوفمبر ١٩٣٠)

لم يقتنع الرأي العام وقتها بأن بريطانيا لم يكن لها دور في قرار إلغاء دستور ١٩٢٣، ولم يكن لها رأي في المواد التي أضيفت لدستور ٣٠ والتي منها إصدار قانون انتخابات جديد. وفي كاريكاتير لصاروخان بعنوان (كثرت الإشارة في هذه الأيام إلى تصريح مستر ماكدونالد الخاص بحياد إنجلترا وعدم موافقتها على...طبخ كشوف الانتخابات) تأكيد على معرفة بريطانيا المسبقة "بطبخ" الدستور واتهام صريح "للشيف" إسماعيل صدقي "بطبخ" الدستور وقانون الانتخاب. في الكاريكاتير، يخاطب وزير الخارجية البريطاني آرثر هندرسون رئيس وزراء بريطانيا رامزي ماكدونالد قائلًا: "يا حضرة الرئيس! سبق إنك صرحت مرة إننا ما نوافقش على طبخ كشوف الانتخابات في مصر وأهو اسماعيل صدقي مش طبخ الكشوف بس، ده طبخ كمان الدستور وقانون الانتخاب...ايه رأيك؟."



شكل ٣٠: صح النوم أيها الحياد!
(الصرخة، ١١ نوفمبر ١٩٣٠)

الرسم معبر للغاية ويحمل مضامين مهمة جدًا، فأنت لا تستطيع أن تجهل ابتسامة الرضا على وجه صدقي وملامح الاستغراب على وجه رئيس وزراء بريطانيا وعدم الرضا ونبرة التحذير في ملامح وحدة كلام المندوب السامي البريطاني مما يحمل تلميحًا خطيرًا في أن ما يفعله إسماعيل صدقي ليس من ضغط بريطانيا وإن كان يخدم مصالح بريطانية وانما لخدمة مصالح خاصة جدًا بالقصر، إلا أن حياد بريطانيا المزعوم وعدم موافقتها على طبخ كشوف الانتخابات زائف.

وفي الكاريكاتير التالي اتهام صريح لصدقي بأنه يسعى جاهدًا لنيل رضا الإنجليز وأن دستور ٣٠ كان لكسب ودهم. ففي الكاريكاتير، صدقي يقدم الدستور هدية للمندوب السامي قائلًا: تسمح لي فخامتك أقدم لك هدية نسخة من الدستور الجديد؟ إلا أن "فخامة المندوب السامي" يرد معترضًا قائلًا: لا...على إيه...متشكر! أنا شفته في لندن وعارفه وعارف اللي فيه!



شكل ٣١: عارفه وعارف اللي فيه!
(الصرخة، ١١ نوفمبر ١٩٣٠)

يلاحظ أن في رد المندوب السامي في الكاريكاتير السابق إشارة إلى معرفة بريطانيا المسبقة بمواد الدستور الجديد، وبالتالي فشل صدقي في تحقيق هدفه في كسب ودها. ويلاحظ أن أغلب الرسوم تصور صدقي على أنه متملق للبريطانيين في الوقت الذي لا يقابل البريطانيون صدقي بأي مودة أو ترحاب. بمعنى آخر، يفرض صدقي نفسه عليهم فرضًا.

كما بدا المندوب السامي البريطاني في مجموعة الرسوم هذه الخصم القوي، ولا يظهر كشخص حيادي وإنما كشخص غير مبالٍ، فهو يبدو أكثر ثقة وطمأنينة على مصالحه، بينما يبدو صدقي الخصم الضعيف والمتملق للطرف الآخر. لم تزح هذه الرسوم الاتهام نهائيًا عن ضلوع بريطانيا في مسألة تغيير الدستور هذه، إلا إنها حملت صدقي كل المسؤولية.

ويلاحظ لغة الاحترام السائدة في الرسوم عند الإشارة لمسؤولين بريطانيين، فكثيرًا ما يشار إلى المندوب السامي البريطاني بـ "فخامة المندوب السامي"، وإن ذكر الاسم فلابد

وأن يسبقه "مستر". وأغلب الظن أن هذه الديباجة التي تسبق الاسم هي بفرض من الرقابة، فهي لا تتماشى مطلقًا مع قالب السخرية الموجود في الكاريكاتير.

وفي المقابل، اتخذت صحيفة "الكشكول" خطًا مختلفًا، فقد كانت تساند إسماعيل صدقي في سياسته وتدافع عنه. ففي كاريكاتير تصدر غلاف عدد ٣ أكتوبر ١٩٣٠ بمناسبة تعديل قانون الانتخاب، مصر في هيئة سيدة عجوز تستند على عكاز وترتدي ملابس رثة تخاطب صدقي قائلة: أديك شايف يا باشا أنا أصبحت مريضة وهزيلة ومكسحة إزاي؟؟" ليرد عليها صدقي وهو ممسكًا في يده زجاجة دواء كبيرة مكتوب عليها "تعديل قانون الانتخاب" قائلًا: "مافيش غير شربة واحدة هي اللي تطرد الوساخة وترجعك أحسن ما كنت "تعديل قانون الانتخاب"!!"

كما نشرت في ١٣ مارس ١٩٣١ مقارنة بين موقف الوفد من دستور ٢٣ عام ١٩٢٣ وموقفهم منه عام ١٩٣٠، ففي كاريكاتير بعنوان "دستور ١٩٢٣ في سنة ١٩٢٣"، مصطفى النحاس باشا (خليفة سعد زغلول في رئاسة حزب الوفد) مشاركًا رفاقه في حرق "الدستور المصري" قائلًا: "لازم ندوسه تحت رجلينا!!" بينما يؤكد الوفدي حمد الباسل: "ونتف عليه كمان!!" وفي كاريكاتير آخر بنفس العدد بعنوان "دستور ١٩٢٣ في سنة ١٩٣٠"، مجموعة الوفد تبكي الدستور، ليقول مكرم عبيد باشا "الشهير بـ (وليم)": "ياخراب بيوتنا بعدك!!" ليقول الباشا النحس: "ياللي عمري ما بقيت شايف الوزارة بعدك، يا للي كنت عزبة، وخزانة، ومحكمة، يا أبو الدساتير؟؟،" في إشارة إلى أن الوفد كان من أكثر المعارضين على دستور ٢٣، وبالتالي فإن اعتراضه على إلغائه اليوم ليس له تفسير غير طمعه في الوزارة ليس إلا.

وكانت "الكشكول" ترد على مهاجمة صدقي واتهامه بالعمالة للإنجليز، بمهاجمة الوفد بشراسة واتهامه بالعمالة للإنجليز وأن سعيه للوصول إلى الحكم لا يخرج عن كونه هدفًا لتحقيق مصالحه هو وليس للمصلحة الشعبية كما يزعم. فمن الملاحظ أن وزارة مصطفى النحاس قد استقالت في ١٩ يونيو ١٩٣٠ أي بعد حوالي ستة أشهر من تكليفها والتي خلفها وزراة إسماعيل صدقي. ولذلك كانت تروج "الكشكول" بأن معارضة الوفد لوزارة إسماعيل صدقي إنما هي معارضة شخصية بسبب وجود الوفد خارج زمام الحكم وليس لسوء إدارة صدقي.

ففي كاريكاتير نشر في ٤ يوليو ١٩٣٠ بعنوان "بعد قبول استقالة النحاس"، مصطفى النحاس وهو يقف بجانب شخصية كاريكاتورية تدعى "زهرة"، عباره عن سيدة ترتدي "الملاءة" و"البرقع الشبك"، تحدث قارئ البخت قائلة: "من فضلك يا شيخ علي بص في الفنجان ده وقول لي بخت أخويا (تقصد النحاس) إيه!" الشيخ علي: "اللي باين لي

يا ستي زهرة إنه حايتجنن ويروح المورستان!!" وفي كاريكاتير آخر في نفس العدد بعنوان "سياسة الوفد والإنكليز" وفيه الدكتور حامد محمود يخاطب آرثر هندرسون وزير الخارجية البريطانية قائلًا: "بقى تسيبونا كدا يا مستر هندرسون وإحنا بندوب في دباديبكم!!" ليرد مستر هندرسون قائلًا: "بلاش كدب، أنتم دايبين في دباديب الحكم!!"

وأوضحت "الكشكول" الفرق من وجهة نظرها بين النحاس وصدقي في كاريكاتير نشر في ١ أغسطس ١٩٣٠ من مشهدين، في المشهد الأول، يفتح النحاس باشا لجون بول الباب على مصراعيه مرحبًا به قائلًا: "في عرضك اتفضل يا مستر جون بول خش بيتنا واحمينا"، أما في المشهد الثاني صدقي باشا يحاول جاهدًا بكل قوة أن يحول بين دخول "جون بول" من الباب، بعد محاولات "جون بول" الفاشلة في استمالته.

ومن الجدير بالذكر أن إسماعيل صدقي هو أحد رفقاء سعد زغلول في المنفى، وقد قرر الوفد اعتباره منفصلًا عن الحزب في يوليو ١٩١٩ لما نسب إليه من مخالفته مبدأ الوفد وخطته، بما يشكل أول انشقاق يحدث في الوفد[١]. ويبدو أن صدقي لم ينس هذا وراوده حلم أن يكون له حزب يرتكن عليه في حياته السياسية، فأسس في عام ١٩٣٠ حزب "الشعب" كحزب معاد للوفد طامعًا أن يلقى شعبية بالقدر الذي يناله الوفد أو أكثر. ومن المثير للسخرية أن الحزب الذي أسسه صدقي وهو في الحكم ليستند عليه في حياته قد لفظه واختار رئيسًا غيره وهو عبد الفتاح يحيى باشا إبراهيم الذي خلفه في الوزارة في ٢٧ سبتمبر عام ١٩٣٣.

وكنتيجة لإعلان دستور ٣٠ وقانون الانتخاب الجديد، قاطع حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين الانتخابات التي انعقدت في يونيو ١٩٣١، ليخلو بذلك البرلمان من أي وفدي للأربع السنوات التالية[٢]. واستفاد الحزب الجديد كثيرًا بمقاطعة الوفد للانتخابات ليفوز بأكثر من نصف مقاعد البرلمان. استفز هذا العديد من المصريين ونتج عنه أعمال شغب ضد القصر وضد نظام صدقي.

ونال بالفعل حزب صدقي شعبية ولكنها من نوع خاص. فقد أصبح حزبه طبقًا رئيسيًا على مائدة الكاريكاتير وأطلق عليه "حزب القش" دلالة على هشاشته وضعفه. ومن الجدير بالذكر أن "الكشكول" في ٢٣ أكتوبر ١٩٢٥، قد سبق وأن أطلقت على حزب "الاتحاد" بحزب من "قش"! في الكاريكاتير التالي، نجد صدقي منهمكًا في دراسة العديد

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١"، المرجع السابق، ص: ٣٥٨.

(٢) صلاح منتصر، "من عرابي إلى عبد الناصر: قراءة جديدة للتاريخ"، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.

من الأوراق التي تمثل التحديات التي تواجه حزبه الجديد والتي من أبرزها حزب "الوفد" ذو الشعبية وحزب "الأحرار الدستوريين" برئاسة محمد محمود والذي جاهد صدقي في ضمه لحزبه الجديد لكنه فشل، ومظاهرات "الطلبة" وهجوم "الصحف". وأعتقد أن المقصود بالصحف هنا الصحف المعارضة لحزبه من أمثال "المساء" و"السياسة". ومن ضمن التحديات التي أشار إليها الكاريكاتير، "لندن" و"المصروفات السرية" وأترك هنا العنان لخيال القارئ ليخمن دلالاتها وإن كان ثمة رابط بينها. ويشير الكاريكاتير إلى انشغال صدقي المبالغ بحزبه وبالتحديات التي تواجهه عن مشاكل مصر الحقيقية، فنجد الأزمة تخنق مصر، الممثلة في سيدة تتزين بالهلال، التي تصرخ وتستنجد قائلة: "الحقوني...أغيثوني...يا كفاءات...يا نبوغ...ياهو!" فيرد عليه صدقي دون أن يعيرها انتباهًا: "بلاش خوتة دماغ! مش فاضي...سلامتي أنا أولا... وسلامتك أنت بعدين."



شكل ٣٢: حزب القش!

(الصرخة، ١٨ نوفمبر ١٩٣٠)

في حين نشرت "الكشكول" كاريكاتيرًا ضد محاولات التهويل من "الأزمة" التي تم تصويرها في شكل أسد (إنجلترا) صغير الحجم يمسك بفمه طرف ملابس سيدة (مصر)، التي تعلقت في رقبة صدقي خوفًا منه، ليهدئ من روعها صدقي قائلًا: "أزمة إيه وبتاع إيه ما تخافيش، أنا مش النحاس ولا محمد محمود، أنا صدقي!!".



شكل ٣٣: الأزمة!
(الكشكول، ٤ مارس ١٩٣٢)

وبمناسبة مقاطعة الوفد والأحرار الدستوريين الانتخابات، نشر كاريكاتير في "الكشكول" في ١٦ يناير ١٩٣١ بعنوان "تحت جزمة جون" وفيه مصطفى النحاس باشا ومحمد باشا محمود يجلسان على الأرض كالشحاذين يحاولان استمالة "جون بول"، فيخاطب محمد باشا محمود جون بول قائلًا: "مادام مش راضي تخليني أنا والنحاس نبوس راسك هات جزمتك نبوسها". ليرد "جون بول" وظهره لهما قائلًا: "برده الله يحنن عليكم،" في إشارة إلى "تطلع" كلا الحزبين إلى تدخل إنجلترا لمساندتهما!!

كانت صحيفتي "الثغر" و"الاتحاد" ناطقتين باسم حزب الشعب، في مقابل صحف معارضة مثل "المساء" و"الضياء" و"الصرخة" و"السياسة". في الكاريكاتير التالي، أعضاء من حزب الشعب يستخدمون "الثغر" و"الاتحاد" كشمسيتين لتقيهم من مطر وعواصف صحف المعارضة. ولكن هيهات، فالشمسيتان صغيرتان بشكل مبالغ لا ينفعان بشيء تمشيًا مع عنوان الكاريكاتير: "المتغطي بهم عريان!"



شكل ٣٤: المتغطي بهم عريان!

(يقال أن أنصار النظام الجديد عدلوا عن إصدار جريدة جديدة تكون لسان حالهم، مكتفين بجريدتي الثغر والاتحاد؟!)

"-شمسية ايه دي اللي مش قادرة تحوش المطر ده كله عنا؟"

"-يا أخي احمد ربنا!...برده أحسن من مفيش خالص!"

(الصرخة، ١١ نوفمبر ١٩٣٠)

ولزيادة عدد أعضاء حزبه، قام صدقي بمحاولات عدة لإغراء حزب الأحرار الدستوريين برئاسة محمد محمود للانضمام لحزبه، إلا أنه فشل (شكل ٣٥). في ذلك الوقت، كان حزب الأحرار الدستوريين متعاونًا مع حزب الوفد في كفاحه لإنقاذ دستور ٢٣.



شكل ٣٥: صدقي وحزب الأحرار!

"كيف كان إسماعيل صدقي باشا يريد أن...يضم إليه حزب الأحرار!"

"(محمد محمود باشا): أنت عايز تضمني...وإلا عايز تخنقني؟!"

(الصرخة، ٤ نوفمبر ١٩٣٠)

وفي الكاريكاتير التالي صدقي منهمك في مكتبته يقرأ كتاب بعنوان "المستور في هدم الدستور" للتحضير لخطابه الذي سيلقيه في اجتماع حزبه في الغد.



شكل ٣٦: خطبة الغد؟!

"دولة رئيس الوزراء يشتغل في مكتبه في إعداد الخطبة التي سيلقيها غدا في إجتماع حزب الشعب"

(الصرخة، ٩ ديسمبر ١٩٣٠)

والكاريكاتير التالي يكشف عن حلم صدقي في أن يكون خلفًا لسعد زغلول وإن كان ينافسه في ذلك علي ماهر باشا الذي كان من أوائل الذين خرجوا من الوفد وكان يعمل في وزارة صدقي في ذلك الوقت والذي قاده طموحه السياسي إلى تقلد منصب رئيس الوزراء عدة مرات فيما بعد. يقول صدقي لعلي ماهر وهما يحاولان ارتداء بدلة سعد زغلول الغير ملائمة لمقاسهما: "بعد الانتخابات القادمة، سوف أصبح زعيم الأغلبية وخليفة سعد زغلول! " فيرد عليه علي ماهر قائلًا: "على مهلك شوية!...بدلة سعد باشا دي ما فيش حد يعرف يلبسها غيري!!".



شكل ٣٧: بدلة سعد زغلول؟!
(الصرخة، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٠)

اشتد الصراع ضد حكومة إسماعيل وضد السراي وضد دستور ٣٠، وعلا صوت المعارضة على الرغم من التضييق عليها، وتصاعدت مظاهر الاحتجاج والتي لم تخل من العنف ضد سياسة صدقي التي قابلها بالقمع مستندًا على الملك والاحتلال، وفي ١٣ نوفمبر ١٩٣٣ تم القبض على ثلاثة من محرري "الصرخة" لمقالاتهم التي كانت تحمل عناوين "يا شباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩" بقلم أحمد حسين، و"هل هذه وظيفة الجيش؟" بقلم فتحي رضوان، و"الإنجليز خصومنا" بقلم حافظ محمود[1].

واستمر الصراع لعودة الدستور خلال وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التي تألفت في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ووزارة محمد توفيق نسيم باشا التي تشكلت في ١٤ نوفمبر ١٩٣٤. وأثمرت مساعي نسيم باشا عن صدور أمر ملكي في ٣٠ نوفمبر ١٩٣٤ بإبطال العمل بدستور ١٩٣٠، وحل مجلسي البرلمان القائمين على أساسه، الأمر الذي استقبل بحفاوة شديدة حيث كان تتويجًا لكفاح الشعب خلال السنوات الأربع السابقة وإن لم يتم صدور أمر بعودة دستور ١٩٢٣، لتبقى البلاد بلا دستور.

وكانت الصحف الإنجليزية في ذلك الوقت تروج لفكرة دستور جديد يكون وسطًا بين دستور ٣٠ ودستور ٢٣ الذي وصفته صحيفة "الديلي تلجراف" (كما نشر في الأهرام في ٨ يناير ١٩٣٥) بأنه "وثيقة وضعت على عجل، وقامت على الطراز الأوروبي،

(١) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة". تقديم محمد حسنين هيكل، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٩٩ - ١٠٠.

برهنت الحوادث قبلًا على أنه لا يصلح للبلدان المتأخرة سياسيًا، وعلى أنه يلائم تمامًا سلطة الوفد وسيادته"[1].

تقدم نسيم بطلب إلى القصر يخير الملك بين أن يأمر بإعادة دستور ٢٣ أو أن يأمر بتأليف جمعية وطنية ترضاها البلاد لوضع دستور جديد، فآثر الملك إعادة دستور ٢٣، إلا أن القوى الوطنية لم تلحق أن تفرح بقرار الملك، فقد كان ولا بد للقوى السياسية أن تحصل على موافقة الحكومة البريطانية بعودة الدستور، ليأتي رد بريطانيا صادمًا ومخيبًا للآمال ومخالفًا لجميع التوقعات، فقد أصرت بريطانيا على موقفها المعارض من دستور ٢٣[2].

وقضى تصريح صمويل هور، وزير خارجية بريطانيا، في ٩ نوفمبر ١٩٣٥ على أي أمل في أن تعيد بريطانيا النظر في موقفها إزاء الدستور، التصريح الذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ليشتعل على إثره ثورة ١٩٣٥. فقد صرح هور بتمسك بريطانيا بموقفها برفضها عودة دستور ٢٣ أو دستور ٣٠، فالأول "قد ظهر أنه غير صالح، وأن الثاني لا ينطبق مطلقًا على رغبات الأمة"[3].

أثار تصريح هور حفيظة الشعب، فقامت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد تندد بما قاله هور وتهتف ضد الإنجليز وتنادي بإسقاط وزارة نسيم. بدأت المظاهرات في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥، اليوم المخصص للاحتفال بعيد الجهاد، وهو اليوم الذي توجه فيه سعد زغلول ورفاقه إلى المندوب السامي للمطالبة بالسماح لهم بالسفر لعرض مطالب مصر في مؤتمر باريس، مما شكل صفعة لبريطانيا التي لم تتوقع أن يشعل تصريح هور الاضطرابات في البلاد، ليعود بذاكرتها وقائع ثورة ١٩١٩. وبدأت المظاهرات بالطلبة التي قابلها البوليس بكل عنف ووحشية فأطلق عليهم النار ليكون أول شهداء هذه الثورة من طلبة الجامعة، لتثار حفيظة الأمة وتعلن الإضراب العام يوم ٢٨ نوفمبر حدادًا على أرواح الشهداء، فأغلقت المقاهي وتعطلت المصالح واحتجبت الصحف[4].

(١) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، دراسات في القومية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص: ٧٧٣.
(٢) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٧٥- ٧٧٦.
(٣) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٢.
(٤) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٤.



شكل ٣٨: تصريح هورا

توفيق نسيم: "يا سيدي ماتشوفوا قفل تركبوه على فم صمويل هور بتاعكم ده!! أديكم القفل اللي باستعمله!!"

جون بول: "وهوه صموئيل هور قال حاجه جديدة مانتش عارفها!!"

(روزاليوسف، عدد ٤٠٧)



شكل ٣٩: بعد خطاب السير صمويل هور!

جون بول: "يا مصري أفندي أنا آسف للمفاجأة الغير سارة اللي فوجئت بيها دي وماكنش لك في حساب"

المصري أفندي: "لا والله يا سيدي دي كانت في حسابي من زمان! دوّر على اللي فوجئوا بيها صحيح من يومين بس!!"

(روزاليوسف، ١٨ نوفمبر ١٩٣٥)

أهم ما يميز هذه الثورة أنها كانت ثورة شباب بدأت سلمية وعفوية ليست من تدبير أو صنع أحد بعيدةً عن أي قوى سياسية أو حزبية مدفوعة بشعور وطني عميق يهدف إلى تحقيق مطالب البلاد في الدستور والاستقلال، فلم يكن لها أي أهداف شخصية. وشهدت أيضًا الثورة حضور قوي ومشاركة من طالبات المدارس والجامعات جنبًا إلى جنب الطلبة الشباب. فلقد خرج الطلبة في مسيرة ضخمة من الجامعة واتجه معظمهم إلى ناحية كوبري الجلاء، وبعد أن اجتازوا الكوبري انضمت إليهم مظاهرة أخرى فزاد عددهم كثيرًا. ولما أرادوا اجتياز كوبري الاسماعيلية متجهين إلى الميدان (التحرير الآن) تعرضت لهم قوة من البوليس وحاولت منعهم بالقوة فحدث اشتباك بينهم. وأطلق الجنود الإنجليز الرصاص على المتظاهرين، ليقع عدد من القتلى والجرحى. وصمدت المسيرة وواصلت طريقها إلى الميدان، ثم تفرعت، فسار معظمها نحو ميدان عابدين واتجه عدد كبير إلى دار المندوب البريطاني، وهم يهتفون بسقوط الإنجليز وسقوط هور[(١)].

وصلت ثورة الطلبة صداها أنحاء أوروبا وبدأ مراسلو الصحف الأوروبية يرصدون أول بأول تطورات الموقف، فبعث مراسل صحيفة "الجورنا" الباريسية في القاهرة إلى صحيفته يقول في رسالة: "إن وجه الشبه بين الموقف اليوم وأوائل حركة الثورة في سنة ١٩١٩ لا تخفي على أحد، ولا على المقامات البريطانية نفسها. وإن التساهل في أمور ثانوية لن يكون بعد الآن كافيًا لتهدئة خواطر الأمة"[(٢)].

لم ترتقي هذه الثورة لتكون مثل الثورة الأم ١٩١٩ لا في الحجم ولا في الفترة الزمنية، إلا أنها كانت علامة فاصلة في تاريخ مصر السياسي، فقد استطاع الشباب تحقيق في مدة محدودة ما لم تستطع الأحزاب السياسية الأكثر علمًا ببواطن الأمور تحقيقه!

ويبدو أنه لم تكن فقط بريطانيا التي تفاجأت بثورة الشباب وقدرتهم على الضغط في الاتجاه الذي تنشده البلاد، إنما تفاجأ بهم أيضًا الأحزاب السياسية وعلى رأسها حزب الوفد والأحرار الدستوريين اللذان حاول كل منهما أن يستولي على حركة الشباب ويضمها تحت لوائه. ليس هذا فحسب، بل في ظل هذه الأحداث الفارقة في تاريخ الأمة نشبت الخلافات بين الأحزاب بعضها البعض والاتهامات المتبادلة، لتتصدع جبهة الشباب هي الأخرى نتيجة تأثرها بالجدال الدائر[(٣)].

(١) دكتور ضياء الدين الريس، "الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥"، الشعب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٧٦، ص: ٧٨.
(٢) دكتور ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص: ١٠٥.
(٣) دكتور ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص: ١٢١.

كان أهم الاختلافات التي طفحت على السطح وقتها هي حول ما يتعلق بقضيتي الدستور والاستقلال. فقد تبنى معسكر للشباب موقف الوفد المطالب بعودة الدستور أولًا والمشكك في نوايا الأحزاب الأخرى، بينما تبنى فريق آخر موقف الأحرار الدستوريين المطالب بالاستقلال أولًا والطاعن في أي رأي آخر، لتنتقل عدوى التراشق بالاتهامات والتشكيك في نوايا الآخر إلى معسكرات الشباب[1].

وسرعان ما اتحدت صفوف الطلبة مرة أخرى الذين ضاقوا بتفكك الأحزاب وتناثرها، فعلت أصواتهم مطالبة زعماء الأحزاب بالاتحاد ونبذ الخلافات وضغطوا وبشدة في سبيل إنشاء ائتلاف يضم كل القوى الوطنية. وبالفعل نزل الزعماء لرغبة الشباب وتم تأليف ما يسمى بالجبهة الوطنية في ديسمبر عام ١٩٣٥، والتي تضم كل من حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني وحزب الشعب وحزب الاتحاد، وفريق من المستقلين، والمعنية بالمطالبة بالاستقلال والدستور معًا[2].

ورحبت الرسوم الكاريكاتورية بالاتحاد الذي تم بين زعماء الأمة ونبذ الخلافات بينهم آملة أن يسفر هذا على نجاح المساعي المطالبة بالاستقلال والدستور! رسم رفقي في "روزاليوسف" "المصري أفندي" وهو يحمل علم مصر ويقود مسيرة الزعماء نحو تنفيذ مطالب الأمة. وفي كاريكاتير آخر، "المصري أفندي" محذرًا من الخروج عن الميثاق الوطني قائلًا: "وبعد هذا فلتنزل لعنة الله على من يخون الميثاق!" كما رسم رفقي تمثال "تآلف الزعماء" وفيه الزعماء يقفون مبتهجين بعد أن قضوا على أسد (بريطانيا) بغرس العلم المصري في جسده!

---

(٢) دكتور ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص: ١٢٢.

(٣) محمد زكي عبد القادر، "محنة الدستور ١٩٢٣-١٩٥٢"، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص: ٨٣.



شكل ٤٠: واجتمع الزعماء أخيرًا في سبيل مصر:

(روزاليوسف، ٢٣ ديسمبر ١٩٣٥)



شكل ٤١: الميثاق!

(روزاليوسف، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥)



شكل ٤٢: رمز الوحدة المقدسة أو تمثال تآلف الزعماء!

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)

قامت الجبهة في ١٢ ديسمبر بمطالبة الملك بإعادة الدستور، ومطالبة الحكومة البريطانية بتوقيع معاهدة بالنصوص التي انتهت إليها مفاوضات ١٩٣٠ (المعروفة بمشروع النحاس – هندرسون) بعد الاتفاق على البنود التي تخص السودان، وبالفعل استجاب الملك في نفس اليوم للمطلب الشعبي وأصدر أمرًا ملكيًا بإعادة دستور ١٩٢٣[١]، ليكون انتصارًا للأمة بشكل عام وانتصارًا للشباب بشكل خاص. ومن الطريف، أنه كان من ضمن من وقعوا على العريضة المطالبة بعودة الدستور إسماعيل صدقي شخصيًا[٢].

(١) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦". المرجع السابق، ص: ٧٨٧.

(٢) عصام محمد سليمان، "أزمة الحكم في مصر (١٩٠٩-١٩٥٢)"، مطبعة الفكرة شارع منشأة الفاضل، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤، ص: ٦٥.



زعلان ليه ؟ أهو كده زعلان

شكل ٤٣: زعلان ليه؟ أهو كده زعلان!

توفيق نسيم باشا: "أنا بس اللي بدي أعرفه أنت لسه زعلان ليه..رجعت لك الدستور وجبت قانون الانتخاب ... ليه زعلان

المصري أفندي: "واللي فات ده كان شوية ... لأ ... سيبني أنا زعلان!!"

(روزاليوسف، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥)

أكد ألكسندر صاروخان كيف أن سعد زغلول لم يمت في نظر المصريين وأن روحه ما زالت قادرة على حشد جموع الشعب في مظاهرات حاشدة ضد الإنجليز ومطالبة للاستقلال. فأحداث ثورة ١٩٣٥ أعادت إلى الأذهان ملابسات ثورة ١٩١٩. ففي كاريكاتير نشر بآخر ساعة، تبدو الدهشة على المندوب السامي البريطاني وهو يرى روح سعد زغلول مازالت قادرة على أن تقود المصريين في كفاحهم واحتجاجهم ضد الاحتلال البريطاني. فيسأله "المصري أفندي": "مالك ساكت كده ليه!...بتفكر في إيه...!" فيرد المندوب السامي: "بافكر لو كانوا اللي في لندن يقدروا يشوفوا المنظر ده معايا...كانوا يوفروا علي كتابة ألف تقرير وتقرير..."



شكل ٤٤: روح سعد زغلول!
(آخر ساعة، ١٣ يناير ١٩٣٥)

معاهدة الشرف والاستقلال:

كان عودة دستور ١٩٢٣ ووحدة الصف من الثمار التي جنتها ثورة الشباب، ليبقى الشق الثاني من المطالب الشعبية الخاص بالحصول على معاهدة تحقق لمصر الاستقلال.

في ذلك الوقت، تم تعيين أنتوني إيدن خلفًا لصمويل هور كوزير للخارجية، والذي أرسل في ٢٠ يناير ١٩٣٦ رد حكومته على المذكرة التي رفعتها له الجبهة الوطنية يتضمن قبول إنجلترا عقد الاتفاق مع مصر بشرطين، عدم التقيد بنصوص مشروع معاهدة ١٩٣٠، وضرورة الاتفاق أولًا على النصوص العسكرية في المعاهدة الجديدة كتمهيد للمفاوضات[1].

(١)عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٨.



شكل ٤٥: المعاهدة!

المصري أفندي: "يا جون بول يا خويا ... اذا كنت صحيح عاقل وبتفهم تعالى ساعدني في صيد السمكة [المعاهدة] دي ... واحنا الاتنين حنستفيد ... يالله يا شيخ ما تبقاش مغفل!!"

(روزاليوسف، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥)

لم يتردد الساسة طويلًا في الموافقة على شروط بريطانيا وإجراء مباحثات تمهيدية للاتفاق حول النصوص العسكرية، وبالفعل صدر مرسوم في ١٣ فبراير بتعيين هيئة رسمية لإجراء المفاوضات مع بريطانيا يرأسها مصطفى النحاس باشا وعدد من الأعضاء يمثلون جميع القوى السياسية الموجودة على الساحة، ماعدا الحزب الوطني الذي رفض المشاركة وقوفًا على مبدئه "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"(١).

عبر رفقي عن كم العقبات والقضايا التي تضعها بريطانيا أمام إتمام المعاهدة، فصور "المصري أفندي" على قمة جبل وأمامه كم من العوائق وضعت في طريقه إلى "المعاهدة" من "مناقشات مبدئية" و"المحالفة العسكرية" و"السودان" و"مفاوضات الحكومتين"، في نفس الوقت الذي يقف مقابلًا له "جون بول" يستعجله قائلًا: "أنا عاوز انتهي حالا يا مصري أفندي ... يالله بقى من فضلك وبلاش تعطيل ... تعالي بالعجل!" ليرد "المصري أفندي": "عجل في عينك ما تختشيش ... آجي ازاي والحواجز دي كلها في السكة وانت

(١)عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٩١.

اللي واضعها بأيدك!!!" كما رسم رفقي ضد التهديدات البريطانية وضد المحاولات البريطانية لفصل السودان عن مصر (انظر الرسوم التالية).



شكل ٤٦: المعاهدة أو سباق الحواجز!

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)



شكل ٤٧: من الذي يهدد؟!!

جون بول: "يا مصري أفندي ... اذا لم تنجح المفاوضات هذه المرة فالحكومة البريطانية مضطرة لأن تعيد النظر في علاقتها مع مصر!!"

المصري أفندي: "يا خواجه جون بول ... اذا لم تنجح المفاوضات هذه المرة فان مصر – حكومة وشعبًا – مضطرة لأن تعيد النظر في علاقاتها مع حكومتك ... انت فاهم والا لأ!!"

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)



شكل ٤٨: في طريق المفاوضات!

(المصري أفندي والسوداني أفندي)

"عهدي وعهدك في الهوى .. يا نعيش سوا يا نموت سوا ..!"

(روزاليوسف، ١٧ فبراير ١٩٣٦)

في ٢٦ أغسطس من عام ١٩٣٦، تم توقيع معاهدة بين بريطانيا وممثلها مايلز لامبسون ومصر وممثلها رئيس حزب الوفد ورئيس الوزراء مصطفى النحاس والتي لقبها بمعاهدة الشرف والاستقلال. كان من بنود المعاهدة التي يتحتم سريانها لعشرين عامًا أن تقوم بريطانيا بسحب قواتها من جميع أراضي مصر ما عدا عشرة الاف جندي تبقيهم على طول قناة السويس لحمايتها في وقت السلم. أما في وقت الحرب، لبريطانيا الحق في زيادة عدد جنودها وتحديد مواقع انتشارهم والحق في استخدام المطارات والموانئ والطرق المصرية وتتعهد الحكومة المصرية ببناء المعسكرات والطرق والكباري والسكك الحديدية اللازمة للقوات البريطانية. في مقابل مساعدة إنجلترا مصر على الدخول في عصبة الأمم وإلغاء الامتيازات الأجنبية، وتعود القوات المصرية للسودان الذي يبقى الوضع فيه على ماهو عليه حسب اتفاقية عام ١٨٩٩[1]. وبالفعل دخلت مصر عصبة الأمم عام ١٩٣٧ وتم إلغاء الامتيازات الأجنبية حسب قرار مؤتمر مونترو بسويسرا عام ١٩٣٩.

لعل حكومة النحاس رأت وقتها أن اختفاء وجه الجندي البريطاني من شوارع المحروسة هو بداية الطريق لجلاء القوات الإنجليزية تمامًا من مصر، إلا أن العديد من

() روبرت ستيفنس: Robert Stephens. (1971). Nasser: A political Biography. New York: Simon and Schuster.

المثقفين والمفكرين رأوا بأن هذه المعاهدة غير متكافئة وغير جيدة ولا تتفق مع الوعود لمصر في حقها في تقرير مصيرها بل هو مزيد من فرص السيطرة البريطانية على مصر. كما رأى المعارضون بأن في هذه المعاهدة إشارة بأن احكومة المصرية ستذعن لبريطانيا في وقت الحرب وهذا ما حدث في الحرب العالمية الثانية حيث أتاحت المعاهدة لبريطانيا الاستفادة من قواعدها في القناة. كما فشلت المعاهدة في التأكيد على مواضيع رئيسية مثل الشأن القومي والإصلاح الداخلي والتمثيل السياسي، فظهرت سلسلة من المظاهرات ضد الوفد وضد المعاهدة[٣].

وسجلت "روزاليوسف" رأيها في المعاهدة "النكبة" من خلال هذه المقطوعة الشعرية (غير موقعة) والمصاحبة لرسم كاريكاتوري!



الأوله آه . ٭ والتانيه آه . . ٭ والتالته آه . . . ٭ الأوله آه طلبنا معاهده ومحالفه ٭ والتانيه جيتم تقولوا إنجلترا حالفه ٭ والتالته جانا الجواب بعد الضنى مخالفه ٭ الأوله آه طلبنا معاهده ومحالفه . تساعدكم ٭ والتانيه جيتم تقولوا إنجلترا حالفه . تعاهدكم ٭ والتالته جانا الجواب بعد الضني مخالفه . على إيدكم ٭ الأوله آه طلبنا معاهده ومحالفه . تساعدكم . وفيها خلاص ٭ التانيه جيتم تقولوا إنجلترا حالفه . تعاهدكم . على الاخلاص ٭ والتالته جانا الجواب بعد الضنى مخالفه . على إيدكم . ورقبها رصص ٭ آل إيه وافقتم وفاض عا الختام خطوات ٭ منها السودان والنقط والارض والسموات ٭ الله يجازي السبب في النكبه دي بالذات ٭ الأوله آه . ٭ التانيه آه . . ٭ التالته آه . . .

شكل ٤٩: الله يجازي السبب في النكبة دي بالذات!

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)

() روبرت ستيفنس: المرجع السابق.

ويرجع حرص الإمبراطورية البريطانية على توقيع هذه المعاهدة هو قلقها من مدى موالاة مصر لها خاصة بعد أن تأزم الصراع الداخلي وتأججت شعلة المقاومة ضدها. وكيف لا تقلق ومصر تعد بالنسبة لها موقع استراتيجي حرج وتمثل قناة السويس لها صمام الأمان ومورد مالي مهم. كما استوعبت الإمبراطورية ايمان الشعب المصري بالمثل القائل "عدو عدوي صديقي" وهذا كفيل بأن يفتح الشعب المصري الباب لأعدائها من صغائر القوى العظمى آنذاك، خاصة بعد اعتداءات ايطاليا على مصالحها في أثيوبيا. ولهذا كان لابد من إبرام معاهدة مع مصر للتأكد من موالاتها لها في حالتي السلم والحرب وتتيح لها مزيد من السيطرة على قناة السويس وبشكل قانوني.

وفي عام ١٩٥١ وتحت حكومة أخرى برئاسة النحاس باشا، عرضت بريطانيا معاهدة جديدة تفيد بانسحاب الجنود البريطانيين بحلول عام ١٩٥٦ اذا وافقت مصر على عدد من الترتيبات الدفاعية مع بقاء السودان كموضوع منفصل عنها. العرض قابله رفض شعبي كامل وتم إلغاء المعاهدة في ٨ أكتوبر ١٩٥١ ونودي الملك فاروق ملكًا لمصر والسودان[١]. وقال النحاس باشا وقتها عبارته المشهورة: "من أجل مصر وقعت على المعاهدة ومن أجل مصر أعلن إلغائها".

ظهر في هذه الفترة أول رسام مصري وهو محمد عبد المنعم رخا، الذي سجن أربع سنوات بسبب كاريكاتير له في مجلة "المشهور" في الثلاثينات بتهمة "العيب في الذات الملكية"، وعمره آنذاك ٢٢ عامًا. يرى رخا بأنه بالرغم من بغضه للملك فؤاد وللسراي إلا أنه لم يرتكب ذلك "العيب"، ويعتقد أن ما حدث إنما مكيدة مدبرة من قبل إسماعيل صدقي انتقامًا منه بسبب رسومه التي تسخر منه وتنتقد سياساته[٢]. فقد كان الكاريكاتير "المشكلة" الذي سلمه رخا للطباعة يظهر فيه محرر ممسكًا بورقة ويسأله رئيس التحرير قائلًا: "تفتكر يكون إيه موضوع افتتاحية هذا العدد من المجلة؟" ليرد عليه رئيس التحرير قائلًا: "سيب السياسة..واكتب عن أسعار الفجل والكرات". إلا أن الكاريكاتير ظهر بعد الطبع وعلى الورقة التي بيد المحرر عبارة بخط دقيق (من الصعب رؤيتها بدون عدسة مكبرة) "فليسقط الملك" وإلى جانبها عبارة سباب تبدأ بكلمة "ابن..."[٣]!

(١) ديريك هوبوود: Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.
(٢) سعيد أبو العينين، "رخا..فارس الكاريكاتير"، أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص: ٤.
(٣) سعيد أبو العينين، المرجع السابق، ص: ٦٥.

وكان لرخا تجربة صحفية مبكرة، فقد أصدر مجلة فكاهية "اشمعنى" تعتمد في المقام الأول على كاريكاتيره البارع، إلا أنه لم يستمر لأكثر من عددين أو ثلاثة بعد أن ناء بأعبائها المالية.

في الكاريكاتير التالي يقارن رخا بين من يحتفلون بتوقيع المعاهدة ويقصد بهم الحكومة، وبين من قيدوا ببنود المعاهدة ويقصد بهم الشعب المصري. فقد صور حكومة النحاس باشا وهي تجوب الشوارع احتفالًا بتوقيع المعاهدة، في الوقت الذي يقف فيه "ابن البلد" (شخصية كاريكاتورية نتاج ابداع كل من رخا والكاتب الصحفي مصطفى أمين) مذهولًا ومتسائلًا عن مغزى الاحتفال وهو مكبلًا من إحدى رجليه بقيود المعاهدة.



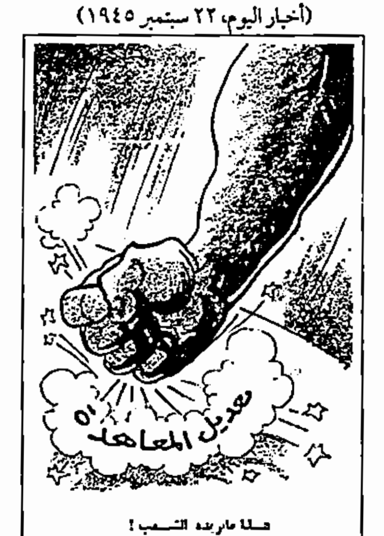
شكل ٥٠: موكب الاستقلال!
الذين "وقعوا" المعاهدة....والذي "وقع" فيها!
(أخبار اليوم، ٢٥ أغسطس ١٩٤٥)

وصف رخا معاهدة ١٩٣٦ بالعبء لثقيل (شكل ٥١) الذي وقع على كاهل ابن البلد (الشعب المصري) الذي يعاني من حمله قائلًا: " أنا مستعد أشيلها فوق راسي...بس لو يشيلوا المواد الثقيلة اللى فيها!". وفي كاريكاتير آخر (شكل ٥٢) تأكيد على أن تغيير المعاهدة هو بالفعل ما يريده الشعب المصري.



شكل ٥١: حمل ثقيل!

(أخبار اليوم، ٢٢ سبتمبر ١٩٤٥)



شكل ٥٢: هذا ما يريده الشعب!

(أخبار اليوم، ١ سبتمبر ١٩٤٥)

لم تعط بنود المعاهدة بريطانيا الآمان الذي تنشده بل على العكس أثرت كثيرًا في علاقتها بالشعب المصري وتسببت في زيادة حدة المقاومة إلى الدرجة التي أصبح من الضروري جلاء بريطانيا تمامًا عن مصر للحفاظ على البقية الباقية من إمكانية حدوث تعاون مشترك بين البلدين في المستقبل. صور رخا "ابن البلد" وهو يحمل قرطاس (بنود المعاهدة) وقد تمزق من بين يديه ليسقط "الحلف العسكري" و"المصالح المشتركة"

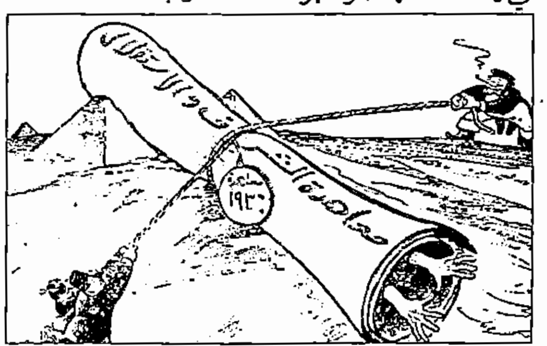
و"الصداقة" و"التعاون" و"الإخلاص". فيستنجد صدقي بجون بول وهو يشير إلى قرطاس آخر (الجلاء) قائلًا: الحقنا بالقرطاس ده بقى..قبل الحاجات المهمة ما تقع من ايده!



شكل ٥٣: بنود المعاهدة!

(أخبار اليوم، ٢٥ أغسطس ١٩٤٦)

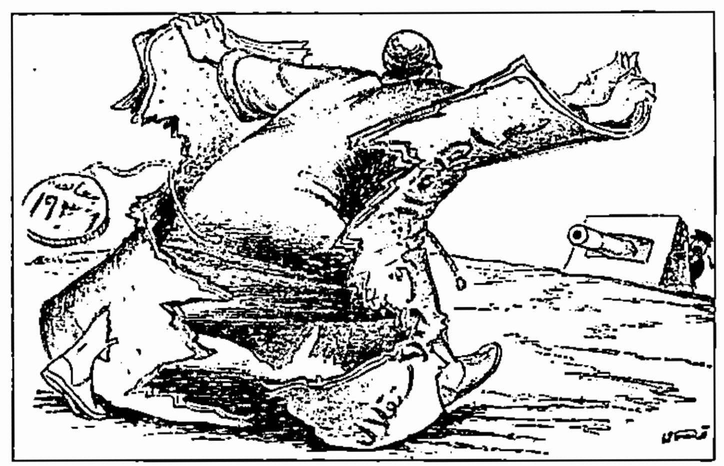
ورسم زهدي العدوي عن المعاهدة في مشهدين: المشهد الأول وفيه مصر على هيئة رجل داخل كفن يمثل ورقة المعاهدة، وقد أحكم غلق الكفن عليه بشدة كل من جون بول ممثلًا لبريطانيا من ناحية ومصطفى النحاس مثلًا للحكومة المصرية وحزب الوفد من ناحية أخرى. والمشهد الثاني وفيه مصر وقد نهضت ممزقة المعاهدة ومواجهة بثقة وبلا خوف المدفعية البريطانية التي يقف خلفها جون بول خائفًا مترقبًا.



شكل ٥٤: معاهدة الشرف والاستقلال !!

(زهدي العدوي، ١٩٥٢)[1]

(١) زهدي العدوي، قلم صلاح حافظ، "بداية المعركة"، دار الفن الحديث، ١٩٥٢، ص: ١٧٥.



شكل ٥٥: معاهدة الشرف والاستقلال !٢
(زهدي، ١٩٥٢)[١]

حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢

اندلاع الحرب العالمية الثانية دفع بريطانيا إلى السعي بجدية لتشكيل حكومة في مصر تكون موالية لها ومعادية لكل من إيطاليا وألمانيا، خاصة بعد اندلاع مظاهرات في أرجاء المحروسة تدعو الجنرال روميل بدخول مصر عملًا بالمثل القائل: "عدو عدوي صديقي"، فلم يكن تعاطفًا مع المحور أو إيمانًا بالفاشية إنما كان لكراهية وشماتة في المحتلين الإنجليز. في الوقت نفسه ساءت بشدة علاقة الملك فاروق بالسفير البريطاني السير مايلز لامبسون الذي كان يستشيط غضبًا عندما يسخر منه فاروق ويناديه بالعربية "جاموس باشا"، الحنق الذي دفع لامبسون إلى مناقشة لندن في إمكانية عزل "الصبي" في وقت مبكر من عام ١٩٤٠[٢].

في ٤ فبراير من عام ١٩٤٢، لم يشأ السفير البريطاني أن يترك أي شيء للصدفة خاصة في ذروة مظاهرات الطلبة المؤيدة للألمان، وأراد التأكد من أن رئيس الوزراء الذي سيتم

(١) زهدي العدوي، المرجع السابق، ص: ١٧٧.
(٢) وليم ستاديام: William Stadiem. (2009). Too Rich: The high life and tragic Death of King Farouk. Parkway Publishing: London.

تعيينه من اختياره هو وليس من اختيار فاروق. ويعتقد الرئيس السابق محمد أنور السادات في كتابه "أسرار الثورة المصرية" بأن قصة المظاهرات التي سارت ليلًا تهتف "إلى الأمام يا روميل، التي اتخذتها بريطانيا ذريعة لحادثة ٤ فبراير كانت مدبرة لإيجاد "مبرر تستند إليه الدعاية البريطانية عندما يتخذ الإنجليز هذا الإجراء الشاذ في نوعه..وقد تحقق هذا الهدف، واستطاعت إنجلترا أن تفرض على الملك حكومة النحاس"[١].

يذكر المؤرخ محمد أنيس أن فاروق كان قد اجتمع بزعماء الأحزاب في يوم سابق في محاولة لتأليف وزارة ائتلافية برئاسة مصطفى النحاس باشا تضمن مشاركة الوفد ولكن في نفس الوقت عدم انفراده بالحكم، إلا النحاس رفض تشكيل إلا وزارة وفدية. ووصل أمر الاجتماع إلى مسامع لامبسون فأبلغ رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا برفض إنجلترا وزارة ائتلافية ورغبتها في أن يؤلف النحاس وزارة وفدية بحتة. وسلم السفير البريطاني رئيس الديوان إنذارًا كان نصه: "إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة، فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث"[٢].

نتيجة لذلك دعا فاروق الزعماء مرة أخرى وأطلعهم على فحوى الإنذار، ليحتدم النقاش بينهم والاقتراحات ويتمسك النحاس برفضه تشكيل وزارة قومية، لينتهي الاجتماع بموافقة الزعماء بالإجماع بتقديم قرارًا مكتوبًا موضحًا فيه أن الإنذار يتنافى مع استقلال مصر وسيادتها، والذي تم توصيله بالفعل بواسطة أحمد حسنين إلى السفارة، ليكون جواب السفير عليه: "سأوافيكم برأيي في الساعة التاسعة". وبالفعل وقبل الساعة التاسعة بقليل كان السفير قد حضر إلى قصر فاروق، ولكن ليس بمفرده إنما في صحبته جنرال ستون قائد القوات البريطانية في مصر وعدد من الدبابات والعربات المصفحة التي حاصرت القصر من جميع الجهات، ليقدم لفاروق صك التنازل عن العرش[٣].

وأخيرًا حانت اللحظة التي تمناها لامبسون، فقد انعكست الأدوار وسخر لامبسون

(١) أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية"، تقديم جمال عبد الناصر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص: ٦٩.

(٢)الدكتور محمد انيس، "٤ فبراير ١٩٤٢: في تاريخ مصر السياسي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص: ١٣.

(٣) الدكتور محمد إنيس، المرجع السابق، ص: ١٢-١٦.

المرة من فاروق، واستوعب فاروق كيف تكون بريطانيا وهي تكشر عن أنيابها، وبالتالي لم يكن أمامه إلا أن يرضخ لطلب لامبسون ويصدر قرارًا بتشكيل حكومة وفدية برئاسة مصطفي النحاس. هذه الحادثة استفزت المصريين وكانت دليلًا ماديًا على مدى النفوذ البريطاني ومدى ضعف الملك.

لا أحد يستطيع أن يجزم لماذا اختارت بريطانيا النحاس تحديدًا لرئاسة الحكومة مع إنه وفدي. هناك من يرجح ارتياح البريطانيون الشخصي في التعامل معه بعد أن أسفرت المفاوضات معه عن توقيع معاهدة ٣٦، وهناك من يرجح أنه بحكم كونه زعيم حزب الأغلبيه فإنه قادر على ضمان استقرار الأمور ووضع حد لأي اضطرابات قد تعوق الجهود الحربية للقوات البريطانية. لكن لم يكن هذا مبررًا كافيًا لدى الرأي العام المصري. بل على العكس، بعد أن شكل النحاس الحكومة تحت التهديد البريطاني، فقد الوفد الكثير من مصداقيته وأصبح يرى على أنه حزب موالي للإنجليز.

وقدم السادات تحليلًا آخر لسبب إقدام إنجلترا على فرض حكومة النحاس بهذا الشكل المذل للملك، وهو أن إنجلترا كانت ترى أن هناك تقاربًا بين الملك وشعبه من ناحية وبين الملك والجيش من ناحية أخرى، "فقد كان الملك في نظر الشعب وفي نظر الجيش أيضًا.. شابًا وطنيًا، وكان محبوبًا..ورأت إنجلترا أن هذا التقارب سيوجد جبهة متحدة من الجيش والشعب، فأرادت أن تحطم هذه الجبهة، وأن تعزل الجيش عن الشعب، وكان يوم ٤ فبراير هو الوسيلة لذلك..فقد صممت إنجلترا فيه على تكليف النحاس –زعيم الشعب– بتشكيل الوزارة، فأصبح الشعب بذلك في ناحية، والملك والجيش في الناحية الأخرى..وبدأت إنجلترا بعد هذا تقيم سياستها على أساس غزل الجيش عزلًا كاملًا عن الشعب بتبغيضه إليه، وإشعار الشعب بأن جيشه هو السوط الذي سيلهب ظهره بإسم الملك" (١).

ويرى محمد أنيس أن سبب تمسك النحاس بالوزارة الوفدية ورفضه فكرة الوزارة القومية يرجع إلى تجربته المريرة في الوزارة القومية عام ١٩٢٨، والتي كانت تعج بالمؤامرات وتكتلات الأحزاب داخل الوزارة وضده، ونتيجة لذلك اقترنت سياسة الوفد بعد ١٩٢٨ برفض فكرة الوزارة القومية(٢).

(١) أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية"، المرجع السابق، ص: ٧٠-٧١.

(٢) الدكتور محمد انيس، "٤ فبراير ١٩٤٢: في تاريخ مصر السياسي"، المرجع السابق، ص: ٢٧.

ويعتقد بعض المفكرين أنه كان على النحاس رفض العرض البريطاني حتى وإن أمره الملك بذلك. فهم يرون أن موافقة النحاس على العرض وهو يعلم مسبقًا أنه تحت تهديد بريطاني كان بمثابة خيانة.

وعكست العديد من الرسوم الكاريكاتورية هذا المغزى، مع العلم أنه لم ينشر أي كاريكاتير يشير إلى حادثة فبراير في وقت حدوثها. فقد ظهرت الرسوم تتابعًا بعد سنتين من الحدث وهي عمر وزارة النحاس التي انتهت في أكتوبر ١٩٤٤ والتي خلفها حكومة أحمد ماهر باشا الذي أغتيل في ٢٤ فبراير من عام ١٩٤٥. وقد نشرت الرسوم في أخبار اليوم التي تتبع سياسة معادية للوفد. ويرجع عدم نشر الرسوم التي تتناول حادثة ٤ فبراير في الغالب إلى الأحكام العرفية التي فرضت مع إعلان الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤٥.

في الكاريكاتير التالي، يقود النحاس دبابة إنجليزية ويحاصر قصر عابدين ليصادر منصب رئيس الوزراء. وفي كاريكاتير آخر (شكل ٥٦)، "النفوذ البريطاني" على هيئة حذاء كبير يدوس على جسد النحاس وهو مستلقي نائمًا غير عابئ بما يدور حوله ويحلم بدبابة إنجليزية ستحقق له طموحاته.



شكل ٥٦: ذكرى ٤ فبراير !!

صورة فنية وضعها رسام عالمي، تصور حادثة ٤ فبراير. وهي تنشر اليوم لأول مرة.

(أخبار اليوم، ١٧ نوفمبر ١٩٤٥)

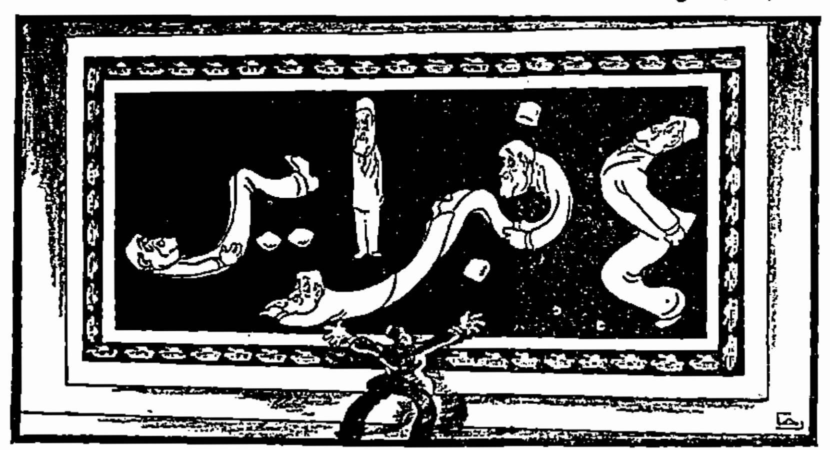


: اعترف النحاس باشا انه لما علم ان الدبابات حاصرت قصر عابدين في ٤ فبراير قال استسلم؟
الرجل الذى نام فى ٤ فبراير سنة١٩٤٢ ولم يستيقظ الى الآن!

شكل ٥٧: ذكرى ٤ فبراير ٢!

(أخبار اليوم، ٦ ديسمبر ١٩٤٧)

وأجد أن من أبدع ما رسم رخا لهذه المناسبة لوحة كاريكاتورية (شكل ٥٦) فنية فيها يتمايل جسد النحاس باشا ويتلوى ليشكل كلمة "٤ فبراير"، في حين تشكل الدبابات البريطانية إيطار اللوحة.



النحاس باشا فى محكمة الجنايات
الرجل الذى اراد ان يخفى ٤ فبراير

شكل ٥٨: النحاس باشا في محكمة الجنايات!

الرجل الذي أراد أن يخفي ٤ فبراير

(الأخبار، ٦ ديسمبر ١٩٤٧)

وفي كاريكاتير آخر، جون بول يحاول إقناع "ابن البلد" أن ينسى حادثة فبراير ويبدءا معًا صفحة جديدة، في حين يصر "ابن البلد" على عدم نسيانها طالما تتواجد العسكرية البريطانية بمصر.



شكل ٥٩: الصفحة السوداء!

جون بول: مانسى الصفحة دي بقى!

ابن البلد: ما أقدرش أنساها مادام في مصر دبابة إنجليزية أو عسكري إنجليزي!

(أخبار اليوم، ٢٤ فبراير ١٩٤٥)

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥):

بعد قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ بين دول الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة) وبين دول المحور (ألمانيا وايطاليا واليابان) توترت الأجواء داخل مصر من جراء الحرب، وفرضت رقابة صارمة على الصحف وأعلنت الأحكام العرفية وأتخذت بريطانيا التدابير اللازمة لتأمن موالاة مصر لها وكان آخرها حادثة ٤ فبراير.

عمليًا، شاركت مصر في الحرب ضد الألمان منذ سبتمبر ١٩٣٦، فقد كانت الأراضي المصرية والمطارات والمستودعات تستخدم لصالح بريطانيا. لكن رسميًا، لم تعلن مصر الحرب ضد دول المحور حتى ٢٤ فبراير من عام ١٩٤٥. وكنتيجة لذلك، بعد انتهاء الحرب استطاعت مصر أن تشارك في مؤتمر السلام الذي انعقد في سان فرانسيسكو في ٢٥ إبريل من عام ١٩٤٥، آملة في تحقيق حلم الاستقلال التام.

وقد كانت الرسوم الكاريكاتورية وقتها ترقب بحرص تطورات الحرب العالمية الثانية، وبعد انتهاء الحرب، كانت تركز على مسألة الاستقلال. فقد أكد رخا في إحدى

رسومه بأنه بعد انتهاء الحرب لم يبقى لمصر إلا عدو واحد وهو الاستعمار. وفي كاريكاتير آخر، يؤكد "ابن البلد" أن الحرية باتت شغل شاغل المصريين الآن قائلًا لرئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل: "عجبني صوت أجراس النصر...لكن يعجبني أكثر أن أسمع أجراس الحرية كمان!"



والآن بقي عدو واحد

شكل ٦٠: والآن بقي عدو واحد!

(أخبار اليوم، ١٨ أغسطس ١٩٤٥)

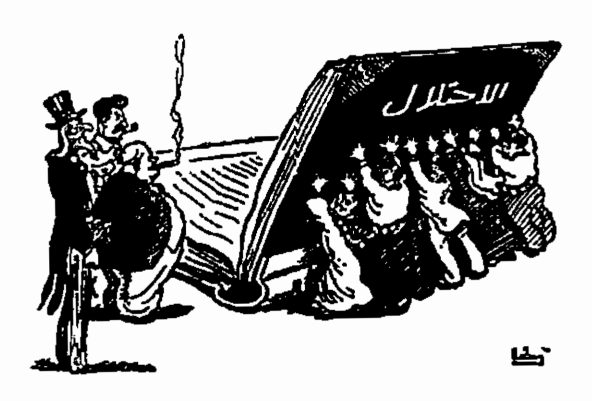


ابن البلد لمستر تشرشل ـ عجبني صوت اجراس النصر ... لكن يعجبني أكثر ان اسمع اجراس الحرية كمان ..

شكل ٦١: أجراس الحرية!

(أخبار اليوم، ١٢ مايو ١٩٤٥)

وفي كاريكاتير آخر، ينصح "ابن البلد" القادة الثلاثة (ستالين وروزفلت وتشرشل) بأن ينهوا الاحتلال أولًا اذا كانوا يعنون فعلًا بالسلام مع الدول العربية. ويستغرب "ابن البلد" في كاريكاتير آخر هيمنة القادة الثلاثة على العالم. ويؤكد "ابن البلد" في كاريكاتير آخر حقيقة أن بريطانيا لا تهتم إلا بمصلحتها ولا يعنيها مصلحة مصر. ففي الكاريكاتير، "ابن البلد" و"جون بول" ينظران إلى سبورة كتب عليها بخط كبير "المصالح البريطانية" وتحتها بخط صغير جدًا "المصالح المصرية" و"جون بول" يقول: "أنا موش قادر أشوف السطر الثاني لأنه صغير!" فيرد عليه "ابن البلد" مهددًا: "ماهو لو ما شفتش انت السطر الثاني... ما أقدرش أنا أشوف السطر الأول!"



شكل ٦٢: الاحتلال!

ابن البلد: إذا كنتم عاوزين تفتحوا صفحة جديدة للسلام...لازم تساعدونا نقفل الكتاب ده!

(أخبار اليوم، ٥ مايو ١٩٤٥)



شكل ٦٣: الاقطاب الثلاثة!

(أخبار اليوم — ٢ يونيو ١٩٤٥)



شكل ٦٤: المصالح البريطانية!

"جون بول – أنا موش قادر أشوف السطر الثاني لانه صغير!"

"ابن البلد – ماهو لو ما شفتش انت السطر الثاني...ما أقدرش أنا أشوف السطر الاول!"

(أخبار اليوم، ١٤ يوليو ١٩٤٥)

انتهت الحرب بسقوط القنابل الذرية على هيروشيما وناجاساكي من قبل الولايات المتحدة والتي بها غيرت خريطة العالم وأنشأت نظامًا عالميًا جديدًا. وفي ٢٥ ابريل من عام ١٩٤٥، انعقد مؤتمر سان فرانسيسكو بحضور مندوبي ٥٠ دولة لإنشاء منظمة الأمم المتحدة ذات شرعية تؤهلها حل النزاعات سلميًا والمساعدة في حل المشاكل الأمنية والاقتصادية والاجتماعية العالمية. في الكاريكاتير التالي، "ابن البلد" ممثلًا لمصر في طريقه لمؤتمر السلام وهو حاملًا على عاتقه المطالب الوطنية ومطالب الدول العربية الأخرى في تحقيق استقلالها. وفي كاريكاتير آخر، يؤكد "ابن البلد" بأنه لن يحدث سلام شامل إذا تم التغاضي عن مطالب الدول الصغيرة. وفي كاريكاتير آخر، "ابن البلد" ممثلا هذه المرة للدول الصغيرة في معضلة كبيرة، فهو عليه أن يختار بين القنبلة الذرية أو القبول بميثاق سان فرانسيسكو.



شكل ٦٥: المطالب الوطنية!

(أخبار اليوم — ١٠ مارس ١٩٤٥)



شكل ٦٦: استقلال الشعوب الصغيرة!

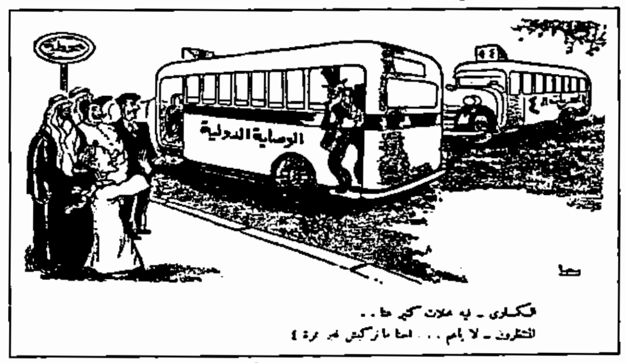
(أخبار اليوم — ١٤ ابريل ١٩٤٥)



شكل ٦٧: الدول الصغيرة بين نارين!

(أخبار اليوم، ٢٥ أغسطس ١٩٤٥)

وأعلن الرئيس الأمريكي فرنكلين روزفلت في خطاب أمام الكونجرس في يناير عام ١٩٤١ الحريات الأربع كقاعدة أساسية لسياسة أمريكا الخارجية وهي: حرية الرأي والتعبير وحرية التدين والتحرر من الحاجة والتحرر من الخوف. في الكاريكاتير التالي، "ابن البلد"، ممثلًا لمصر، مع بقية الدول العربية وتشمل المملكة العربية السعودية ولبنان وسوريا والعراق يرفضون ركوب حافلة تتبع الوصايا الدولية التي أعلنها مؤتمر سان فرانسيسكو ومصرين على انتظار حافلة الحريات الأربعة.



شكل ٦٨: الحريات الأربعة!

"الكمساري: فيه محلات كتير هنا.."

"المنتظرون: لا ياعم...احنا ما نركبش غير نمرة ٤"

(أخبار اليوم، ١٢ مايو ١٩٤٥)



شكل ٦٩: الوصايا الدولية!

ابن البلد – الدول العربية عاوزه ست شقق يطلو على الناحية دي

(أخبار اليوم – ٢٨ ابريل ١٩٤٥)

حرب فلسطين ١٩٤٨:

من يتبصر في دهاليز حرب فلسطين ١٩٤٨ يستوعب ما آل إليه العرب الآن ويجده منطقيًا، فلقد اختارت بعض الحكومات العربية الخيانة والعمالة للإنجليز وباعوا القضية الفلسطينية من قبل أن تبدأ انتصارًا لمصالحهم الشخصية وأطماعهم التوسعية. فلقد وقعت أرض فلسطين بين براثن الأطماع الاستعمارية و لتنظيمات الصهيونية والمصالح الشخصية لبعض ملوك وأمراء العرب.

وضعت الدول العربية التي تتبع الدولة العثمانية آمالًا كبيرة على بريطانيا لنيل حريتها، إلا أنه فيما يبدو قد بالغوا في الوثوق بها، فوفقًا للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي، أخلفت بريطانيا وعودها التي بذلتها وتعهدها باستقلال البلاد العربية مقابل إعلانها الثورة على الدولة العثمانية[1].

ويضيف المؤرخ الإسرائيلي إيفي شليم، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة إكسفورد، بأن الملك الحسين بن علي (١٨٥٢-١٩٣١) قد تآمر بحذر من أجل تحقيق طموحه لإقامة مملكته الهاشمية، فقد تفاوض في هذا الشأن علنًا مع الأتراك وسرًا مع بريطانيا، وبسبب رفض الأتراك مطالبه التوسعية جعله يميل أكثر في اتجاه بريطانيا. وباندلاع الحرب العالمية الأولى في أغسطس ١٩١٤ أصبحت بريطانيا أكثر تقبلا لعروضه[2].

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٣٩٩.

(٢) ايفي شليم:
Avi Shlaim. (2008). Lion of Jordan: The Life of King Hussein In War And Peace. New York: Alfred A. Knopf.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت الإمبراطورية العثمانية قد فقدت جميع مقاطعاتها العربية في حين فرض الأمراء الهاشميين أنفسهم متحدثين بلسان القضية العربية القومية في مؤتمر فرساي للسلام عام ١٩١٩، وذلك لمساهمتهم في المجهود الحربي لصالح قوات التحالف ضد الأتراك، وقد وعدتهم بريطانيا "سرًا" بدعم استقلال الدول العربية لتكون تحت أمرتهم. ولم يستطع الحسين الصبر حتى يرى حلم مملكته الهاشمية_ والتي من المفترض أن تشمل شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق_ أمامه حقيقة فأعلن نفسه "ملك البلدان العربية". في البداية رفضت بريطانيا الاعتراف به ثم اعترفت به كملك للحجاز فقط[1].

إلا أن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن، فقد وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس بيكو Sykes-Picot سرًا في مايو ١٩١٦، والتي مفادها تقسيم الهلال الخصيب الذي يضم سوريا الحديثة ولبنان والعراق والأردن وفلسطين إلى مناطق ذو نفوذ بريطاني وفرنسي، وهي البلاد التي وعدت بريطانيا بإعطائها لحسين. كما وعدت الحكومة البريطانية اليهود "علنًا" على لسان وزير خارجيتها آنذاك اللورد بلفور عام ١٩١٧ بتمكينهم بإقامة وطن قومي لهم على أرض فلسطين فيما يسمى بوعد بلفور، لنجد أن أرض فلسطين قد وعدت مرتين من قبل بريطانيا[2].

عندما وصل هذا الإعلان إلى مسامع الحسين انزعج بشدة وطلب من بريطانيا توضيح معناه، فأكدت بريطانيا في رسالة وجهت له تأكيد الحلفاء بإعطاء العرب فرصة كاملة لتشكيل وطن قومي لهم يكون هو ملكًا عليه. فتوهم حسين بأن استيطان اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب في هذا البلد الذي سيصبح تحت امرته. إلا أن موقفه ما لبث أن تغير مع رفض بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب في فلسطين، وهنا شعر الحسين بالخيانة وأيقن أن بريطانيا قد خرقت عهدها معه[3].

وتم انشاء جامعة الدول العربية بموجب بروتوكول الإسكندرية في ٧ أكتوبر ١٩٤٤، وتم إقرار ميثاق الجامعة والتوقيع عليه في ٢٢ مارس ١٩٤٥، والذي يعتبر يوم الاحتفال بالعيد السنوي للجامعة، ومع ذلك لم تعمل وتتخذ عملًا جديًا في تحقيق الوحدة أو الاتحاد بين العرب، "وكانت بريطانيا لا تفتأ تفرق بينهم بالمؤامرات والدسائس، معتمدة على ولاء الحكام من عملائها وأنصارها"[4].

(١) ايفي شليم، المرجع السابق.
(٢) ايفي شليم، المرجع السابق.
(٣) ايفي شليم، المرجع السابق.
(٤) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، المرجع السابق، ص: ٤٠٢.

والحق أن جامعة الدول العربية وقت انشائها كانت تجوب الدول العربية التوترات والانشقاقات والصراعات سواء ضد المحتل الأجنبي أو ضد بعضها البعض، ورأت الجامعة مبكرًا انشقاقًا في صفوفها، فقد شكلت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية محورًا يستهدف حصر الهاشميين والحيلولة دون نجاحهم ككتلة إقليمية في المشرق العربي، وبالتالي عملوا على عرقلة الملك عبد الله عن تحقيق حلمه، مشروع سوريا الكبرى *، كما وقفوا كحلف ضد العراق الذي كان يحكمه الهاشميون والذي كان يسعى هو الآخر إلى تحقيق مشروع الهلال الخصيب، وبالتالي كان لا يعترض كثيرًا على مخططات الملك عبد الله[(١)].

وقد أدرج قرار خاص بفلسطين في بروتوكول الإسكندرية وكان نصه: "ترى اللجنة أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية. كما ترى اللجنة أن التعهدات التي ارتبطت بها الدولة البريطانية والتي تقضي بوقف الهجرة اليهودية والمحافظة على الأراضي العربية والوصول إلى استقلال فلسطين هي من حقوق العرب الثابتة لتي تكون المبادرة إلى تنفيذها خطوة نحو الهدف المطلوب ونحو استتاب السلم وتحقيق الاستقرار. وتعلن اللجنة انها ليست أقل ألما من أحد لما أصاب اليهود في أوروبا من الويلات والآلام على يد بعض الدول الأوروبية الدكتاتورية. ولكن لا يجب أن يخلط بين مسألة هؤلاء اليهود وبين الصهيونية - إذ ليس أشد ظلمًا وعدوانًا من أن تحل مسألة يهود أوروبا بظلم آخر يقع على عرب فلسطين على اختلاف أديانهم"[(٢)].

وفاق العرب على كابوس حقيقي في ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٤٧، قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، عندما وافقت الجمعية العامة بالأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية كمحاولة حسب زعمها لإنهاء النزاع العربي الصهيوني. ويبدو أن القرار كان معنيًا فقط بإنشاء دولة صهيونية أما مسألة "التقسيم" هذه فما هي إلا أكليشيهات عملت ككبسولة لامتصاص الغضب العربي لمتوقع. وبالفعل قوبل قرار التقسيم بغليان عربي شديد ونية حاسمة بضرورة القضاء على العصابات الصهيونية المسلحة للحفاظ على وحدة واستقلال فلسطين.

---

* يتضمن مشروع سوريا الكبرى تحقيق الاتحاد بين شرق الأردن وسوريا ليكون تحت حكم الملك عبد الله، هذا بالإضافة إلى خلق نوع من التعاون المشترك بين الدولة الجديدة والعراق، كما في حالة تقسيم فلسطين يضم القسم العربي منها إلى الدولة الجديدة، أنظر محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، ص: ١٦٢.

(١) د. احمد عبد الرحيم مصطفى، "بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥ - ١٩٤٩: دراسة وثائقية"، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ١١١-١١٢.

(٢) د. احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص: ٢٠١.

صدر القرار بإتفاق ٢٣ دولة ضد ١٣ دولة وامتناع ١٠ عن الاقتراع. وكانت الدول التي وافقت على التقسيم هي "الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وفرنسا واستراليا وبلجيكا وهولندا والسويد والنرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والدانمرك ولوكسمبورج وأوكرانيا وروسيا البيضاء وبوليفيا والبرازيل وكندا وكوستاريكا وسان دومنجو وأوكوادور وجواتيمالا وهايتي وإسلندا وليبريا ونيوزيلندا ونيكاراجوا وبناما وباراجواي وبيرو والفلبين وجنوب أفريقيا وأرجواي وفنزويلا..وعارض في التقسيم كل من مصر وأفغانستان والعراق وسورية ولبنان وكوبا واليونان والهند وباكستان وإيران والمملكة العربية السعودية وتركيا واليمن..وامتنع عن التصويت كل من بريطانيا والصين وشيلي والأرجنتين وكولومبيا وسلفادور وأثيوبيا وهندوراس والمكسيك ويوغوسلافيا"[١].

ونلاحظ امتناع بريطانيا عن التصويت لاثبات حيادها تجاه قرار التقسيم، وهذا يبدو غير منطقي ومخالف للواقع بأن الوصول إلى هذا القرار كان نتيجة لمساعيها منذ البداية وقد عبدت له الطريق. والحق أن موقف بريطانيا من القضية الفلسطينية شائك منذ البداية، فقد رأى عدد من المؤرخين سواء العرب أو اليهود أن بريطانيا قد تآمرت لدخول العرب في حرب مع اليهود، وفي أحيان أخرى كانت تتآمر على الطرفين (اليهود والعرب)، ففيما يبدو أن السياسة البريطانية كانت تتأرجح نتيجة لحرصها على صداقة العرب حفاظًا على مصالحها الإقليمية دون نية حقيقية لاحتواء الموقف أو الحفاظ على سيادة فلسطين ولعله السبب وراء انهائها الانتداب بساعات قبل إعلان دولة إسرائيل، لتكون في منأى من تحمل مسؤولية "رسمية" فيما يحدث خاصة أمام الرأي العام العربي.

ولكن ما لا يدع مجالًا للشك أن بريطانيا كانت مطلعة على امكانيات الجيش المصري على وجه خاص وتعلم جيدًا أنه لو دخل الحرب فسيخسرها لا محالة، ومع ذلك كان تسعى جاهدة إلى اقحامه في الحرب. فوفقًا لمحمد فيصل عبد المنعم أن تشايمان أندورز، القائم بأعمال السفارة البريطانية في القاهرة، قد توجه قبل حرب فلسطين بأشهر قليلة إلى القصر الملكي مؤكدًا أن بريطانيا ستعد الجيش المصري بما يحتاج من سلاح وقال: "إن الحكومة البريطانية يسرها أن يقوم الجيش المصري بتلقين العصابات الإرهابية الإسرائيلية درسًا في الأدب بعد كل الإهانات التي ألحقتها هذه العصابات بالقوات البريطانية"[٢].

---

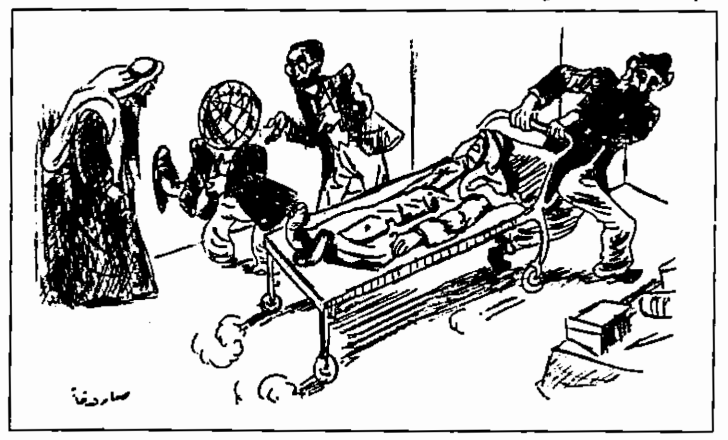
(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، ص: ٤٠٢.

(٢) محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، تقديم أنيس منصور، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ١٩٧.

وكما هي العادة، علق العرب آمالًا عريضة على المجتمع الدولي وخاصة الولايات المتحدة لحل النزاع. وبدت التصريحات الأولية لترومان الرئيس السابق للولايات المتحدة رافضة لقرار التقسيم ولكن ما لبث أن عدل عن رأيه وأيد القرار. والأبيات التالية هي من قصيدة غير موقعة تعلق على تذبذب موقف الولايات المتحدة الأمريكية تجاه قرار تقسيم فلسطين، نشرت في "آخر ساعة" في ٣١ مارس من عام ١٩٤٨:

يا مقسم القدس بالشوكة وبالسكين
عاطى السقط للعرب والفشة والمصارين
وعاطى باقى الدبيحة كلها لكوهين
قول لي انت ويّا العرب يا شيخ في محتتهم
ولا انت ويّا اليهود؟.. ولا مع الاتنين!؟

يصف صاروخان في رسومه قرار التقسيم بالصوري ويرى أن الهدف الأساسي من التقسيم هو إنشاء دولة يهودية وأنه لن يبقى شيء للفلسطينيين ليقيموا عليه دولتهم. ففي الكاريكاتير التالي، يصور صاروخان رجلًا عربيًا (فلسطين) طريح الفراش ويرتدي في إحدى رجليه فردة حذاء، بينما يجر الفراش مسرعًا صهيوني طويل القامة ذو أنف معقوف وله لحية سوداء طويلة ويرتدي قبعة ومعطف أسود، ذلك الزي الذي كان مطابقًا للشكل الذي يعرف به أعضاء الحركة الصهيونية. وفي الكاريكاتير مجلس الأمن يحاول اقناع الرجل العربي (العرب) بالاكتفاء بفردة الحذاء الأخرى بينما الرئيس الأمريكي ترومان يعترض قائلًا: "حرام عليك...اعطي اليهود حته كمان".



شكل ٧٠: تقسيم فلسطين!
(أخبار اليوم، ٢٧ فبراير ١٩٤٨)

استشاط غضب الشعوب العربية ونفذ صبرها وهي تستمع إلى خطب زعمائها الرنانة الملغمة بالتهديد والوعيد والرافضة لمشروع تقسيم فلسطين شكلًا وموضوعًا، وإيمانهم بأن تحرير فلسطين من العصابات الصهيونية لا يمكن أن يتم إلا بالقوة وإن كان هذا يستحيل من الناحية العملية قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. فنرى "المصري أفندي" في حالة "زهق" يخاطب زعماء الدول العربية الست (مصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن والعراق) التي أخذت على عاتقها تحرير فلسطين قائلًا: "انتم اتكلمتم كفاية..سيبوا ده يتكلم شوية" مشيرًا إلى مدفع. وفي كاريكاتير آخر، محمد الحسيني مفتي فلسطين آنذاك يطمئن شعبه قائلًا: "طمنوا أهل فلسطين ... وصلتنا من الدول العربية إمدادات هائلة .. فيه لغاية دلوقتي ٣٠ خطبة و٤٠ مقالة والباقي في الطريق."

وفي كاريكاتير آخر بعنوان "حركة الانقضاض قادمة" لصاروخان، يد على وشك الانقضاض على صهيوني جالس في هدفها يرتجف خوفًا. تجسد اليد الست دول عربية التي حملت على عاتقها تحرير فلسطين في إشارة إلى أن التخلص من الصهيونيين أصبح وشيكًا! ومن الجدير بالذكر أن هذا الكاريكاتير قد نشر في آخر ساعة في ١٢ مايو عام ١٩٤٨ أي قبل يومين فقط من إعلان قيام دولة إسرائيل وقيام حرب ٤٨.

وتم إعلان قيام دولة إسرائيل بعد سويعات من انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨، بعد أن أمنت بريطانيا لإسرائيل المكان وبهذا تكون قد أوفت بوعدها لها. وأعتبر العرب هذا الإعلان تحديًا سافرًا لهم فحشدوا جيوشهم وأعلنوا قيام حرب فلسطين. وبالفعل تحركت ست جيوش عربية في ١٥ مايو ١٩٤٨ صوب فلسطين لطرد الصهيونيين. ولكن لابد ألا نغفل حقيقة أن الجيش المصري لم يكن معدًا للحرب ولم يكن له خطة، وكان هذا هو الحال بالنسبة لبقية الجيوش العربية، وأن الجيش المصري ما لبث وأن وجد نفسه يكاد يحارب وحده.



شكل ٧١: حرب فلسطين ١!

الصهيوني: "جرى ايه ... كان زمان بيضربوا بعض!"

(آخر ساعة، ١٧ نوفمبر ١٩٤٨)



شكل ٧٢: حرب فسطين ٢!

المصري أفندي: "ما تيجوا تضربوا معايا"

العرب: "حرام سته يضربوا واحد .. اضرب انت!"

(آخر ساعة، ١٠ نوفمبر ١٩٤٨)

ويصف أمين شاكر، أحد الضباط الأحرار والأهم أحد المشاركين في حرب ٤٨، الجيوش العربية بأنها كانت في حالة لا يرثى لها، والجيش المصري كان يعاني عجزًا شديدًا في الأسلحة والذخائر وكان يحارب بأسلحة بدائية تم إلغاؤها منذ زمن طويل. ويعتقد أمين شاكر بأن الإنجليز قد خدعوهم عندما شجعوهم على دخول الحرب ضد اليهود والتي ما

أن بدأت، حتى أغلق الإنجليز في وجه الجيش المصري أبواب المخازن السلاح والذخيرة[١]، بما يشكل نقضًا لمعاهدة ١٩٣٦.

وعن تجربته أبان الحرب، يروي شاكر كيف أن العمالة والخيانة قد انطوت على جو حرب ٤٨، فقد كان الجيش الأردني تحت قيادة "جلوب الإنجليزي"، أما الجيش السوري "فكان لا يزال يحبوا بعد خروج فرنسا من سورية"، وكان الجيش العراقي يتحرك تحت أوامر نوري السعيد "أكبر عميل لإنجلترا فى منطقة الشرق الأوسط"، فبعد أن كانت القوات العراقية على مقربة من حيفا وتل أبيب بـ ١٢ كم وفى غياب للقوات الإسرائيلية وبدلًا من أن تتجه صوبها لاحتلالها انسحبت لبغداد بأوامر من السعيد، ولم يكن هذا الانسحاب بالهين على عدد كبير من الضباط العراقيين الشرفاء الذين تمردوا ورفضوا تنفيذ الأوامر معتبرينها خيانة قومية، فأرسل السعيد قوة للقبض عليهم وإعادتهم قسرًا إلى بغداد ليتم شنقهم وعلنا، وتترك جثثهم معلقة على المشانق لما يقرب من أسبوع[٢].

كما يكشف شاكر السبب وراء إصرار أمير شرق الأردن (الملك عبد الله بن الحسين) أن يتم "إسناد قيادات القوات العربية له شخصيًا بحجة أنه الأدرى بميدان القتال نظرًا للتداخل الشديد بين الأردن وفلسطين..ولقد ظهر فيما بعد أن هذا الطلب كان بإيعاز من بريطانيا"[٣]، فقد ارتكب "خيانة لا تغتفر حيث كانت تصب عنده كل المعلومات عن موقف الجيوش العربية بدعوى التنسيق فيما بينها، ولكن ظهر أنه كان يقوم بإيصال تلك المعلومات أولًا بأول للحكومة الإنجليزية وللقيادة الإسرائيلية"[٤].

هناك أطروحة تقول بأنه في نوفمبر ١٩٤٧ قبيل النكبة تم اتفاق ضمني بين عبد الله والوكالة اليهودية على تقسيم فلسطين بين بعضهم البعض وبالتالي المساعدة في اجهاض ولادة دولة فلسطينية مستقلة، ولهذا دخل عبد الله حرب ٤٨ ليس لتحرير فلسطين إنما ليحصل على الضفة الغربية وهي الجزء المخصص للعرب الفلسطينيين في قرار التقسيم والقدس الشرقية. فضاعت فلسطين وتشرد أكثر من ٧٠٠،٠٠٠ فلسطيني ليصبحوا لاجئين منتشرين في جميع أنحاء المعمورة، منهم ٤٥٠،٠٠٠ استوطنوا داخل الأردن[٥].

---

(١) أمين شاكر، "أخطاء الثورة، الوحدة مع سوريا، تأميم الصحافة"، تقديم سليمان الحكيم، دار الخيال، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص: ١٥.

(٢) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ١٦ – ٢٨.

(٣) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ١٦.

(٤) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ٢٠.

(٥) ايفي شليم، المرجع السابق.

بعد إعلان الحرب توالت عدة رسوم كاريكاتورية تستخف بإسرائيل وبقدرتها على مواجهة العرب، فمرة نجد الرئيس الأمريكي ترومان يخاطب العربي قائلًا: "انت موش تعترف بدولة إسرائيل.." والعربي ومعه العدسة المعظمة لمحاولة رؤية قزم صهيوني رجله مصابة ويستند على عكاز (دلالة على استحالة بلوغ غايته): "اعترف بها ازاي وأنا موش شايفها". وفي كاريكاتير أخر لصهيوني تحت السرير ينتفض من الخوف يحدث العربي قائلًا: "ان كنت شجاع ادخل لي تحت السرير!" وفي إحدى الرسوم الكايكاتورية، نرى العربي يدهس صهيوني بحذائه موجهًا خطابه للقوى العظمى مهددًا: "المرة ده موش ح اشيل الجزمة من فوق دماغه!"



شكل ٧٤: الصيهوني الجبان!

الصهيوني: "انت راح تسيبني والا اخنقك!"

(آخر ساعة، ١٦ يونيو ١٩٤٨)

تقدمت الجيوش العربية ووضعت يدها على العديد من المدن الفلسطينية ساعية لطرد العصابات الصهيونية شر طرده. وفي عز انتصاراتها وتحت ضغط من القوى الكبرى والأمم المتحدة تم فرض هدنة على ألا يزود أي من الطرفين بأسلحة أو يحسن من مواقعه خلال فترة الهدنة والتي كانت للأسف بمثابة سارينة الإنقاذ التي أعطت إسرائيل فرصة للتزود بالسلاح ومن ثم جمع شملها وتعزيز مواقعها وبالتالي تضرب ضربتها ضاربة بالهدنة عرض الحائط. أما العرب فقد سجل لهم التاريخ شهامتهم "المعهودة" أمام خرق الصهاينة للهدنة والذي قابلوه بمزيد من السلبية وقلة الحيلة.

فقد صدرت الأوامر من القاهرة بوقف إطلاق النار (الهدنة الأولى ١١ يونيو – ٧ يوليو ١٩٤٨) بناءً على قرار الأمم المتحدة مع أن الموقف في الميدان وقتها كان في صالح الجيش المصري حين صدرت الأوامر، وقد حذر بشدة دكتور محمود فوزي الذي كان يرأس وفد مصر في الأمم المتحدة في ذلك الوقت من قبول وقف إطلاق النار لأنه سيمنح اليهود فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة التسلح، ولكن لم يستمع إليه أحد، ليثبت صدقه فيما بعد، فلم تكن القيادة العسكرية في القاهرة مؤهلة لتقدير الموقف العسكري تقديرًا سليمًا[١].

وبالفعل كما كان متوقعًا، بعد أن استغل اليهود فترة الهدنة الأولى في تحسين موقفهم الحربي وإعادة تنظيم قواتهم، قاموا بخرقها. واقترح الوسيط الدولي الكونت برنادوت مد فترة الهدنة إلا أن العرب رفضوا اقتراحه وآثروا استئناف القتال رغم حالتهم السيئة[٢]! وكانت الهدنة الثانية في ١٨ يوليو ١٩٤٨ والتي تم اختراقها مرة أخرى من قبل اليهود[٣].



شكل ٧٥: خرق اليهود للهدنة!

الدول الكبرى للمصري أفندي: "بختك كويس ... لو أنت خرقت الهدنة زي ما خرقها اليهود .. كانت تبقى واقعتك سودة ..!"

(آخر ساعة، ١٦ يونيو ١٩٤٨)

ومع شدة هجوم القوات الإسرائيلية على رفح بهدف عزل القوات المصرية الموجودة في قطاع غزة، وافقت مصر على الدخول في مفاوضات فعلية مع اليهود جرت في جزيرة

(١) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ٢١.
(٢) محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، تقديم أنيس منصور، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٤١٦.
(٣) محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص: ٤٩٠.

"رودس" في ١٣ يناير ١٩٤٩، بين ممثلين عن مصر وممثلين عن حكومة إسرائيل وبواسطة ممثل الأمم المتحدة رالف بانش، والتي أسفرت عن توقيع اتفاق الهدنة بين الطرفين في ٢٤ فبراير ١٩٤٩، والذي أنهى حصار اليهود للقوات المصرية في الفالوجا، مع بقاء قطاع غزة تحت السيطرة المصرية.

رسمت هذه الهدنة شكلا آخر للمعارك الجارية لصالح إسرائيل والتي انتهت في ٣ مارس ١٩٤٩ بقبول العرب للهدنة الثانية التي كانت بمثابة النكبة. ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل نشبت الخلافات بين الزعماء العرب، فأصبح ما يحدث بينهم بمثابة سلسلة من الكوميديا السوداء وبمثابة انتصار آخر للصهاينة في فلسطين. ونجد "المصري أفندي"، في الكاريكاتير التالي لصاروخان، يناشد الزعماء العرب تسوية الخلافات والانقسامات بينهم والتركيز على التصدي للعدو. وفي كاريكاتير آخر لصاروخان، يبشر ممثل الأمم المتحدة رالف بانش الرئيس الأمريكي ترومان بنجاحه في تقسيم الجامعة العربية أيضًا من جراء الخلافات. أما عبد السميع فيصور الحالة المؤسفة التي آلت إليها الجامعة العربية!



شكل ٧٦: الخلافات العربية!

المصري أفندي: "يا ما كان نفسي..نحارب خصومنا زي ما بنحارب بعض!"

(آخر ساعة، ١٣ أبريل ١٩٤٩)



شكل ٧٧: انتهاء مهمة الوسيط!

الدكتور بانش: "انا موش قسمت فلسطين بس .. أنا قسمت الجامعة العربية كمان!!"

(أخر لحظة، ٢٠ ابريل ١٩٤٩)



شكل ٧٨: الجامعة العربية!

الجامعة العربية: "حظك كويس .. ايدي اليمين مشغولة .. وايدي الشمال مش فاضية .. واسناني كمان مشغولة .. حاضربك ازاي؟!! .. (مع الاعتذار للنكتة القديمة)"

(روزاليوسف، ١٢ ابريل ١٩٥٤)

في الكاريكاتير التالي، يكشف صاروخان كيف أن سياسة القوى العظمى تكيل بمكيالين فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. ففي الكاريكاتير، صهيوني يرتعد خوفًا وهو موجهًا سلاحه في اتجاه رجل عربي (فلسطين)، في حين تناشد القوى العظمي الرجل العربي بالسماح لهم بتكتيفه حتى يطمئن الصهيوني ويطلق النار! وفي كاريكاتير آخر، يستنجد العربي بالقوى العظمي التي تبدي تواطؤها مع إسرائيل.



شكل ٧٩: فلسطين والقوى العظمى ١!

الدول الكبرى للعربي "خلي عندك إنسانية، واسمح لنا نكتفك علشان الراجل المسكين ده يقدر يضربك بالرصاص!"

(أخبار اليوم، ١٧ يوليو ١٩٤٨)



شكل ٨٠: فلسطين والقوى العظمى ٢!

العربي: "أنا شايف حرامي تحت السرير"

الوسيط: "بقى تكذبنا كلنا وتصدق عينيك!"

(آخر ساعة، ٣ نوفمبر ١٩٤٨)

من المفترض أن الرسوم الكاريكاتورية في هذه الفترة كانت تتناول القضية بمنطقية وعقلانية، فهي تحسم الصراع بين ستة جيوش عربية ومجموعة عصابات صهيونية لصالح فلسطين. وصورت "الدول العربية" في الرسوم على هيئة رجل عربي ذي جسم مفتول طويل نسبيًا يرتدي جلبابًا أبيضًا وغترة وعقالًا، بينما صورت إسرائيل بصهيوني نحيل ذي أنف معقوف ولحية سوداء طويلة نسبيًا يرتدي جاكيتًا أو معطفًا أسودًا وقبعةً سوداءُ ذات حافة مستديرة، فكان الصراع بين الأبيض والأسود بين الخير والشر.

ويلاحظ أن خطوط صاروخان حادة وصريحة وتلعب بكثرة على الظلال الكثيفة والكتل السوداء. ويظهر الصهيوني في رسوم صاروخان في موقف الطرف الأكثر شرًا والأضعف، فهو دائمًا نحيل ومرتجف خوفًا و"سوداوي". في حين يظهر الرجل العربي في موقف الأقوى، فهو دائمًا ضخم وعريض المنكبين. ولكن الغريب أن ملامح وجهه تخاصم أي فطنة أو ذكاء، فكثيرًا ما يظهر في ملامحه شيء من "الجبلة" ممزوجة مع بعض الغباء تصل أحيانًا إلى عدم الاكتراث أو عدم الوعي لما يدور من حوله وكأنه مسلوب الذهن والإرادة، مما يجعله من أسوأ ما رسم تجسيدًا للعرب.

وتفاعلت مع الأحداث الجارية الشخصيات الكاريكاتورية الأخرى المشهورة في تلك الفترة، حتى تلك التي اتسمت بخفة الدم وروح الدعابة مثل "رفيعة هانم" و"السبع أفندي" (نتاج مصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم آنذاك ورسام الكاريكاتير محمد عبد المنعم رخا) نزلت إلى قلب الميدان. فنجد "رفيعة هانم" وقد تعثرت بدلال في دبابة إسرائيلية، يطل منها جندي رافع يديه الاثنين مستسلمًا، قائلة: "حوشن يا سبع أفندي ...يظهر إني عثرت في طوبة".

لا يمكن أن نتحدث عن حرب فلسطين بدون إلقاء الضوء على قضية الأسلحة الفاسدة التي اتخذت كذريعة لتبرير الهزيمة وفي نفس الوقت تحميل الملك والحكومة كامل المسؤولية[1]. يعتقد الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير صحيفة الأهرام السابق، أن الملك فاروق كان يريد دخول فلسطين والفوز بالحرب للوقوف في وجه طموحات التوسع للمملكة الهاشمية. ولقصور في الأسلحة المصرية، عقد فاروق صفقة مع بريطانيا لتزويده بالأسلحة والمعدات الحربية. وبالفعل تم تزويد الجيش بمعدات وأسلحة

(١) ديريك هوبوود:

Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.

تكفيه لمدة ثلاثة أشهر فقط، المدة التي كان يعتقد أنها كافية لإنهاء الحرب[1]. وخلال الحرب، تفاجئ الجنود أن المدفعية التي يستخدمونها كانت تنفجر في وجوههم بدلاً من وجوه الأعداء[2].

ويعتقد أمين شاكر بأن حرب فلسطين مثلت نقطة تحول كبيرة في تشكيل تنظيم الضباط الأحرار الذي رأوا بأن الملك قد خانهم بما قدمه من أسلحة فاسدة قتلت من جنود الجيش المصري أكثر مما قتلت من اليهود[3].

ويرى حسين حمودة، أحد الضباط الأحرار، أن المسؤول الأول عن إحضار الأسلحة الفاسدة لمصر هي اللجان التي أرسلت إلى أوروبا لشراء الأسلحة والذخائر، ويستبعد تمامًا أن يكون الملك فاروق شريكًا في هذه الجرائم لأن الملك هو القائد الأعلى للجيش وانتصار الجيش فخر للملك ولاشك في هذا، مع العلم أنه لم يرسل إلى ميدان القتال بفلسطين عام ١٩٤٨ أية أسلحة فاسدة لأن السلاح كان يجرب في مصر قبل إرساله إلى ميدان القتال[4].

كما أن هناك رواية لأحمد فراج طايع، قنصل عام مصر في فلسطين وقتها والذي عاصر أحداث حرب ٤٨، والذي يؤكد فيها بأن قصة الأسلحة الفاسدة إنما هي افتراء على مصر، وأن الهيئة العربية العليا* برئاسة مفتي فلسطين أمين الحسيني هي التي باعت الأسلحة المصرية الجديدة واستبدلتها بأخرى قديمة وغير صالحة للاستعمال، ثم أرسلتها إلى اللجنة العسكرية بدمشق (على أنها رسالة مصر من الأسلحة) المسؤولة عن توزيع الأسلحة على سكان فلسطين حتى لا تعطي الأسلحة فريقًا دون فريق[5].

---

(١) أميرة هويدي وأميمة عبد اللطيف:

Amira Howeidy & Omayma Abdel-Latif. (1998). On the eve of war. Al-Ahram Weekly. Issue 377. p.1

(٢)عفاف لطفي السيد:

Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot. (1985). A short history of modern Egypt. Great Britain: Cambridge University Press.

(٣)أمين شاكر، "أخطاء الثورة، الوحدة مع سوريا، تأميم الصحافة"، المرجع السابق، ص: ٤٦.

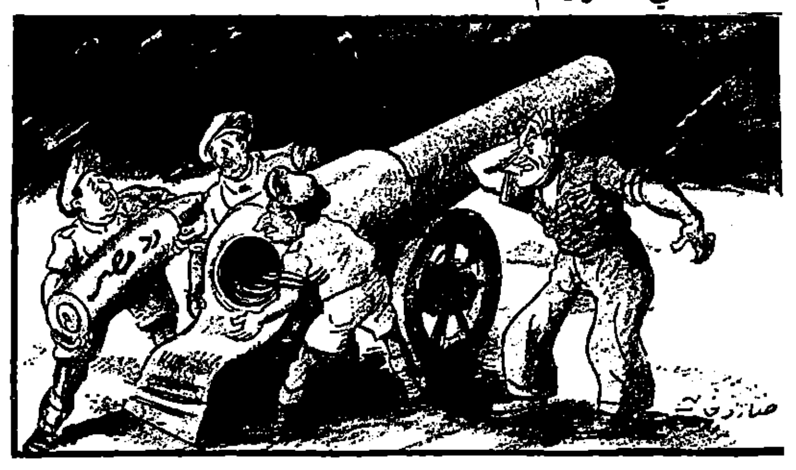
(٤) حسين محمد أحمد حمودة، "أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون"، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٥، ص: ٦٣.

* الهيئة العربية العليا لفلسطين هي لجنة شكلت بموجب قرار من جامعة الدول العربية عام ١٩٤٦ وقد تولى رئاستها مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني

(٥) محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، المرجع السابق، ص: ١٧٧-١٧٨.

ومع إلغاء الأحكام العرفية في مايو ١٩٥٠، بدأت الصحافة الوطنية تفتح النار على الفساد، وتحديدًا منذ ٦ يونيو بدأ إحسان عبد القدوس على صفحات "روزاليوسف" حملته الشهيرة على الأسلحة الفاسدة مما ألزم النيابة بالتحقيق وتوجيه الاتهام إلى القصر ورجاله المقربين من الملك[(١)].

بدأت الرسوم الكاريكاتورية على استحياء في الإشارة إلى قضية الأسلحة الفاسدة والمتورطين المحتملين بعد النكبة تقريبًا بستين، وكانت رسوم مباشرة ومن المدهش أنها لم تتعرض لمقص الرقابة. ففي كاريكاتير لصاروخان (انظر الكاريكاتير التالي) نشر "بأخبار اليوم" عام ١٩٥١ تعبير عن رفض المصريين لإبرام أي معاهدة جديدة مع بريطانيا، وإن أي تحدي من قبل مصطفى النحاس لإرادتهم سيكون بمثابة المدفعية الفاسدة التي ستنفجر في وجهه هو أولًا. نلاحظ أن كاريكاتير صاروخان كان يروج لتورط الوفد في قضية الأسلحة الفاسدة، في حين أشار عبد السميع في كاريكاتير له إلى ضرورة مساءلة وزير الحربية وقتها حيدر باشا عن قضية الأسلحة الفاسدة، وهو من الشخصيات المقربة لدى الملك. ففي الكاريكاتير، يتحدث "المصري أفندي" إلى وزير الحربية متسائلًا ما إذا كانت العصى التي يحملها "فاسده" هي الأخرى أم لا.



النحاس باشا لصلاح الدين بك ـ انا خايف ان المدفع ده يكون من الاسلحة الفاسدة اللى بتضرب للوراء !..

شكل ٨١: الأسلحة الفاسدة!

النحاس باشا لصلاح الدين بك: "أنا خايف ان المدفع ده يكون من الأسلحة الفاسدة اللي بتضرب للوراء!.."

(أخبار اليوم، ٢١ إبريل ١٩٥١)

(١) جمال الشرقاوي، "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد"، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧، ص: ٣٣.



شكل ٨٢: الأسلحة المغشوشة!

"تعود حيدر باشا ان يحمل في يده خزرانة"

"المواطن المصري: يا خوفي لتكون الخزرانة دي كمان مغشوشة!!"

(عبد السميع، ١٩٥٤)[1]

كما شهدت هذه الفترة أيضًا انتشار ظاهرة "غنى الحرب" وخاصة بين أولئك ممن كانوا على مقربة من الملك، مما ساعد على انتشار الشائعات حول حجم الأرباح التي من الممكن أن يكون الملك وأتباعه قد حصلوا عليها من جراء صفقة الأسلحة الفاسدة[2]. وظهرت العديد من الرسوم الكاريكاتورية التي تتناول ظاهرة "غنى الحرب" وتضعها في قالب فكاهي، وصورت "غنى الحرب" في هيئة شخص بدين جدًا وفاحش الثراء.



شكل ٨٣: غنى الحرب!

غنى الحرب: "الرواية كانت لذيذة .. انما عيبها أنها قصيرة!"

(أخبار اليوم، ١٢ مايو ١٩٤٥)

(١) عبد السميع عبد الله، أبيض وأسود، روز اليوسف، القاهرة، ١٩٨٦.
(٢) عفاف لطفي السيد: المرجع السابق.

حريق القاهرة ١٩٥٢:

في مدينة الإسماعيلية في صباح يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢، أنذرت القوات البريطانية قائد البوليس المصري بتسليم القوات المصرية لأسلحتها فورًا وإلا ستهدم دار المحافظة وثكناتهم على من فيهم، إلا أن القائد المصري رفض التسليم وأصدر أمرًا لقواته بالمقاومة. وبالفعل نفذت القوات البريطانية تهديدها وأخذت تضرب دار المحافظة والثكنات بالمدافع والأسلحة الثقيلة، لتحولها إلى معركة دموية غير متكافئة أبدى فيها جنود البوليس المصريين مثالًا في البطولة والتضحية(١). نتج عن هذا موت ٥٠ فردًا من قوات الشرطة المصرية وأصيب حوالي ٨٠ آخرين بجروح(٢).

في اليوم التالي، تظاهرت مجموعات من الشرطة في القاهرة للتعبير عن غضبهم وعن دعمهم لزملائهم بالإسماعيلية، وما لبث أن انضمت للشرطة مجموعات غفيرة من الطلبة والمواطنين من أماكن مختلفة من القاهرة في مظاهرات حاشدة تنادي بجلاء الإنجليز. وشهد ذلك اليوم أعمال عنف وشغب وتدمير وإحراق ما يزيد عن ٧٠٠ بناية شملت محلات وبارات وفنادق ودور سينما وقهاوي ومطاعم، ووصل عدد القتلى إلى ٣٦ وأصيب ٥٥٢ وشرد من جراء ذلك أكثر من ٥٠ ألف نسمة(٣). انتشرت الحرائق لتغطي قلب القاهرة، وملئت سماء القاهرة بسحب الدخان الأسود لتكون سببًا وراء تسمية ذلك اليوم بالسبت الأسود، الذي يعتبر بكل المقاييس نكبة على الأمة لم تر القاهرة مثله طوال تاريخها البعيد.

حتى الآن لا يوجد إجابة شافية عن المتسبب في حريق القاهرة، الذي أعاد إلى الأذهان حريق الإسكندرية عام ١٨٨٢ والذي مازال يكتنفه بعض الغموض هو الآخر. هناك من يعتقد أن حريق القاهرة كان بفعل الجماهير الغاضبة، وهناك من يعتقد أنه من تدبير الملك فاروق، وهناك من يعتقد أنها مؤامرة حزبية، وهناك من يعتقد أنها مؤامرة أمريكية للقضاء على الشيوعيين، وهناك من يعتقد أنها مؤامرة بريطانية لتشيع الفوضى وتكون ذريعة لتدخلها في الشأن الداخلي وللقضاء على حركة الفدائيين المصريين في منطقة القنال والقضاء على حزب الوفد لإلغائه معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي السودان ١٨٩٩.

---

(١)عبد الرحمن الرافعي، "مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص: ٩٨.

(٢)صلاح منتصر، "من عرابي إلى عبد الناصر: قرآءة جديدة في التاريخ"، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، ص: ٦٣.

(٣) جمال الشرقاوي، "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد"، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧، ص: ٢٩-٣٠.

وطالما نناقش حريق القاهرة، فلابد من الرجوع إلى كتاب "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد" للكاتب الصحفي والباحث جمال الشرقاوي الذي أسدى لنا وللتاريخ صنيعًا وقدم لنا نتائج مدهشة تستحق التأمل والقراءة، عندما أعاد فتح أوراق هذا الحدث للوقوف على أسبابه وما إذا كان عفويًا أم مدبرًا، استمع وناقش أكثر من خمسين شاهدًا، وخاض تحديات عديدة لعدم توفر وثائق تحمل أدلة دامغة ممكن الاستناد عليها، كما أن السلطات التي أشرفت على التحقيق والصحافة في ذلك الوقت "لم تكن محايدة"، بل على العكس فقد على حد قوله "كتبت ما يضلل أي باحث"[1].

يؤمن العديد من الباحثين والسياسيين وعلى رأسهم الشرقاوي بأن النظرية التي تقول بأن الغوغاء أو الجماهير الشعبية الغاضبة هي التي أحرقت القاهرة عارية تمامًا من الصحة، وبالتالي فهم يختلفون تمامًا مع المؤرخ عبد الرحمن الرافعي الذي كان يرى بأن الحريق كان عملًا تلقائيًا وليس مدبرًا، فقد قال الرفاعي ما نصه: "كنت أود أن يسفر البحث والاستقراء عن تدبير الإنجليز أو فاروق حريق القاهرة، ولقد مضت عدة سنين وأنا أعاود البحث لعلي أصل إلى بيانات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير، مثلما انتهى بي البحث والتحقيق إلى ثبوت تدبير الإنجليز لمذبحة الإسكندرية عام ١٨٨٢. ولكن الأمر في حريق القاهرة جاء على خلاف مذبحة الإسكندرية، وتبين لي مع شديد الأسف أن حريق القاهرة كان عملًا محليًا قامت به العناصر الرديئة من الشعب"[2].

ووفقًا للشرقاوي، فإن الرافعي كان يحتاج إلى المزيد من البحث والتدقيق، فقد توصل إلى هذا الاستنتاج مبكرًا جدًا ونشره في كتاب "مقدمات الثورة" والذي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٥٧، كما أنه استند في دراسته وبحثه على بيان النائب العام وحده دون البحث بشكل أعمق في أوراق القضية والتحقيقات المختلفة أو الاستماع إلى شهود عيان، أو الاستماع إلى رأي رجال السياسة والإدارة الذين ارتبطوا بالحادث[3].

كل المؤشرات في ذلك اليوم كانت تقول بأن حريق القاهرة بعيدًا كل البعد من أن يكون عفويًا، بل هو مدبرًا من قبل مجموعات مدربة ومعدة وموزعة وفق خطة محددة، وخلاف ذلك يناهض المنطق. فمن الثابت أن حريق كازينو أوبرا حدث في الساعة ٢٧, ١٢، ومن الثابت أن الحريق الثاني كان بسينما ريفولي حدث في الساعة ٥٦, ١٢، ومن

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٤.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ١٢٦.

(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٦٥.

الثابت كذلك أن فيما بين الساعة ١٥, ١ و٣٠, ١، أي في خضون ربع ساعة فقط كانت النار تلتهم كل من سينما مترو، ومحل اكسلسيور، وأجانس فورد، ونادي الترف كلوب، وسينما ميامي، والمفوضية السويدية، وبار سيسيل، وسينما ديانا، ومطعم وبار الكورسال، والباريزيانا، وغيرها(١). ألا يدعونا هذا للتساؤل من يستطيع أن يشعل النار في عشرة أماكن مثل هذه وفي ربع ساعة؟!! وفيما يبدو أن الحريق الأول عمد لتشتيت انتباه الشرطة، فمن الجدير بالذكر أنه وفقًا للشهود فقد مرت مظاهرة ليست بالضخمة بكازينو أوبرا، وفي وقت انشغال الشرطة والمطافئ بإخماد النيران، كانت الحرائق تشتعل في أماكن أخرى لم تمر بها أي مظاهرة!! كما لا ننسى أنه تم إحراق ٧٠٠ بناية من محل ونادي ودار سينما وملهى –أكبر محلات وسينمات مصر- في ظرف ٨ ساعات فقط(٢)!!

رأت النيابة العامة، أن حريق القاهرة كان مؤامرة حزبية، ففي ١١ مايو اتهمت النيابة العامة أحمد حسين رئيس "الحزب الاشتراكي" بحرق القاهرة(٣). ومع عدم موضوعية الأدلة وظروف المحاكمة التي تعرض لها حسين، فيمكن القول بأن السلطات قد اختارت "الحزب الاشتراكي" و"كتائب الاشتراكية" التي تم تأليفها للجهاد الوطني ككبش فداء للمسؤولين الحقيقيين لحريق القاهرة لتهدئة الرأي العام، وأكبر دليل على ذلك أنه تم تبرئته هو وحزبه مما نسب إليهما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

كل الخيوط تلتقي عند المستفيد الحقيقي من حريق القاهرة، وهو الاحتلال البريطاني والذي مؤكدًا لا يعمل لوحده، فلابد وأنه تسنى له منذ وجوده عام ١٨٨٢ أن يكون شبكة قوية من العناصر والعملاء سواء داخل السراي أو داخل الأحزاب، والذين يمكن استغلالهم سواء بعلمهم أو بدون علمهم بأبعاد المؤامرة(٤).

فما زال الإنجليز يذكرون الصفعة التي وجهها لهم الوفد بإلغائه المعاهدة، في ٨ أكتوبر ١٩٥١، أي قبل حريق القاهرة ببضعة شهور! والذي رفضته سلطة الاحتلال جملة وتفصيلًا وبدأت نتيجة لذلك تتحرش عسكريًا بالمظاهرات السلمية والعمال المصريين خاصة في منطقة القنال، كما اتخذت نبرة التهديد والوعيد في تعاملها مع الحكومة المصرية.

---

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٢٠.

(٢) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٢١.

(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٣٩.

(٤) الدكتور محمد أنيس، "حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأول مرة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص: ٥٣.

وقد واجهت الحكومة الوفدية تحرشات سلطة الاحتلال بمزيد من الثبات والتحدي، فطالبت بعدم التعامل بتاتًا مع القوات البريطانية، وأعقبته بسحب السفير المصري – عبد الفتاح عمرو – من لندن، كتمهيد لقطع العلاقات الدبلوماسية نهائيًا، والتي تقرر أن يتخذ بها قرار من مجلس الوزراء في جلسة يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢، أي قبل الحريق المزعوم بيوم واحد[١].

كما تسبب إلغاء المعاهدة في بدء الكفاح المسلح للفدائيين ضد قوات الاحتلال في منطقة القنال، والذي انضم لمعسكراته العديد من الشباب الجامعي من مختلف الاتجاهات والأحزاب، والإخوان المسلمون الذين كان لهم دورًا بارزًا في حركة الكفاح المسلح سواء داخل الجامعة أو في منطقة القنال، لما لهم من قدرات تنظيمية وخبرات بالعمل العسكري، وكان يقوم بتدريب المتطوعين لمعسكرات الفدائيين عدد من ضباط الجيش والبوليس الوطنيين[٢] لتصبح منطقة القناة شيئًا فشيئًا مسرحًا لكفاح مسلح منظم ومخطط لأن يكون حربًا تحريرية حقيقية[٣]. وهل هي صدفة أيضًا، أنه كان من المقرر في يوم ٢٦ يناير أن يجتمع رؤساء الأحزاب لتوقيع عقد اتفاق ينظم العمل في مجال الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال بين جميع الأحزاب والهيئات[٤]!!

في مساء يوم ٢٦ يناير، نزلت قوات الجيش المصري إلى الشوارع للسيطرة على الموقف، وأعلنت الأحكام العرفية. وفي اليوم التالي، تم إقالة حكومة الوفد، وأخمدت الحركة الوطنية المسلحة ضد القاعدة البريطانية في منطقة القنال. نلاحظ أن النتائج الأولية بسبب حريق القاهرة قد صبت في مصلحة الاحتلال بالدرجة الأولى!

وقد نفى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقتها في بيان نشرته صحيفة "المصري" (١٠ فبراير ١٩٥٢) تهمة التراخي عن نفسه وصوبها تجاه قيادة الجيش المصري التي تقاعست عن مساندته، خاصة القائد العام للقوات المسلحة محمد حيدر باشا ورئيس هيئة أركان الجيش عثمان المهدي[٥]. فقد اتصل سراج الدين مبكرًا، فور إبلاغه بحريق سينما ريفولي ومترو وإدراكه بأن الأمر يسير وفق خطة مدبرة، بحيدر باشا الذي كان هو وقيادة الجيش على مأدبة الغذاء بدعوة من الملك فاروق بمناسبة عيد ميلاد ابنه، وطالب بإصدار

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٠.
(٢)جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥١.
(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٤.
(٤) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٧.
(٥) الدكتور محمد انيس، المرجع السابق، ص: ٣٩.

الأوامر بنزول الجيش لمساندة قواته في السيطرة على الموقف. وعندما لم يعاود الاتصال به أحد ليبلغه بتحرك الجيش، ذهب بنفسه إلى قصر عابدين حوالي الساعة ٢,٣٠ ليسأل عن سبب عدم نزول الجيش وقد مضى على مكالمته السابقة نحو الساعة موضحًا خطورة الموقف، وبالرغم من ذلك لم تظهر قوات الجيش في المدينة قبل ٦.٣٠[1]، في كارثة تفرق فيها الثانية!

وهنا نتساءل إذا كان أيضًا عفويًا أن تعقد المأدبة الملكية مع قيادات الجيش في قصر عابدين في نفس يوم السبت الأسود وفي وقت الظهيرة وقت تدبير الحرائق! كل القراءات أجمعت على أن فاروق قد علم بأمر الحرائق وهو على مأدبة الغداء، ومع ذلك لم ينهيها ويصرف ضباط الجيش للسيطرة على الموقف! كما أن ميعاد المأدبة نفسه غريب في وقت قد ترام إلى الأسماع وأكيد إلى أسماعه هو أيضًا استشهاد ٥٠ فردًا من قوات البوليس المصري الشرفاء، وبالتالي كان متوقعًا أن تخرج الجموع الغفيرة غاضبة ثائرة لقتلاهم، أما كان مناسبًا للملك أن يؤجل مأدبة الغداء لوقت آخر عزاءً لشهداء الوطنية!

لا أحد يعلم تحديدًا مدى تورط الملك في حريق القاهرة، ولكن لا خلاف على أنه أحد المستفدين من هذا الحريق، فصراع الملك مع حزب الوفد معلومًا عند الجميع، فلم يكن يستطيع الملك أن يقيل حكومة الوفد ذات الأغلبية الشعبية دون أن يكسب عداوة الشارع إلا في ظل ظرف مثل هذا. كما أنه ليس مستبعدًا أن يكون الملك قد مورسَ عليه ضغطًا من قبل سلطة الاحتلال لوقف الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية في منطقة القنال.

كما أنه لم يستبعد تورط الولايات المتحدة الأمريكية في حريق القاهرة، وقد يكون تورطها بالتنسيق مع بريطانيا، إلا أن البراهين التي تؤيد الافتراضيتين ليست بالقوية، ولعل ما يحملنا على ذكر الولايات المتحدة هو نشاط أجهزة مخابراتها الملحوظ في السنوات الأخيره قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ولأنها كانت معنية بضرب الحركات الوطنية وكانت حريصة كذلك على تصفية ما أسمته "بالحركة الشيوعية في مصر"[2].

وأعرب بعض شهود العيان للشرقاوي بأنهم رأوا في الصباح الباكر من يوم ٢٦ يناير ملصقات جدارية استرعت انتباههم في وسط المدينة ومداخلها عليها صورة لمدينة القاهرة وهي تحترق وألسنة النيران تتصاعد منها ومكتوب عليها "الشيوعيون فعلوا ذلك"[3]؟!!

---

(١) الدكتور محمد انيس، المرجع السابق، ص: ٣٣-٣٦.

(٢) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٤٦٤.

(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٤٦٨-٤٧٢.

كما نرى فقد تجمعت العديد من "المصادفات" في ذلك اليوم بشكل كافي لتجعله غريبًا ومنافيًا للمنطق.

وكانت الصحافة وقتها غير مجدية في كشف ملابسات حريق القاهرة لبعدها عن الموضوعية، يعتقد الشرقاوي بأنه كان هناك معسكران للصحافة، المعسكر الوطني ومعسكر السراي والإنجليز. كان من الصحف التي تعبر عن المعسكر الأول، "المصري" و"روزاليوسف" و"الجمهور المصري" و"الاشتراكية" و"الكاتب" و"الملايين" و"اللواء الجديد"، بينما كانت صحف دار "أخبار اليوم" أحد أبواق المعسكر الآخر[1].

ولم تكن مواضيع الرسوم الكاريكاتورية متناسبة مع جلل الحدث، وقد يرجع السبب إلى إعلان الأحكام العرفية وما صاحبه كالعادة من تقييد لحرية الصحافة، كما أن ما حدث كان بمثابة اللغز تضاربت الأقوال بشدة حوله.

ففي ١٨ فبراير ١٩٥٢، نشرت "روزاليوسف" كاريكاتيرًا تنتقد فيه تعامل الأحزاب السياسية مع الأزمة، فبدلًا من أن تتكاتف الجهود لإطفاء حريق القاهرة، انشغلوا في التعارك مع بعضهم البعض. وفي كاريكاتير للرسام زهدي العدوي، تأكيد بأن الملك فاروق هو من أشعل حريق القاهرة.



شكل ٨٤: مأساة القاهرة!

(روزاليوسف، ١٨ فبراير ١٩٥٢)

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٩٧.



شكل ٨٥: حريق القاهرة!
(زهدي، ١٩٥٢)[(١)]

ثورة يوليو ١٩٥٢:

تحمل ثورة يوليو ١٩٥٢ قدرًا كبيرًا من الأهمية لما لها من دور في تغيير الخريطة السياسية لمصر وللشرق الأوسط بعد أن وضعت نهاية لـ ١٤٨ عامًا حافلة لحكم سلالة محمد علي. وظهرت قراءات عديدة تبحث في شكل الفترة التي سبقت الثورة والتي يمكن تصنيفها إلى فئتين: الفئة الأولى وتشكل الأغلبية ترى بأن الثورة كانت نتاج طبيعي لسياسات وتصرفات غير مسؤولة من ملك عرف عنه الطيش والبذخ والترف واللامبالاة والضعف وموالاة الإنجليز ..الخ. والفئة الثانية وتشكل الأقلية ترى بأن الثورة هي نتاج حراك سياسي كبير لعبت فيه القوى العظمى دورًا ولو ثانويًا في إشعالها، وهي على نقيض ثورة ١٩١٩ لم تكن شعبية وإنما كانت سياسية عسكرية[(٢)].

تعرض فاروق للعديد من التحديات والضغوط من قبل الإمبريالية البريطانية والهيمنة الأمريكية نتيجة لتصديه لمحاولات تدخلها في حكمه. كما مر باضطرابات عديدة على المستوى الشخصي، نتيجة لتصرفات والدته الملكة نازلي غير المتزنة والتي دفعته لطردها هي وأخته فتحية من حياته، وإصدار قرارًا بحرمانهما من دخول مصر ومصادرة جميع ممتلكاتها. كما مر على فاروق فترات عصيبة أخرى وهو يرتب لإجراءات طلاق شقيقته الكبرى الأقرب إلى قلبه فوزية من شاه إيران وترتيب رجوعها إلى مصر[(٣)].

(١) زهدي العدوي، قلم صلاح حافظ، "بداية المعركة"، دار الفن الحديث، ١٩٥٢، ص: ١٨٣.
(٢) وليم ستاديام:
William Stadiem. (2009). Too Rich: The high life and tragic Death of King Farouk. Parkway Publishing: London.
(٣) وليم ستاديام، المرجع السابق.

وعلى الصعيد الداخلي، كان هناك الحركات والمظاهرات الطلابية المتأثرة بالشيوعية، والقادة السياسيين المشتبهين بتورطهم في قضايا فساد، وأخيرًا الضباط الأحرار، الخلية الصغيرة التي تكونت داخل الجيش المصري بقيادة جمال عبد الناصر وأنور السادات والتي خططت لتقليب الجيش والشعب على القصر.

في ٢٧ ديسمبر ١٩٥١، كان موعد انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط، اليوم الذي شهد الاختبار الحقيقي للضباط الأحرار ومدى نفوذهم داخل صفوف الجيش، عندما طرحوا رجلهم مدير سلاح الماشية اللواء محمد نجيب لينافس رجل الملك قائد سلاح الحدود اللواء حسن سري عامر على رئاسة النادي، وقد كان فاروق يهتم بشكل كبير أن يضع على رأس النادي أحد كبار الضباط االتابعين له والذين يدينون له بالولاء التام. ومخالفة لجميع التوقعات، فاز نجيب برئاسة النادي، فيما اعتبرت لحظة فارقة عكست ما آلت إليه علاقة الجيش المصري بالنظام، والتي يعتقد بعض السياسيين أنها كانت من مقدمات حريق القاهرة، بينما يعتقد البعض الآخر أنها أحد مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢.

ومع ذلك لم يعتقد فاروق ولو لوهلة بأن ثمة خطرًا ما على عرشه. فالمظاهرات التي تشهدها البلاد ليست موجهة ضده، إنما ضد البريطانيين الذين سبق وأن وعدوا بمغادرة مصر منذ عام ١٨٨٢، عندما دخلوها لتحقيق "استقرار" اقتصاد البلاد بعد أن تسبب في إفلاسها جده الأكبر الخديوي إسماعيل. كما أن مفهوم الملكية في مصر كان راسخًا منذ الفراعنة باعتبار الملك إلهًا بصرف النظر عن شعبيته، ومع أن هذا المفهوم قد تلاشى مع حكم المسلمين مصر في القرن السابع الميلادي إلا أن تمجيد الملك وتقديم فروض الطاعة والولاء له قد بقي. ومع سخونة الأحداث الجارية فر فاروق إلى الإسكندرية مصطحبًا معه أسرته[1].

تلقى فاروق وهو في الإسكندرية تحذيرًا من المكائد التي يعدها الضباط الأحرار ضده ومن احتمال وقوع انقلاب، ولكنه تجاهل التحذير، وقام بتعيين العقيد إسماعيل شيرين (٣٠ عامًا) وزيرًا للحربية والذي ليس لديه أي سجل خدمة مميز باستثناء أنه الزوج الثاني لأخته فوزية. وعندما وصل خبر التعيين هذا لناصر في ٢٢ يوليو كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، ورأى ناصر بأن الوقت قد حان لثورتهم وإلا فلن تكون هناك ثورة

(١) وليم ستاديام، المرجع السابق.

أبدًا. وبالفعل نفذت خطة الهجوم وتم الاستيلاء على مقر قيادة القوات العامة المسلحة بالقاهرة في ساعة الصفر (الواحدة من صباح اليوم التالي)[١].

ويبدو أن القوى العظمى قد تحالفت هي الأخرى ضد فاروق، فعندما وصل الخبر فاروق اتصل بكل من السفير البريطاني لامبسون والسفير الأمريكي جيفرسون كافيري متسائلًا عما إذا كانوا سينقذوه، وكان واضحًا بأن الأمريكان قد أخذوا قرارهم مسبقًا بعدم التحرك لإنقاذه، أما بريطانيا وبعد مباحثات عدة قررت أن تأخذ هي الأخرى حذو أمريكا.

وفيما يبدو أن كلًا من بريطانيا والولايات المتحدة كانتا تبحثان منذ فترة في السبيل للتخلص من فاروق، دون أن تحوم حولها الشبهات. فقد أشار خالد محيى الدين، أحد الضباط الأحرار ومؤسس حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، في كتابه "والآن أتكلم"، بأنه في إحدى اجتماعاتهم للتمهيد للانقلاب، فجر جمال عبد الناصر مفاجأة عندما ذكر بأن حسن عشماوي أحد قادة الإخوان المسلمين قد أبلغه بأن "الإنجليز يريدون التخلص من الملك فقد أصبح مكشوفًا ومكروهًا من الشعب، ولم يعد قادرًا على ضمان مصالحهم"، كما أكد عشماوي بأن الإنجليز "طلبوا من الإخوان اغتيال الملك، لكن الإخوان رفضوا خوفًا من عواقب ذلك ضدهم"[٢].

ويعتقد حسين محمد حمودة، أحد الضباط الأحرار، أن الولايات المتحدة الأمريكية في أغلب الظن "هي التي حالت دون تدخل القوات البريطانية لحماية الملك فاروق"، وأنها قد أيدت الثورة فور قيامها، وأنه مما لا شك فيه أن المنظم الحقيقي لحركة الضباط الأحرار، الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، كان على صلة وثيقة بالسفارة الأمريكية[٣]. ويأتي هذا الاعتقاد موافقًا لما جاء في كتاب محيى الدين، والذي أشار إلى أن عبد الناصر قد رتب علاقة مع الأمريكان قبل الثورة "ومنحهم قدرًا من التطمينات من أن الثورة القادمة لن تقف ضدهم"، من خلال علي صبري[٤] مدير المخابرات العامة بعد ذلك.

وقد أعرب مصطفى أمين (أحد أعلام الصحافة المصرية) في حديث شخصي للكاتبة الصحفية سهير إسكندر، بأن ثورة ٢٣ يوليو في مرحلتها المبكرة كانت منحازة للولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان معروفًا بأنه، عند قيام الثورة، كانت هناك اتصالات

(١) وليم ستاديام، المرجع السباق.
(٢) خالد محي الدين، "والآن أتكلم"، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص: ١٢٢.
(٣) حسين محمد أحمد حمودة، "أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون"، الزهراء للإعلام العربي"، ١٩٨٥، ص: ٨٩.
(٤) خالد محيى الدين، المرجع السابق، ص: ١٧٨.

بين الثوار وجمال عبد الناصر بالذات والولايات المتحدة الأمريكية. كما كان معروفًا أن المخابرات الأمريكية "هي التي أنشأت المخابرات المصرية وفقًا لنضمها وأن العيب في هذا هو اطلاع المخابرات الأمريكية على كل العامِلين في المخابرات وعلى نظمها" [(١)].

ويعتقد وليم ستاديم (William Stadiem)، كاتب السير الذاتية للمشاهير، أن علاقة فاروق بالأمريكان كانت سيئة للغاية، فعندما عاد كيرميت روزفلت إلى القاهرة في وقت مبكر من عام ١٩٥٢ كرجل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كان لديه أجندة خاصة يعمل وفقًا لها وهو إعداد الشرق الأوسط لاستقبال الديمقراطية الأمريكية والتأكد من أن أنابيب النفط التي تغذي الاقتصاد الأمريكي لن تجف. أصاب روزفلت السخط الشديد واليأس من فاروق الذي كان في كثير من الأحيان يتعمد تنفيذ عكس ما يمليه عليه، السخط الذي قاده في النهاية إلى الضباط الأحرار [(٢)].

ويعطي لنا السادات لمحة عن وضع الجيش المصري إبان الاحتلال في كتابه "أسرار الثورة المصرية"، ففي شتاء عام ١٩٣٨ وتحديدًا في منقباد..يقول السادات: "فقد كنا ضباطا صغارا..وكان لنا قواد..وكان هناك أيضا..إنجليز..! وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا..وإلا الانحناء أمام الإنجليز..وكنا نرى هذا الوضع الكريه، فنحترق..ونسخط..ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم..وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل في داخل النظام العسكري وفي تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت، ويكظم الغيظ، ويدفن النار في حشاه.." [(٣)]

كما كتب عبد الناصر في كتابه "فلسفة الثورة" أن "ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر، منذ بدأ العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه رواد شعب مصر، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه، في أن تكون له نفسه الكلمة العليا في مصيره" [(٤)].

استيقظ المواطنون في صباح اليوم التالي، الأربعاء ٢٣ يوليو، ليفاجئوا بأن هناك ثورة قد قامت وأن قوات الجيش تحتل مرافق القاهرة الحيوية وشوارعها. يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن أول بيان لثورة ٢٣ يوليو (ألقاه السادات) جاء موجزًا ومحدود الأهداف، وفيه يتحدث نجيب عن أسباب الثورة قائلًا: "اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من

(١) د. سمير إسكندر، "موقف الصحافة المصرية من القضايا الوطنية ١٩٤٦-١٩٥٠"، تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٦، ص: ٢٣٧.

(٢) وليم ستاديام، المرجع السابق.

(٣) أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية"، تقديم جمال عبد الناصر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص: ٣٠-٣١.

(٤) جمال عبد الناصر، "فلسفة الثورة"، بيت العرب للتوثيق العصري، ١٩٥٤، ص: ١٤.

الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ... وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور، مجردًا من أي غاية، ..."[1]

وصلت كتيبة مدرعة في صباح ٢٥ يوليو للقبض على فاروق وتم تبادل لإطلاق النار شارك فيه فاروق نفسه. وفي قلب المعركة، رأى فاروق بأن القوتين غير متكافئتين وأن سير المعركة على هذا النحو لا يعني سوى الانتحار. فقام باتصال أخير بكافيري يطلب منه إنقاذ حياته هو وأسرته، وهنا استجاب كافيري أخيرًا وأمر بوقف إطلاق النار.

وفي صباح اليوم التالي، ٢٦ يوليو، عرض رئيس الوزراء علي ماهر (المعين باختيار الضباط الأحرار) على فاروق إنذارًا صاغه السادات ووقع عليه نجيب، وفيه مطالبة فاروق بالتنازل عن العرش لابنه أحمد فؤاد وترك البلاد في نفس هذا اليوم قبل السادسة مساءً[2]. ومن سخرية القدر أن علي ماهر الذي كان رئيسًا للوزراء عندما جلس فاروق على العرش في ٩ مايو ١٩٣٦ كان رئيسًا للوزراء يوم طرده من العرش في ٢٦ يوليو ١٩٥٢.

ارتدى فاروق بزة البحرية الخاصة به عرفانًا منه على ولاء البحرية له، وغادر على يخت المحروسة وفي وداعه على ماهر ونجيب و٢١ طلقة بندقية. مغادرة فاروق بهذا الشكل تعيد إلى الأذهان نفس السيناريو الذي تم منذ ثلاثة أرباع القرن عندما أجبرت بريطانيا وفرنسا جده الأكبر الخديو إسماعيل على التنازل عن عرشه لابنه توفيق والرحيل إلى منفاه في نابولي على نفس اليخت ... المحروسة!!

عكست الرسوم الكاريكاتورية قبل الثورة الوضع الداخلي المتدهور دون الإشارة بشكل مباشر للملك فاروق، إذا تم نقده. فقبل الثورة، تحايل الرسام عبد السميع على الرقابة التي تمنع النقد المباشر للملك باختياره رموزًا ضمنية، والتي منها فردة البنطلون والحذاء الضخم اللامع. ففي إحدى رسومه، يظهر حذاء ضخم لامع وإلى جانبه رئيس الوزراء وقتها مصطفى النحاس محاولًا تقبيل "المصري أفندي" الذي يمتنع قائلًا: "ابعد عني ما تبوسنيش..أنت ريحة شفايفك

(١) عبد الرحمن الرافعي، "مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص: ١٥٣.
(٢) وليم ستاديام، المرجع السابق.

ورنيش!!" وفي كاريكاتير آخر، النحاس يحدث نفسه وهو منهمك في تلميع فردة حذاء ضخمة قائلًا: "وظيفة رئيس الوزراء دي وظيفة متعبة خالص!!"



شكل ٨٦: وظيفة رئيس الوزراء!

(محي الدين اللباد، ١٩٨٧)[١]

ويفهم رجل الشارع بأن شخصية الغوريلا التي تظهر في رسوم عبد السميع إنها تدل على الملك بشحمه ولحمه حتى لو أطلق عليها "الفساد" أو "الغلاء". ففي الكاريكاتير التالي، "المصري أفندي" في حيرة بالغة من يحرب: الإحتلال أم الفساد.



شكل ٨٧: دوخان!

المصري أفندي: انتم دوختوني..أحارب الإنجليز، تقولولي حارب الفساد..أحارب الفساد، تقولولي حارب الإنجليز!!

(روزاليوسف، ١٨ فبراير ١٩٥٢)

(١) محيى الدين اللباد، "نظر"، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص: ٥٠.

وبمناسبة "الاحتفال بيوم الدستور"، ظهر كاريكاتير لعبد السميع على غلاف "روزاليوسف" وفيه "المصري أفندي" يحمل فوق ظهره كتاب ضخم عنوانه "الفساد" ويتصدر غلافه وجه غوريلا. ويعتبر هذا الكاريكاتير من أجمل ما رسم في تصوير العلاقة بين المواطن المصري ودستوره، فثقل مواد الدستور ترمي بظلالها على ظهر "المصري أفندي" الضعيف، وتلعب دورًا كبيرًا في استشراء الفساد تحت الرعاية الملكية.



شكل ٨٨: بمناسبة الاحتفال بعيد الدستور!

"الدستور في مصر!!"

(روزاليوسف، ١٧ مارس ١٩٥٢)

وفي أول عدد لروزاليوسف بعد الثورة، رسم عبد السميع يد ممسكة بسيف (الثورة) توقف الغوريلا رمز الفساد من مهاجمة "المصري أفندي".



قف ... !!

شكل ٨٩: قف!

(روزاليوسف، ٢٨ يوليو ١٩٥٢)

واحتفلت الرسوم الكاريكاتورية برحيل الملك ورحبت بمحمد نجيب قائدًا لمصر. فقد صور عبد السميع "المصري أفندي" يتوسط كل من علي ماهر ومحمد نجيب على رصيف الميناء يتابعان رحيل الغوريلا (الملك) ويقذفونها بأواني "الزير" و"القلل". ويكشف هذا الكاريكاتير بوضوح كيف أن رمز الغوريلا التي عجزت الرقابة سابقًا على منع نشره كان للملك فاروق شخصيًا. وصور صاروخان محمد نجيب وقد قضى على غول الفساد (الملك)، كما صوره كدليل في الصحراء يقود المصري أفندي (شعب مصر) إلى طريق الخلاص حيث العدل والحرية.



شكل ٩٠: في وداع الفساد!

(روزاليوسف، ٤ أغسطس ١٩٥٢)



شكل ٩١: القضاء على الفساد!

(أخبار اليوم، ١٦ أغسطس ١٩٥٢)

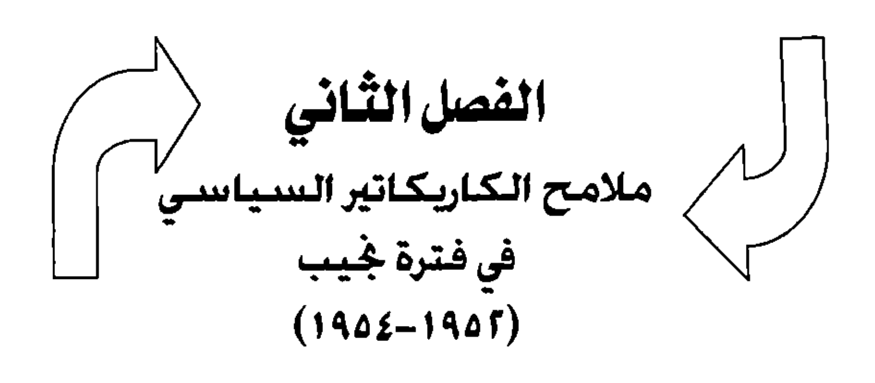


شكل ٩٢: الحرية والعدل!

الدليل نجيب: الطريق متعب طويل!"

المصري أفندي: "موش مهم مادام ح نوصل..."

(أخبار اليوم، ١٨ أكتوبر ١٩٥٢)



الفصل الثاني

ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة نجيب (١٩٥٢-١٩٥٤)



الفصل الثاني
ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة نجيب
(١٩٥٢-١٩٥٤)

شهدت الفترة التي تلت خلع الملك فاروق الكثير من الأحداث والصراعات والمفارقات، التي ساهمت بشكل ما في رسم وتشكيل ملامح مصر ما بعد الثورة، الفترة التي اعتبرت فارقة في حياة أمة عانت لتطوي صفحات من الماضي مليئة بالظلم والقهر والعبودية، وتطلعت لفتح صفحة جديدة تتصالح فيها مع الوطن الذي عاشت في قلبه مغتربة.

كانت هذه الفترة أيضًا فارقة في حياة محمد نجيب سواء على المستوى السياسي أو الإنساني. فلا نبالغ إن قلنا أن نجيب قد دفع ثمنًا باهظًا لمشاركته الضباط الأحرار في الإعداد للانقلاب، وثمنًا أكبر لتوليه منصب رئيس الجمهورية، وهو حريته، فقد عاش تحت الإقامة الإجبارية وفي ظروف إنسانية صعبة لما يقرب من ٣٠ عامًا.

وهذه الفترة كفيلة أن تثبت عمليًا ما للإعلام من دور خطير وقدرة رهيبة في تشكيل الرأي العام، ففي الوقت الذي اتسعت فيه شعبية نجيب وتخطت حدود مصر والسودان، استطاع الإعلام في مدة قصيرة أن يقتنص من شعبيته ويقلب عليه بعض الجماهير، وأخيرًا يجعله في طي النسيان لسنوات. هذا التحول إعلاميا لم يكن عفويًا بل كان مخططًا ومدروسًا، خاصة بعد تعيين صلاح سالم وزيرًا للإرشاد، الذي ساعد أن يخبو نجم نجيب في مقابل صعود نجم عبد الناصر. وقد شعر نجيب نفسه بتجاهل الإعلام المتعمد له في الفترة الأخيرة لصالح آخرين، وظل يشكو من أن صورته لا تنشر بمساحة وقدر كاف[١].

وقد شاركت الرسوم الكاريكاتورية في هذا التحول الإعلامي، فبعد أن مجدت نجيب وصورته بالبطل والقائد والزعيم الأوحد، تجاهلته تدريجيًا وهي تلتف حول جمال عبد الناصر لتصنع منه زعيمًا، فقد فطن الرسامون مبكرًا للمحرك الرئيسي للأحداث والعقل المدبر للانقلاب.

(١) خالد محيى الدين، "والآن أتكلم"، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص: ٢٢٧.

شرح نجيب في مذكراته "كنت رئيسًا لمصر" كيف أن تحركهم ليلة ٢٣ يوليو والاستيلاء على مبنى القيادة كان متعارفًا فيما بينهم بلفظ "انقلاب"، ثم تم استبداله بلفظ "حركة" عند مخاطبة الشعب لمحاولة كسبه لصفوفهم، وعندما أيدتهم الجماهير وهتفت بحياتهم، أضافوا لكلمة "الحركة" صفة "المباركة"[١]، حتى تطور الأمر سريعًا ليصبح "الانقلاب" اسمه "ثورة"، فقد استقبل الشعب حركة الجيش بحفاوة شديدة، والذي رأى فيها تدشين لحقبة جديدة ستتحقق فيها مطالبه الوطنية، مما رقي بها لأن تكون ثورة شعبية، وبالتالي اكسبها شرعية سياسية. كان التأييد الشعبي يتعاظم بصورة لم تكن متوقعة حتى للضباط الأحرار أنفسهم.

وكتب نجيب بأنه أول من أطلق عبارة "الضباط الأحرار" على التنظيم الذي أسسه جمال عبد الناصر، وإن كان يعتذر عن هذه التسمية ويرى أنهم كانوا "أشرارًا"، لاستغلالهم لشخصه[٢]، في حين يعتقد خالد محيي الدين، أحد الضباط الأحرار، بأن "جمال منصور" هو من اختار اسم "الضباط الأحرار"[٣]!

كان انضمام اللواء محمد نجيب لتنظيم "الضباط الأحرار" يعد أكبر مكسبًا لهم وللثورة، فقد كان يتمتع بشعبية ضخمة وزعامة بين ضباط الجيش، ولذلك لم يكن مفاجئًا أنه بمجرد صدور البيان الأول باسمه، انضم كافة ضباط الجيش للثورة، وبالتالي حال وجوده دون أن تتحرك قوات أخرى موالية للملك للقضاء على الثورة[٤]. ولعل هذا نفس السبب الذي جعل نجيب يشعر بأن الضباط الأحرار قد استغلوا اسمه وسمعته وشعبيته، وصنعوا منه واجهة يتحركون في إطارها[٥].

كانت الرسوم الكاريكاتورية كما سبق وأشرنا تصور نجيب بالزعيم الذي بسيفه سيقيم العدل، وسيقوم بعملية التطهير والتي تكمن في التخلص من زعماء وساسة النظام السابق، وعلى رأسهم مصطفى النحاس زعيم حزب الأغلبية الوفد.

(١) محمد نجيب، "كنت رئيسا لمصر"، المكتب المصري الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص: ١٤٥.
(٢) محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٩١.
(٣) خالد محي الدين، المرجع السابق، ص: ٢٢١.
(٤) حسين محمد أحمد حمودة، "أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون"، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٥، ص: ٨٧.
(٥) محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ١٠٢.



شكل ٩٣: العدالة!

(روزاليوسف، ١٨ أغسطس ١٩٥٢)



شكل ٩٤: التطهير .. الخراف!

المواطن المصري: "الخرفان كتير .. ندبح مين فيهم الأول!!"

(روزاليوسف، ٢ سبتمبر ١٩٥٢)

كانت الشهور التالية لثورة ٢٣ يوليو حافلة، ففي ٧ سبتمبر ١٩٥٢، تم تشكيل وزارة جديدة برئاسة محمد نجيب، وفي ٩ سبتمبر، صدر قانون "الإصلاح الزراعي"، والذي على أساسه تم تحديد ملكية الأرض الزراعية بمائتي فدان للفرد، وبالتالي تستولي الحكومة على مساحات الأراضي الزائدة، ثم تقوم بتوزيعها على صغار الفلاحين، قطعًا ما بين فدانين إلى خمسة[1].

ورحبت الرسوم بقانون "الإصلاح الزراعي" ورأت فيه خطوة في طريق القضاء على الإقطاع والرأسمالية، وإعادة لتوزيع الثروات.



شكل ٩٥: ا/رأسمالية!

نجيب: "ما تخافش .. مش ممكن حتتعور إلا إذ تحركت!!"

(روز اليوسف، ٨ سبتمبر ١٩٥٢)



شكل ٩٦: تحديد الملكية!

الإقطاع: "ده أخده بعد الأكل، ولا قبل الأكل!!"

(روزاليوسف، ١٥ سبتمبر ١٩٥٢)

(١) طارق البشري، "الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢-١٩٧٠"، مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص: ٨٥.

وفي ١٠ ديسمبر ١٩٥٢، أعلن عن إلغاء دستور ١٩٢٣، كما تم إنشاء محكمة الغدر في ٢٢ ديسمبر والتي اشترك فيها الضباط بنسبة أربعة أعضاء إلى ثلاثة مستشارين، وأنشئت محكمة الثورة في سبتمبر ١٩٥٣ لتحاكم بعض من الساسة القدامى، وكذلك أنشئت المحاكم الشعبية التي حاكمت الإخوان في نوفمبر ١٩٥٤، وصدر قانون جديد للأحكام العرفية في ٧ أكتوبر ١٩٥٤[(١)].

أجمع عدد كبير من الضباط الأحرار والمثقفين والقريبين من أحداث ٢٣ يوليو في مذكراتهم بأن عبد الناصر كان العقل المحرك للتنظيم، والرأس المدبرة للانقلاب أو الثورة. وقد فطن القلة القليلة بأن للقيادة في الواقع زعيمين، زعيم كان ظاهرًا أمام الجمهور متمثلًا في شخص محمد نجيب، وزعيم فعلي في الظل متمثلًا في شخص جمال عبد الناصر، الرئيس الفعلي للجنة التأسيسية للضباط الأحرار.

وكان مجلس قيادة الثورة يتكون من ١٤ عضوًا، يتضمن الأعضاء التسعة للجنة التأسيسية للضباط الأحرار ومنهم: جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وصلاح سالم، وجمال سالم، وأنور السادات، وكمال الدين حسين، وحسن إبراهيم[(٢)]. ثم تم تنفيذ اقتراح بتشكيل لجنة مصغرة من مجلس قيادة الثورة تقوم بدراسة الأمور ثم تعرض مقترحاتها على المجلس بكامل هيئته، وبالتالي تركزت السلطة في يد أربعة عشر، ثم في يد خمسة، وانتهى الأمر بتركيزها في يد عبد الناصر وحده[(٣)].

ويرى المستشار طارق البشري في كتابه "الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو"، بأن عبد الناصر انفرد بالسلطة عبر تواريخ ثلاث في ١٩ يناير ١٩٥٣ عندما أعلن مجلس القيادة تعيين عبد الناصر نائبًا لرئيسه محمد نجيب، ومع إعلان الجمهورية في ١٨ يونيو، عندما أصبح عبد الناصر وزيرًا للداخلية محل سليمان حافظ، وأصبح عبد الحكيم عامر قائدًا عامًا للجيش بدلًا من محمد نجيب، وأصبح محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، قيل إنه رئيس "لجمهورية برلمانية"، أي ليست له سلطات رئاسية على الرغم من عدم وجود برلمان"[(٤)]!

ويضيف البشري بأن الثمانية عشر عامًا (من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٠) عرفت مصر رئيسًا واحدًا وثلاث تنظيمات شعبية، هيئة التحرير والاتحاد القومي والاتحاد

---

(١) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ٩٣-٩٤.

(٢) خالد محي الدين، المرجع السابق، ص: ١٧٥.

(٣) خالد محي الدين، المرجع السابق، ص: ١٩٨.

(٤) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ٨٤.

الاشتراكي، التي كانت أعمارها قصيرة ولم تكن لها تأثير فعلي[1]، وبالتالي فإن أخطر القرارات السياسية التي اتخذت سواء في الخمسينيات أو الستينيات لم يكن لهذه التنظيمات أي دور فيها[2].

وشهدت وزارة نجيب الأولى حدوث أول شرخ في العلاقة بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين. فقد اقترح عبد الناصر أن يمثل الإخوان في الوزارة، وبالفعل اقترح حسن الهضيبي (المرشد العام للإخوان المسلمين وقتها) الشيخ الباقوري وأحمد حسني، لكن بينما كان الوزراء يستعدون لحلف اليمين حتى فوجئوا بترشيح الإخوان لشخصين آخرين بعد أن عدل مكتب الإرشاد اقتراح الهضيبي، فقوبل ترشيحهم بالرفض، كما تحدى الباقوري أوامر الجماعة وقبل الوزارة، مما تسبب في إحداث شرخ في صفوف الجماعة نفسها، الشرخ الذي لعب عليه كثيرًا عبد الناصر "مستفيدًا منه في استقطاب عناصر هامة من الجماعة، ومن جهازها السري إلى صفه وضد الهضيبي، مما أربك الجماعة فيما بعد إرباكًا شديدًا"[3].

ومن الجدير بالذكر، أن الإخوان المسلمين كانوا التنظيم الوحيد الذي اهتم عبد الناصر بإخطاره بميعاد الثورة قبل قيامها، لدرجة أنه أجل قيامها يومًا حتى يتم إفادته بموافقة المرشد العام[4].

لم يتصادم عبد الناصر فقط مع الإخوان، إنما أيضًا تصادم مع اليسار، ومع "حدتو" بالذات، المنظمة التي أسهمت معه في تنظيم "الضباط الأحرار"، وبدأت خطة التصادم بمصادرته لصحيفتهم "الكاتب"، ثم مجلتيهم "الواجب"[5]. وفي ١٨ يناير ١٩٥٣ شن الأمن حملة اعتقالات واسعة شملت ١٤ من قادة الأحزاب و٣٩ شخصًا بتهمة الاتصال بجهات أجنبية، و٤٨ شيوعيًا أغلبهم أو ربما كلهم من أعضاء "حدتو"[6].

وتم إعلان مصر جمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣ وتعيين محمد نجيب رئيسًا لها. ورسم عبد السميع محتفلًا الملك فاروق وقد قتل بسيف (الجمهورية) وفوق صدره يقف "المصري

---

(١) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ١٣٠.

(٢) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ١٣٤.

(٣) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ١٩٦.

(٤) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ٧٥.

(٥) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ١٩٨.

(٦) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ٢٠٢.

أفندي" تحت اسم "المواطن المصري" (فقد سلب منه لقب "أفندي"*) يقول: "أنا الدولة" وحوله مجموعة من الضباط الأحرار ومن ضمنهم محمد نجيب شاهرًا سيفه لأعلى (إشارة إلى النصر).

وفي ١٠ فبراير ١٩٥٣ أعلن عن دستور مؤقت يجري به العمل لمدة ثلاث سنوات، وهي الفترة الانتقالية التى حددتها وقتها قيادة الثورة[(١)].



شكل ٩٧: فترة الانتقال!

الرئيس نجيب: "اوعى تبص وراك أحسن تقع!"

(روزاليوسف، ٩ فبراير ١٩٥٣)

وتنفس الشعب الصعداء بإعلان الجمهورية الذي أعتبر خطوة صحيحة على طريق الديمقراطية المنشودة، ومع ذلك كان هناك أصوات عديدة تطالب بعودة الجيش إلى ثكناته. ونلاحظ أنه بعد إعلان الجمهورية وسطوع نجم عبد الناصر، تلاشت تدريجيًا الرسوم التي تنفرد بتصوير نجيب وحده، وانتشرت تدريجيًا الرسوم التي تصور الاثنين معًا أو تصور عبد الناصر وحده. وبالتالي لم ينل نجيب حظًا وفيرًا من الرسوم الكاريكاتورية بالمقارنة بعبد الناصر.

رسم عبد السميع كاريكاتيرًا تصدر غلاف "روزاليوسف" وفيه "المصري أفندي" يصافح نجيب قائلًا: "أنا قعدت ثمانية وعشرين سنة أدور عليك"، في إشارة إلى عمر المجلة آنذاك.

---

* بعد أن تم إلغاء ألقاب البشوية والأفندية، تحول اسم "المصري أفندي" إلى "المواطن المصري"، وسيتم الإشارة إلى الشخصية باسمها الأصلي "المصري أفندي" عند الحديث عنها.

(١) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ١٠٤.

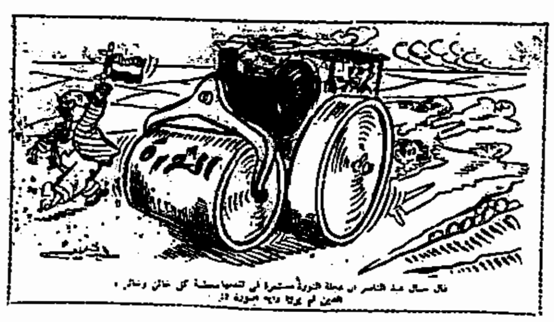


شكل ٩٨: الباحث عن الثورة!

المواطن المصري: "أنا قعدت ثمانية وعشرين سنة أدور عليك!!"

(روزاليوسف، ٢٦ أكتوبر ١٩٥٣)

وتعقيبًا على تصريح عبد الناصر بأن "عجلة الثورة مستمرة في تقدمها محطمة كل خائن وخائر"، رسم عبد السميع نجيب يقود بلدوزر (الثورة) لدك الطرق يسحق كل من يمر بهم ويساويهم بالأرض، يظهر من ضمنهم زعماء الوفد مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين.



شكل ٩٩: عجلة الثورة!

"قال عبد الناصر: إن عجلة الثورة مستمرة في تقدمها محطمة كل خائن وخائر"

(روزاليوسف، ٢٠ سبتمبر ١٩٥٣)

وفي برنامجه "مع هيكل" على قناة "الجزيرة"، تناول الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل ملامح من الخلاف والتنافس الذي كان قائمًا بين نجيب وعبد الناصر، والذي يراه طبيعيًا ومنطقيًا بين اثنين وصف أحدهما (محمد نجيب) بأنه كان يمثل "قلب الثورة" و"وجهها الشرعي الذي عرفه الناس"، بينما وصف الآخر (جمال عبد الناصر) بـ "العقل في الثورة" و"الرجل الذي قاد كل التحركات" التي توصلت إلى إسقاط نظام لم يتوقع أحد أن في الإمكان إسقاطه، وبالتالي كان الخلاف بين القائد الذي "أعطى الثورة وجهها الإنساني والناس [أحبوه] وبين القائد "الحقيقي""(١).

وما لبث أن نشبت الخلافات داخل مجلس قيادة الثورة وطفحت على السطح في الفترة من أواخر شهر فبراير إلى نهاية شهر مارس من عام ١٩٥٤، فيما عرفت باسم "أزمة مارس ١٩٥٤"، والتي بدأت بتقديم نجيب استقالته في ٢٣ فبراير احتجاجًا على وجوده الصوري في السلطة بدون صلاحيات مناسبة، والتي وضعت الثورة في اختبار فعلي لموقفها الحقيقي من الديمقراطية.

وعندما قبل مجلس قيادة الثورة استقالة نجيب، أصدر بيانًا توضيحيًا في صحيفة "الجمهورية" (٢٥ فبراير ١٩٥٤) تتضمن بعض العبارات ضد نجيب مثل: "محمد نجيب كان بعيدًا عن صفوف الضباط الأحرار"، "أخطر باختياره قائدًا للثورة قبل قيامها بشهرين فقط"، وأنه "بعد ستة أشهر من قيام الثورة بدأ يطلب بين وقت وآخر من المجلس منحه سلطات تفوق سلطة العضو العادي"، وأنه "اجمالًا.. طالب بسلطة فردية مطلقة"(٢).

ولم يتقبل الشعب خبر استقالة نجيب، فاندلعت المظاهرات في شوارع القاهرة، والتي نظمتها، كما يعتقد أستاذ الصحافة والإعلام كرم شلبي، الأحزاب القديمة وجماعة الإخوان والشيوعيون الذين كانوا يرون في الثورة "دكتاتورية عسكرية"(٣)، والمؤيدون لمحمد نجيب لإيمانه بضرورة أن يسلم الجيش البلاد لسلطة مدنية. كما أعلن تأييده لنجيب

(١) محمد حسنين هيكل، "هيكل..أزمة مارس ١٩٥٤"، برنامج "مع هيكل"، قناة الجزيرة الفضائية، ٩ نوفمبر ٢٠٠٦، تم الاطلاع عليه في ١٠ أغسطس ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B93473F2-B262-406E-A8E0-2F5656B0E910.htm

( ) د. كرم شلبي، "صحافة الثورة وقضية الديمقراطية في مصر". مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ٩٠.

(٣) د. كرم شلبي، المرجع السابق، ص: ٩٠.

سلاح الفرسان وبعض وحدات الإسكندرية العسكرية، التي خرجت هي الأخرى غاضبة مما أدى لحدوث صدام بين هذه القوى وبين قوات الشرطة أسفر عن سقوط قتلى من المدنيين والجنود[١].

وفي اجتماع عبد الناصر مع ضباط سلاح الفرسان الموالين لنجيب، برر رفضه للانتخابات البرلمانية لإقدام الإقطاعيين بشراء أصوات الناخبين قائلًا: "الشعب الذي لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية الحرية، لا يمكنه أن يستمتع بالحرية"، واندفع أحد الضباط قائلًا: "نحن لا نستطيع أن نفرض وصايا على أهلنا والحرية هي السبيل الوحيد لتعليم شعبنا كيفية ممارستها، ولا يمكن الحجر على الناس بحجة أنهم ليسوا أكفاء للاستمتاع بالحرية"[٢].

وكان يرى الضباط السودانيون بأنه لابد من وضع علاقة نجيب بشعب السودان في الاعتبار، وعدم تجاهل حقيقة أن السودانيين يحبونه، فالسودان لا تعرف جمال عبد الناصر، ولكن تعرف نجيب، كما أن إبعاد نجيب "عمل ضد وحدة مصر والسودان"[٣].

وكان لإدارة المباحث الجنائية العسكرية التابعة للبوليس الحربي دور مهم في أزمة مارس، حيث قامت بطبع منشورات وتوزيعها في محاولة للتشكيك في سلوك محمد نجيب والإساءة إلى شعبيته[٤]. كما كشرت الثورة عن أنيابها عندما شهد شهر مارس حملة اعتقالات واسعة، لم تخلو من حوادث الاعتداء والتعذيب في حق المعتقلين. فقد تم اعتقال عدد كبير من المنتمين لجماعة الإخوان، وقد بعث الهضيبي خطابًا من السجن إلى نجيب (نشر في صحيفة "المصري" في ١٦ مارس ١٩٥٤) "يعرب فيه عن عدم ثقته في أن قيادة الثورة جادة بالفعل في إقامة حكم ديمقراطي سليم، مطالبًا بضرورة أن يشارك الأخوان المسلمين في تقرير شؤون البلاد"[٥]. وأيضًا وفقًا لصحيفة "المصري" في ١٧ مارس ١٩٥٤، احتجت نقابة المحامين على تعرض عدد منهم للتعذيب بعد اعتقالهم، وطالبوا بالتحقيق في واقعة الاعتداء حتى ينال المعتدون الجزاء الذي يتناسب مع ما اقترفوه في حقهم[٦].

(١) د. كرم شلبي، المرجع السابق، ص: ٩٠.
(٢) خالد محيى الدين، المرجع السابق، ص: ٢٧٢.
(٣) خالد محيى الدين، المرجع السابق، ص: ٢٧٣.
(٤) طارق البشري، المرجع السابق، ص ٩٥.
(٥) د. كرم شلبي، المرجع السابق، ص: ٩٤.
(٦) د. كرم شلبي، المرجع السابق، ص: ٦٤.

يرى هيكل بأنه منذ قبول مجلس الثورة استقالة نجيب والبلد قد دخلت في لحظة هي الأسوأ على الإطلاق، ويعتقد بأنه كانت هناك أطراف أخرى خارجية في هذا الصراع، وعلى رأسها الطرف الإنجليزي، الذي كان يحاول الاستفادة مما يجري. فوفقًا للوثائق البريطانية، وتحديدًا في ١٨ مارس، طلب رئيس الوزراء آنذاك ونستون تشرشل من السفير الإنجليزي في مصر أن يبحث معه ومع القائد العسكري فيلد مارشال إيرل ألكسندر تونس تنفيذ خطة "روديو" لاحتلال الدلتا ودخول القوات البريطانية القاهرة، وبالتالي إقامة حكومة موالية لهم[(١)].

ولامتصاص غضب الشارع، تم إعادة نجيب لرئاسة الجمهورية وعين خالد محيي الدين رئيسًا للوزراء[(٢)]، وأذاع مجلس قيادة الثورة بيانًا جاء فيه أنه "حفاظًا على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيسًا للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك"[(٣)]. وما أن علم الناس بالنبأ، حتى خرجت المظاهرات تحتفل بعودته، وتهتف باسمه.

وقد تدهورت علاقة ثورة ٢٣ يوليو مبكرًا بالصحافة والصحفيين، حتى مع أولئك الذين جمعت بينهم وبين بعض ضباط الثورة صداقات ومعرفة سابقة للثورة. فعلى سبيل المثال، كان أحمد أبو الفتح، رئيس تحرير صحيفة "المصري"، تربطه علاقة وطيدة قبل قيام الثورة ببعض رجالها، خاصة عبد الناصر، إلا أنه ما لبث أن تعارض خط الثورة مع اتجاه الصحيفة التي تنادي بالدستور وتؤمن بالحياة النيابية وتتبنى قضية الديمقراطية[(٤)]. فلم تنفعه صداقاته في المحنة التي أصابت الصحيفة جراء اختلافها مع خط الثورة، والتي بدأت بالتضييق عليها بوضعها تحت رقابة شديدة استحال التحايل عليها، والتي امتدت إلى أخبار الفن أو الأدب بحجة أن الكتابة لا تعجب الرقيب، مما أدى إلى تأخير الطبع وبالتالي عدم وصول الجريدة في موعدها[(٥)]. وليس هذا فحسب، تم إلغاء رخصة "المصري" بعد التحقيق والحكم في الادعاءات المقامة ضد محمود أبو الفتح (صاحب الجريدة) بدعوى قيامه "باتصالات في الخارج ضد نظام الحكم القائم"[(٦)]. وقد سجل عبد اللطيف البغدادي

(١) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق.
(٢) محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢٣٢.
(٣) محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢٣٥.
(٤) د. سهير إسكندر، "موقف الصحافة المصرية من القضايا الوطنية ١٩٤٦-١٩٥٤"، تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٦، ص: ١٥٩.
(٥) د. سهير إسكندر، المرجع السابق، ص: ٢٠٩.
(٦) د. سهير إسكندر، المرجع السابق، ص: ٢١٠.

في مذكراته احتجاجه على محاكمة محمود أبو الفتح وعن أسلوب محاكمته أثناء وجوده في الخارج وتساءل عن توقيت المحاكمة التي لم يجد ما يبررها غير موقف الصحيفة من الثورة في الفترة الأخيرة، أي أن الدافع وراء المحاكمة كان الانتقام[1].

وعلى العكس كانت صحيفة "أخبار اليوم" التي تبنت خط الثورة واتجاهها، وبالتالي نالت شرف الحظوة ولو لوقت قليل. وقد "فضحت" الصحيفة نفسها في عدم ثبات موقفها وتذبذبها وفقًا لقرارات الثورة أو اقترافها ما يسمى بـ "النفاق الصحفي"، فبعد استقالة نجيب، كتبت في حكمة العدد التي كان لها إسقاط سياسي: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، مع تعقيب لمصطفى أمين يؤكد أن هذه الثورة ليست ثورة محمد نجيب وإنما هي ثورة عشرين مليونًا من المصريين ولا يمكن لفرد واحد أن يطغى ويتحكم ويفرض رأيه على الناس (أخبار اليوم، ٢٧ فبراير ١٩٥٤)[2]. كما خرجت الأخبار مع صورة لجمال عبد الناصر وعنوان "قائد الثورة يتولى رئاسة الوزارة" وأيدت الأخبار إقصاء نجيب انتصارًا لما أسمته انتصار المبادئ على الأشخاص (الأخبار ٢٦ فبراير ١٩٥٤، المبادئ والأشخاص)[3]، وبعد عودة نجيب خرجت "أخبار اليوم" مهللة بعودته.

وفي ٥ مارس، أعلنت قرارات مارس الشهيرة التي جاء فيها عقد جمعية تأسيسية منتخبة بطريق الاقتراع العام المباشر تقوم بمناقشة مشروع دستور جديد وإقراره، والقيام بمهمة البرلمان إلى أن يتم انعقاد البرلمان الجديد، وإلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء انتخابات الجمعية التأسيسية[4].

ولقد رحبت مجلة "روزاليوسف" بقرارات ٥ مارس التي رأت فيها الطريق الحقيقي لإقرار الديمقراطية، ونشرت عدد من الرسوم الكاريكاتورية مرحبة بفكرة إقرار دستور جديد وفكرة عودة الحياة النيابية والأحزاب، إلا أنها لم تكن من أنصار عودة الجيش إلى ثكناته، خاصة فيما يتعلق بعودة الضباط الأحرار. ففي عدد ٢٩ مارس ١٩٥٤، تحت عنوان "مصير الثورة .. ومصير رجال الثورة!!؟" كتب إحسان عبد القدوس "قد يعود الجيش إلى ثكناته، كمبدأ عام. أما رجال الثورة بالذات .. فلا .. كيف يعود البكباشي جمال عبد الناصر ليقف "زنهارا" أمام أي لواء، ويرفع يده "تعظيم سلام" لكل أميرالاي؟ ... إنهم رجال

(١) د. سهير إسكندر، المرجع السابق، ص: ٢١١.
(٢) د. سهير إسكندر، المرجع السابق، ص: ٢٢٠.
(٣) د. سهير إسكندر، المرجع السابق، ص: ٢٢٠.
(٤) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ٢٨٩.

مارسوا الحكم فعلًا، ومارسوا السياسة فعلًا وعملًا، ومارسوا المسائل الاقتصادية والمالية والاجتماعية..وكونوا لأنفسهم آراء ومبادئ في كل ذلك .. كانوا وزراء وأكثر من وزراء .. وإذا كانوا قد أنكروا ذواتهم فقرروا أن يتنازلوا عن مناصبهم كوزراء، فكيف نطالبهم بانكار الذات إلى حد أن يتنازلوا عن عقلياتهم_العقليات التي درست السياسة وخبرت الحكم_ليعودوا إلى ثكناتهم ولا شأن لهم بالحكم ولا بالسياسة؟ وكيف يرتاحون ونرتاح على هذا الوضع!!"



المواطن المصري — خليكم على طول .. أحسن اذا وقفنا حنرجع لورا !! ..

شكل ١٠٠: الديمقراطية!

المواطن المصري: "خليكم على طول.. أحسن اذا وقفنا حنرجع لورا!!.."

(روزاليوسف، ٢٢ مارس ١٩٥٤)



مونتريال: اكتشف عالمان من كندا منطقة السرور في المخ!

شكل ١٠١: الحرية!

"مونتريال: اكتشف عالمان من كندا منطقة السرور في المخ!"

نجيب: وجدتها وجدتها!

(روزاليوسف، ٢٢ مارس ١٩٥٤)



شكل ١٠٢: الحرية الوليدة — الحياة البرلمانية!

المواطن المصري: "أنا اللي هارضعها بنفسي عشان أضمن انها تعيش!!"

(روزاليوسف، ٢٩ مارس ١٩٥٤)



شكل ١٠٣: موكب الدستور!

(روزاليوسف، ٢٢ مارس ١٩٥٤)

ورسم رخا في "أخبار اليوم" نجيب يفتح نافذة (حرية الصحافة) ويخاطب صحفي قائلًا: "أنا فتحت لك الشباك ... عايز تشم هوا شم هوا ... عاوز ترمي نفسك منه ارمي نفسك منه". نجد في الصيغة التهكمية التي وضعها رخا على لسان نجيب إشارة لعدم وجود نية حقيقية في تحقيق حرية الصحافة. وفي كاريكاتير آخر، أعرب رخا بأن سلاح الرقابة الصحفية الذي استعمله بعض رؤساء الوزراء، وعلى رأسهم مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين وعلي ماهر، قد انقلب ضدهم.



شكل ١٠٤: حرية الصحافة!

(أبو العينين، ١٩٩٠)[1]



شكل ١٠٥: الرقابة الصحفية!

(أبو العينين، ١٩٩٠)[2]

(١) سعيد أبو العينين، "رخا..فارس الكاريكاتير"، أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص: ١٤٩.
(٢) سعيد أبو العينين، المرجع السابق، ص: ١٤٩.

ولم تتبن عدد من الصحف، وعلى رأسها "المصري"، موقف "روزاليوسف" من قرارات مارس، بل على العكس، فقد شنوا حملات تحريض واسعة ضد حركة الجيش مطالبين بضرورة عودة الجيش لثكناته. ويعتقد محيى الدين أن مجلس الثورة وضباطه قد تفاجؤوا بانتهاز فرصة مساحة الحريات التي أتيحت في الفترة من ٥ مارس وحتى ٢٥ مارس لشن هجوم ضارٍ عليهم، مما أثار مخاوفهم وكان دافعًا لعبد الناصر للتفكير في خطة التراجع عن قرارات مارس[(١)].

والحقيقة أن أزمة مارس قد كشفت عن الصراع الدائر خلف الكواليس بين مؤيدي الديمقراطية والداعين لها من خلال وسائلها المشروعة من إقرار دستور وعودة الحياة النيابية وحرية الصحافة وعودة الأحزاب وبين الرافضين للديمقراطية والرافضين لعودة الحياة النيابية والمؤيدين للسلطة الفردية، وقد انتصر في النهاية الفريق الثاني الذي مثله جمال عبد الناصر.

واشتعل الهاجس عند الناس من الديمقراطية والانتخابات، فقد كان لديهم مخاوف عميقة من أن الانتخابات لن تسفر إلا عن عناصر مثل تلك التي كانت تأتي في البرلمان قبل الثورة.

وانهمك عبد الناصر في تلك الأيام في حشد أكبر قدر من ضباط الجيش حوله، ممن هم ضد الديمقراطية، وفي يوم ٢٨ مارس. أضرب عمال السكة الحديد، وأضرب عمال النقل العام، واعتصموا مطالبين بإلغاء قرارات ٥ مارس ومطالبين باستمرار الثورة، وخرجت مظاهرات تهتف ضد الديمقراطية وضد عودة الأحزاب. كان واضحًا أن هذا من تدبير عبد الناصر الذي صارح محيي الدين عقب عودت الأخير من المنفى قائلًا: "لما لقيت المسألة مش نافعة قررت أتحرك، وقد كلفني الأمر أربعة آلاف جنيه"[(٢)].

وسبق تلك المظاهرات وقوع ستة انفجارات دفعة واحدة في القاهرة، أثارت مزيد من المخاوف والهواجس حول مخاطر انفلات الوضع وحدوث فوضى[(٣)]. وانتشرت وقتها فكرة "إما وإما"، أي إما مجلس الثورة وإما الفوضى! لإثارة مخاوف الناس من الاندفاع في طريق الديمقراطية. والإيحاء بأن الأمن قد يهتز وأن الفوضى ستسود[(٤)].

---

(١) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ٢٩٦.
(٢) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ٢٩٨.
(٣) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ٣٠٥.
(٤) خالد محيي الدين، المرجع السابق، ص: ٣٠٥.

وأخيرًا قرر مجلس قيادة الثورة في ١٤ نوفمبر عام ١٩٥٤ إعفاء محمد نجيب من جميع المناصب التي كان يشغلها، وأن يبقى منصب رئاسة الجمهورية شاغرًا وأن يستمر مجلس قيادة الثورة في تولي كافة سلطاته بقيادة عبد الناصر(١). يقول نجيب في مذكراته بأنه في هذا اليوم أتاه عبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم وقالا له في خجل: "إن مجلس الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئيس الجمهورية"، فرد نجيب: "أنا لن أستقيل الآن لأني بذلك سأصبح مسؤولًا أمام التاريخ عن ضياع صلة السودان بمصر، أما إذا كان الأمر إقالة فمرحبًا لأنكم تعفونني من مسؤولية لم يعد ضميري يحتملها"، وتم وضع نجيب تحت الحراسة والإقامة الجبرية حتى أكتوبر ١٩٨٣(٢).

وكتب نجيب: "كان للثورة أعداء وكنا نحن أشدهم خطورة.. كان كل ضابط من ضباط الثورة يريد أن يملك.. يملك مثل الملك.. ويحكم مثل رئيس الحكومة. لذلك فهم كانوا يسمون الوزراء بالسعاة.. أو بالطراطير.. أو بالمحضرين.. وكان (زملاؤهم) الضباط يقولون عنهم: طردنا ملكًا وجئنا بثلاثة عشر ملكًا آخر(٣).

ويرى بعض ممن عاصروا عبد السميع بأنه كان مرحبًا بالثورة ولكن ثقافته ونبوغه السياسي مكناه من قراءة سلبياتها قبل ايجابياتها، فقد كان معارضًا وبشدة فكرة سيطرة الجيش على نظام الحكم. وعندما واجه عبد السميع رقابة شديدة تمنعه من التعبير عن رأيه، ابتدع سلسلته الشهيرة "النفاق في حديقة الحيوان" والتي تعتبر بحق علامة بارزة في تاريخ الكاريكاتير السياسي. كان ما يقلق عبد السميع هو حقيقة أن معظم المصريين اضطروا لإخفاء مشاعرهم الحقيقية في فترة اتسمت بغياب الديمقراطية وبمصادرة الحريات. صور عبد السميع هذا النفاق والتملق للسلطة في سلسلته الإبداعية التي كان أبطالها حيوانات في أدوار آدمية، ليذكرنا بتلك الرسوم التي وجدت مسجلة في عدد من البرديات الساخرة التي سبق وأن عرضت في مقدمة الكتاب.

فمن رسوماته التي لا تنسى، الثعلب يخاطب الأسد ملك الحديقة قائلًا: "الديمقراطية معناها إن سيادتك تنتخب الرعايا اللي تحب تحكمهم!!" (روز اليوسف، ٢٢ مارس ١٩٥٤)، و في كاريكاتير آخر، الثعلب يشير إلى الحمار المخطط ويخاطب الأسد قائلًا: "ده متخطط عشانك".

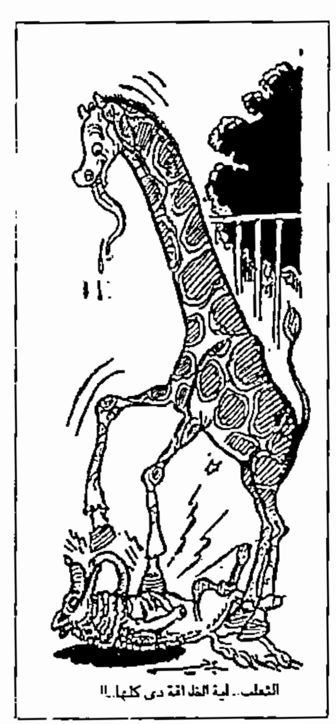
---

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ١٦٠.
(٢) محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢٧٠.
(٣) محمد نجيب، المرجع السابق، ص: ٢٠١.



شكل ١٠٦: النفاق في حديقة الحيوان ١!

(روز اليوسف، ٢٩ مارس ١٩٥٤)



شكل ١٠٧: النفاق في حديقة الحيوان ٢!

"الثعلب..إيه الظرافة دي كلها..!!"

(روز اليوسف، ٥ يوليو ١٩٥٣)

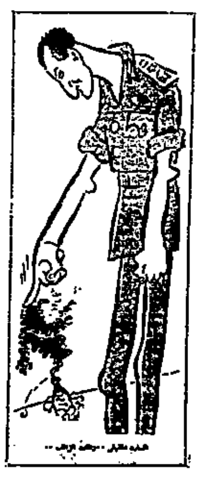
إلا أن عبد السميع أخذ موقفًا مؤيدًا لعبد الناصر في موقفه المناهض والمحارب للإخوان المسلمين (الذين يتم الإشارة إليهم أحيانًا بالرجعية) والشيوعيين، وكان هذا قبل حادث المنشية الشهير الذي كان ذريعة لعبد الناصر للقبض على عدد كبير من الإخوان والزج بهم في السجون.



شكل ١٠٨: يعمل الإخوان والشيوعيون في جبهة واحدة!

جمال عبد الناصر: "ياترى الدماغ في أي ناحية؟!"

(روزاليوسف، ٢٧ سبتمبر ١٩٥٤)



شكل ١٠٩: الخيانة!

"المارد الحقيقي .. والمارد المزيف!

(روزاليوسف، ١ نوفمبر ١٩٥٤)



شكل ١١٠: الرجعية!

الرجعي: "أنا راجل رجعي..بناتي (دسيسه وإشاعة) ما يبانوش على حد!!"

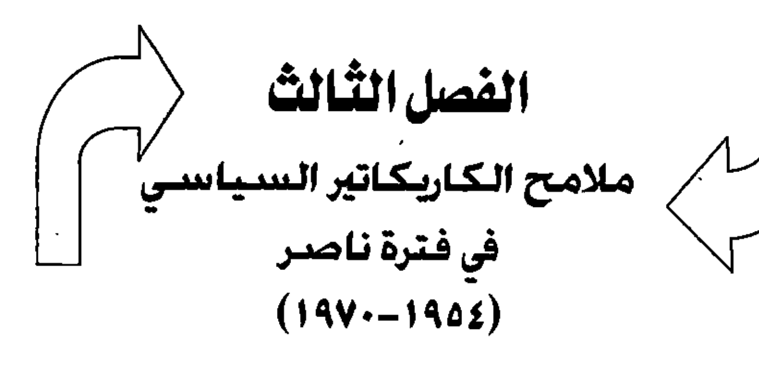
(روزاليوسف، ١٨ أكتوبر ١٩٥٤)

وسجل الفنان رخا إحباطه الشديد في تلك الفترة التي شهدت قمع للحريات لم يعهده قبل الثورة، مما جعله يتجنب رسم الأشخاص حتى لا يتعرض للبطش، حيث من المرجح ألا يتعرض لمحاكمة عادلة، كما أنه ساد استخدام وسائل التعذيب والامتهان مع المعتقلين.

وفي الاجتماع الذي دار بين المفكر محمود أمين العالم عندما تولى إدارة "أخبار اليوم" وبين عدد من رسامي الكاريكاتير وعلى رأسهم رخا وصاروخان ومصطفى حسين ومحمود ورؤوف، أبدى العالم ملاحظته بأن محصول الرسوم التي تنشر قليلة لا تتناسب مع عدد الرسامين الموجودين. كانت هذه الملاحظة سديدة وقد وضح رخا لـ العالم ما يعانيه هو ورسامو الكاريكاتير في هذه الفترة وهو أن ما يقدمونه من رسوم الآن ليس سوى مظاهرات على طريقة "يحيا الوفد"، كلها صور تمثل هتافات لما تقوم به الحكومة من أعمال، وهذا ليس صورًا كاريكاتورية، لأن الأصل في الكاريكاتير النقد، كما أن سياسة مصر غير واضحة بالنسبة لهم[(١)].

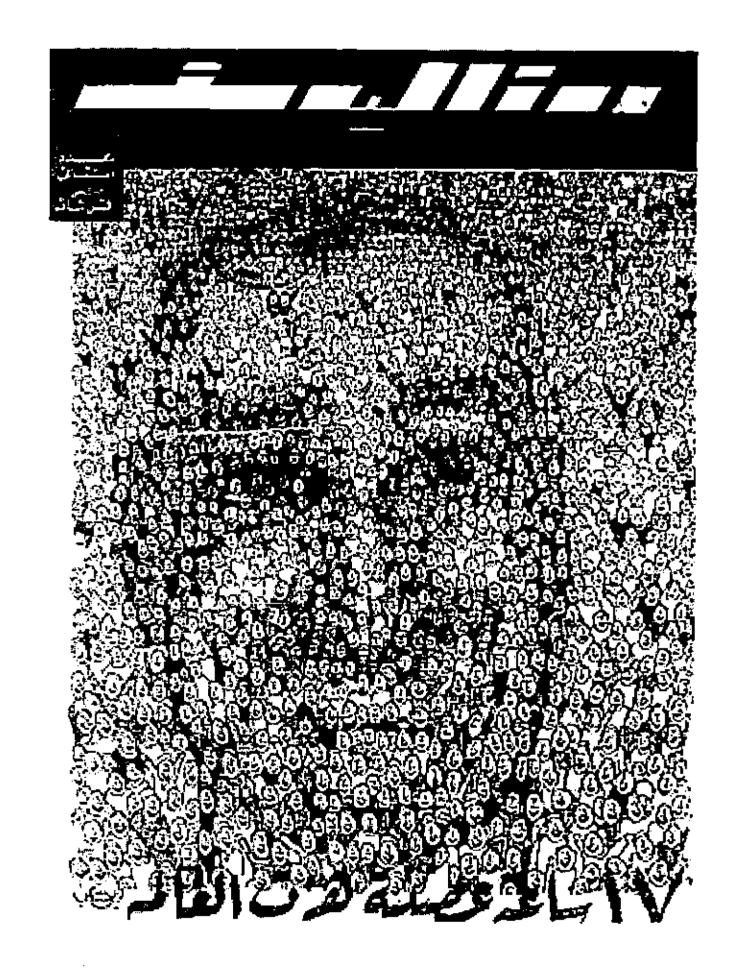
وما لبث أن اتضح أن نظام ثورة ٢٣ يوليو أتى داعمًا للحكم الفردي أكثر من أي فترة مضت، فقد اتخذ بناءً هرميًا، وكانت السمة الغالبة هي المركزية الشديدة التي تتحقق في شخص رئيس الجمهورية الذي يمثل قمة الهرم بينما تهبط المستويات من الرئيس إلى مرؤوسيه إلى مرؤوسيهم وهكذا[(٢)].

(١) سعيد أبو العينين، المرجع السابق، ص: ١٠٣-١٠٤.
(٢) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ١٠٨.



الفصل الثالث

ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة ناصر (١٩٥٤-١٩٧٠)



الفصل الثالث

ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة ناصر (١٩٥٤-١٩٧٠)

اتسمت فترة الرئيس جمال عبد الناصر بطابع خاص جدًا، فقد شهدت تفعيل تجربة الجمهورية بايجابياتها وسلبياتها في ظل تعاطف وتأييد شعبي كبير، كما ساهمت في تأجج نار الثورة في عدد من دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وساندت بالعداد والجنود الحركات الثورية في الوطن العربي خاصة في الجزائر واليمن. واستطاع ناصر بكاريزمته الخاصة جدًا أن يضاعف من شعبيته وأن تصل خطبه الرنانة أقصى الشرق والغرب، وأن يتحول إلى زعيم شعبي للجمهور العربي الذي تأثر بدعوته للقومية العربية ومناهضته للهيمنة الغربية خاصة بعد تحديه للقوى العظمى بتأميم قناة السويس وانتصاره السياسي في عدوان ١٩٥٦. ولكن لا تأتي الرياح دائمًا بما تشتهي السفن، فقد شهدت آخر فترته النكسة التي عصفت بما تبقى من الحلم العربي في التخلص من إسرائيل واسترجاع فلسطين وفي إمكانية قيام وحده عربية.

وظهر جيل من الرسامين المبدعين في تلك الفترة الذين شكلوا المدوسة الحديثة للكاريكاتير من أمثال إيهاب شاكر ويوسف رمسيس وناجي كامل وحسن حاكم ومحيي الدين اللباد وبهجت عثمان وصلاح الليثي ورجائي ونيس وجورج بهجوري والمبدعان بشكل استثنائي: صلاح جاهين وأحمد حجازي. فقد اتسم أسلوبهم باختزال التفاصيل إلى خطوط بسيطة رشيقة أقرب إلى الإسكتشات في غياب للخطوط الكثيفة والظلال العنيفة والتكتلات السوداء التي اتسمت بها رسوم الحقبة الماضية.

تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي:

كانت الفترة التي تلت ثورة ٢٣ يوليو حافلة بالأحداث والمتغيرات، ولعل عام ١٩٥٦ كان عامًا حاسمًا بالنسبة لحكم عبد ناصر حيث كشف للعالم بوضوح وللمصريين بشكل خاص عن توجهات ناصر السياسية وموقعه من خريطة القوى العظمى وموقفه منها.

شهد بداية العام وتحديدًا في ١٦ يناير نهاية الفترة الانتقالية للثورة والتي كانت قد حددت بثلاث سنوات بدأت في ١٧ يناير عام ١٩٥٣، كما أعلن عن دستور جديد في نفس

اليوم، موضحًا أهداف الثورة متبنيًا مبدأ الجمهورية الرئاسية، ومحددًا يوم ٢٣ يونيو ١٩٥٦ موعدًا لاستفتاء الشعب على كل من الدستور ورئاسة الجمهورية. وبالفعل تم الاستفتاء الذي أسفر عن شبه اجماع من الشعب على الدستور بنسبة ٩٧,٦٪، وأسفر عن انتخاب جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية بنسبة ٩٩,٩٪[١].

وبمقتضى الدستور الجديد، يؤول لرئيس الجمهورية السلطة التنفيذية، فله حق تعيين الوزراء ورئاسة مجالسهم، ووضع السياسة العامة للدولة سواء سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا، ويعتبر القائد الأعلى للجيش، في حين تؤول السلطة التشريعية لمجلس الأمة الذي يتشكل عن طريق الانتخاب العام السري المباشر[٢]. إلا أن هذا الدستور لم يدم أكثر من عشرين شهرًا، فقد تم إلغاؤه عقب الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير ١٩٥٨[٣].

استقبل الشعب إعلان الدستور ونتيجة الانتخابات بحفاوة كبيرة، ونقلت هذه الحفاوة الرسوم الكاريكاتورية، التي كثيرًا ما كانت تصور عبد الناصر وتهيب به كزعيم وخطيب وبطل. وقد لوحظ في الفترة من بعد الثورة ازدياد الاستدلال بالآيات القرانية في التعليق على الكاريكاتير. فعلى سبيل المثال، رسم زكي في "روز اليوسف" عبد الناصر يرتكن على قبة البرلمان ويقدم بيده اليمنى كتاب "الدستور" لفئات الشعب المختلفة، والتي كانت وجوههم هي وجه "المصري أفندي" أو "المواطن المصري" (كما أصبح يدعى بعد الثورة)، والتي يحمل بعضها الزهور لناصر امتنانًا له بما قدمه لهم. ونرى أن التعليق المصاحب للكاريكاتير قد استدل بالآية القرآنية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الحاقة : آيات ١٩، ٢٠، ٢١).

في اعتقادي أن استخدام الآيات القرآنية في الرسوم (خاصة تلك التي كانت في غير موضعها) هو وسيلة لاستجداء تعاطف الشعب المصري الذي يعرف عنه تدينه الفطري، حتى وان وجد من هو غير ملتزم دينيًا، فهو بعقيدته الفطرية يحترم الموروثات الدينية ويقدسها! وينتمي هذا النوع من الرسوم إلى حقب من الرسوم الكاريكاتورية ما قبل ثورة يوليو وحتى أوائل السبعينيات كانت تملك قدر كبير من حرية التعبير والتعامل مع الصور الذهنية للموروثات الدينية، حتى وإن شذّت. فمع احترام الشعب المصري لموروثاته

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٢٥٣-٢٥٤.
(٢) طارق البشري، "الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢-١٩٧٠"، مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص: ١٠٦.
(٣) طارق البشري، المرجع السابق، ص: ١٠٦.

العقائدية، فانه لم تكن هناك حساسية مفرطة في التعامل مع أي معطيات دينية، خاصة تلك التي تقدم في قالب فكاهي أو ساخر. وهذا كان واضحًا وسببًا في اشتهار الشخصية الكاريكاتورية الساخرة التي رسمها عبد السميع "الشيخ متلوف"، التي تم الإشارة إليها في الفصل السادس.

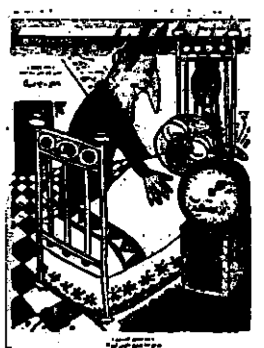


شكل ١١١: اليوم .. يعلن جمال عبد الناصر الدستور!

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) ﴾

(روز اليوسف، ١٦ يناير ١٩٥٦)

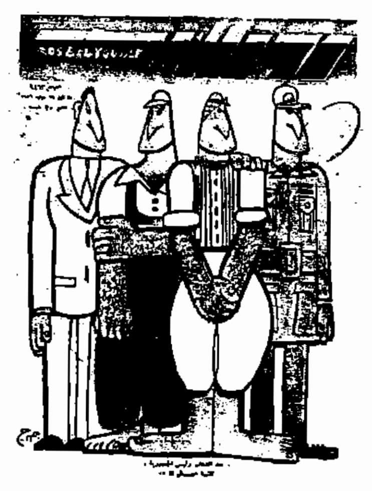
ورسم جورج بهجوري عبد الناصر وهو يوقظ "المصري أفندي" مبررًا أنه لا وقت للنوم بعد صدور الدستور، في إشارة أنه حان الوقت للعمل. نلاحظ هنا أن بهجوري قد تناول أيضًا شخصية "المصري أفندي" في رسومه وإن احتفظ بأسلوبه في الرسم، فلم يقلده بذات الطريقة التي ظهرت بها الشخصية كما فعل الرسامون الآخرون. كما رسم بهجوري بعد إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية فئات الشعب المختلفة من ضباط لفلاحين لعمال لموظفين كلهم على شكل ناصر.



شكل ١١٢: بعد صدور الدستور!

جمال عبد الناصر: "من هنا ورايح مافيش نوم!!"

(روز اليوسف، ٢٣ يناير ١٩٥٦)



شكل ١١٣: بعد انتخاب رئيس الجمهورية!

"كلنا جمال!!"

(روز اليوسف، ٢٥ يونيو ١٩٥٦)

كانت الاتصالات مع الإنجليز تسير بهدوء من بعد الثورة، وكانت تدور حول مطلب واحد وهو ضرورة الجلاء عن مصر، دون توريط مصر في أي تحالفات عسكرية. ولعبت الولايات المتحدة الأمريكية في هذه الأثناء دور الوسيط عن طريق وزير خارجيتها جون فوستر دالاس، وعن طريق رجلهم بالسفارة الأمريكية بالقاهرة بيل ليكلاند[1].

ولا يخفى أنه كان هناك بواعث من الخوف والقلق من تدخل الولايات المتحدة كوسيط، فقد كان هناك انعدام ثقة في دور القوى العظمى في المنطقة ومدى حسن نواياها.

وتم توقيع الاتفاق النهائي الذي ينظم عملية الجلاء التام في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤، والذي نص على جلاء القوات البريطانية من الأراضي المصرية خلال عشرين شهرًا من تاريخ توقيع الاتفاقية، أي بحلول يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦، الذي اختير رسميًا للاحتفال به تحت اسم "عيد الجلاء". وتكون مصر بهذه الاتفاقية قد حققت أهم مطالبها الوطنية وهو تحررها من قوات الاحتلال الأجنبي. وبالفعل تم جلاء آخر فوج من القوات البريطانية مقدمًا خمسة أيام عن تاريخه الرسمي أي في ١٣ يونيو عام ١٩٥٦[2].

---

(١) خالد محيى الدين، "والآن أتكلم"، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص: ١٩٣.

(٢) وفيق عبد العزيز فهمي، "قضية الجلاء وثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢"، سلسلة كتب قومية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، --١٩، ص: ١٤٠.

وأشار المؤرخ عبد الرحمن الرافعي إلى مفارقة تاريخية مهمة، وهو أن الجلاء تم بعد مرور خمسين عامًا من حادثة دنشواي* الدامية التي وقعت في نفس اليوم من عام ١٩٠٦[١]!

استمرت الرسوم الكاريكاتورية تعكس الأمل المصري في التخلص من الاستعمار، وقابلت الرسوم الكاريكاتورية نبأ الجلاء بعين من الرضا والحفاوة بانتهاء الاحتلال الأجنبي بعد كفاح دام ٧٤ عامًا.



شكل ١١٤: السياسة البريطانية والمعارضة!

تشرشل يعارض رحيل القوات البريطانية في القناة ويعتبر أصوات المعارضة تهدف إلى اضعاف الروح المعنوية للجنود البريطانيين.

تشرشل: "ما تسمعش كلام المعارضة دول عاوزين يغرقوك"

(الجمهورية، ٩ يناير ١٩٥٤)

* حادثة دنشواي تعتبر من أسوأ الأحداث التي تركت ألمًا كبيرًا في نفوس المصريين ومازالت عالقة في ذاكرة التاريخ، ترجع الحادثة لواقعة حدثت عام ١٩٠٦ عندما كان بعض الجنود الإنجليز يصطادون الحمام عند قرية "دنشواي"، فتسببوا في حرق وقتل امرأة بالقرية، مما تسبب في إثارة غضب أهالي القرية التي اتجهت ثائرة نحو الجنود، فأطلق الجنود النار عليهم فتسببوا في قتل المزيد، وفر منهما اثنان مات أحدهما في الطريق. وكان رد الفعل البريطاني قاسيًا، فقدم ٥٢ قرويًا للمحاكمة بجريمة القتل العمد، وتم إثبات التهمة على ٣٢ منهم في ٢٧ يونيو من نفس العام، لتتفاوت الأحكام بين جلد وحكم بالأشغال الشاقة وإعدام ٤.

(١) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٢٢٦.



شكل ١١٥: إمبراطورية السير إيدن!"

في مجلس العموم البريطاني ارتفعت الأصوات التي تطالب بإجلاء القوات البريطانية المرابطة في منطقة قنال السويس..فيقول إيدن رئيس الوزراء إن هدف بقاء القوات في القنال هو الحفاظ على هيبة الإمبراطورية.

(الجمهورية، ٣٠ يناير ١٩٥٤)



شكل ١١٦: مع السلامة!

"المثالية والواقعية..."

(روز اليوسف، ٢٠ سبتمبر ١٩٥٤)



شكل ١١٧: بعد توقيع اتفاقية الجلاء!

الطيار لزميله: "حاجة من اتنين ياتكون مأذنة الحسين .. أو رقبة جمال عبد الناصر!!"

(روز اليوسف، ٢٥ سبتمبر ١٩٥٤)



شكل ١١٨: "أدي الجمل وادي جمال.."

(روز اليوسف، ١٨ أكتوبر ١٩٥٤)



شكل ١١٩: أرضنا بعد الجلاء!
(روز اليوسف، ١١ يونيو ١٩٥٦)

كما شهد هذا العام تداعيات تأميم قناة السويس التي لن تكون أبدًا بالحدث العابر لما فيه من العبر والدروس ما يلقي بظلاله حتى هذه اللحظة من المحاولة الدائمة لسيطرة الإمبريالية على موارد الثروة في الدول النامية. لم يكن قرار التأميم وليد الصدفة إنما كان حلم بعيد المنال تناقله المصريون جيل بعد جيل منذ منح الخديوي محمد سعيد باشا "فرديناند ديليسبس" امتياز حفر قناة السويس بموجب فرمان صدر في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤. وبعد افتتاح القناة للملاحة في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩، وقعت تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا لوقوع مصر تحت طائلة ديون لا قبل لها بها.

كان بناء السد العالي في أسوان من أولى القرارات التي اتخذها الضباط الأحرار، في وقت انعدم فيه أي مصدر لتمويل السد. في بادئ الأمر، وافق الاتحاد السوفيتي على تقديم معونة وقرض لتمويل السد، كما وافقتا كل من الولايات المتحدة وبريطانيا على إعطاء قروض غير مشروطة، بينما وافق البنك المركزي على تمويل مشروط للمشروع. ثم فجأة سحبت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا عرضهما في ١٩ يوليو من عام ١٩٥٦، أعقبهما سحب البنك الدولي أيضًا لعرضه، ليتركوا مصر ليس لها سوى خيار ضئيل لتمويل المشروع[١].

(١) ديريك هوبوود:
Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.

رأى ناصر بأن سحب الولايات المتحدة وبريطانيا لعرضهما لابد وأن يكون له ردًا مناسب، فلابد أن ترد الصفعة بصفعة أقوى منها ومباغتة. وبالفعل وفي ٢٦ يوليو من نفس العام وفي الاحتفال بالعيد الرابع للثورة، أعلن ناصر في خطاب حي بالإسكندرية قراره بتأميم شركة قناة السويس، منهيًا السيطرة البريطانية الفرنسية على القناة على ما يربو من قرن من الزمان. فقد رأى ناصر أن تأميم قناة السويس سيوفر له مزيدًا من النقد الأجنبي وسيظهر كيف أن بلدًا فقيرًا وضعيفًا مثل مصر تستطيع أن تقف في وجه الهيمنة الغربية(٢).

لم يمر إعلان التأميم سهلا على الإمبراطوريتين، فقناة السويس كانت تمثل شريان الحياة الذي ربط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط والذي به تغيرت شكل الملاحة التجارية على المستوى العالمي، ناهيك أنه من أهم الموارد المالية لكل من بريطانيا وفرنسا، ومن خلال سيطرتها على القناة أمنا وصول إمداداتها البترولية من الشرق الأوسط. علاوة على ذلك فإن إعلان ناصر التأميم كان بالنسبة لهما القشة التي قسمت ظهر البعير، فقد ضاقت بريطانيا ذرعًا بدعوة ناصر لما يسمى "القومية العربية" وضاقت فرنسا بدعم ناصر للحركات الجزائرية ضدها مطالبة بالاستقلال، بالإضافة لتخوفهما من تعاونه المستفز مع الاتحاد السوفيتي.

كان منطقيًا ومتوقعًا أن ترتب بريطانيا وفرنسا برد عسكري ولكن لم يكن متوقعًا أن تنضم لهما إسرائيل ذات الثمانية أعوام. فقد رأت إسرائيل أن تستغل الموقف خاصة وأن النصر سيكون لا محالة من نصيب الإمبراطوريتين وبالتالي سيتيح لها فرصة التوسع وضم المزيد من الأراضي وإعادة رسم خريطة جديدة لحدودها وضمان حرية الملاحة لسفنها. كان بديهيًا أن تفكر إسرائيل بهذا وهي التي استطاعت وحدها أن تهزم ستة جيوش عربية، فما بال محاربة مصر فقط وبمساندة إمبراطوريتين.

شهدت هذه الفترة تضامن مختلف فئات الشعب مع الرئيس عبد الناصر في قراره بتأميم القناة وبالتالي وقفت صامدة ضد العدوان. وظهرت الرسوم الكاريكاتورية متحمسة ومؤيدة لقرار ناصر ومحرضة ضد الهيمنة الغربية. ففي الكاريكاتير التالي، في ذكرى تأميم قناة السويس، يؤكد زهدي العدوي أنه بتأميم قناة السويس سيصبح مشروع السد العالي حقيقة. ورسم صلاح جاهين ناصر وهو يتوسط عدد من الدبابات المدرعة وينظر بتحدي وثقة إلى جنديين بريطانيين مذكرًا إياهم بأن احتلالهم مصر في عام ١٨٨٢ يستحيل في عام ١٩٥٦.

---

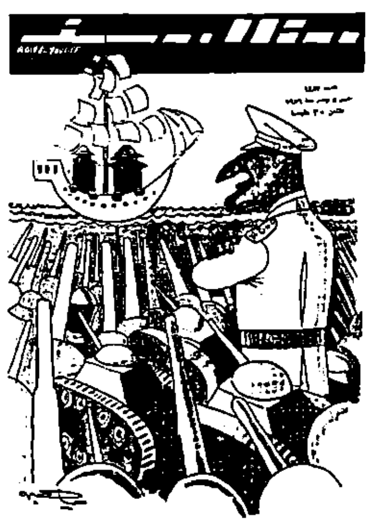
(٢) روبرت ستيفنز: Robert Stephens. (1971). Nasser: A political Biography. New York: Simon and Schuster.



شكل ١٢٠ : السد العالي وتأميم قناة السويس!

"المونة" التي نبني بها السد العالي!!.."

(روزاليوسف، ٣٠ يوليو ١٩٦٥)



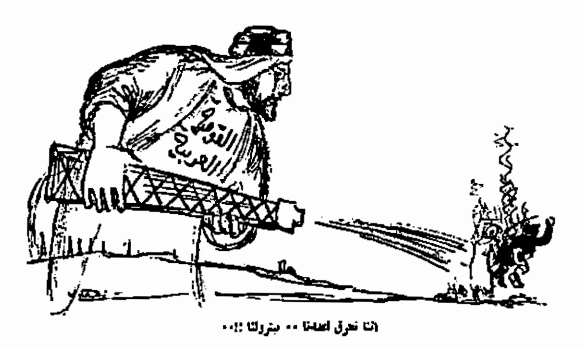
شكل ١٢١ : الرد العسكري!

"جمال: الكلام بتاع سنة ١٨٨٢ ...ما ينفعش سنة ١٩٥٦!!.."

(روزاليوسف، ٥ نوفمبر ١٩٥٦)

وقوبل قرار ناصر بترحاب كبير في معظم البلدان العربية. وفي ١٣ أغسطس من عام ١٩٥٦، أعلنت جامعة الدول العربية دعمها التام لمصر وأن أي عدوان على مصر سينظر إليه على أنه عدوان على جميع الدول العربية وهددت باستخدام سلاح البترول. كما دعا "الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب" عمال البترول لوقف الإنتاج وأي إمدادات إذا تم أي هجوم على مصر[١].

ورأت الرسوم الكاريكاتورية في "القومية العربية" سلاحًا فتاكًا يمكن استخدامه ضد أعداء العروبة، والذي ترجم عمليًا باستخدام بعض الدول بترولها كسلاح سياسي تضغط به على الدول المعتدية. الدرس الذي استوعبه المجتمع الدولي جيدًا وهو أن السيطرة على مصادر الطاقة تضمن البقاء للأقوى. وعكس زهدي هذا المفهوم فصور رجلًا عربيًا (القومية العربية) يرتدي غترة وعقالًا (أشبة بزي دول الخليج) مستخدمًا سلاحه (برج بترول) ضد اثنين (يتضح من الرسم أن أحدهما يهودي). لم يغير سلاح البترول كثيرًا من الواقع آنذاك ولكنه بلا شك كان درسًا لا ينسى قد لعب دورًا حيويًا في تشكيل سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها بريطانيا اليوم!

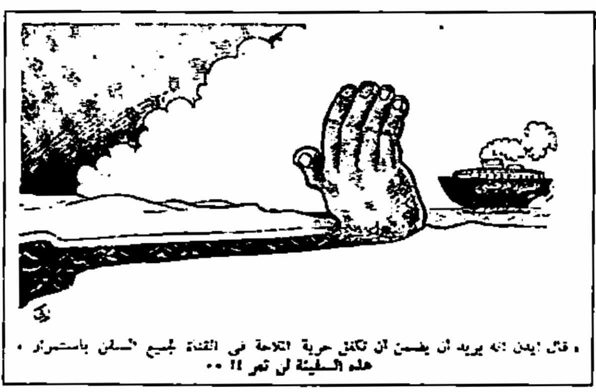


شكل ١٢٢: إننا نحرق أعداءنا..ببترولنا!

(روزاليوسف، ١٢ نوفمبر ١٩٥٦)

وكرد على مزاعم رئيس وزراء بريطانيا أنطوني إيدن بأن معركته العسكرية على مصر إنها لضمان حرية الملاحة في القناة لجميع السفن باستمرار، رسم زكي يد تمثل مصر وهي تمتد بعزم وتحدي لتوقف سفينة (النفوذ الأجنبي) من المرور في قناة السويس.

(١) ديريك هوبوود: المرجع السابق.



شكل ١٢٣: هذه السفينة لن تمر!

"قال ايدن أنه يريد أن يضمن أن تكفل حرية الملاحة في القناة لجميع السفن باستمرار"

(روزاليوسف، ٨ أكتوبر ١٩٥٦)



شكل ١٢٤: عودة النازيين!

(الجمهورية، ١٠ نوفمبر ١٩٥٦)

عملت الرسوم الكاريكاتورية في هذه الفترة على شحن الروح المعنوية ضد العدوان وضد أي نفوذ أجنبي. ولم يكن هذا صعبًا في وقت تكالبت فيه كل قوى الشعب لمساندة ناصر وهي على استعداد لتقديم كل رخيص ونفيس لصد العدوان. ومن الطريف أن معظم الرسوم قد تجاهلت مشاركة إسرائيل في الحرب كما أنها لم تعط بالًا بمشاركة فرنسا، فقد كان التركيز الرئيسي على بريطانيا التي لم ينس الشعب بعد مرارة احتلالها. أما أجمل كاريكاتير تعبيري عن هذه الفترة فكان لصاحبه الفنان صلاح جاهين، وفيه يصور الروح المعنوية

المصرية برجل ذي وجه مريح أضافت له الابتسامة مزيد من الثقة والهدوء، عريض الصدر تعلو قمته السماء وهو يطل شامخًا من فوق بيوت المصريين في الوقت الذي تمر من فوقه طائرة إنجليزية وفيها طيار يحدث رفيقه قائلًا: "على قد ما هو كبير مش قادرين نصيبه!!" إشارة إلى الروح المعنوية المرتفعة للمصريين التي يقف أمامها المعتدين صاغرين.



الطيار الانجليزى — على قد ماهو كبير مش قادرين نصيبه !!

شكل ١٢٥: الروح المعنوية للمصريين!

(روزاليوسف، ٥ نوفمبر ١٩٥٦)

وبالفعل في ٢٩ أكتوبر بدأ العدوان الثلاثي كما هو مخطط له بهجوم إسرائيلي واسع النطاق على القوات المصرية بهدف الوصول إلى منطقة السويس، أعقبه في ٥ نوفمبر ضرب بريطاني وفرنسي للطيران المصري. وسجل أهالي بورسعيد ومدن القناة بطولات تاريخية في تصديهم للعدوان.

وعندما سقطت كل من بور فؤاد وبورسعيد مع استمرار المقاومة واقتربت الأطراف المعتدية الثلاثة من تحقيق هدفهم وهو السيطرة الكاملة على قناة السويس، حدث ما لم يكن في الحسبان وهو مطالبة الأمم المتحدة جميع الأطراف بوقف إطلاق النار فورًا وسط احتجاج شعبي وعالمي. كما هدد الاتحاد السوفيتي بضرب كل من لندن وباريس بصواريخه إذا لم ينسحبا فورًا، في حين دعت الولايات المتحدة كل الأطراف بالانسحاب حتى لا تتوتر علاقتها بالدول العربية الصديقة التي تمدها بالبترول.

وفي ٢٣ ديسمبر لم يجد الثلاثي المعتدي إلا الانسحاب لتغرب الشمس عن بريطانيا وتمنى فرنسا بالخزي وضيق ذات اليد أمام المقاومة الجزائرية، في الوقت الذي لم تخسر إسرائيل فيه الكثير، فقد كان دخولها الحرب بمثابة عرض لقوتها العسكرية التي شهدت طفرة أرادت ألا يغفل عنها صناع القرار بالمنطقة. وبذلك مثل الانسحاب نصرًا سياسيًا لمصر وبه زاد رصيد ناصر عند عموم الشعب وأصبح رمزا للعروبة وعدم الانحياز، وتحول السد العالي إلى حقيقة ليكون من أهم المشاريع القومية المصرية بالقرن الماضي.

ويعتقد بعض المحللين بأن الدور البارز الذي لعبته الولايات المتحدة في الأمم المتحدة لإنهاء الأعمال الحربية في ٥٦ لم يكن لتعاطفها مع ناصر أو قوميته العربية وإنما لشعورها بالحرج الشديد من تصرف حلفائها، بريطانيا وفرنسا، دون التشاور معها. ومع أن هذا الموقف قد يحسب لأمريكا على المدى القصير، إلا أن سياستها كانت تعكس كراهية واحتقار لعبد الناصر. فعلى سبيل المثال، رفضت الولايات المتحدة تقديم المساعدة الطبية لضحايا قصف قوات التحالف في بورسعيد، وأوقفت برنامج "كير" في مصر الذي كان يقدم وجبات مجانية لأطفال المدارس، كما التزمت في البداية بالمقاطعة الاقتصادية الغربية ورفض بيع الفائض من القمح والنفط لمصر. وتأزمت بشدة العلاقات الأمريكية المصرية في نهاية عام ١٩٦٤ عندما أعربت الولايات المتحدة عن استيائها من مساعدات ناصر للمتمردين في الكونغو البلجيكي، ليكون رد ناصر مختصرا وهو أن تذهب وتشرب من البحر[(١)].

شجع موقف الولايات المتحدة المناهض لناصر الاتحاد السوفيتي على توسيع نفوذه في المنطقة من خلال تدفق كميات كبيرة من أسلحته إلى مصر وسوريا والعراق. كما قدم السوفيت مساعدات اقتصادية وفنية على نطاق واسع لمصر توجت بموافقته في أكتوبر ١٩٥٨ على المساعدة في بناء السد العالي. اعتقد ناصر بأن الاتحاد السوفيتي سيكون سندًا قويًا له في الوقوف ضد الولايات المتحدة ومخططاتها، خاصة وأنه كان يخشى أن تسعى الولايات المتحدة للإطاحة به كما فعلت مع مصدق في إيران ونغو دينه ديم في فيتنام الجنوبية، واشتباهه في تورطها في إزالة زعماء مثل أحمد بن بلة وأحمد سوكارنو وكوامي نكروما. في الوقت نفسه، رأت الولايات المتحدة ضرورة الحفاظ على التوازن العسكري في المنطقة من خلال تقديم مساعدات عسكرية لإسرائيل ولبعض الدول العربية الصديقة. بلغ مجموع التسليح السوفيتي لمصر حوالي ٢ مليار

---

(١) إيان بيكرتون وكارلا كلوسنر:

Ian J. Bickerton & Carla L. Klausner. (2010). A History of the Arab-Israeli Conflict. 6ed. Boston: Prentice Hall.

دولار، في حين بلغت المساعدات الأمريكية الاقتصادية والفنية لإسرائيل حوالي ٨٥٠ مليون دولار بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٦٥[١].

والحق أن أهالي بورسعيد حفروا بدمائهم مكانًا بارزًا في ذاكرة الأمة وهم يدافعون عن القناة ضد العدوان ليسجلوا أجمل ملحمة تاريخية خطت خطوطها المقاومة الشعبية التي كانت أسوأ كابوس مر على المعتدين.

وكتب صلاح جاهين في مدح بورسعيد:

يا أم البطل يا أم الشهيد
يا لابسة توب أحمر جديد
كأن يوم الدم عيد
يا بورسعيد
اسمك نشيد

وظهرت في هذه الفترة مجموعة هائلة من الرسوم تحكي المأساة. وكان من أجمل ما رسم سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية للفنان جورج بهجوري تحكي قصة التأميم ثم العدوان ثم الكفاح المسلح ضد العدوان ثم أخيرًا النصر، وقد جمع سلسلته في كتاب بعنوان "بورسعيد" ليكون مرجعًا يحكي بسالة أهل بورسعيد ضد المعتدي.

صور بهجوري بورسعيد على هيئة فلاح جميل الطلعة مفتول الساعدين وهو يضم إلى صدره بيوت المصريين. وفي كاريكاتير آخر له بعد النصر، صور بهجوري عبد الناصر في هيئة فلاح حاملًا فوق رأسه مجموعة من قوالب الطوب وماسكًا بيديه "كوريك" ومتوسطًا جمع كبير من مختلف فئات الشعب، في دعوة لإعادة بناء ما خربه العدوان.



شكل ١٢٦: بورسعيد !!

(بهجوري –١٩٥٧)[١]

---

(١) إيان بيكرتون وكارلا كلوسنر: المرجع السابق.



شكل ١٢٧: نحن نبني بورسعيد!

(بهجوري – ١٩٥٧)(١)

وصور الرسام أحمد طوغان* بسالة المقاومة الشعبية لأهل بورسعيد اللذين يرمون الجنود المعتدية أمامهم بوابل من الرصاص ليسقطوا واحدًا تلو الآخر. بينما صور زهدي الظروف السيئة التي كانت عليها القوات البريطانية في بورسعيد.

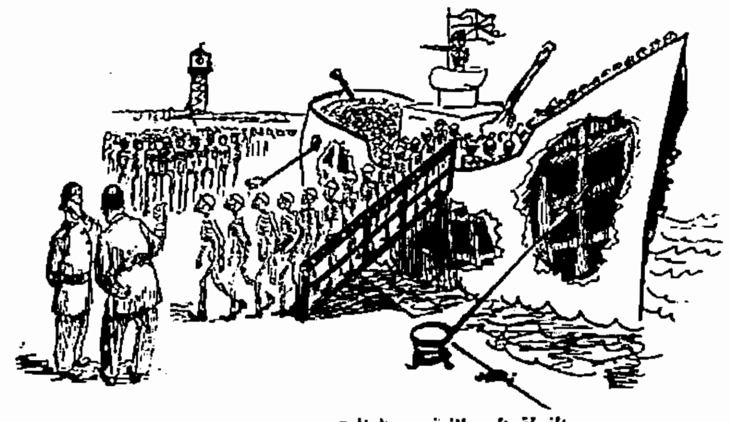


شكل ١٢٨: المقاومة الشعبية !

(الجمهورية، ١٦ نوفمبر ١٩٥٦)

(١) جورج بهجوري، المرجع السابق.

* ولد الفنان أحمد ثابت طوغان في ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦ وبدأ انتاجه من الرسوم يظهر في الصحف منذ عام ١٩٤٤..



الفرقة البريطانية .. العائدة من بور سعيد ..

شكل ١٢٩: المقاومة الشعبية ٢!

(روزاليوسف، ١٢ نوفمبر ١٩٥٦)

ازدادت شعبية ناصر أضعافًا مضاعفة بعد النجاح السياسي الذي حققه في ١٩٥٦، وأصبح لديه من الرصيد الشعبي ما يسمح أن يصدر قرارات تخص الحريات وأن يجد لها قبولًا لدى عامة الشعب وحتى لدى الكثير من المتضررين من تلك القرارات.

ففي ٥ يونيو ١٩٥٨، تم تشكيل لجنة للصحافة في "الاتحاد القومي" تضم رؤساء تحرير الصحف "من أجل توفير التعاون بين الصحافة والتشكيلات العليا للاتحاد القومي"، كنوع من التمهيد لتملك الاتحاد لهذه الصحف. ثم أصدر قانون تنظيم الصحافة رقم ١٥٦ لسنة ١٩٦٠، الذي أعطى رئيس الجمهورية أو وزير الإعلام حق مباشرة المهام التي يتعين على التنظيم السياسي القيام بها، مما ساعد على فرض رقابة صارمة على الصحف. ووفقًا للقانون، فإن "الاتحاد القومي" له الحق في "تشكيل مؤسسات خاصة لإدارة الصحف التي يملكها، وتعيين لكل مؤسسة مجلس إدارة يتولى مسؤولية إدارة صحف المؤسسة"، وبالتالي فإن تعيين أو حل مجالس الإدارة كان من اختصاصات رئيس "الاتحاد القومي" أو فيما بعد "الاتحاد الاشتراكي"، الذي هو رئيس الجمهورية في الوقت نفسه، أي أن قراراته ستكون في صالح السلطة التنفيذية[١].

(١) الدكتور عاطف السيد، "عبد الناصر وأزمة الديمقراطية: سطوة الزعامة وجنون السلطة"، فلمنج للطباعة، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص: ٢٣٩.

وشهدت هذه الفترة إعفاء عدد من كبار الصحفيين من الكتابة ونقل البعض الآخر من عملهم بالصحف للعمل في إدارات تابعة لمؤسسات القطاع العام ليس لها أي علاقة بالعمل الصحفي، وتم التضييق على الصحف بربطها بـ "الاتحاد القومي"، الذي حقق له نوع من السيطرة على نقابة الصحفيين، نتيجة للقرار الجمهوري رقم ٨ لعام ١٩٥٨ الذي أقر بأن "حق الترشيح لعضوية النقابات المهنية [قاصرًا] على أعضاء الاتحاد القومي"[(١)].

يعتقد عبد الحليم البرجيني بأن ناصرًا كان يمارس سيطرة واضحة على الصحافة وكان يملي عليها ما يتناسب مع مواقفه السياسية. فعلى سبيل المثال، أعطى ناصر الضوء الأخضر للنشر في الأول مع السياسة الأمريكية ثم ضدها. ويتذكر البرجيني كيف أنه قد تم إزالة مادة بحجم صفحة كاملة قبل الطباعة بساعات قليلة بها شكل مأزق حقيقيًا لصحيفة "الجمهورية". في اليوم التالي تفاجأ القراء بالجريدة وفي داخلها صفحة كاملة بيضاء ما عدا جملة واحدة في ذيل الصفحة تقول: هذه الصفحة تم غسلها بصابون نابولسي[(٢)].

يرى الرسام جمعة فرحات بأنه لم يسجل صدام حقيقي بين الرسامين وناصر، وذلك لأن المبادئ والأفكار التي جاءت بها الثورة هي نفسها التي كان يؤمن بها الرسامون، فوجود الرقيب لم يكن يزعج الرسامين بالقدر الكبير. أما الرسام محمد حاكم فيعتقد بأن الوضع اختلف بعد النكسة، فقد أوقف ناصر الرقابة (باستثناء المواضيع المتعلقة بالجيش) ليقلل من درجة الإحباط ولإعطاء فرصة لطرح حلول[(٣)].

ويرى مصطفى أمين، مؤسس "أخبار اليوم" مع أخيه علي، في حديثه للكاتبة الصحفية ماجدة الجندي، أنه لم يكن هناك مبررًا لفرض الرقابة على الصحف أو التضييق على الصحفيين بعد ثورة يوليو، خاصة وأن جميع الصحف كانت بالفعل مؤيدة للثورة[(٤)]. وكان عبد الناصر يقرأ كل الجرائد باهتمام، وكان هذا "لسوء الحظ"، لأنه كان يقرأ "بعين تشك"، "تبحث عن المقصود من وراء كل كلمة"، فقد حدث ذات مرة أن كتب رشدي صالح أن مستمعي أم كلثوم جمهور من "الحشاشين"، فاتصل عبد الناصر برئيس تحرير "الجمهورية" وقال: "إزاي الجمهورية تقول عني حشاش؟!"[(٥)]

---

(١) الدكتور عاطف السيد، المرجع السابق، ص: ٢٣٩.

(٢) رانيا صالح:
Rania M.R. Saleh (2007, Fall). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2), 187-225

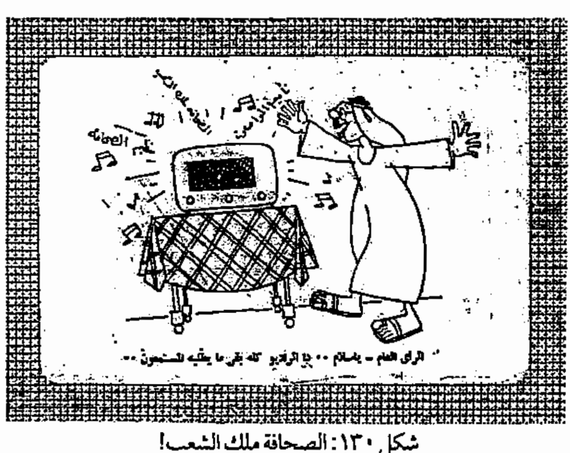
(٣) رانيا صالح: المرجع السابق.

(٤) ماجدة الجندي، مصطفى أمين، "صباح الخير، ٢٩ إبريل، ١٩٨٢، ص: ٢١-٢٦.

(٥) ماجدة الجندي، المرجع السابق.

كانت معظم الصحف في تلك الفترة ترجع لمؤسسين غير مصريين، فكانت صحيفة "الأهرام" للأخوين بشارة و سليم تكلا اللبنانيين، ودار "الهلال" لأولاد اللبناني جورجي زيدان، ودار "المعارف" لأولاد نجيب متري اللبناني، ومجلة "روز اليوسف" لفاطمة اليوسف التي هي أيضًا من أصل لبناني، فلم تكن هناك صحيفة مصرية واحدة غير "أخبار اليوم" للتوأمين مصطفى وعلي أمين.

فكانت الخطوة الأكثر جرأة والفارقة في حياة مصر الصحفية هي قرار تأميم الصحافة عام ١٩٦٠، والتي اعتبرها بعض الكتاب بمثابة مذبحة للصحافة، فيما بررها البعض الآخر أنها خطوة تصب في مصلحة البلاد بنقل ملكية الصحف للشعب، فهل أصبحت الصحف فعلًا ملكًا للشعب؟



شكل ١٣٠: الصحافة ملك الشعب!

الرأي العام: "يا سلام..دا الراديو كله بقى ما يطلبه المستمعون.."

(روز اليوسف، عدد ١٦٦٨)

نكسة يونيو ١٩٦٧:

فى الوقت الذى شهدت فيه الدول العربية العديد من التغيرات والتوترات والانهيارات بعد تداعيات حرب السويس ١٩٥٦، كانت إسرائيل تشهد نوعًا من الازدهار. فقد تحول ميناء إيلات إلى نافذة إسرائيل على أفريقيا وآسيا وأسواق أخرى جديدة، كما ساهم فى فتح المجال لإقامة اتصالات وعلاقات ودية مع عشرات الدول من العالم النامى، بما فيها إثيوبيا وغانا وبورما ونيبال، ومكن إسرائيل من الحصول على النفط من إيران، التى حافظت على علاقة فعلية مع الدولة اليهودية، وليس من موردين فى أماكن

بعيدة مثل فنزويلا. كما تم تشجيع التنمية الصناعية والتجارية والزراعية فى صحراء النقب مع الانتهاء من نقل المياه إليها فى عام ١٩٦٤[١].

وشهد عام ١٩٥٨ نقطة تحول مهمة فى حياة عبد الناصر وفى حياة العروبة، عندما انضمت سوريا لمصر ليشكلا معًا الجمهورية العربية المتحدة كاندماج كامل بين البلدين تعد مصر الشريك المهيمن، وليكون بمثابة أول تفعيل حقيقي لما هو معروف بالقومية العربية. ولكن لم يدم هذا الزواج طويلًا، فما لبث أن نهش الخلل السياسي سريعًا في جسد الوحدة بانقلاب عسكري سوري في سبتمبر ١٩٦١ لتنفصل سوريا عن مصر وتبدد الحلم المزعوم بكيان عربي موحد وتبدد الهواجس التي أصابت المجتمع الدولي في إمكانية أن تولد قوة ثالثة عربية في المنطقة ومسيطرة على أهم مصادر الطاقة. ووقعت الدولتان الشقيقتان اتفاقية دفاع مشترك في عام ١٩٦٦ كبديل عن الوحدة.

كما شهدت هذه الفترة تمزق وحدة الصف العربي بين أنظمة موالية للغرب وأخرى مناهضة له. ففي عام ١٩٥٨، تم الإطاحة بالنظام الملكي المؤيد للغرب في العراق واندلاع الحرب الأهلية بلبنان ليستنجد الرئيس اللبناني كميل شمعون بمشاة البحرية الأمريكية لمساعدته في الحفاظ على استقرار بلاده. كما طلب الملك حسين من القوات البريطانية المساعدة في استقرار نظامه بعد أن شهدت بلاده توترًا خطيرًا جراء حله للبرلمان عام ١٩٥٧ زاعمًا بوجود مؤامرة شيوعية ضده[٢].

وعلى الرغم من المكانة التي كان يتمتع بها ناصر وسط الجماهير العربية، الا أن الحالة الاقتصادية الداخلية في مصر كانت في تدهور، وبحلول منتصف الستينات، كانت مصر تمر بضائقة مالية خطيرة وأصاب الشارع المصري الإحباط، فقد كانت تكاليف التدخل في أماكن أخرى عالية جدا، حيث تورطت مصر بعد ١٩٦٢ في الحرب الأهلية في اليمن التي استنزفت مواردها البشرية والمالية (لتصل قيمتها إلى حوالي مليون دولار يوميا)[٣].

وشهدت هذه الفترة زيادة حدة التوتر بين إسرائيل وسوريا وحدوث عدد من الاشتباكات الجوية بينهما. في البداية، تجنب ناصر مساعدة سوريا فى تصعيدها ضد إسرائيل،

---

(١) إيان بيكرتون وكارلا كلوسنر:

Ian J. Bickerton & Carla L. Klausner. (2010). A History of the Arab-Israeli Conflict. 6ed. Boston: Prentice Hall.

(٢) إيان بيكرتون وكارلا كلوسنر ، المرجع السابق.

(٣) إيان بيكرتون وكارلا كلوسنر، المرجع السابق.

فقد كان يرى أنه غير مستعد للمشاركة فى أى مواجهة مع إسرائيل. وزادت في تلك الفترة حدة الهجوم على ناصر من قبل بعض الأنظمة العربية مثل الأردن والسعودية تتهمه بالجبن والخوف من إسرائيل وعدم رغبته فى الوفاء بوعوده.

وفى مطلع مايو ١٩٦٧، مرر الاتحاد السوفيتي معلومات إلى مصر تفيد بوجود تجمعات ثقيلة للقوات الإسرائيلية على الحدود مع سوريا وخطة إسرائيلية للهجوم على سوريا. كان السوفيت، وربما ناصر نفسه، يعرف أن هذه المعلومات مزيفة، فهيئة مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة والمخابرات الأمريكية والمراقبون المصريون فشلوا جميعًا فى الكشف عن أى تحركات إسرائيلية[1].

ومع ذلك قرر ناصر اتخاذ بعض الإجراءات العسكرية بناءً على تلك المعلومات "المزيفة"، فقد كان يأمل من خلال قيامه بدور فعال ضد إسرائيل أن يخرس منتقديه ويستعيد مجده وقيادته فى العالم العربى. وبالفعل أعلن ناصر فى ١٤ مايو أن القوات المسلحة المصرية فى حالة تأهب قصوى وطلب فى ١٨ مايو من الأمم المتحدة إخلاء أرضها وقطاع غزة من القوات التابعة لقوات الطوارئ الدولية.

وتحمس ناصر لتأديب اسرائيل فقام بمجازفة أكثر خطورة في ٢٢ مايو عندما أمر بإغلاق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة. وأغلب الظن أن ناصرًا لم يحسب جيدًا تبعات هذا القرار وأنه تخيل أن ما حدث في ٥٦ يمكن أن يتكرر في ٦٧ بمساندة من القوى العظمى وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي. وأعلن ناصر استعداده للحرب في خطابه في مايو ١٩٦٧ قائلًا: "بيهددوا بالحرب اليهود..بنقول لهم أهلًا وسهلًا إحنا مستعدين للحرب، قواتنا المسلحة وشعبنا كلنا مستعدين للحرب...وقد تكون الحرب فرصة علشان اليهود، علشان إسرائيل وعلشان رابين يختبروا قواتهم مع قواتنا ويشوفوا إن الكلام اللي كتبوه على معركة ٥٦ واحتلال سيناء كان كله كلام هجص في هجص وكلام تخريف في تخريف[2]".

وتعالت أصوات التصفيق الحاد والتهليل بين الشعوب العربية بهذا القرار الجريء ولما لا ومحو إسرائيل من الخريطة السياسية حلم تتناقله الشعوب العربية جيل بعد جيل.

---

(١) إيان بيكرتون وكارلا كلوسنر، المرجع السابق.

(٢) ديريك هوبوود:
Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.

واستقبل المجتمع الغربي الخبر بقلق واضح، ورأت إسرائيل أن قرار عزلها ملاحيًا ماهو إلا إعلان واضح للحرب.

مثل قرار غلق مضيق تيران ضربة كبيرة لإسرائيل حيث خنقها وعزلها ملاحيًا لشل حيويتها وتحديد قدرتها على التوسع والتي عبر عنها الرسام صلاح الليثي بالسفينة الإسرائلية المحتجزة في زجاجة أشار لفوهتها المغلقة بمضيق تيران (روز اليوسف، ٢٩ مايو ١٩٦٧).

استقبل الشعب المصري الاستعدادات للحرب بحفاوة شديدة، ولما لا وقد ساد الاعتقاد ليس في مصر فقط بل في بقية الشعوب العربية وحتى في إسرائيل، أنه قد استفاد من دروس ٤٨ و٥٦ . و بالتالي فان دخول حرب أخرى مع إسرائيل معناه أن العرب هذه المرة أكثر استعدادًا وتحديدًا للأهداف ، فرسم عادل البطراوي قبل النكسة بأيام الجندي المصري يحدث قائده قائلًا: "محتاجين يا فندم (ستوب ووتش) عشان نحسب المعركة حتستغرق أد إيه..!" دلالة على أن التقدير المبدئي للحرب يفيد بأنها "حرب سهلة".

وأصبحت التعبئة النفسية على أشدها وكان جليًا أن هناك حربًا قريبة قادمة. وتحالفت كل أجهزة الاعلام العربية مع كل قوى الشعب في تناغم غير مسبوق يحركها مايسترو واحد تدق طبول الحروب وتنشد مسبقًا لحن النصر. فظهرت الأغاني: يا أهلًا بالمعارك والله معاك وإلى المعركه وحنحارب. يرى الرسام إسماعيل دياب أنه في ذلك الوقت قد حدث تناغم بين الأغاني الوطنية والرسوم الكاريكاتورية، لتحريض الناس لقبول مبدأ الحرب ورفع الروح المعنوية ورفع مستوى استعداد الناس للحرب. فرسم إسماعيل دياب جمهور الشعب رجالًا ونساءً يحملن السلاح ويهتفن في نفس واحد "حنحارب...حنحارب"، بينما العدو يفر مذعورًا مستنجدًا: "ألحقيني يا امة". وقد لخص دياب طوائف الشعب في الفلاح بعصبة رأسه المميزة والفلاحة في ثوبها المزركش والتي أضاف لها لمسة أنثوية بوضع "فيونكة" في شعرها وآخر أحسبه الموظف لم ينسى أن يضيف له حمالة البنطلون. كما صور الرسام أحمد حجازي كيف كان للأغاني تأثير قوي على الروح المعنوي للجندي الإسرائيلي.



شكل ١٣١: حنحارب!
(صباح الخير، ١ يونيو ١٩٦٧)



شكل ١٣٢: الأغاني الوطنية!
(صباح الخير، ١ يونيو ١٩٦٧)

كان للرسوم الكاريكاتورية دورًا كبيرًا في تعبئة وتهيئة الشعب لحرب قادمة سيكون هو فيها المنتصر لا محالة. فصورت الجندي الإسرائيلي بأنه (مفعوص) قزم لا وزن له، في حين صورت الجندي العربي بشخص له هيبة جميل الطلعة عريض المنكبين مفتول العضلات طويل القامة لا مثيل له في قوته. ففي كاريكاتير تصدر غلاف روزاليوسف في ٢٢ مايو الجندى الإسرائيلي يرتعد ويرتجف خوفًا مشيرًا إلى التعبئة المصرية على الحدود قائلًا: "ياامه..دول صدقوا...!!!"

كما كشفت بعض الرسوم الكاريكاتورية عن تحيز بعض الدول الغربية لإسرائيل وعلى رأسهم أمريكا وبريطانيا. فرسم ناجي كامل جندي (الجيوش العربية) مفتول العضلات وطويل القامة لدرجة أن أشكول رئيس وزراء إسرائيل في محاولة يائسة منه للوصول لقمته صعد على كتف جيمس هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا الذي بدوره

صعد على كتف جونسون الرئيس الأمريكي السابق، ويستنجد أشكول قائلًا: "الحقني يـ جونسون..برضة مش طايله." يعتقد ناجي بأن الدعم الذي تحصل عليه إسرانيل من كل من الولايات المتحدة وبريطانيا لن يساعد إسر ئيل في الوقوف ضد العرب.



شكل ١٣٣: الجيوش العربية!

"اشكول: الحقني يا جونسون..برضه مش طايله..!!"

(صباح الخير، ١ يونيو ١٩٦٧)

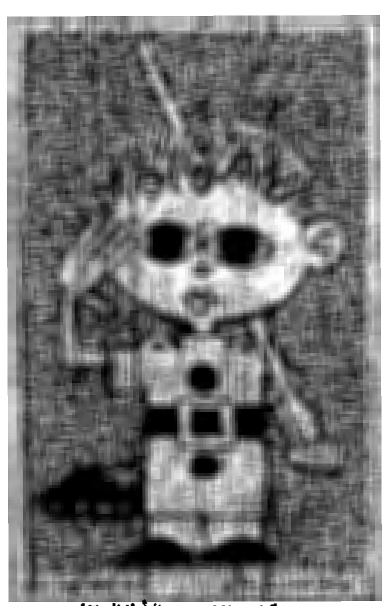
وصور كل من حجازي وبهجت عثمان كيف أن حتى الأطفال على دراية بما يجري وقد تم شحنهم ضد إسرائيل.



شكل ١٣٤: حتى الأطفال ١!

"ماما..فين إسرائيل؟؟!"

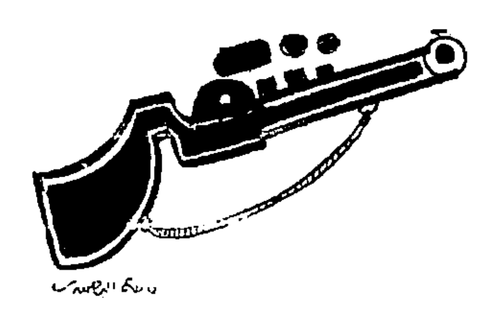
(صباح الخير، ٩، يونيو ١٩٦٧)



شكل ١٣٥: حتى الأطفال ٢!

(الأهرام، عدد ٢٩٣٩٤، ١٩٦٧)

ولم تطق إسرائيل انتظار ضغط القوى العظمى على مصر لفتح قنواتها الملاحية أمامها، فاختارت أن تدافع عن حرية ملاحتها بنفسها وحددت ساعة الصفر في ٥ يونيو بدك الطائرات المصرية على أرضها ليكون ذلك إيذانا ببدء الحرب. وكان من المفارقات المحزنة أن يصدر عدد "روزاليوسف" في ٥ يونيو ١٩٦٧ في نفس اليوم الذي عصف فيه الطيران الإسرائيلي الطائرات المصرية يحمل بين طياته رسومًا كاريكاتورية تعكس إيمان أصحابها بأن دروس ٤٨ و٥٦ لن تمر هباءً وتزيد من الاستهانة بالعدو الصهيوني وتكشف عن تحيز الدول الغربية لإسرائيل وعلى رأسهم أمريكا. ففي كاريكاتير لأحمد حجازي الرئيس الأمريكي جونسون يحدث هيكل عظمي لشخص يحمل سلاحًا (يمثل عدوان ٥٦) قائلًا: "اصحي ...عايزينك تاني في الشرق الأوسط!!"، في إشارة لإحياء ذكرى عدوان ٥٦ وإن اختلف الموقفان سياسيًا. وظهر كاريكاتير لجورج بهجوري في عدد صباح الخير بعد ثلاثة أيام من الحرب وفيه كلمة "سننتصر" على شكل بندقية.



شكل ١٣٦: سننتصر!
(صباح الخير، ٨ يونيو ١٩٦٧)

وفي كاريكاتير لحجازي، سفينة حربية تمثل الأسطول السادس الأمريكي وغرفة عملياته تنادي القيادة العامة للبحرية الأمريكية قائلة: "الموقف حرج للغاية، نرجو سرعة إرسال شحنة من اللبان!!.."، طبعًا اللبان مفيد في حالات التوتر الشديدة التي يعاني منها الإسرائيليون والأمريكيون من جراء التعبئة العربية!! كان ظهورًا بريئًا للرسوم الكاريكاتورية تزامن مع هجوم الطيران الإسرائيلي المباغت لينذر بدء الحرب مع أنها حسمت في الساعات الأولى لصالح إسرائيل



شكل ١٣٧: تمثال الحرية مكسوف!
(صباح الخير، ٨ يونيو ١٩٦٧)

واختارت دول البترول أن تقف وتستخدم سلاحها الجديد "البترول" للضغط على إسرائيل وحلفائها فرسم جورج بهجوري ملحمة "يا بتوع النابالم حنحرقكم بالجازابالم" والتي يصور فيها عدة طرق للتصدي للعدوان والحلفاء باستخدام سلاح البترول. ففي إحدى الرسوم، إسرائيلي محشور بين عمودي خط بترول و"الاستعمار الانجلوأمريكي" يحدثه قائلًا: "تحب احرقك ببترول الجمهورية العربية المتحدة...و اللا بترول السعودية...و اللا بترول الكويت...و اللا بترول الجزائر؟!" ورسم إيهاب شاكر الجندي العربي وهو يكسر بفأسه خط البترول الممتد لحلفاء إسرائيل معلقا: "يا عمال البترول العرب..أنتم الجيش الثاني في المعركة". لم يغير سلاح البترول كثيرًا من الواقع آنذاك ولكنه كان بلا شك درسًا لا ينسى لكل من أمريكا وبريطانيا والذي لعب دورًا حيويًا في سياستهما اليوم!!



شكل ١٣٨: يا عمال البترول العرب!

(صباح الخير، ٨ يونيو ١٩٦٧)

تصدرت هذه الحرب عناوين أهم الصحف والمجلات العالمية. وكان العنوان الرئيسي لصحيفة النيويورك تايمز الأمريكية في عددها ٦ يونيو: "معركة القوات العربية والإسرائيلية..كلاهما يدعيان الانتصارات الجوية والأرضية..مجهودات لوقف إطلاق النار من الأمم المتحدة". كما أشارت الصحيفة إلى أن مصر المدعمة من الاتحاد السوفيتي أحبطت نداء الأمم المتحدة لهدنة بين الطرفين. كما أفاد خبر آخر بأن الاتحاد السوفيتي طالب إسرائيل

بوقف عملياتها العسكرية وسحب قواتها من مصر فورًا ومن غير شروط. ولكن ما يلفت النظر هو رأي المحللين الأمريكيين بالبتاجون بأن هذه الحرب ستكون قصيرة والنصر سيكون حليف إسرائيل!!! يعتقد المحللون بأن الجيش المصري لابد وأنه أقوى بكثير مما كان عليه في عام ١٩٥٦ ولكن لا أحد يعلم لأي مدى هو متقدم، مع استحالة أن يكون في تقدم القوات الحربية من الدرجة الأولى لعدم كفاية الوقت، أما إسرائيل فتملك أفضل القوات المدربة والمتقدمة.

دكت إسرائيل الطيران المصري على أرضه في ٥ يونيو في الوقت الذي لا يزال الإعلام المصري ينشد لحن النصر وعلى قناعة بأن خسائره لا تذكر إذا ما قورنت بالخسائر التي تكبدها الجيش الإسرائيلي. ولعب الإعلام المصري دورًا أساسيًا في إقناع الرأي العام بدعم الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل في هجومها على مصر، وتسبب في اندلاع المظاهرات أمام السفارة المصرية في واشنطن ترفض وبشدة اتهامات الإعلام المصري لها بمساعدة الخصم "إسرائيل". ولأن الشعب المصري يعشق "نظرية المؤامرة" فكان من السهل أن يقتنع بتدخل القوات الأمريكية والبريطانية في الحرب، خاصة وأن تدخلهما المزعوم عسكريًا في الحرب بلا شك يخفف من وطأة الهزيمة.

وتصدر غلاف "روز اليوسف" عدد ٥ يونيو كاريكاتير لإيهاب شاكر يصف الحالة النفسية الصعبة التي عليها إسرائيل "رعبًا" من أبواق الحرب. فرسم ثورًا (إسرائيل) مسلح ويجري فزعًا وهو يقول: "يا نهار اسود .. وكمان بيسنوا سكاكين في الأردن..!!"، في إشارة إلى مشاركة الأردن لمصر وسوريا في حملتها للحرب. ورسم بهجوري بنفس العدد كاريكاتيرًا بعنوان "رسالة إلى إسرائيل" يتضمن أربع أسئلة موجهة إلى إسرائيل مترجمة في شكل رسوم: "١- تحب تموت بمقص المشير؟ ٢-...واللا بنسر الرائد؟ ٣-... واللا تشوف نجوم النقيب؟! ٤- ويعدين تتربط بشريط الشاويش."



شكل ١٣٩: بيسنوا سكاكين في الأردن!
(روز اليوسف، ٥ يونيو ١٩٦٧)

خيم ضباب من الحزن أجواء المحروسة بعد نكسة ٦٧ وأصبحت مرارة الهزيمة هي لسان الحال التي مني بها الشعب المصري الذي أحس بالخيبة والانكسار. فقد انتهت حرب الأيام الست كما تسميها إسرائيل، فكانت الهزيمة لتضيف للعرب عامة وللمصريين خاصة صفحة في تاريخهم مجاورة للنكبة، وتحتل إسرائيل مزيدًا من الأراضي العربية — سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان – لتشهد العالم بأنها دولة وليست دويلة وأن جيشها هو الذي لا يقهر. ولم تكتف إسرائيل بهذا بل بنت ما يعرف بخط بارليف، ذلك الساتر الترابي الذي راهن عليه العالم بأنه أقوى خط دفاعي في العصر الحديث لتعزل سيناء عن مصر.

وطرق الاكتئاب وأمراضه باب العديد من رموز الأمة وعلى رأسهم رسامي الكاريكاتير لما أسفرت عنه ريشتهم من نقل واستنتاج لصور لا تمت للحقيقة بصلة، فتجرعوا كأس الهزيمة وانهزاز مصداقيتهم مثلهم في ذلك مثل بقية رموز الإعلام المسموعة والمرئية. آمن بعض الرسامين بأنهم شاركوا في تضليل المصريين وأنهم مسؤولون عن الصدمة التي أصابتهم. وكنتيجة لذلك، أصاب بعضهم الإحباط واليأس (مثل صلاح

جاهين)، وأصاب البعض الآخر بعض الأمراض مثل السكري (مثل بهجت عثمان) وآثر آخرون على الهجرة بلا عودة (مثل رجائي ونيس)[1].

صدم الشعب في قائده واهتزت ثقته في إعلامه وأصبح ينعت أي خبر مشكوك في مدى صحته بـ "كلام جرايد". وللأسف لم تستطع العقود التالية في بناء الثقة، فالريبة والشك كثيرًا ما يمثلان رد الفعل الأولي لأي من التصريحات الحكومية.

ومن الملاحظ أنه مع وجود الفاصل الزمني الكبير بين فترتي ١٩٤٨ و١٩٦٧ إلا أن التشابه كان كبيرًا في معالجة الإعلام المصري لقضية الصراع العربي الإسرائيلي مع الأخذ في الاعتبار أنه كان أقوى تأثيرًا مع حلول عام ١٩٦٧ لتنوع أدواته وأقلامه عن فترة ١٩٤٨، وبالتبعية سارت الرسوم الكاريكاتورية على نفس الدرب من التعظيم والتمجيد من الشأن العربي و"الوحدة العربية"، مصحوبة بمزيد من الاستهانة بإسرائيل، التي كان ينظر إليها على أنها ليس أكثر من كيان متطفل يجب محوه من على الخريطة السياسية، دون الأخذ في الاعتبار أن إسرائيل التي كانت وليدة الأمس (١٩٤٨)، لم تعد هي نفسها إسرائيل اليوم (١٩٦٧)، فقد أصبح لها جيش وحلفاء وسفارات ومكاتب تمثيل في عدد من دول العالم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المشكلة الحقيقية وراء أزمة ١٩٦٧ تكمن في أنه تم التعامل معها قياسًا على عام ١٩٥٦ دون الأخذ في الاعتبار الظروف المستجدة، وقد أشار الكاتب الصحفي والمؤرخ السياسي محمد حسنين هيكل، في كتابه "الانفجار"، بأن جمال عبد الناصر وقع في الخطأ ذاته الذي كان دائم التحذير منه مستشهدًا بتحذير ونستون تشرشل، الذي قاد بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، من "خوض أي حرب جديدة بنفس أسلوب الحرب السابقة"، فقد أدار عبد الناصر أزمة ١٩٦٧ متأثرًا بالمناخ الذي قاد به أزمة ١٩٥٦ التي سبقتها بأحد عشر عامًا في ظل ظروف جميعها كانت مختلفة[2]!

وترجع هيئة البحوث العسكرية التابعة لوزارة الدفاع سبب أزمة ١٩٦٧ إلى سوء استغلال نائب الرئيس المشير عبد الحكيم عامر لسلطاته ومحاولته للانفراد بالسيطرة على الجيش وقطاعات أخرى عديدة في الدولة، فكان ذلك سببًا لظهور مراكز القوى وتصاعد

---

(١) رانيا صالح:

Rania Slaeh (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo (AUC).

(٢) محمد حسنين هيكل، "الانفجار: ١٩٦٧: حرب الثلاثين سنة"، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٠، ص: ٧١٥.

استخدام شعار مريب وقتها يدعو إلى تقريب أهل الثقة وليس أهل الخبرة، واعتبار النقد خروج عن الشرعية يدفع صاحبه إلى المحاكمة أو الاعتقال[1].

ووفقًا لهيئة البحوث العسكرية، فإن ثمة أخطاء أدت إلى نكسة يونيو، كان أولهم الاندفاع وراء معلومات واردة دون التأكد من صحتها، والمقصود هنا تلك المعلومات التي مررتها روسيا والتي تفيد بحشود إسرائيلية على الجبهة السورية والتي ثبت زيفها فيما بعد. أما ثانيهم فيرجع إلى الاعتماد على دعم روسي لم يتحقق ولم يحدث أن وعد به، فقد نقل خطأً وزير الحربية وقتها شمس بدران من وزير الدفاع السوفيتي دعم وتأييد الاتحاد السوفيتي الكامل للموقف المصري، مع إنه في المباحثات الرسمية نصح السوفيت بعدم الاستمرار في الأزمة[2]! وثالثهم كان يرجع للتحيز لأهل الثقة عن أهل الخبرة، فقد تم "استبدال معظم قادة تشكيلات القوات المسلحة قبل الحرب بأيام معدودة بقادة آخرين أقل كفاءة ولا يعلمون عن وحداتهم الجديدة إلا القليل..ولكنهم بتوع المشير عامر—وشمس بدران"[3]

وأخيرًا، تصرفات المشير غير المسؤولة وانفراده بالسلطة العسكرية كانت وراء الهزيمة المفجعة، فانعدام الديمقراطية جعله ينفرد بفكره وقراره العسكري دون الاستماع لأي آراء أخرى، مما تسبب في القضاء على الخطة الدفاعية السابق تأكيدها في سيناء، وعدم الأخذ بتقدير الرئيس عبدالناصر في احتمال الهجوم الإسرائيلي يوم ٥ يونيو، والتعامل مع حرب ١٩٥٦ كمقياس لحرب ١٩٦٧، والذي تمثل في قرار الانسحاب الذي أصدره "بدون أن يتحقق_كقائد عام_ أن التشكيلات أدت واجبها العسكري أولًا"[4].

فقد تسبب الانسحاب دون خطة مدروسة إلى نتائج مفجعة، فوفقًا لهيكل، كانت حصيلة مصر من الخسائر في اليوم الأول من القتال حوالي ٥٩٤ شهيدًا، في حين بعد قرار الانسحاب وطريقة تنفيذه من يوم ٦ يونيو وحتى مساء ٨ يونيو، وصل عدد الشهداء إلى ٦٨١١ شهيدًا[5].

وفي ٩ يونيو أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في خطابه الشهير تحمله كامل المسؤولية وتنحيه عن الحكم، فاندلعت مظاهرات شعبية من كل قطب مسجلة لحظة تاريخية نادرة للجماهير الغفيرة التي خرجت تناشد ناصر بالعدول عن قراره. وتظاهر الرسامون أيضًا

---

(١) "حرب الاستنزاف: يونيو ١٩٦٧-أغسطس ١٩٧٠"، صفحات مضيئة من تاريخ مصر العسكري، وزارة الدفاع، هيئة البحوث العسكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ١٨.

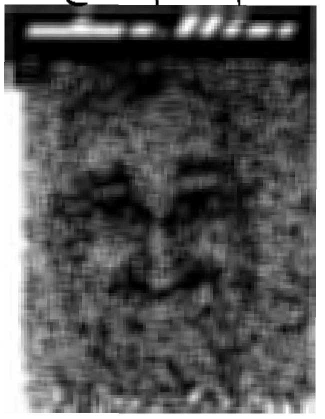
(٢) "حرب الاستنزاف: يونيو ١٩٦٧-أغسطس ١٩٧٠"، المرجع السابق.

(٣) "حرب الاستنزاف: يونيو ١٩٦٧-أغسطس ١٩٧٠"، المرجع السابق.

(٤) "حرب الاستنزاف: يونيو ١٩٦٧-أغسطس ١٩٧٠"، المرجع السابق، ص: ١٩.

(٥) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص: ٧١٢.

بفرشهم مطالبين رئيسهم بالعدول عن قراره. فرسم إيهاب شاكر وجه ناصر يعكسه الجماهير الغفيرة التي خرجت تناشده البقاء. ورسم أحمد حجازي طوائف الشعب ثائرة تناشد عبد الناصر قائلة: "طريق النصر طويل يا عبد الناصر..و نحن معك لآخر الطريق..و لن نخضع لأمريكا التي تقود الثورة المضادة في العالم..". ورسم جورج بهجوري نسر الثورة وهو يبعث ببرقية شكر للرئيس كان نصها: "الرئيس جمال نشكرك للعدول عن قرارك." وهكذا عكست الرسوم إرادة الشعب وهو في أسوأ حالاته في ظل إيمانه بضرورة تدارك الأخطاء والسعي لتصحيح الوضع لتحقيق النصر والأهم هو عدم الخضوع لأمريكا.



شكل ١٤٠: ١٧ ساعة عصيبة هزت العالم!

(روزاليوسف، ١٢ يونيو ١٩٦٧)



شكل ١٤١: التنحي!

(روزاليوسف، ١٢ يونيو ١٩٦٧)



شكل ١٤٢: رسالة شكر إلى ناصر!

(روزاليوسف، ١٢ يونيو ١٩٦٧)



شكل ١٤٣: طريق النصر طويل!

(روزاليوسف. ١٢ يونيو ١٩٦٧)

ويلفت النظر هنا إلى دور الاتحاد السوفيتي السلبي من أزمة يونيو، الذي فيما يبدو يدر عليه في النهاية أهدافًا إستراتيجية، فوفقًا لتحليل هيئة البحوث العسكرية، فإن الاتحاد السوفيتي قد اتفق مع الولايات المتحدة "على تجميد الأوضاع في المنطقة إلى حالة أطلق عليها..اللا سلم واللا حرب بحيث يمكن لهم أن يمارسوا مزيدًا من التدخل في الشرق الأوسط، ... كان الاتحاد السوفيتي يجد نجاحًا به في استمرار حالة التوتر بين العرب وإسرائيل حيث يتيح له ذلك تحقيق أهدافه الإستراتيجية بالمنطقة من أجل دعم نفوذه وزيادة حجم تواجده العسكري بها"[1].

وقد سجل هيكل بعض ما جاء في المباحثات التمهيدية (القاهرة، ١٠ يوليو) لعقد مؤتمر عربي على مستوى القمة، وفيها وصف ناصر دور الاتحاد السوفيتي في هذه الفترة بقوله "أنا تعاملت سنين طويلة مع الاتحاد السوفيتي ولم أرهم على هذا النحو من التردد

(١) "حرب الاستنزاف: يونيو ١٩٦٧-أغسطس ١٩٧٠"، المرجع السابق، ص: ٢٧.

والضياع. والحقيقة أنني مندهش، ويمكن من أهم أخطائنا وهذه أتحملها أنا أننا لم نحسب حسابًا دقيقًا للتغيير الذي حدث في الميزان الدولي. فالروس في حالة انكماش، والأمريكان في حالة انفلات. وقبل أيام تخانقت مع الماريشال زخاروف رئيس أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية، هو الآن عندنا في مصر، وأنا طلبت منه أن يبقى وقلت له: "إني لا أسمح له بالسفر من مصر إلا بعد أن يقدم لي تقريرًا عن الموقف في الجبهة وعما سيفعلونه لتعويض احتياجاتنا". قبل أيام جاءني بصور التقطتها الأقمار الصناعية لمطارات سيناء، وقلت له "الآن تجيء لي بصور لمطارات سيناء بعد أن احتلها اليهود؟" وسألته "لماذا لم تعطونا هذه الصور من قبل عن مطارات إسرائيل قبل بدء المعركة؟"(١).

ووضح هيكل التغير الكبير الذي حدث في سياسة السوفيت تجاه الشرق الأوسط من خلال حديث ناصر مع الرئيس الجزائري هواري بومدين حول النشاط الذي يدور في الأمم المتحدة قائلًا: "الأمريكان يطالبوننا بتنازلات. والغريب أن الذي يضغط علينا في قبول هذه التنازلات هو وزير الخارجية السوفيتي جروميكو، وليس وزير الخارجية الأمريكي راسك...موقف الروس بالنسبة لنا موقف أساسي، فإذا لم نحصل منهم على احتياجاتنا من السلاح فمعنى هذا أنه لن تكون هناك معركة...لابد أن تساعدون جميعًا في الضغط على السوفيت. كل من يستطيع الضغط على السوفيت لابد له أن يضغط: نحن والجزائر والعراق وسوريا، والدول غير المنحازة يوغوسلافيا والهند وغيرهم، وكل دول آسيا وأفريقيا. وأيضًا لابد من ضغط على الأمريكان. ولهذا فأنا أريد مؤتمر قمة عربي لكي يتحرك إخواننا في السعودية وغيرها ويضعوا علاقتهم بالأمريكان موضع اختبار، ليس من أجلي ولكن من أجل الضفة الغربية ووراء الملك حسين. وأنا أعتبر أنه ليس هناك محظور في العمل السياسي إلا الاستسلام"(٢).

وجاء قرار ناصر بإعادة بناء القوات المسلحة وبناء طيران مصري جديد بديلًا عن الذي دمرته إسرائيل كبارقة أمل للمصريين بأن الحرب لم تنته بعد. فلملم الشعب المصري أنفاسه وبدأت مسيرة حرب الاستنزاف وبدأ إعداد الدولة للحرب يأخذ بلب كل فرد من شعبها متلهفًا لاستعادة الكرامة والأرض المغتصبة مغًا. وتغيرت بعدها مواضيع الرسوم الكاريكاتورية بشكل جذري إلى الدعوة إلى البناء وعدم التحدث عن ما حدث، والإيمان

---

(١) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص: ٨٩٥.

(٢) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص: ٨٩٦.

بأن المعركة ما زالت مستمرة وأنها لن تنتهي عند العدوان وإنما هي وقفة لجمع الصفوف وتحديد الخسائر والتعلم من الأخطاء.

وانتهت حرب الاستنزاف في عام ١٩٧٠ بقبول عبد الناصر مبادرة "روجرز" ووقف إطلاق النار، والتي قوبلت باستياء بالغ بين أعضاء الاتحاد الاشتركي وأثارت ردود فعل غاضبة من الأوساط الفلسطينية والدول العربية. ويعتقد المؤرخ عبد العظيم رمضان بأنه لو كانت حرب الاستنزاف "عتبة للتحرير" ما قبل عبد الناصر مبادرة روجرز التي أنهتها. ويذكر رمضان رد عبد الناصر على اعتراض ياسر عرفات في المقابلة التي جرت بينهما: "إن المضي في حرب الاستنزاف على حين أن إسرائيل تتمتع بتفوق جوي كامل، معناه ببساطة أننا نستنزف أنفسنا![١]"

ومع الإحساس بخيبة الأمل نتيجة لموقف الاتحاد السوفيتي، إلا أن الرسوم الكاريكاتورية كانت تصب جام غضبها على الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها إسرائيل. فلم تشر الرسوم بشكل نقدي لدور الاتحاد السوفيتي إبان الأزمة أو بعدها، حتى مع تبنيه الموقف الأمريكي بأن يبقى الوضع على ما هو عليه! رسم عادل البطراوي رجل (يمثل العالم) رأسه على هيئة كرة أرضية يسأل حواء وآدم عن رجل إسرائيلي (كتب عليه "شعب الله المختار")، لترد حواء قائلة: "لا ما نعرفوش..ما افتكرش اني خلفت حد بالشكل ده!!"

وتشوهت صورة أمريكا لدى المواطن المصري ونفد صبره وهو يطالع سياساتها المنحازة في الشرق الأوسط، فرغم تصنيفها قوة عظمى وبالتالي لها تأثير على صانعي القرار في المنطقة إلا أنها تضغط لترجيح كفة مصالحها الشخصية. وترسخ هذا المبدأ بوضوح منذ أن سارعت بالاعتراف بإسرائيل بعد ساعات قليلة من إعلان قيامها سنة ١٩٤٨. ومع محاولة الشعوب العربية نسيان هذه الطعنة الأمريكية إلا أنها فوجئت بتكرار المساندة الأمريكية لإسرائيل في حرب ١٩٦٧. كما ظهرت هيمنتها الواضحة على قرارات الأمم المتحدة وتعاملت بعد النكسة بسلبية مستفزه تجاه تعنت إسرائيل ورفضها لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة والرجوع لحدود ما قبل ١٩٦٧ مما أعطى إسرائيل نصرًا سياسيًا وإعلاميًا.

ورسم صلاح الليثي عم سام (الولايات المتحدة) في البانيو ومعه سنارة (إسرائيل) ليبدو كالصياد الأحمق الذي لا يجني شيئًا. كما نجح الليثي في تصوير شكل العلاقة بين ثلاثي أضواء المسرح الدولي– الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والأمم المتحدة– في صورة تغلبت فيها

(٢) د. عبد العظيم رمضان، "حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ١٢.

الرسوم على الكلمات مما ساهم في تبسيط تلك العلاقة المركبة وتوصيلها إلى رجل الشارع العادي، وفيها رمز لأمريكا بالفيل للدلالة على كونها "أضخم دولة في العالم". فرسم رجل المطافئ (يمثل الأمم المتحدة) يحاول جاهدًا إطفاء حريق ضخم ولكنه يفاجأ بعدم وصول الماء بسبب فيل ضخم (أمريكا) يضغط بقوة بإحدى رجليه على الخرطوم، في إشارة إلى الجهود المشلولة للأمم المتحدة تجاه العدوان الإسرائيلي. كما تصدر غلاف "روزاليوسف" عدد ٣ يوليو ١٩٦٧ أبشع ما رسم عن إسرائيل بريشة إيهاب شاكر، تعبيرًا عن تعنتها ورفضها تنفيذ قرارات الأمم المتحدة والعودة لحدود ما قبل ١٩٦٧. فصور إسرائيل على هيئة كلب مسعور ينقض على عظمة ضخمة (تمثل الأراضي المحتلة) متسببة كسرًا في أسنانه كلها ويقول: "مسعور مسعور..بس أكلها!!".

وفاة عبد الناصر:

لا أحد يستطيع أن ينكر أن وقع إعلان وفاة عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ كان بمثابة الصدمة القاسية على الأمة العربية بأسرها، فمهما اختلفنا أو اتفقنا معه، سيبقى مشهد وداعه من أروع المشاهد التي خلدت في ذاكرة الأمة. فقد ظل ناصر حتى وفاته يتمتع برصيد وفير من تأييد وحب الناس له.

يرجع رمضان حب الشعب لناصر لأسباب منها أنه كان يمثل فكرة النضال الوطني "المتخلص من أية تبعية للقوى الكبرى"، كما أنه كان يمثل فكرة "النضال الوطني ضد الاستعمار والامبريالية"، وغيرها من حسابات الشعب المصري "الكيميائية أدت به إلى تأييد هذا الزعيم وحبه رغم ما ذاق على يده من وصاية وهزائم عسكرية"[١]!

وتقبل العالم الخبر أيضًا بالصدمة، فمهما اختلفت القوى العظمى مع ناصر، فقد كانت تكن له شيئًا من الاحترام. فقد علق الرئيس نيكسون على وفاة عبد الناصر بقوله ان واشنطن كانت تنظر إليه دائمًا "زعيمًا له النفوذ الأقوى في العالم العربي". وعلق رجل المخابرات المركزية "جول جوستن" على خبر الوفاة، قائلًا: "إن ما يدعو للأسف فيما يتعلق بعبد الناصر هو أنه ليست لديه أية رذيلة. إن شراءه لم يكن ممكنًا، وتهديده أيضًا. إننا نكرهه إلى أقصى حد، لكن ما كنا نملك أن نفعل ضده شيئًا..فقد كان نظيفًا جدًا"[٢].

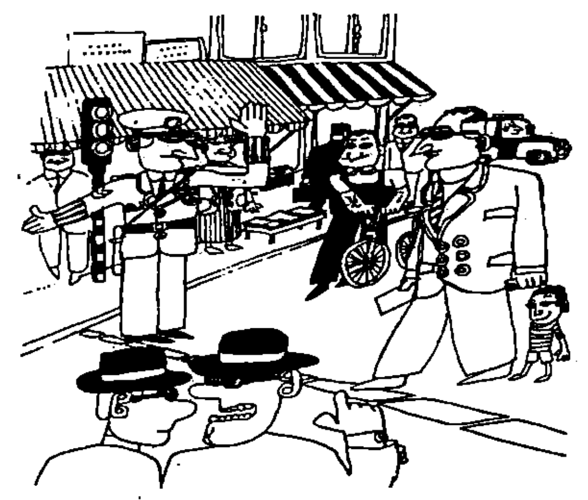
---

(١) د. عبد العظيم رمضان، "الصراع الاجتماعي والسياسي في عصر مبارك"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص: ٢٧٠.

(٢) عادل حموده، "عبد الناصر: أسرار المرض والاغتيال"، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ص: ١٩١.

استقبل الشعب المصري النبأ بالصدمة، فلم يكن يعلم أن زعيمه الذي تعود أن يسمع خطبه التي تعطي لهم الأمل بأن المعركة مازالت مستمرة، كان يعاني من أمراض السكري وتصلب الشرايين وغيرها، إلى الدرجة التي أصبح لا يفارقه الألم. ولعل ذلك السبب المباشر وراء انتشار الشائعة (وما زالت رائجة حتى يومنا هذا) التي ترجح أن عبد الناصر مات مقتولًا، ولم لا وقد كان هناك قناعة أنه ولابد من وجود متفعين لموت ناصر *!

رسم اللباد المواطنين في الشارع كلهم على شكل عبد الناصر، في إشارة إلى أن ناصر يكمن داخل كل مواطن مصري.



شكل ١٤٤: عبد الناصر!

السائح: "غريبة .. مصر دي تخلق من الشبه أربعين مليون!"

(روز اليوسف، ١٢ أكتوبر ١٩٧٠)

وسرعان ما انتقلت مواضيع الكاريكاتير إلى دعوة المواطنين بوفاء ذكرى عبد الناصر بعودتهم إلى أعمالهم بعد انقطاعهم لحزنهم والتعهد بإكمال ما بدأه ناصر. رسم الليثي أحد المواطنين "سايب شغله" يرفع لافتة سوداء ويعزي مصر قائلًا: "البقية في حياتك"، لترد عليه مصر: "عملك الباقي!" ورسم دياب روح عبد الناصر توصي الشعب على البلاد قائلةً: "خلو بالكم .. انا شايف مصنع هناك اهه ما بيشتغلش!"

* يمكن التعرف على تفاصيل أكثر في هذا الموضوع من خلال كتاب عادل حموده، "عبد الناصر: أسرار المرض والاغتيال"، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨.



شكل ١٤٥: عملك الباقي!

واحد سايب شغله: "البقية في حياتك"

مصر: "عملك الباقي!"

(روز اليوسف، ١٢ أكتوبر ١٩٧٠)

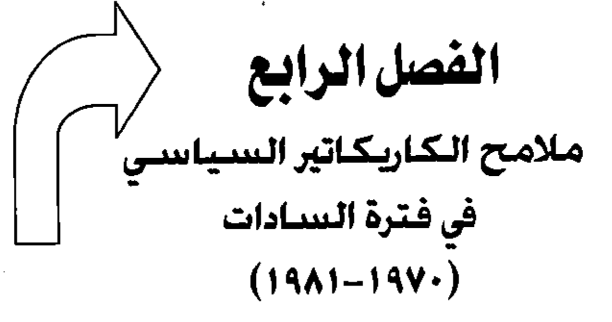


روح البطل ـ خلوا بالكم .. انا شايفمصنع هناك اهه ما بيشتغلش !

شكل ١٤٦: وفاة عبد الناصر!

روح البطل: "خلو بالكم .. انا شايف مصنع هناك اهه ما بيشتغلش!"

(روز اليوسف، ١٩ أكتوبر ١٩٧٠)



الفصل الرابع

ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة السادات

(١٩٧٠-١٩٨١)

الفصل الرابع
ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة السادات (١٩٧٠-١٩٨١)

كان واضحًا أن الرئيس الراحل محمد أنور السادات قد أختار مسارًا مختلفًا تمامًا عن سياسات ناصر التأميمية والمناهضة للامبريالية الغربية. فقد أتى السادات إلى السلطة وهو يحمل على عاتقه مسؤولية صعبة في أجواء اتسمت بالحزن وخيبة الأمل، فمازالت نكسة ٦٧ تخيم بظلالها على الجميع في الوقت الذي تمرح فيه إسرائيل داخل الأراضي المحتلة. وأدرك السادات بأن القوى العظمى لن تقدم ما يساهم في حل الأزمة وإرغام إسرائيل للعودة لحدود ما قبل ٦٧، فيبدو أنهم وجدوا أن من الأمثل لهم تجمد الوضع على ما هو عليه. وبالتالي آمن السادات بوجوب شن عمل عسكرى يحرك المياه الراكدة ويرغم إسرائيل على رفع يديها من على الأراضي المغتصبة، ويعيد للمصريين كرامتهم وهيبتهم. وكان مدركًا بأن أوراق اللعب أصبحت الآن مع أمريكا، فطرد الروس ليتمكن من فتح قنوات ودية مع الولايات المتحدة.

ولعب السادات دائمًا على عنصر المفاجأة، فلم يقرع الإعلام المصري هذه المرة طبول الحرب ولم يعزف على مزمار النصر، بل على العكس كانت هناك موجة من اليأس والملل من طول انتظار حدوث فعل حقيقي يرجع الأرض والكرامة. لتكون مفاجأة السادات الأولى بشن معركة العبور التي أحبطت عدد من النظريات العسكرية تقول باستحالة عبور القناة.

لم يلحق المصريون تجرع كئوس النصر حتى وقعت على مسامعهم مفاجأة السادات الثانية وهي استعداده للذهاب إلى إسرائيل في عقر دارهم واستعداده لإقامة سلام معهم. وتوالت المفاجئات!

وضيق السادات في فترة حكمه الخناق على معارضيه الذين لم يجدوا قنوات شرعية للتعبير عن رفضهم لجوانب من سياسته وأثر ذلك بالتبعية على الرسوم الكاريكاتورية التي وجدت ضالتها في نقد سياساته الانفتاحية التي أدت إلى تدهور الاقتصاد المصري ومزيد من الغلاء وارتفاع الأسعار.

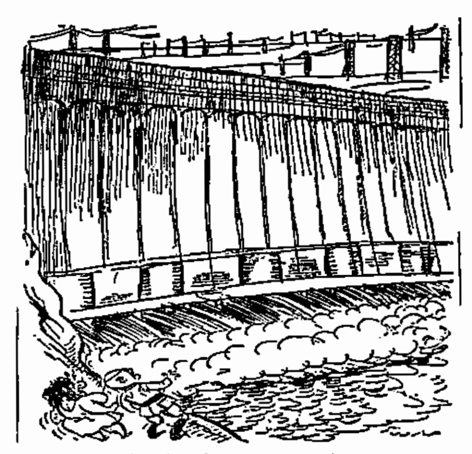
افتتاح السد العالي ١٩٧١:

لا أحد يستطيع أن ينكر أهمية مشروع قومي كمشروع السد العالي. المشروع الذي أمن للأراضي الزراعية قدرًا من مياه النيل على مدار العام وحماها من الفيضانات وأدخل الكهرباء إلى

العديد من القرى والنجوع.

ولم يكن النهوض بهذا المشروع سهلًا بل دفعت مصر ثمنًا كبيرًا مقابلًا لذلك. فقد كان لابد من توفير تمويل كبير للمساهمة في تنفيذ مشروع ضخم كهذا. وبعد أن وافقوا على تمويل بناء السد، سحب كل من البنك الدولي والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا عروضهم كشاهد على سيطرة الامبريالية وعلاقتها بالشعوب النامية. وكرد فعل لهذا أعلن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس كشركة مساهمة مصرية، ليحقق حلم بعيد المنال وهو حلم استرجاع القناة من تحت سيطرة الاستعمار، ليسفر عن العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ الذي انتهى بالانسحاب المخزي لكل الأطراف. وبمساعدة الاتحاد السوفيتي استطاعت مصر بدء العمل في بناء السد العالي في ٩ يناير ١٩٦٠ والانتهاء من تنفيذ المرحلة الأولى منه في ١٦ مايو ١٩٦٤.

لم يمهل القدر عبد الناصر ليرى مشروعه وقد دبت في شرايينه الحياة وأصبح حقيقة واقعة وشاهدًا على أن موارد الثروة لن تكون أبدًا إلا في أيدي أصحابها. واحتفل السادات والرئيس السوفيتي نيكولاي بودجورني باكتمال بناء السد العالي في ١٥ يناير ١٩٧١. ولهذه المناسبة رسم صاروخان بصحيفة "أخبار اليوم" كل من جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في ذلك الوقت وموشى ديان وزير الدفاع وقد أعتلتهما صدمة شديدة وهما يتابعان اندفاع الماء خارجًا من بوابات السد. وفي كاركاتير آخر، رسم صاروخان كل من جولدا مائير وموشى دايان قصيرين جدًا في الحجم وقد استشاطا غضبًا وهما يتابعان الرئيسين السادات وبودجورني يتصافحان للتعبير عن مدى أواصر الصداقة بينهما.



شكل ١٤٧: افتتاح السد العالي!

"جولدا مائير: الشعب اللي قدر على ده كله، يقدر على أي حاجة..."

(أخبار اليوم، ١٦ يناير ١٩٧١)



شكل ١٤٨: الصداقة المصرية السوفيتية!

"مائير: يا ترى من أعلى من الثاني..؟"

"ديان: الاثنين أصعب من بعض..!!"

(أخبار اليوم، ٢٣ يناير ١٩٧١)

نلاحظ أن أسلوب صاروخان في الرسم قد اختلف قليلًا عن ما قبل الثورة. فقد أصبح يحاكي أسلوب شباب الرسامين في هذه الفترة باختزال التفاصيل الكثيرة والمعقدة إلى خطوط بسيطة ورشيقة في غياب للخطوط الكثيفة والظلال العنيفة والتكتلات السوداء.

حرب أكتوبر ١٩٧٣:

ازدادت مشكلة الشرق الأوسط تعقيدًا يومًا بعد يوم، فبعد أن بحت الأصوات من قبل وهي تنادي بوجوب التخلص من إسرائيل رافضة لقرار التقسيم، أصبحت اليوم تنادي بالعودة لحدود ما قبل ١٩٦٧. وأصبح واضحًا أنه يستوجب رد فعل قوي يمسح عار الهزيمة ويسترجع الأراضي المغتصبة.

أعطى السادات ظهره للاتحاد السوفيتي وبدأ في التودد للولايات المتحدة بعد أن فطن إلى أن أوراق اللعب أصبحت معها. ولم يثمر التودد عن أي ضغط يذكر على إسرائيل بعد أن وجدت أمريكا فيها ما يؤمن مصالحها في الشرق الأوسط. وتدخلت الأمم المتحدة بإرسال مبعوثها في الشرق الأوسط جونار يارنج في محاولات يائسة لإرغام إسرائيل للانسحاب إلى حدود ما قبل ٦٧، ليكون تعنت إسرائيل وعدم امتثالها لقرار الأمم المتحدة نصرًا سياسيًا آخر لها.

ووصفت الرسوم الكاريكاتورية سياسة الولايات المتحدة بالسلبية وغير المنصفة، ومجهودات الأمم المتحدة بعديمة الجدوى والضائعة. ففي كاريكاتير لحجازي، يحمل موشى دايان (رمز المؤسسة العسكرية الإسرائيلية) بندقية وهو جالس في قبعة العم سام، والأخير يقول ليارنج مبررًا: "بحاول اضغط على إسرائيل عشان تنسحب ما فيش فايدة!"، في إشارة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الراعي لموقف إسرائيل المتعنت.



شكل ١٤٩: مبعوث الأمم المتحدة في الشرق الأوسط ١!

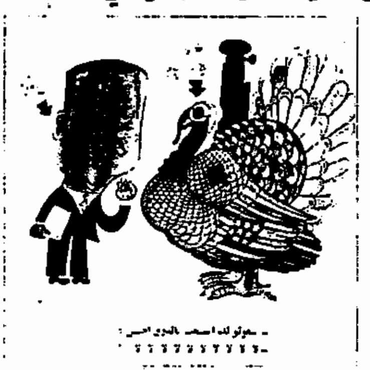
(روزاليوسف، ٨ نوفمبر ١٩٧١)

وصور الرسام زهدي العدوي في كاريكاتير مبدع يارنج وهو يقود سيارة تابعة للأمم المتحدة يرافقه فيها رجل رأسه على هيئة كرة أرضية (يمثل الأمم المتحدة) متوجهان إلى محطة السلام في الشرق الأوسط، ولكن يسد طريقهما عنكبوت ضخم رأسه على هيئة موشى دايان (رمز المؤسسة العسكرية الإسرائيلية) يتوسط شباكه التي نسجها على هيئة نجمة داود (رمز التوسع الصهيوني). يحدث يارنج رفيقه قائلًا: "عشان نوصل..لازم نفوت في الخيوط دي ونقطعها". يشير زهدي هنا إلى وضع الأمم المتحدة العاجز أمام التوسع الصهيوني اللاقانوني ويفيد بأن الحل الأمثل في هذه الحالة هو استخدام القوة عملًا بالقول "ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة".



شكل ١٥٠: مبعوث الأمم المتحدة في الشرق الأوسط ٢!
(روزاليوسف، ١٢ إبريل ١٩٧١)

وصور حجازي الغرور الإسرائيلي على هيئة ديك رومي نافشًا ريشه في زهو ويحمل بندقية وتختبئ إحدى عينيه وراء عصابة (يمثل موشى ديان رمز المؤسسة العسكرية الإسرائيلية) ومزين ريشه بنجمة داود وعلم أمريكا. ويخاطب يارنج الديك قائلًا: "يقولوا لك انسحب بالذوق أحسن؟" ليرد الغرور الإسرائيلي بكلمة "لا" عشر مرات.



شكل ١٥١: مبعوث الأمم المتحدة في الشرق الأوسط ٣!
(روزاليوسف، ٢٠ ديسمبر ١٩٧١)

بات واضحًا موقف الولايات المتحدة الموالي لإسرائيل وأصبح لا يرجى من الاعتماد عليها أو على سياستها في حل أزمة الشرق الأوسط. كما اتضح فشل الأمم المتحدة ومبعوثها في حث إسرائيل على الانسحاب لحدود ما قبل ٦٧. وازداد الشعب المصري تعطشًا لفعل حقيقي وليس لوعود مثلها في ذلك مثل السراب. وازدادت ريشة رسامي الكاريكاتير تعطشًا لخط حدود سيناء المصرية، وتعطشًا لحدث يشفي غليل شعب وصفته من قبل بالشعب الذي لا يقهر. رسم أحمد حجاري بعد ثلاث سنوات من النكسة كل من موشى دايان وجولدا مائير وعلى وجههما علامات السرور والسعادة وأمامهما طفلة جميلة أشير اليها بـ "أزمة الشرق الأوسط اللي عمرها دلوقتي ٣ سنين ونص" وعم سام يخاطبها قائلًا: "كل سنة وانت طيبة يا حبيبتي، وأعيش وأشوفك وانتي عروسة..!!" والحق أن أزمة الشرق الأوسط كبرت واتجوزت وأنجبت مجموعة أزمات "زي القمر". وفي كاريكاتير لزهدي العدوي في إبريل عام ١٩٧١، حمامة السلام محلقة فوق أرض سيناء وقد استبدلت غصن الزيتون ببندقية صغيرة.



شكل ١٥٢: أزمة الشرق الأوسط!

(روزاليوسف ٣ يناير ١٩٧١)



شكل ١٥٣: الحل السلمي اليوم!

(روزاليوسف. ٢٦ إبريل ١٩٧١)

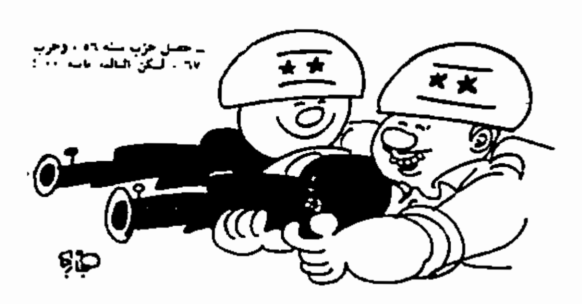
وتنبأ حجازي بأن الوقت قد حان للحرب وإرجاع الحق لأصحابه. فرسم حلاق منفعل وهو بيحلق شعر "زبون" ويقول له مفسرًا: "هس.....اقرأ الجرايد وانت تعرف!" وعنوان رئيسي على الصفحة الأولى لجرنال وضع على مقربة منه يقول: "إعداد الدولة للحرب".



شكل ١٥٤: إعداد الدوله للحرب!

(روزاليوسف، ١٩ إبريل ١٩٧١)

وفي كاريكاتير آخر لحجازي جنديين مصريين، يخاطب الأول الآخر قائلًا: "حصل في ٥٦ وحرب ٦٧، لكن التالتة تابتة..!" ولا أعلم لماذا أغفل حجازي عن أنه حصل أيضًا في ٤٨ وأن القادمة هي محطتنا الرابعة مع إسرائيل. وارتسمت على وجههما ملامح التفاؤل والثقة والارتياح لقرار الحرب.



شكل ١٥٥: التالته تابته!

(روزاليوسف، ١٩ إبريل ١٩٧١)

وفعلًا "التالتة تابتة" كما تنبأ حجازي، فقد حصل العبور في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ (١٠ رمضان ١٣٩٣)، ليس فقط العبور من ضفة مصرية إلى أخرى مصرية، إنما العبور بقلوب

المصريين من ضفة الانكسار والهزيمة إلى ضفة النصر والعزيمة، والذي حطم النظريات العسكرية التي تفيد باستحالة عبور خط بارليف وبالتالي قضى على الأكذوبة القائلة بأن جيش إسرائيل لا يقهر، ليعكس أقوى وأعمق إحساس بالنصر خاصة عندما يكون نصر بعد هزيمة. كان عبور أقوى خط دفاعي هو بمثابة طوق النجاة الذي تلقفته الجماهير المصرية لتبرد نار نكستها وترطب به جروحها التي لم تلتئم بعد. كفل العبور السيادة الكاملة على قناة السويس مع استرداد جزء من الأراضي في شبه جزيرة سيناء وعودة مدينة القنيطرة للسيادة السورية.

وافقت القوات العربية على الفور على وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر بعد أن أفاق الجيش الإسرائيلي من هول المفاجأة واستطاعت قواته اختراق الضفة الغربية لقناة السويس مرة أخرى فيما يعرف بمعركة الثغرة، لتبدأ مرحلة جديدة من المفاوضات تحت إشراف الأمم المتحدة عند الكيلو ١٠١ طريق القاهرة – السويس.

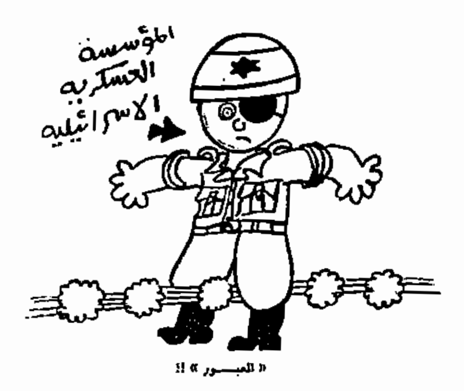
واختلفت آراء المحللين حول قرار الموافقة على وقف إطلاق النار. يرى البعض القرار على أنه خيبة عربية وسارينة إنقاذ لإسرائيل بعد أن لاح في الأفق امكانية إرجاع كل الأراضي المنهوبة بما فيها فلسطين وإن معركة الثغرة ما هي إلا دعاية إسرائيلية لتثبيط العزيمة المصرية، بينما يرى آخرون بأنه كان قرارًا صائبًا (دروس ٦٧) وأن ما تم إنجازه خلال الحرب كان وفق خطة مدروسة.

كان العبور الكلمة السحرية التي ألهمت العديد من الرسامين لتتراقص فرشاتهم وهي تعزف لحن النصر. ومن أجمل ما رسم تخليدًا لهذه اللحظة التاريخية وتعبيرًا عن إرادة مصر وثباتها لوحة كاريكاتورية تصدرت غلاف "روزاليوسف" بريشة المبدع حجازي وفيها يصور مصر على هيئة امرأة ذات عيون فرعونية يتدلى من أذنيها قرط على شكل هلال ويتوج شعرها الأهرامات الثلاثة، ويعكس رداؤها أمواج الضفة، وبيد قوية وثابتة تقتلع من أرض سيناء شجرة ضخمة (الاحتلال الصهيوني) بجذورها الكثيرة المتشعبة. ويعلو الشجرة ثمار كثيرة، ترمز كل واحدة فيها إلى موشى دايان رمز المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.



شكل ١٥٦: سيناء!
(روزاليوسف، ١٥ أكتوبر ١٩٧٣)

وفي كاريكاتير آخر، صور حجازي صدمة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية من سرعة العبور، وصور نجاح القوات المصرية في التصدي لتوسع إسرائيل في المنطقة، كما صور الغرور الإسرائيلي قبل وبعد العبور.



شكل ١٥٧: العبور !!
(روزاليوسف، ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣)



شكل ١٥٨: العبور ٢!

(روزاليوسف، ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣)



شكل ١٥٩: الغرور الإسرائيلي!

(روزاليوسف، ١٥ أكتوبر ١٩٧٣)

ولقب الرئيس أنور السادات وقتها ببطل العبور وأصبح الذهول هو لسان حال إسرائيل ولسان حال المجتمع الدولي خاصة أمريكا. ورسم حجازي الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون يخاطب بلهجة شديدة كل من جولدا مائير وموشى دايان قائلًا: "ايه الخيبة اللي حصلت دي، يعني أعمل إسرائيل غيركم في المنطقة؟"، في إشارة لصدمة أمريكا في حليفتها إسرائيل.



شكل ١٦٠: الخيبة الكبيرة!

(بروزاليوسف ١٥ أكتوبر ١٩٧٣)

ونرى النسر المصري (نشر بروز اليوسف في ١٥ أكتوبر) والذي نادرًا ما نراه في الرسوم معلقًا على الأحداث محلقًا في السماء بعد أن أحكم قبضته على "موشى دايان" في هيئة أفعى. ومع احتفالات السنة الجديدة (١٩٧٤)نشر كاريكاتير للفنان رؤوف عياد وفيه جولدا مائير تحدث موشى دايان قائلة: "شوف لنا نتيجه بأه ما يكونش فيها اكتوبر..!!"



شكل ١٦١: السنه الجديدة!

(روزاليوسف ١٤ يناير ١٩٧٤)

يلاحظ أن الرسوم قد خصت نصر أكتوبر من زاوية مصرية بحتة وركزت على عودة سيناء واختراق "أقوى" حاجز دفاعي في قناة السويس إلا أنها لم تشر بشكل أو بآخر لوضع سوريا ولا موقعها من الحرب خاصة وأنها قد شاركت في الحرب.

سياسة الانفتاح ١٩٧٤:

اختار السادات مسارًا مختلفًا عن سياسات ناصر التأميمية، فقد تبنى ما يعرف بسياسة الانفتاح ويقصد بها "فتح" مصر على العالم الخارجي وتشجيع الاستثمار العربي والأجنبي تقريبًا في جميع المجالات. وأعطى ضمانات للمستثمرين ليكونوا في مأمن من التأميم أو المصادرة. إلا أن سياسة الانفتاح هذه أدت إلى مزيد من الانهيار للاقتصاد المصري، فقد تم فتح الأسواق المصرية على البضائع الغربية التي لم تجد بين أغلب البضائع المحلية منافسًا قويًا. وبالتالي تم إضعاف القطاع العام الركيزة الأساسية للاقتصاد المصري في حقبة الستينيات، والذي عانى من انعدام الأمان وعدم قدرته على منافسة الواردات. ومع عدم وجود خطة مدروسة ومعده لشكل الاستثمار في مصر ودوره في عجلة التنمية ذهب أغلبه إلى كل ما يضمن الربح السريع من سياحة وعقارات وبنوك[(١)].

ويسبب قرار الحكومة برفع أسعار المزيد من السلع الرئيسية ومن بينها "العيش"، اندلعت مظاهرات شعبية عارمة في يناير من عام ١٩٧٧ اعتراضًا على القرار واعتراضًا على موجة الغلاء فيما عرفت بمظاهرات الخبز، في حين نعتها السادات بـ "انتفاضة الحرامية"، فلم يصدق أن ثمة مظاهرات شعبية خرجت تهتف ضده هو...ضد بطل العبور!

وفيما يبدو أن السادات قد استغل الأحداث للتخلص من اليسار والانقلاب على الخط الديمقراطي الذي بدأه، ولقد برأت المحكمة اليسار من ضلوعه في الأحداث، ولم يعرف أحد حتى الآن من وراء حوادث التدمير في أحداث ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧[(٢)].

ومن المدهش والمحبط في نفس الوقت أن الرسوم الكاريكاتورية التي تناولت الانهيار الاقتصادي وتدني متوسط دخل الفرد في تلك الفترة مازالت صالحة للنشر حتى الآن وهذا ليس "بناءً على رغبة الجماهير" وإنما لأنها لسان حال المواطن المصري الذي لم يتحسن إن لم يكن ازداد سوءًا.

وأصبحت الرسوم "تنفض" جيب المواطن المصري أول بأول أو "تخرمه" وتعلن إفلاسه، كما تركز على "اللحمة" لتحقيق أمل محدودي الدخل في رؤيتها ولو حتى على الورق. وأصبح الجزار العدو اللدود الأول للمحرومين من اللحمة من محدودي الدخل.

---

(١) ديريك هوبوود:

Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990 (3rd ed). London: Rout ledge.

(٢) د. عبد العظيم رمضان، "الصراع الاجتماعي والسياسي في عصر مبارك"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص: ٣٦٨.

إلا أن بعض الجزارين أبدوا تعاطفًا لعشاق اللحمة من غير القادرين بالسماح لهم بتقبيلها كما في كاريكاتير لصلاح الليثي (شكل ١٦٢) تحت عنوان "للجوع العاطفي!"، وفيه الجزار واقفًا خلف "فخذة" معلقة مسعرة بـ"١٢٠ قرشًا" للكيلو وملطخة بالشفايف.

وفي كاريكاتير آخر، يظهر سعر اللحمة وكلمة "مرحبًا" باللغة الإنجليزية في إشارة إلى أن الجزارين أصبحوا يستهدفون زبائنهم من السائحين القادرين بدلًا من المصريين المعدومين. وسجل الليثي سعر اللحمة هذه المرة بـ"١٤٠ قرشًا" وقد تكون الزيادة هنا فرق عملة!!!



جزار — .. للجوع العاطفي .. !!

شكل ١٦٢: اللحمة ١!

(روزاليوسف، ١ يوليو ١٩٧٤)



للاجانب .. والسواح !

شكل ١٦٣: اللحمة ٢!

(روزاليوسف، ١ يوليو ١٩٧٤)

تمتاز ريشة صلاح الليثي بنمطها الفريد. فهو يعتمد على التلخيص الجيد للشخصيات في شكل خطوط أكثر منها مساحات لونية مما يجعل رسومه أقرب للإسكتشات في بساطتها، والحق أنها تضيف متعة حقيقية وأنت تشاهدها.

وربط رؤوف عياد بين الانفتاح والتضخم عندما رسم مريضًا وهو يعاني من انتفاخ في بطنه يخاطب طبيبه قائلًا: "تضخم إيه يا دكتور..ده اسمه انفتاح على الأكل!!" وفي كاريكاتير آخر، رسم رؤوف رجلًا يخير زوجته ما بين الذهاب للمصيف أو شراء أحذية لأولادهما في إشارة لارتفاع الأسعار بشكل كبير.



شكل ١٦٤: التضخم!

(روزاليوسف، ١ إبريل ١٩٧٤)



شكل ١٦٥: الأسعار!

(روزاليوسف، ١ يوليو ١٩٧٤)

مباحثات كامب ديفيد للسلام ١٩٧٨-١٩٧٩:

كما فاجأ السادات العالم بالعبور، فاجأهم بزيارته للقدس عام ١٩٧٧ وإلقاء خطابه الشهير بالكنيست ليدخل في مفاوضات سلام مع إسرائيل انتهت بتوقيعهما على اتفاقية كامب ديفيد في عام ١٩٧٩، مما تسبب في عزل مصر عربيًا وإصابة العديد من المصريين بأمراض الاكتئاب. بعد حوالي ثلاثين عامًا من الصراع العربي الإسرائيلي، غيرت مبادرة السلام مع إسرائيل الخريطة السياسية في المنطقة وزادت شعبية السادات في الدول الغربية خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان للسادات رؤيته الخاصة وكانت سياسته تقوم على الفردية المطلقة في الحكم فلا اعتبار لديه لمعارضيه. ويؤمن من ناصروا الاتفاقية أنها قد جنبت مصر مكابد الدخول في حروب أخرى وكانت السبب في رجوع سيناء كاملة تحت السيادة المصرية وأعطت لمصر فرصة للتركيز على دفع عجلة التنمية الداخلية واللحاق بزمام الدول المتقدمة (وإن لم يحدث). ويرى آخرون بأن هذا القرار كان بمثابة تحقيق حلم بعيد المنال لكل من أمريكا وإسرائيل في عزل مصر عربيًا وبالتالي تتفرغ إسرائيل لتطوير بنيتها الداخلية لتلحق بزمام الدول الصناعية الكبرى (وقد حدث).

شهدت هذه الفترة توترًا ملحوظًا على الصعيد الداخلي. فلم يسمح بأي متنفس لمعارضي السادات على الساحة الإعلامية. وانقسم رسامو الكاريكاتير كغيرهم حول مباحثات السلام، فقد كان أغلبهم ضد المباحثات ولكنهم لم يستطيعوا أن يعبروا عن رفضهم بسبب الرقابة الصارمة وغياب قنوات للتعبير. نتيجة لذلك، توقف بعض الرسامين عن الرسم، بينما اتجه البعض الآخر إلى رسوم الأطفال، وهناك من فضل الابتعاد تمامًا والهجرة[(١)]. فقط فئة قليلة كانوا ممن أيدوا مباحثات السلام، وعلى رأسهم ناجي كامل الذي أعرب لي شخصيًا بأنه رسم مع المعاهدة في ذلك الوقت من قبل قناعاته الشخصية الكاملة ولم يرغمه أحد على ذلك، فقد كان ومازال من أشد المؤيدين للسادات وسياساته[(٢)].

---

(١) رانيا صالح:
Rania M.R. Saleh. (2007, Fall). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art, 2007, 9(2), 187-225.

(٢) رانيا صالح:
Rania Saleh. (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo.

كما رسم صلاح جاهين عن مباحثات السلام بعد أن أضاف لها نكهة السخرية من تعنت الجانب الإسرائيلي. ففي إحدى الرسوم، الرئيس الأمريكي جيمي كارتر يخاطب السادات قائلًا: "يا أخي مع أن اللغة العربية والعبرية من أصل واحد ...العربي بيتفهم بسهولة أكثر"، في إشارة إلى أن مصر تبدي تعاونًا أكثر في دفع عملية السلام.



شكل ١٦٦: مباحثات السلام!
(الأهرام، ٩مارس ١٩٧٩)

وكان الرسام جورج بهجوري من أشد المعارضين لمباحثات السلام، ولم يجد قناة شرعية للتعبير عن رفضه إلا خارج مصر. فصور السادات مفلسًا لا يملك إلا جيبين خاويين، رمز لأحدهما "بكامب" والآخر "بدافيد"، كما صور السادات في هيئة شارلي شابلن على المسرح السياسي يقوم بدور مهرج. وأخيرًا رسم بهجوري نفسه يسكب حبرًا على صحيفة يظهر على صفحتها الرئيسية خبر زيارة السادات للقدس.



شكل ١٦٧: السادات !!
(بهجوري، ١٩٨٦)[١]

(١) جورج بهجوري، "الرسوم الممنوعة"، دار العالم الثالث، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.



شكل ١٦٨: السادات ٢!
(بهجوري، ١٩٨٦)[١]



شكل ١٦٩: زيارة السادات للقدس!
(بهجوري، ١٩٨٦)[٢]

---

(١) جورج بهجوري، المرجع السابق.
(٢) جورج بهجوري، المرجع السابق.

وفي عام ١٩٧٨ ومن أجل جهودهما في دفع عملية السلام، حصل كل من الرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين على جائزة نوبل للسلام. ولهذه المناسبة رسم كمال ملاك السلام وهي تقلد السادات ميدالية للسلام.



شكل ١٧٠: جائزة نوبل للسلام!

(روزاليوسف، ١٨ ديسمبر ١٩٧٨)

تم توقيع معاهدة السلام في ٢٦ مارس ١٩٧٩، والتي من بنودها إخلاء سيناء من الإسرائيليين في غضون ثلاث سنوات من تاريخ المعاهدة وتأسيس علاقات دبلوماسية وتجارية مع إسرائيل وتأمين مرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس[1].



شكل ١٧١: توقيع إتفاقية السلام في واشنطن!

"التاريخ: اكتب يا ابني بحروف من نور..ستة وعشرين مارس ١٩٧٩!"

(الأهرام، ٢٧ مارس ١٩٧٩)

(١) ديريك هوبوود: المرجع السابق.

انخفضت بشكل كبير شعبية السادات في مصر والدول العربية التي نعتته واتهمته بالخيانة وإتمام معاهدة منفصلة مع إسرائيل وتجاهل القضية الفلسطينية. ونتيجة لذلك، قطعت الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، وطردتها من جامعة الدول العربية. ونقد ناجي سياسات هذه الدول في رسومه، فرسم أب ينصح ابنه "الزنان" بعدم البكاء حتى لا يشبه "دول الرفض". وفي كاريكاتير آخر، أوضح بأن سياسات "دول الرفض" هي التي ستدفع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (يمثل فلسطين) إلى الهاوية. وصور صلاح جاهين التناقض الرهيب بين سياسات بعض الدول العربية المعلنة وحقيقة ما ترغب فيه وتسعى إليه في الخفاء، ففي الوقت الذي يدين فيه الرئيس السوري حافظ الأسد المعاهدة، يتمنى في قرارة نفسه معاهدة مثلها.



شكل ١٧٢: دول الرفض ١!

(صباح الخير، ٥ إبريل ١٩٧٩)



شكل ١٧٣: دول الرفض ٢!

(صباح الخير، ٥ إبريل ١٩٧٩)

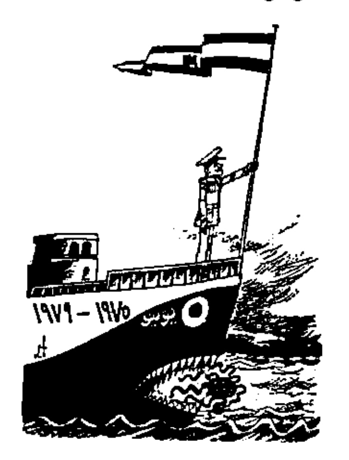

شكل ١٧٤: دول الرفض ٣!

"أجهزة الرفض تفتح ميكروفوناتها على معاهدة السلام"

" إننا نشجب..وندين..ونستنكر معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية وعايزين واحدة زيها!"

(الأهرام، ٢٠ مارس ١٩٧٩)

وفي ذكرى النكسة، رسم ناجي كامل مؤيدًا لسياسات السادات، فصور السادات وهو يقود سفينة عملاقة على شكل سمكة قرش (تمثل اتفاقيات السلام ١٩٧٥-١٩٧٩) وقد ابتلعت أخطبوطًا (نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧).



شكل ١٧٥: ذكرى النكسة!

(صباح الخير، ٧ يونيو ١٩٧٩)

وبعد مرور حوالي ثلاثين عامًا على الاتفاقية، أقر بعض الرسامين (الذين كانوا ضدها وقتها) أن رؤيتهم لها الآن قد اختلفت، فقد أدركوا بأن قرار السادات كان حكيمًا وقد جنب مصر بالفعل الكثير من الخسائر سواء على الصعيد العسكري أو الاقتصادي[1].

اغتيال السادات ١٩٨١:

يأتي يوم ٦ أكتوبر حاملًا معه ذكرى العبور الذي ذاق بسببه المصريون حلاوة النصر، والذي برهن على قدرة المصريين على القتال بعد نجاحهم في اختراق أقوى حاجز دفاعي (خط بارليف) الذي أقامته إسرائيل في قناة السويس، والذي بسببه لقب السادات ببطل العبور. ولكن لا يمكن أن نتغافل أن يوم ٦ أكتوبر هو أيضًا نفس اليوم الذي شهد مصرع بطل العبور برصاص الغدر أثناء احتفاله بالذكرى الثامنة للنصر عام ١٩٨١ على يد الملازم أول خالد الإسلامبولي وآخرين متمين لجماعة الجهاد التي أعلنت مسؤوليتها عن الحادث.

كان حادث الاغتيال على المستوى الإنساني والسياسي فجيعة هزت العالم كله وتصدر الصحف ووكالات الأنباء المحلية والعالمية. فنهاية بطل العبور المأساوية كانت محط أنظار كل القنوات الإخبارية.

حدثت واقعة الاغتيال في وقت كانت مصر تعاني فيه من عزلة عربية ومن تدهور اقتصادي وانعدام لحرية التعبير، والتي بلغت ذروتها مع الاعتقالات الجماعية لمعارضي السادات في سبتمبر ١٩٨١.

ونعتت معظم الدول العربية والغربية فقيد مصر، كما نعى أيضا الرسامون رئيسهم الراحل ويكوه. صور مصطفى حسين مصر على هيئة امرأة تتساقط دموعها ويدمي قلبها وهي تحمل السادات وقد أسلم الروح وفي إحدى يديه غصن زيتون. ورسم صلاح جاهين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يرحب بأنور السادات وهما فوق السحاب في هيئة ملائكية. ورسم ناجي كامل حمامة السلام تبكي السادات، بينما يؤكد مصطفى حسين أن السادات لم يمت لأن كل المصريين "السادات".

(١) رانيا صالح:

Rania Saleh. (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo.



شكل ١٧٦: اغتيال السادات ١!

(صباح الخير، ١٥ أكتوبر ١٩٨١)



شكل ١٧٧: اغتيال السادات ٢!

(الأهرام، ٧ أكتوبر ١٩٨١)



شكل ١٧٨ اغتيال السادات ٣!

(صباح الخير، ١٥ أكتوبر ١٩٨١)



شكل ١٧٩: اغتيال السادات ٤!

(صباح الخير، ١٥ أكتوبر ١٩٨١)

وعلى الصعيد الآخر، ظهرت ملامح التشفي من قبل بعض الدول العربية، فقد أظهروا فرحهم وسرورهم بخبر اغتياله. وتعليقًا على هذا رسم صلاح جاهين كل من الرئيس الليبي معمر القذافي والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وهما يرقصان فرحًا تغمرهما السعادة بعد معرفتهما بالحادث الأليم، ويقف أمامهما شخصية صلاح جاهين الكاريكاتورية "درش" يخاطبهما قائلًا: "أمور يضحك السفهاء منها..ويبكي من عواقبها اللبيب".



شكل ١٨٠: اغتيال السادات ٥!

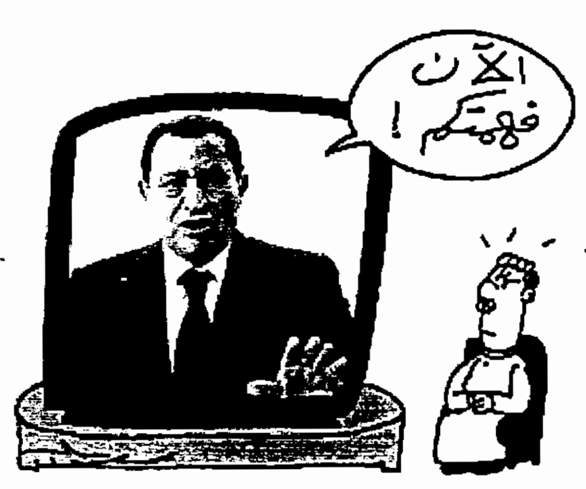
"أمور يضحك السفهاء منها..ويبكي من عواقبها اللبيب!"

(الأهرام، ٩ أكتوبر ١٩٨١)

الفصل الخامس

ملامح الكاريكاتير السياسي
في فترة مبارك
(١٩٨١ - ٢٠١١)





الفصل الخامس
ملامح الكاريكاتير السياسي في فترة مبارك
(١٩٨١ - ٢٠١١)

لم تتغير كثيرًا القضايا التي شغلت الرأي العام في فترة مبارك عن مثيلاتها في الفترات السابقة، فقد عانت مصر من تدني في متوسط دخل الفرد وارتفاع الأسعار واستشراء الفساد وتجمد في الحياة السياسية وارتفاع في معدلات البطالة وتدهور في مستوى التعليم. وقد تعددت القضايا الخارجية التي شغلت الرأي العام المصري، إلا أن الصراع العربي الإسرائيلي احتفظ بموقعه على رأس القضايا الخارجية التي تقع في محور اهتمام الناس وتشغل بالهم، كما اعتبر غزو الولايات المتحدة للعراق من أهم القضايا التي شهدتها الألفية الثالثة والتي أثارت الرأي العام المحلي والعالمي وأثارت جدلًا واسعًا بين الأوساط السياسية خاصة بعد سقوط بغداد.

ويلاحظ أن كل القضايا السابقة ليست بجديدة على الساحة الكاريكاتورية فيما عدا غزو العراق، فقد حلت ضيفًا ثقيلًا على الكاريكاتير. ولعل هذا يفسر سبب إمكانية إعادة نشر رسوم قديمة لأحمد حجازي أو لصلاح جاهين والتي تتناول نفس القضايا التي نناقشها اليوم. ويعتقد الرسام ناجي كامل بأن هذا أيضًا يفسر حالة الكآبة التي مني بها عدد كبير من رسامي الكاريكاتير من جراء تناول نفس المشاكل والقضايا في رسومهم مرارًا وتكرارًا ولا يجدوا لصدى رسومهم أي تغيير حقيقي. كما يرى بعض المقربين من الرسام حجازي أن هذا هو السبب وراء اعتزاله الرسم ومغادرته القاهرة قاصدًا مسقط رأسه طنطا بلا عودة[١].

إلا أن السنوات الأخيرة من حكم مبارك شهدت تفاقمًا وبشكل مبالغ في درجة الفساد المالي والإداري والسياسي وساعد على ذلك التزاوج الذي حدث وبشكل غير مسبوق بين السلطة والمال من خلال تشكيل وزارة من رجال الأعمال ساعدت على العبث بمدخرات البلد والتلاعب بثرواتها في مقابل تنفيذ خريطة طريق لتوريث جمال مبارك الابن السلطة مع الانتخابات الرئاسية التي كان مقررًا أن يكون موعدها في سبتمبر ٢٠١١.

---

(١) رانيا صالح:
Saleh, Rania (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo (AUC).

ومع ارتفاع حالة التأهب والاستعداد لعمل بخريطة التوريث، أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد اشتعلت ثورة الغضب المصرية أو ثورة ٢٥ يناير البيضاء التي ألهمت العالم والتي قضت على حكم ٣٠ عامًا لمبارك وقضت بالتالي على أي حلم في التوريث. وتصور الرسامون بأن فرشتهم قد انتصرت أخيرًا بعد صراع طويل ضد الفساد والظلم الاجتماعي وأنها قد نالها أخيرًا نسيم الحرية لتتحرر من أي قيود، فرحبت بالثورة وركزت على ضرورة محاكمة رموز النظام البائد وعلى رأسهم رأس النظام حسني مبارك شخصيًا، إلا أنها واجهت بعض التحديات عند تناولها بعض قضايا ما بعد الثورة كما سيتم مناقشتها لاحقًا في الفصل السادس!

فيما يلي، سيتم مناقشة أشهر القضايا الخارجية التي اهتم بها الكاريكاتير في فترة مبارك ومن ثم مناقشة القضايا الداخلية التي شغلت لب وبال الرسامين، مع الإشارة إلى أوراق التوت التي سقطت تباعًا عن نظام مبارك والتي أدت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى انفجار ثورة الغضب المصرية.

القضايا الخارجية:

سنناقش هنا أهم قضيتين على الإطلاق شغلتا الرأي العام لفترة طويلة. القضية الأولى هي قضية الصراع العربي الإسرائيلي، التي كانت دائمًا على رأس القضايا الخارجية التي تناولها الرسامون في الكاريكاتير، واهتموا بإبراز تجاوزات إسرائيل وانتهاكاتها لحقوق المواطنين الفلسطينيين وتعنتها وإصرارها على المضي قدمًا في بناء المستوطنات غير الشرعية، في ظل مساندة من الولايات المتحدة التي تكيل بمكيالين فيما يخص القضية، واستخدامها لحق الفيتو مرارًا وتكرارًا ضد مشاريع قرارات تدين إسرائيل فيما يشكل أكبر عائقًا أمام عملية السلام.

ونالت قضية غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق حظًا وفيرًا من الاهتمام الكاريكاتوري الذي تابع تحولات السياسة الأمريكية تجاه العراق من قبل غزو العراق للكويت وحتى ما بعد سقوط بغداد، والتي أثارت جدلًا واسعًا في الأوساط الدولية حول مدى مشروعية الحرب على العراق وحول الأهداف الحقيقية من وراء الغزو، كما قوبلت بقلق دولي شديد عقب احتلال الولايات المتحدة للعراق وما ترتب عليه من نتائج من شأنها تهديد وحدة العراق وسيادته.

ومن الملاحظ من هذه القضيتين تبعية مصر للولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بالشأن الخارجي إلى الدرجة التي أصابت الشارع المصري بالإحباط والاستنفار خاصة فيما يتعلق بقضية حصار غزة وموقف النظام من غزو واحتلال العراق.

الصراع العربي الإسرائيلي:

تعود جذور الصراع العربي الإسرائيلي إلى وعد بلفور عام ١٩١٧، ثم قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ والذي تبعه إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨ والذي نتج عنه حرب ١٩٤٨ لطرد المستوطنين اليهود من فلسطين، كما تم الإشارة إليه سابقًا (يمكن الرجوع إلى "حرب فلسطين ١٩٤٨").

وعلى الرغم من الانتصار في حرب ١٩٧٣ واتفاقيات كامب ديفيد التي وضعت نهاية لحرب مصر مع إسرائيل، لم ينس المصريون سلسلة الهزائم العربية وضياع أرض وحقوق الفلسطينيين، وبالتالي تبنوا القضية الفلسطينية كمشكلة خاصة بهم. ولعله السبب في أن معظم الرسوم الكاريكاتورية التي تتناول القضايا الخارجية هي عن معاناة الفلسطينيين ونضالهم من أجل إقامة دولتهم المستقلة. هذه الرسوم كما يراها الرسام عمرو عكاشة تعتبر ميزان حرارة للوكالات الإخبارية الدولية لقياس الرأي العام في مصر[(١)].

ودائمًا ما تزداد حدة الرسوم الكاريكاتورية ويكثر عددها تفاعلًا مع كل خبر عن انتهاكات إسرائيلية في الأراضي المحتلة أو بعد كل تصريح لمسؤولين إسرائيليين مثيرًا للجدل مسببًا ردود أفعال غاضبة. ومازال أغلب الرسامين حتى وإن رسموا لدعم عملية السلام يرون في الصهيونية التي تقوم عليها الدولة الإسرائيلية فكرة عنصرية مقلقة، كما أنهم ليس لديهم أي ثقة في أن إسرائيل تريد بالفعل إنجاح عملية السلام أو أنها تريد للفلسطينيين دولة مستقلة، وبالتالي يعتقد البعض بأن الجري وراء مساعي السلام إنما هو كالجري وراء سراب.

وبالرغم من الجهود التي تبذلها الولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي وروسيا لإنعاش عملية السلام في الشرق الأوسط، فإن النتائج لا تكون أبدًا مرضية. وتم إجراء العديد من المفاوضات وتوقيع العديد من الاتفاقيات كمحاولة لتحقيق السلام في الشرق الأوسط، وعلى رأسها اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ومعاهدة السلام ١٩٧٩ وعمليات السلام في أوسلو عام ١٩٩٣ وأوسلو الثانية عام ١٩٩٥ واتفاق غزة أريحا

(١) عمرو عكاشة، مقابلة شخصية، مايو ٢٠٠٣.

عام ١٩٩٤ واتفاق وادي عربة عام ١٩٩٤ واتفاق واي ريفر ١ عام ١٩٩٨ واتفاق واي ريفر ٢ عام ١٩٩٩. وكثيرًا ما يشار إلى اتفاقيات السلام في الكاريكاتير بشواهد القبر، في إشارة إلى عمر الاتفاقيات القصير التي ما تلبث أن تفارق الحياة بعد التوقيع عليها.



شكل ١٨١: حول مؤتمر دولي في جنيف للقضية الفلسطينية!

ملاك السلام يرفض استقبال "الإرهاب – الصهيونية – الخلافات العربية"

ملاك السلام: "ليس لكم مكان هنا"

(صباح الخير، ١٨ سبتمبر ١٩٨٦)

يقارن سعد الدين شحاتة بين وضع إسرائيل وفلسطين بعد مرور عشر سنوات على اتفاق أوسلو، فصور شخص صهيوني وقد قام بقلي حرفي الواو أو O (بيض) في OSLO، واستعد لالتهامها، في إشارة إلى الرخاء الذي ناله من جراء الاتفاقية، في حين بقي للفلسطيني قشر البيض. نلاحظ أن شحاتة جعل في "طاسة" الصهيوني "أوسلو" باللغة الإنجليزية بينما ترك في "طاسة" الفلسطيني "أوسلو" باللغة العربية، في إشارة إلى الراعي لكل منهما، أمريكا والجامعة العربية.



شكل ١٨٢: ١٠ سنوات على إتفاق أوسلو!
(الأهرام العربي، ١٨ أكتوبر ٢٠٠٣)

ويعتقد الرسام أحمد طوغان (٣ مايو ١٩٩٨) أن تعنت إسرائيل ومناوراتها حول اتفاقيات السلام هو السبب في أن فقدت عملية السلام طريقها وأصبحت تدور في حلقة مفرغة، وأكبر دليل على ذلك أن حلقات "مسلسل" تحقيق السلام في الشرق الأوسط أصبحت مكررة ومعادة وعديمة الفائدة (انظر الشكل التالي).



شكل ١٨٣: عملية السلام!
(طوغان[1]، ٢٠٠١)

(١) أحمد طوغان، "يوميات الكاريكاتير في قضية فلسطين (١٩٩٧ – ٢٠٠٢)"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١، ص: ٨٤.

كما يرى طوغان أن سياسة إسرائيل على أرض الواقع تكشف عن عدم صدق نواياها تجاه عملية السلام. فبمناسبة تجميد اتفاق واي ريفر عام ١٩٩٨، الذي وقع عليه كل من نتنياهو وياسر عرفات وبحضور كل من الملك حسين ملك الأردن والرئيس الأمريكي بيل كلينتون، والذي كان يقضي بانسحاب إسرائيل من بعض مناطق الضفة الغربية وتوطيد العلاقات الاقتصادية مع السلطة الفلسطينية، صور طوغان (١٥ نوفمبر ١٩٩٨) كل من شارون ونتنياهو في هيئة أفراد من قبيلة لآكلي لحوم البشر وهما يدوران ابتهاجًا حول فتاة (رمز واي ريفر) يقومان بسلقها في قدر من الماء يغلي على النار[١]!

ويعتقد أغلب الرسامين بأن عملية السلام لم تشهد تقدمًا ملحوظًا على أرض الواقع نتيجة للسياسات القمعية التي تتبناها أغلب الحكومات الإسرائيلية المتلاحقة في الفترة السابقة، والتي مارست انتهاكات وتجاوزات اتسمت بالدموية في حق الشعب الفلسطيني الأعزل. وعادة ما تشير الرسوم للتجاوزات والانتهاكات الإسرائيلية بتصوير رئيس وزراء إسرائيل أو بتصوير جندي إسرائيلي وأيديهم ملطخة بالدماء أو بتصويرهم وهم يرتكبون مذابح ضد مدنيين بدم بارد.

رسم جمعة فرحات في فترة تولي نتنياهو للحكومة الإسرائيلية، أشهر رؤساء وزراء إسرائيل والمذابح التي ارتكبوها، فأشار إلى بن جوريون ومذبحة كفر قاسم، وجولدا مائير ومذبحة بحر البقر (المصرية)، ومناحم بيجن ومذبحة صبرا وشاتيلا، وإسحاق شامير ومذبحة دير ياسين، وإسحق رابين ومذبحة الأسرى المصريين، وشيمون بريز ومذبحة قانا، وبنيامين نتنياهو وفي انتظار للمذبحة التي سيرتكبها.



شكل ١٨٤: رؤساء وزراء إسرائيل!
(النصف الآخر[١]، ٩ نوفمبر ٢٠٠٣)

(١) أحمد طوغان، المرجع السابق، ص: ١٣٧.
(٢) جيهان لطفي، جمعة فرحات: رسام الكاريكاتير مؤسسة قائمة بذاتها، "نصف الدنيا"، "النصف الآخر"، ٩ نوفمبر ٢٠٠٣، ص: ١٢١.

وربط بعض الرسامين بين الانتهاكات الإسرائيلية في حق الشعب الفلسطيني والانتهاكات النازية في حق اليهود، التي تستخدمها إسرائيل ذريعة لتبرير حقها في إقامة دولة. وبالتالي فكثيرًا ما يظهر العلم الإسرائيلي أو نجمة داوود في الرسوم الكاريكاتورية وقد توسطها الصليب المعقوف رمز النازية، أو يظهر رئيس وزراء إسرائيلي وهو يصافح الزعيم النازي أدولف هتلر وهما واقفان على أنقاض مبان وجثث، في إشارة إلى أن الأسلوب الذي مارسه هتلر ضد اليهود من تمييز وتعذيب وترويع وقتل واغتصاب لممتلكاتهم هو نفسه الأسلوب الذي تمارسه الحكومة الإسرائيلية في حق الفلسطينيين.

رسم ناجي كامل في الأهرام (٢٣ مايو ١٩٩٨) في أربعة مشاهد تحويرًا لنجمة داوود وصولًا بها لشكل الصليب المعقوف رمز النازية. كما شبه مصطفى حسين (٣ أكتوبر ٢٠٠٠) سياسات إيهود باراك في الأراضي الفلسطينية المحتلة بسياسات النازي أدولف هتلر الدموية.



شكل ١٨٥: سياسة إسرائيل في الشرق الأوسط!

(الأخبار، ٣ أكتوبر ٢٠٠٠)

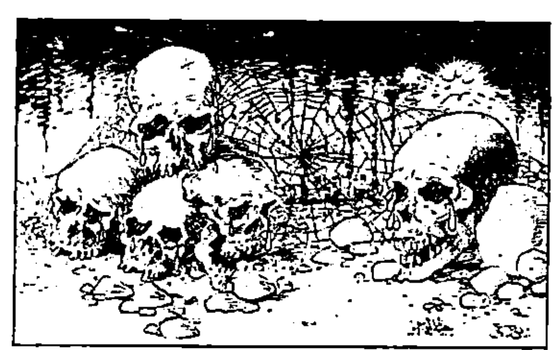
وكان لرئيس الوزراء أرييل شارون نصيب الأسد من الرسوم الكاريكاتورية المناهضة لسياساته، فقد شهدت عملية السلام انتكاسة في ظل حكومته، ورجوعها مرة أخرى إلى نقطة الصفر. ولم يكتف شارون بهذا، بل أدت تصرفاته الاستفزازية والتي منها دخوله للمسجد الأقصى متحصنًا بحراسه إلى إشعال الانتفاضة الثانية أو كما تسمى "انتفاضة الأقصى". كما استفز شارون العالم العربي بحصاره المفروض على الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات داخل مقره بمدينة رام الله بالضفة الغربية.

صور طوغان شارون وهو متحصنًا بسياسات وممارسات راعية للعنصرية والإرهاب وأسلحة الدمار الشامل والمستوطنات غير الشرعية، والتي تسببت في انتكاسة عملية السلام. ويصف عبد الحليم البرجيني ببلاغة كيف وصلت معاناة الفلسطينيين في نضالهم من أجل استقلالهم إلى درجة أن الأموات يرثوا لحالهم.



شكل ١٨٦: سياسة شارون وممارساته ضد عملية السلام!

(صباح الخير، ١٨ فبراير ٢٠٠٣)



• في فلسطين .. حيث يبكي الموتى على الأحياء ! •

شكل ١٨٧: معناة الفلسطينين!

"في فلسطين..حيث يبكي الموتى على الأحياء!"

(كاريكاتير، ١٥ يونيو ٢٠٠١)

ومن المثير للسخرية، أنه في ظل ممارسات شارون الاستفزازية، وصفه الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في إبريل ٢٠٠٢ بـ "رجل سلام" لأخذه خطوات لإنهاء الهجمات العسكرية الإسرائيلية، مع أن شارون قد رفض طلب الرئيس الأمريكي بالانسحاب الفوري من الأراضي الفلسطينية[١]. استفز هذا الوصف الرأي العام المصري والعربي، فأهداف شارون الاستيطانية واضحة، هذا علاوة إلى اعترافه بتورطه في مجازر مخيمي صبرا وشاتيلا ومذبحة جنين وتدمير المدينة القديمة لنابلس وغيرهم[٢]. ولهذه المناسبة، رسم البرجيني إسرائيل على هيئة ذئب متنكر في هيئة "حمل وديع".



بوش يصف شارون بأنه « رجل سلام » (!!)

شكل ١٨٨: حقيقة إسرائيل!!

بوش يصف شارون بأنه "رجل سلام" !!

(كاريكاتير، ٢ يوليو ٢٠٠٢)

ولعبت الولايات المتحدة دور الوسيط لدفع عملية السلام في المنطقة منذ اتفاقيات كامب ديفيد، في الوقت الذي لا تخفي سياستها المنحازة لإسرائيل ودعمها المالي والعسكري لها. ويعكس مصطفى حسين (انظر الشكل التالي) ذلك المفهوم في كاريكاتير يصور فيه الصراع غير متوازن بين الإسرائيلي المدجج بالسلاح الأمريكي والمواطن الفلسطيني الأعزل الذي يرشق بالحجارة.

(١) بيتر سليفن ومايك آلين:
Peter Slevin & Mike Allen. (2002). Bush: Sharon A 'Man Of Peace': Israel 'Responded' To Call for Pullout. Washington Post. Retrieved January 21, 2004, from: http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A12206-2002Apr18?language=printer

(٢) حسن أبو طالب:
Hasan Abu Talib. (2002). Man of peace? Opinion. Al-Ahram Weekly. Issue 583. p.21.

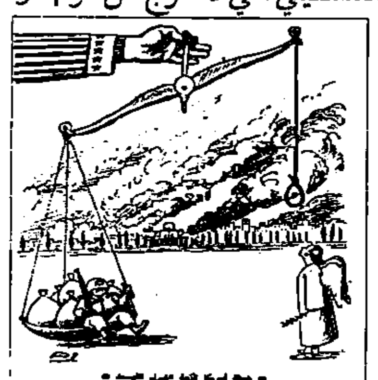


شكل ١٨٩: صفقة أسلحة أمريكية لإسرائيل!

شارون: "إبعت كل اللي تقدر عليه يا مستر بريزيدنت عشان أقدر أواجه الإرهابي الجبار ده"

(كاريكاتير، ٣ يوليو ٢٠٠٣)

وتتعرض الولايات المتحدة الأمريكية للنقد لاستخدامها حق الفيتو لصالح الكيان الصهيوني، الذي يعكس انحيازها الأعمى لإسرائيل بصرف النظر عن المواقف التي تتبناها بقية دول العالم. وتوقع زهدي العدوي بأن سياسة أمريكا هذه في الشرق الأوسط ستؤدي حتمًا إلى اغتيال عملية السلام نهائيًا. ويكشف عمرو عكاشة، في رسوم لا تحتاج إلى تعليق، مدى نفوذ اللوبي الصهيوني وتأثيره في سياسة الولايات المتحدة الخارجية ومدى سيطرته على الفيتو الأمريكي لضمان تحقيق مصالحه. ويصف طوغان علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل بعلاقة "عم سام" بذئب ما إن استأنسه حتى انقلب ضده. ورسم عفت عن الوعود الأمريكية للشعب الفلسطيني التي لا تخرج عن كونها أوهامًا غير حقيقية.



شكل ١٩٠: خطة أمريكا لأزمة الشرق الأوسط!

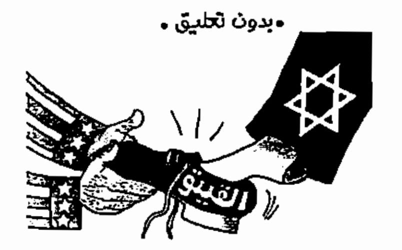
(صباح الخير، ٢٣ مارس ١٩٨٩)



شكل ١٩١: علاقة الفيتو الأمريكي بالكيان الصهيوني ١!

(الوفد، ٣١ مارس ٢٠٠١)

•بدون تعليق •



شكل ١٩٢: علاقة الفيتو الأمريكي بالكيان الصهيوني ٢!

(الوفد، ٢٠٠٣)



شكل ١٩٣: إسرائيل والعم سام!

(طوغان[1]، ٢٠٠١)

(١) أحمد طوغان، "يوميات الكاريكاتير في قضية فلسطين (١٩٩٧ – ٢٠٠٢)"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١، ص: ١٠٣.



شكل ١٩٤: الوعود الأمريكية!
(النصف الآخر[1]، ٩ نوفمبر ٢٠٠٣)

يعتقد بعض الرسامين أن طبيعة العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة لا تعدو عن كونها مصلحة ولا ترتقي لدرجة الصداقة بأي حال من الأحوال. كما يؤمنون بأن إسرائيل كثيرًا ما تكون وراء تورط أمريكا في مشاكل عدة، لتحقيق أهداف لها. يرى إسماعيل دياب بأن إسرائيل لا تجلب غير المشاكل، وأن وجودها في المنطقة قد تسبب في ازدياد موجة العنف في الشرق الأوسط. يصور دياب (٢٠٠٢) الشرق الأوسط على هيئة قنبلة تحاول إسرائيل إشعالها مع أنها هي والولايات المتحدة مقيدين بها، في إشارة إلى أن مصير إسرائيل والولايات المتحدة واحد، وبالتالي ما تفعله إسرائيل من ممارسات ينعكس بالسلب على الولايات المتحدة.

ويعتقد بعض الرسامين بأن إسرائيل حاولت الاستفادة من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والترويج الأمريكي لحربها على الإرهاب بزج مصطلح "الإرهاب" على حركة المقاومة الإسلامية (حماس). وذهب بعض الرسامين إلى أبعد من ذلك بتساؤلهم ما إن كان لإسرائيل دور في أحداث سبتمبر، فرسم طوغان شخصًا يحمل صحيفة يتصدرها عنوان "الإرهاب يحرق أمريكا!"، ويقول لزميل له متسائلًا: "تفتكر مين اللي يقدر يعمل كده؟!!" ليرد عليه الآخر: "الله أعلم..بس انت فاكر في عهد نيتنياهو لما أمريكا زرجنت شويه..قال "إيه أمريكا دي..ده أنا أقدر أحرقها"!![2]"

وصور جورج بهجوري بأسلوبه الحديث (ينال قبولًا كبيرًا في الغرب) دبلوماسية وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس وهي تقابل عددًا من السياسيين الفلسطينيين من غير أن تكشف لهم عن وجهها الحقيقي وموقفها الحقيقي من قضيتهم. يعتقد بهجوري أن

(١) جيهان لطفي، المرجع السابق، ص: ١٩٢.
(٢) أحمد طوغان، المرجع السابق، ص: ٣١٧.

لرايس أكثر من قناع، ففي الوقت الذي تقابل بابتسامة واسعة كل من الرئيس الفلسطيني محمود عباس وياسر عبد ربه ونبيل شعث، تنفذ سياسة حكومتها التي تعكس خلاف هذه الابتسامة. ومن ضمن سلسلته "خط واحد" بصحيفة "الأهرام"، رسم بهجوري منتقدًا مباحثات السلام التي أقيمت في شرم الشيخ، فرسم الرئيس الفلسطيني محمود عباس "أبو مازن" ورئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو يتصافحان في حضور كل من وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كليتون والمبعوث الرئاسي الأمريكي للسلام في الشرق الأوسط جورج ميتشيل، ورسم نفسه معلقًا: "السلام..يعني يسلموا على بعض..ويعدين مش مهم يعملوا أي حاجة!"



شكل ١٩٥: كونداليزا رايس وقناعها المزيف!

(الأهرام ويكلي، ٣-٩ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ١٩٦: مباحثات السلام في شرم الشيخ!

بهجوري: "السلام..يعني يسلموا على بعض..ويعدين مش مهم يعملوا أي حاجة!"

(الأهرام، ٢٠ سبتمبر ٢٠١٠)

ويلاحظ أن دور الأمم المتحدة أصبح مهمشًا وتم التقليل من شأنه بعد أن تجاهلت إسرائيل قراراتها حول فلسطين والقدس وحق العودة وحق تقرير المصير، وضربت بها عرض الحائط. ويبدا واضحًا سيطرة الولايات المتحدة على الأمم المتحدة وعلى سير قراراتها، ويتجلى هذا التصور في كاريكاتير مبدع لسعد الدين شحاته (الشكل التالي).



شكل ١٩٧: علاقة الولايات المتحدة بالأمم المتحدة!
(الأهرام الاقتصادي، ١٩٩٤)

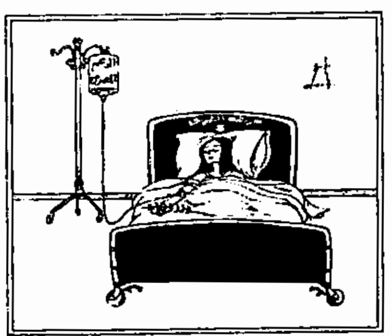
كما شبه ناجي كامل الأمم المتحدة بالعكاز المكسور الذي لا تجد "ملاك السلام" غيره لتتكأ عليه.



شكل ١٩٨: الأمم المتحدة والسلام!
(الأهرام، ١١ ديسمبر ٢٠١٠)

وحاولت اللجنة الرباعية التي تشمل الولايات المتحدة وروسيا والأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي إحياء عملية السلام مرة أخرى بتقديم مشروع يسمى بـ "خارطة الطريق" وفيه تصور لإقامة دولة فلسطينية كاملة جنبًا إلى جنب إسرائيل بحلول عام ٢٠٠٥. كان النظام المصري من مؤيدي خريطة الطريق وشارك في إحياء عملية السلام

بإقناع الأطراف المتنازعة بالعودة مرة أخرى إلى طاولة المفاوضات. واختلف الرسامون في رؤيتهم لـ "خريطة الطريق" من بين متفائل ومؤيد لها وبين متشائم يراها ليست أكثر من مصطلح جديد لنفس "الدوامة" التي تقع فيها عملية السلام. صور ناجي كامل خريطة الطريق على هيئة امرأة (ملاك السلام) ترقد في غيبوبة وتحتاج إلى الحقن في الوريد (الدعم المصري) لإنعاشها.



شكل ١٩٩: الدعم المصري لخريطة الطريق!

(الأهرام، ١ يناير ٢٠٠٤)

وما لبث وأن انقسم الرأي العام حول مشروع خريطة الطريق لما اعتلاه من غموض إلى الدرجة التي تم التشكيك أصلًا في وجود مثل هذا المشروع. وعكس فرج حسن هذا الإحساس، فصور خريطة الطريق على هيئة ورقة سوداء، بينما سخر أحمد عبد النعيم من الدول العربية التي وافقت على خريطة الطريق وهي لا تعلم عنها شيئًا. ورأى حسن المصري أن خريطة الطريق لا تنفع إلا أن تكون فيلم سهرة تحت عنوان "الطريق المسدود". أما تامر يوسف فقد أشار إلى شارون وبوش الابن بـ "عصابة حمادة وتوتو"، وهذا اسم لفيلم مصري كوميدي من إنتاج ١٩٨٢ وفيه الزوجان حمادة وتوتو يتجهان إلى عالم السرقة والاحتيال آخذين الظلم الذي وقع على الزوج واضطهاده في عمله ذريعة لذلك. فيرى يوسف بأن "عملية خريطة الطريق" ما هي إلا لتحقيق مصالح إسرائيلية أمريكية، الزوجان اللذان اتخذا من حرب ١٩٦٧ ومن هجمات ١١ سبتمبر ذريعة لذلك!



شكل ٢٠٠: خريطة الطريق ١!

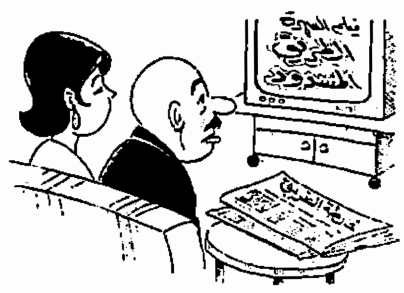
"يا حلاوة..أخيرًا يا أم سماح عرفتي شكل خريطة الطريق!!"

(الأهرام، ٦ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ٢٠١: الدول العربية وخارطة الطريق!

(السياسي المصري، ١ يونيو ٢٠٠٣)



شكل ٢٠٢: الطريق المسدود!

(كاريكاتير، ٣ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ٢٠٣: خريطة الطريق ٤!

(كاريكاتير، مايو ٢٠٠٣)

وبشكل عام، أكدت الرسوم الكاريكاتورية على ضعف موقف الحكومات العربية من قضية الصراع العربي الإسرائيلي وسيطرت الولايات المتحدة الأمريكية على رد فعل هذه الحكومات. ونقلت الرسوم الكاريكاتورية درجة استياء الشارع العربي من سياسات حكوماته، واتساع فجوة الخلافات بين الحكام العرب أنفسهم بالدرجة التي أصبحت تشغلهم في المقام الأول عن تحقيق خطوات ملموسة لصالح القضية الفلسطينية. وعبر عن ذلك شريف عرفة في كاريكاتير يصور كواليس اجتماعات الحكام العرب بشرم الشيخ التي انتهت بـ "خناقة" كبيرة وسط هتافات من أمثلة "اديله".. "أيوه كده.." .. "بيب بيب قذافي".. "براحة عالجدع"، في الوقت الذي يغادر فيه ممثل القضية الفلسطينية حزينا وفي يده "استمارة ٦"!



شكل ٢٠٤: مواقف عربية في الجامعة العربية!

حسني مبارك يهمس في أذن عمرو موسى: "شرم الشيخ ماتنفعش لمؤتمرات..المره الجاية نعمله في المدبح.!" الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير قطر يحادث أحدهم بالهاتف: "الخناقة دي بتشكل تهديدًا للأمن..لازم تعملوا قاعدة أمريكية هنا في الجامعة.!" معمر القذافي رئيس ليبيا لملك السعودية: "نحن الأفارقة لا نرد على العرب أمثالك". الملك عبد الله بن عبد العزيز ملك المملكه العربية السعودية يرد: "الخيل والليل والبيداء تعرفني..والسيف والرمح والقرطاس والقلم..سيبوني عليه..!!" بشار الأسد يفصل بينهما: "انا إيه اللي خرجني من بيتنا النهارده؟" علي عبدالله صالح رئيس اليمن محاولًا تهدئة عاهل السعودية: "روق دمك يا حاج..تاخد لك حتة قات تنعنش مزاجك؟!"

(www.drsherif.net، ٢٤ يونيو ٢٠١٠)

ويرى عمرو سليم بأن الخلافات بين الحكام العرب صبت مباشرة في مصلحة إسرائيل. ففي جريدة "الشروق" (١٥ مايو ٢٠١١)، رسم سليم (بمناسبة الذكرى الـ ٦٣ لإعلان قيام دولة إسرائيل) الجندي الإسرائيلي يدعو ربه قائلًا: "اللهم بارك لنا في الحكام العرب..واجعلهم ذخرًا لنا على الدوام"، بينما يؤمن على دعائه "عم سام".

ويبدو أن الحكام العرب ليسوا الوحيدين من يستنكرون ويشجبون الانتهاكات الإسرائيلية في حق الفلسطينيين، فقد سبقهم إلى نادي الاحتجاج كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، حيث أصبح من السهل التنديد بالانتهاكات الإسرائيلية دون أن يكون للأقوال أي مردود على أرض الواقع. رسم طوغان (٢٤ مايو ١٩٩٨) "عم سام" متظاهرًا وهو يحمل لافتة مكتوب عليها "نشجب ونستنكر ما يحدث في القدس"، ويقف إلى جانبه متظاهرًا "جون بول" (رمز بريطانيا) يحمل لافتة مكتوب عليها "لا وألف لا لسياسة نيتنياهو"، وأمامهما يقف ياسر عرفات سعيدًا لمساندتهما حاملًا لافتة مكتوب عليها "مرحبًا بكم في معسكر الشجب والاستنكار"(١).

ومن الجدير بالذكر أنه يوجد حساسية شديدة لنقد حكومة عربية بعينها في الكاريكاتير، بل إن نقد حاكم لأي دولة عربية يعتبر من المحذورات غير المكتوبة إلا إذا جاء متماشيًا مع الموقف الرسمي المصري، كما حدث وأشرنا سابقًا عندما تم نقد الرئيس معمر القذافي وياسر عرفات لإبداء سرورهما لاغتيال السادات.

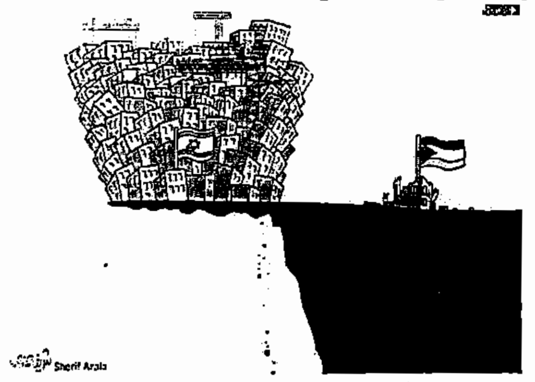
واتجهت الرسوم إلى تناول الخلافات العربية بشكل عام وانعكاس هذه الخلافات على مسار القضية الفلسطينية، في حين ندرت الرسوم التي تشير إلى الحكومات العربية التي

(١) أحمد طوغان، المرجع السابق، ص: ٩٩.

تمارس تطبيعًا كاملًا أو شبة كامل مع إسرائيل، في ظل تعتيم إعلامي عن طبيعة وحجم الاستثمارات الإسرائيلية داخل البلاد العربية، ولعل أهم سبب وراء هذا التعتيم هو رفض قطاع كبير من الشعوب العربية بشكل عام والشعب المصري بشكل خاص التطبيع مع إسرائيل في ظل ممارساتها القمعية ضد الفلسطينيين واعتبار التطبيع خيانة للقضية.

وتعقيبًا على دعوة قطر الصادمة عربيًا لإسرائيل لحضور مؤتمر اقتصادي انعقد في عاصمتها الدوحة، رسم طوغان (٧ نوفمبر ١٩٩٧) أمير قطر وهو يحادث الدول العربية بالهاتف محاولًا إقناعهم بالحضور قائلًا: "بانتظاركم..ياهلا فيكم...لا تشمتوا فينا الأعادي!"، وهو ينظر إلى لافته معلقة بالمطار مكتوب عليها "مرحبًا بالأخوة الإسرائيليين الأشقاء"(١).

وركزت الرسوم على المستوطنات اليهودية بالأراضي المحتلة التي تعتبر خرقًا وتحديًا سافرًا للقانون الدولي، والتي تبنى على أطلال البيوت الفلسطينية على مشهد ومسمع من المجتمع الدولي. في الكاريكاتير التالي، يقارن شريف عرفة بين الأراضي الفلسطينية والمستوطنات الإسرائيلية من حيث الشرعية.



شكل ٢٠٥: شرعية المستوطنات الإسرائيلية!
(www.drsherif.net، ١٥ مايو ٢٠١١)

كما أدانت الرسوم جدار الفصل العنصري الإسرائيلي، والذي تم إدانته أيضًا من قبل الأمم المتحدة التي طالبت بإزالته، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية (كالعادة) صوتت ضد هذه التوصية. ومن الجدير بالذكر أن الجدار يبلغ طوله (حال اكتماله) ٧٣٠ كم ويصل

(١) أحمد طوغان، المرجع السابق، ص: ٦٧.

ارتفاعه إلى حوالي ٨ متر ولم يتم بناؤه على طول الخط الأخضر الذي أقرته الأمم المتحدة بل توسع ليبتلع مساحات شاسعة من الضفة الغربية[(١)].

وفي محاضرة له بجامعة أكسفورد بمناسبة أسبوع الفصل العنصري الإسرائيلي، تحدث مصطفى البرغوثي، الأمين العام لحركة المبادرة الوطنية الفلسطينية والمرشح السابق لرئاسة الحكومة الفلسطينية، عن كارثة جدار الفصل العنصري الذي يجسد انتهاكًا حقيقيًا لحقوق الإنسان وكأن الحواجز ونقط التفتيش التي تنتشر في كل الأرجاء غير كافية لحرمان الفلسطينيين من حرية الحركة والانتقال. وسخر البرغوثي من الإعلام الغربي خاصة الأمريكي الذي يشير إلى الجدار بكلمة "fence" وهي كلمة رقيقة تعني الحواجز التي تبنى حول الحدائق والتي كثيرا ما تكون جميلة المنظر، ولكن لا مقارنة بين هذه التسمية وجدار الفصل العنصري الذي فاق حائط برلين الشهير طولًا وعرضًا وحاصر مئات الآف الفلسطينيين. وقدم البرغوثي العديد من المفارقات بالصور بين كيف يعيش المستوطن اليهودي وكيف يعيش الفلسطيني خاصة بعد أن حجب الجدار الرؤية عنه فأصبح هو كل ما يراه أمامه[(٢)].

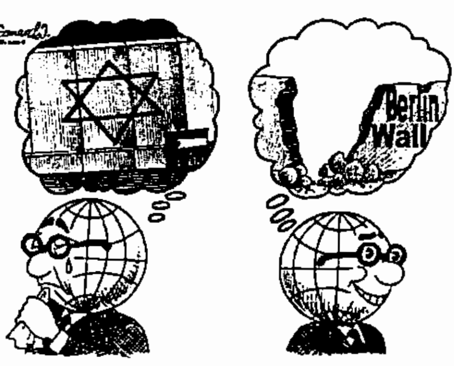
والكارثة أن الجدار لم يعزل فقط الفلسطينيين عن الإسرائيليين بل عزل الفلسطينيين عن بعضهم البعض. فقد شطر الجدار بعض المنازل إلى نصفين، وفرق بين العديد من العائلات. وتجاوز الأمر أن منع بعض السكان المجاورين للجدار من الصعود إلى سطوح منازلهم إلا بتصريح أمني مسبقًا!! والمثير للدهشة أن محكمة العدل الدولية بلاهاي في يوليو ٢٠٠٤ قد أدانت إسرائيل وأقرت بعدم مشروعيتها بإقامة الجدار وبالتالي طالبت بإزالته وإعادة الأرض لأصحابها. وذهب قرار المحكمة مع مهب الريح ليبقى جدار الفصل العنصري دليلًا ماديًا آخرًا لعنصرية إسرائيل وانتهاكاتها لحقوق الإنسان والقوانين الدولية[(٣)].

---

(١) مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، دراسات وتقارير الزيتونة، "جدار الفصل العنصري: حقائق وصور وأرقام"، ١ من ابريل ٢٠٠٧، تم الاطلاع في ١٤ يوليو ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.alzaytouna.net/arabic/?c=200&a=32288

(٢) رانيا صالح، البرغوثي: إسرائيل تخطط لخريطة عارية من فلسطين، "محيط: شبكة الإعلام العربية"، ١٧ مايو ٢٠٠٥، تم الاطلاع في ١٤ يوليو، ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.moheet.com/show_files.aspx?fid=125002

(٣) رانيا صالح، المرجع السابق.



شكل ٢٠٦: جدار الفصل العنصري!
(الأهرام ويكلي، ١٢-١٨ نوفمبر ٢٠٠٩)

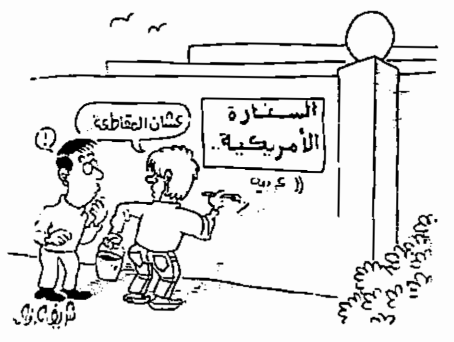
ويحمل المصريون الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية التعسف والتعنت الإسرائيلي تجاه عملية السلام وفي التجاوزات الإسرائيلية في حق الشعب الفلسطيني، ويرون أنها السبب وراء تأخر إعلان دولة فلسطين. وعبر العديد من المصريين عن سخطهم هذا بالانضمام إلى حملات مقاطعة للمنتجات والبضائع الأمريكية التي لاقت قبولًا خاصة في أوقات ازدياد حدة الصراع العربي الإسرائيلي.

وتنتشر دعوات المقاطعة في شكل ملصقات بالشارع أو منشورات توزع باليد أو في شكل رسائل بريد إلكترونية والتي تشمل عادة قائمة بأسماء منتجات بعينها تعتبر رمزًا للإمبريالية الأمريكية وعلى رأسها المشروبات الغازية مثل كوكاكولا وسلسلة المطاعم الشهيرة ماكدونالدز. وقد أشارت عدة أبحاث على تأثير تلك المقاطعات على نسبة المبيعات لبعض هذه المنتجات والتي انخفضت وبشكل ملحوظ، إلا أنها في نفس الوقت قد نجحت وبشكل كبير في زيادة مبيعات بعض المنتجات المنافسة، إلا لم تكن لشركات أمريكية أخرى لم تتضمنها المقاطعة فلشركات أوروبية حليفة للولايات المتحدة وتتبنى نفس سياساتها. ويرى بعض المناهضين لحملات المقاطعة بأنها تضر بمصالح العديد من الوكلاء المصريين وتعرض العمالة المصرية لخطر البطالة خاصة وأن سلسلة مطاعم الوجبات الأمريكية في مصر على سبيل المثال هي لإدارات مصرية ومعظمها يشغرها بنسبة ١٠٠٪ عمالة مصرية.

لم تتحمس الرسوم الكاريكاتورية كثيرًا لدعوات المقاطعة، بل سخرت من الواقع المؤلم الذي يكشف عن حجم اعتمادنا في حياتنا اليومية على المنتجات الأجنبية خاصة الأمريكية. وعبر بعض الرسامين عن سطحية المقاطعات، وتمنون لو تم توجيه الطاقات نحو التفوق الصناعي لإيجاد بديل محلي مماثل على الأقل في الجودة للمنتج المستورد وبأسعار

مناسبة. فقد تحولت مصر مع الوقت إلى سوق للسلع المستوردة التي للأسف تفوق المنتج المصري جودة وبأسعار مذسبة.

رسم شريف عرفة أحد المواطنين وهو يكتب تحت لافتة "السفارة الأمريكية" "عربية ١٠٠٪"، في إشارة إلى سلسلة إعلانات شركة "أمريكانا" التلفزيونية في ذلك الوقت التي أضافت إلى اسمها "عربية ١٠٠٪" لتقليل من أضرار المقاطعة!! وفي كاريكاتير آخر يستغرب عرفة لمبدأ المقاطعة قبل طرح بدائل، فرسم شخص في الصحراء يلهث بشدة من العطش ولكنه يرفض بحجة المقاطعة أن يشرب زجاجة "كوكاكولا" قدمها له أحد البدو لإنقاذه.



شكل ٢٠٧: المقاطعة!

(www.drsherif.net، ٢٠٠٢)



شكل ٢٠٨: المقاطعة!

(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)

واعتبر الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات رمزًا للمقاومة الفلسطينية في الكاريكاتير حتى إعلان وفته رسميًا في ١١ نوفمبر ٢٠٠٤. ثم ما لبث أن حل المواطن

الفلسطيني البسيط الذي يرتدي "الغترة" والعقال أو الكوفية الفلسطينية المميزة بخطوطها كرمز للمقاومة الفلسطينية، بينما يشار لمشاهير الشخصيات الفلسطينية الحالية وعلى رأسها الرئيس الفلسطيني محمود عباس كرمز للسياسة الفلسطينية! في الشكل التالي، بورتريهًا كاريكاتوريًا لياسر عرفات بريشة تامر يوسف.



شكل ٢٠٩: ياسر عرفات!
(تامر يوسف، ٢٠٠٤)

وفي كاريكاتير لأسامة قاسم بصحيفة "الأهرام ويكلي"، ياسر عرفات محلقًا بجناحيه إلى أعلى بعد أن تم كسر القيود التي كانت حول قدميه، وينظر بغضب إلى مجموعة من الجنود الإسرائيلين محدثًا نفسه قائلًا: "الحرية أخيرًا".



شكل ٢١٠: وفاة ياسر عرفات!
(الأهرام ويكلي، ١١-١٧ نوفمبر ٢٠٠٤)

وما لبث أن طفحت الخلافات بين الفصائل الفلسطينية على السطح، والتي وصلت قمتها مع انتخابات عام ٢٠٠٦ التي شاركت فيها ولأول مرة "حماس" لتفوز بأغلبية الأصوات بما شكل مفاجأة لعدد من المراقبين بما فيهم حماس شخصيًا.

يرى الكاتب الأمريكي والمحلل العسكرى مارك بيري بأن فوز حماس وقع بمثابة الصاعقة على مسامعي إدارة جورج بوش الابن والتي مارست ضغوطًا على الرئيس الفلسطيني محمود عباس لرفض أي مشاركة لحماس وهددت بحجب التمويل الأمريكي عن فتح إذا تمت أي محادثات وحدة وطنية، الأمر الذي أوشك أن يشعل الحرب بين الحركتين[1].

وتدخلت الوساطة العربية لتوحيد الصف وتوقيع المصالحة الفلسطينية بين حركتي حماس وفتح واللتين شهدتا موجات من العنف راح ضحيتها أعضاء من الطرفين وأبرياء، لينتهي المطاف بوضع حماس يدها على قطاع غزة، بينما تقع الضفة الغربية تحت حكم فتح.

وأسفرت اتفاقية مكة (تحت رعاية سعودية) عام ٢٠٠٧ عن تشكيل حكومة وحدة وطنية (لم تعش طويلًا)، التي لم تعجب بوش فأصدر قرارًا يقضي بتمويل وكالة المخابرات المركزية (سي آي أيه) أي حركة معارضة تهدف لخلع قادة حماس في غزة، وانطلقت مبادرة التمويل الأمريكية من مصر وتدفقت ملايين الدولارات لتحقيق أمن فتح ولمواجهة حماس في قطاع غزة. قوبلت هذه المبادرة بخيبة أمل كبيرة لعدد من الضباط الأمريكين المعنيين بتدريب الأجهزة الأمنية الفلسطينية، ولعدد من المسؤولين الإسرائيليين لذين رفضوا تقديم أسلحة ثقيلة للمليشيات الفلسطينية التي تمولها السي آي أيه لزعمهم بأن حركة فتح ليس لديها مصداقية كافية من الناحية السياسية لتكسب دعم الشعب الفلسطيني[2].

وتوالت الرسوم الكاريكاتورية التي بدلًا من أن تتناول الصراع الفلسطيني ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي، أصبحت تتناول الصراع الفلسطيني تحت قبضة كل من حركتي فتح وحماس وفصائل أخرى، بما يشكل تهديدًا حقيقيًا لضياع وإضعاف القضية الفلسطينية. وأعرب العديد من الرسامين على أن لغة الحوار التي اتسمت بها الفصائل الفلسطينية أصبحت لغة التهديد واستعراض قوة (انظر الرسوم التالية). ورسم مصطفى حسين بصحيفة "الأخبار" (٢٤ فبراير ٢٠١٠)، القضية الفلسطينية على هيئة امرأة تقدم على الانتحار، تحمل في إحدى يديها سكينًا رمزًا لفتح وفي اليد الأخرى سكينًا آخر رمزًا لحماس.

---

(١) مارك بيري:
Mark Perry. (2010). Talking to Terrorists: Why America must engage with its enemies. United States: Basic Books. P 134-135

(٢) مارك بيري. المرجع السابق، ص: ١٣٥.



شكل ٢١١: حوار الفصائل الفلسطينية!
(الأخبار، ٢٤ فبراير ٢٠١٠)

♦ما لا نريده في حوار الفصائل♦



شكل ٢١٢: ما لا نريده في حوار الفصائل!
(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)

وقد شهدت هذه الفترة العديد من المظاهرات المنددة بممارسات الاحتلال الإسرائيلي وسط غياب رد عربي مناسب، والمنددة بالدور المصري في غزة. واتسمت إحدى المظاهرات المندده بضرب غزة عام ٢٠٠٥ بحدة الشعارات ضد نظام مبارك، كما رصدها الناشط الصحفي وائل عباس على مدونته "الوعي المصري"[(١)]، ومنها "حولوا غزة سجن كبير بمباركة..حكام طراطير"، و"قولوا لحكام مصر وسوريا..أمريكا بتخاف من كوريا..علشان كوريا معاها سلاح..مش بتفاوض مع سفاح"، و"حسني مبارك هو شارون..نفس الشكل ونفس اللون"، و"شارون عملك سجن يا غزة..ومبارك قفل الرزة"، و"لا لتحويل الأمن المصري إلى كلب حراسة لإسرائيل".

(١) وائل عباس، مظاهرة ضد الدور المصري في غزة، "الوعي المصري"، ٢٦ أغسطس ٢٠٠٥، تم الاطلاع في ١٠ يونيو ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://misrdigital.blogspirit.com/files/coverage/ageg_gazza.htm

وما أن فازت حماس في الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦، حتى ضيقت إسرائيل الخناق على قطاع غزة، ثم فرضت حصارًا هائلًا بعد أن أحكمت حماس سيطرتها على القطاع عام ٢٠٠٧. وتحول قطاع غزة إلى سجن كبير لا يسمح للمواطنين الفلسطينيين بالخروج منه سواء بحرًا أو برًا للتزود بما يسد به جوعهم وبما يكفي احتياجاتهم الأساسية، حيث منع الصيد في عمق البحر، وأغلقت جميع المعابر السبعة البرية إلى أجل غير مسمى بما فيها معبر رفح، الذي هو تحت السيطرة الفلسطينية المصرية، والذي تستطيع إسرائيل إغلاقه "متذرعة ببند في اتفاقية المعابر لا يسمح بفتح المعبر إلا في وجود البعثة الأوروبية"[١]!

لم تكتف إسرائيل بالحصار البري والبحري على قطاع غزة، بل دمرت على مراحل مطارها الدولي والوحيد لتزيد من قبضة حصارها الاقتصادي على القطاع. وبعد أن اشتدت الاشتباكات بين إسرائيل وحركة حماس، تم الوصول إلى تسوية بوساطة مصرية في يونيو ٢٠٠٨ أدت إلى هدوء الأوضاع بين الجانبين لعدة شهور. إلا أنه في ٤ نوفمبر ٢٠٠٨، قامت إسرائيل بخرق اتفاقية التهدئة بشنها غارة أودت بحياة ستة من المسلحين التابعين لحركة حماس[٢]. وعليه أعلن الجناح العسكري لحماس رسميًا إنهاء الهدنة مع إسرائيل، وهدد الجناح العسكري لعز الدين القسام بالرد وبقوة على أي هجمات إسرائيلية تستهدف قطاع غزة، ونادى المجتمع الدولي وبما فيهم مصر الطرفين (إسرائيل وحماس) بضبط النفس[٣].

ردت حركتي حماس والجهاد الإسلامي على الغارة الإسرائيلية بإطلاق أكثر من ١٣٠ صاروخ وقذيفة هاون. ويبدو أن هذا بالضبط ما كانت تحتاجه إسرائيل، ففي الوقت الذي كانت حماس والفصائل الفلسطينية تمطرها بالصواريخ العشوائية، كانت إسرائيل تتخذ من هذا ذريعة أمام المجتمع الدولي (بما فيه الدول العربية) ومجلس الأمن لشرح

---

(١) الجزيرة نت، معابر قطاع غزة: ستة تحت سيطرة إسرائيلية وواحد خارجها، ٢ فبراير ٢٠٠٨، تم الاطلاع في ١٧ يوليو ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.aljazeera.net/news/archive/archive?ArchiveId=1081795

(٢) روري ماكارثي:
Rory McCarthy. (November 5, 2008). Gaza truce broken as Israeli raid kills six Hamas gunmen. The Guardian. Retrieved July 18, 2011 from: http://www.guardian.co.uk/world/2008/nov/05/israelandthepalestinians

(٣) وكالة الأنباء الفرنسية:
Tension surges in Gaza as truce ends. (Dec18, 2008). AFP. Retrieved July 17, 2011 from:
http://www.google.com/hostednews/afp/article/ALeqM5g-VyeldvnRafeEqA-PUiwImwDafA

موقفها وللترويج لحقها في الدفاع عن نفسها ضد صواريخ حماس، لتحصل على شرعية للعملية التي تنوي تنفيذها بدعوى القضاء على حماس في غزة، وفيما يبدو أنها تلقت ردود أفعال مطمئنة.

وبالفعل شنت إسرائيل في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨ حربها على غزة في شكل غارات متواصلة حتى ١٨ يناير ليسقط ما يزيد عن ١٤٠٠ شهيد وآلاف الجرحى أغلبهم من المدنيين، ليتحول القطاع إلى مأساة انسانية، في وسط ذهول وغضب من شعوب العالم، وتخاذل من حكومات المجتمع الدولي!

واشتعلت المظاهرات الشعبية في عدد كبير من العواصم العربية تندد بانتهاكات إسرائيل ضد القطاع، وتساءلت صحيفة "الجارديان" في عددها الصادر في ٤ يناير ٢٠٠٩[١] عن سبب حرب إسرائيل على غزة، في مقالة لمراسلها من القدس، كريس ماكجريل، الذي كتب عن إستراتيجية إسرائيل الخفية لإقناع العالم بعدالة قضيتها في معركتها مع "العدو"، إسوة بما فعلته الولايات المتحدة حين أرادت إضفاء شرعية على حربها على "الإرهاب"، وكانت العملية الدبلوماسية الإسرائيلية هي بالفعل على قدم وساق لتبرير الحرب على غزة وبالتالي التغاضي عن نتائجها الباهظة من الأرواح البريئة[٢].

رسم فرج حسن "الشرعية الدولية" على هيئة شمسية مكنت الصواريخ الإسرائيلية من اختراقها وقتل الأبرياء في غزة. كما رسم في كاريكاتير آخر عينين آدمية تبكي لغزة وتبكي من "الشرعية الدولية".



شكل ٢١٣: الشرعية الدولية!

(الأهرام، ٦ يناير ٢٠٠٩)

(١) كريس ماكجريل:
Chris McGreal. Why Israel went to war in Gaza. The Observer. The Guardian, (January 04, 2009). Retrieved July 22, 2011, from:
http://www.guardian.co.uk/world/2009/jan/04/israel-gaza-hamas-hidden-agenda

(٢) كريس ماكجريل، المرجع السابق.



شكل ٢١٤: غزة والشرعية الدولية!

(الأهرام، ١٥ يناير ٢٠٠٩)

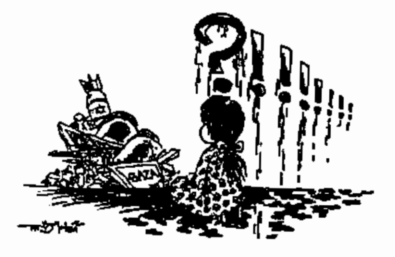
وأكثر ما أثار استياء الرسامين هو موقف المجتمع الدولي المتخاذل من حرب إسرائيل على غزة، فرسم جلال عمران (انظر الشكل التالي) نمرًا متوحشًا (إسرائيل) يقوم بذبح حمامة السلام أمام اندهاش رجل رأسه على هيئة كرة أرضية (المجتمع الدولي) الذي لم يتحرك ساكنًا!



شكل ٢١٥: المجتمع الدولي وغزة!

(الأهرام، ٥ يناير ٢٠٠٩)

كما كان أكثر ما استفز الرسامين هو سقوط عدد كبير من الأطفال قتلى نتيجة للغارات. رسم أسامة قاسم طفلة تجلس في بركة من الدم لا يستطيع عقلها الصغير أن يعي سبب كل ما تمر به.

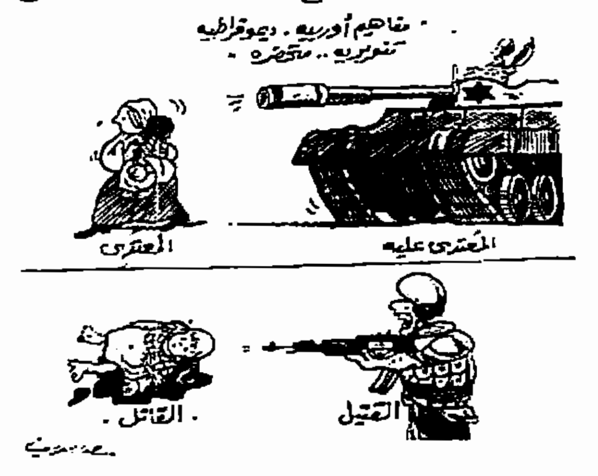


شكل ٢١٦: أطفال غزة!

(الأهرام ويكلي، ٢٢-٢٨ يناير ٢٠٠٩)

ووفقًا لماكجريل، فقد زعمت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني بأن العدوان الإسرائيلي على غزة إنما يصب بالدرجة الأولى في مصلحة الفلسطينيين، فهو سيساعدهم على تحريرهم من قبضة حماس. كما لعبت إسرائيل على وتر بأن أطراف عديدة في العالمين العربي والإسلامي ينظر لحماس على أنها متطرفة. وروجت إسرائيل بأن حماس مع إيران وحزب الله، يمثلون محور الشر للأصولية الإسلامية، لتضمن أن ينظر إلى الحرب، ليس من باب الاحتلال ولكن من باب نضال الغرب ضد الإرهاب والمواجهة مع إيران[1].

رسم سعد الدين كيف أن بعض المفاهيم والمصطلحات المتعارف عليها ينعكس معناها عندما يتعامل معها الأوروبيون، "فالمعتدى عليه" يصبح "المعتدي"، و"المعتدي" يصبح "المعتدى عليه"، كما أن "القاتل" يصبح "القتيل"، و"القتيل" يصبح "القاتل".



شكل ٢١٧: مفاهيم أوروبية ديمقراطية تنويرية متحضرة!
(الأهرام، ٢٥ يناير ٢٠٠٩)

ويؤمن الرسامون بأنه لولا تأييد أمريكا لما جرأت إسرائيل على انتهاك قوانين حقوق الإنسان بقتلها الأبرياء على مشهد ومسمع من الإعلام الدولي. وبالتالي أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تصور في الكاريكاتير أحيانًا على أنها شريك في الحرب.

عبر ناجي كامل عن موقف أمريكا من ضرب غزة، فرسم كنغر (أمريكا) على وجهه ملامح الرضا وهو يحمل في جيبه جندي إسرائيلي يصوب رشاشته نحو غزة.

(١) كريس ماكجريل، المرجع السابق.



شكل ٢١٨: أمريكا والحرب على غزة!

"أمريكا تعتبر عمليات إسرائيل في غزة دفاعًا عن النفس"

(الأهرام، ١١ يناير ٢٠٠٩)

ووقفت الأمم المتحدة كالعادة عاجزة عن تقديم أي رد فعل مناسب لردع إسرائيل وإجبارها على وقف عدوانها على غزة، في وسط استياء شعبي كبير.

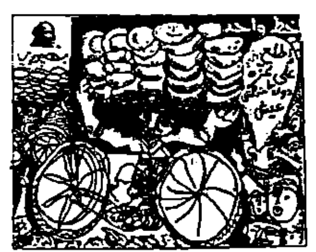


شكل ٢١٩: موقف الأمم المتحدة من حرب إسرائيل على غزة!

الأمم المتحدة: "فوتي بكرة"

(الأهرام، ٦ يناير ٢٠٠٩)

ولقد أثارت زيارة ليفني لمبارك قبل ضرب غزة بأقل من ٤٨ ساعة الكثير من الشكوك حول ما إذا كانت ليفني قد أعلمت مبارك بموعد الضرب أم لا، كما أثارت تصريحات ليفني في القاهرة وتهديداتها العسكرية لحماس حفيظة المصريين ضدها وضد وزير الخارجية المصري وقتها أحمد أبو الغيط. كما اندلعت المظاهرات الشعبية تندد بضرب غزة وتندد بموقف النظام المصري المتخاذل تجاه القطاع وإصراره الغير مبرر على إبقاء معبر رفح مغلقًا. صور جورج بهجوري الدعم الشعبي المصري لسكان غزة، فرسم جموع الشعب (من ضمنهم هو) تطلب من بائعي "العيش" أن يذهبوا به إلى غزة لأن أهالي القطاع في حاجة إليه.



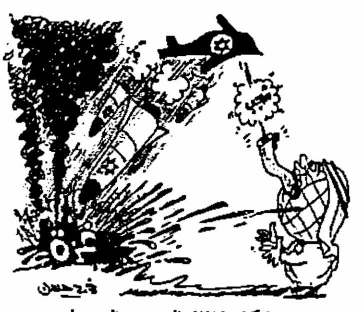
شكل ٢٢٠: العيش وغزة!
(الأهرام، ١٢ يناير ٢٠٠٩)

يعتقد أستاذ القانون الدولي عبد الله الأشعل بأن مصر قد فقدت تأثيرها لدى إسرائيل وفي المنطقة بفقدان دورها الإقليمي بعد أن تراجعت إلى الظل باختيارها بحجة أنها قد أرهقت من المواجهة مع إسرائيل، وأنها قد قدمت ما يكفي من تضحيات للقضية الفلسطينية. فقد تسببت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ في تحقيق هدف عزلة مصر عن محيطها العربي، لتزول العقبة الكبرى (قيادة مصر للمشروع العربي) أمام التوسع الصهيوني، ولتأخذ مصر مبارك بعدًا أخطر بتحولها إلى مركز التابع، ليس هذا فحسب، بل لتحولها إلى القيام بأدوار من شأنها أن تخدم المشروع الصهيوني، يدخل في هذا السياق على سبيل المثال اتفاق تصدير الغاز المصري لإسرائيل واتفاق الكويز وغيرهما(١).

وكشفت الحرب على غزة عن عمق الانقسام العربي وضعف موقفه، وبدا الموقف المصري "الأكثر ارتباكًا" والأقرب للموافقة على معاقبة حكومة حماس، شأنه شأن الموقف السعودي والإماراتي والكويتي، بينما جاء موقف الأردن الأقرب لحماس. في الوقت الذي شهد حضور قوي ملموس للدور التركي كوسيط بين الأطراف العربية الرسمية من ناحية والفلسطينيين والإسرائيليين من ناحية أخرى. كما عسكت الحرب على غزة عن عُمق الانقسام الفلسطيني، فسرعان ما أظهرت سلطة رام الله شماتة في حكومة حماس، وبدا وكأنها تنتظر سقوطها، لتعود سيطرتها على قطاع غزة(٢).

(١) عبد الله الأشعل، الدور المصري في أحداث غزة وتدعياته ومستقبله، "مركز الجزيرة للدراسات- قسم البحوث والدراسات"، الحرب على غزة..الأبعاد والدلالات، ٧ يناير ٢٠٠٩، تم الاطلاع في ١٠ يوليو، ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني: http://www.aljazeera.net/NR/exeres/EE3E1A47-DD43-48E3-A4A8-A24BFC9B7C8A.htm

(٢) بشير نافع، حرب أخرى يمكن أن تنتهي بإخفاق إسرائيلي، "مركز الجزيرة للدراسات-قسم البحوث والدراسات"، الحرب على غزة..الأبعاد والدلالات، ٧ يناير ٢٠٠٩، تم الاطلاع في ١٠ يوليو، ٢٠١١ من الموقع الإلكتروني:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/7A2F16A6-7293-4591-932C-3FE81501F8A3.htm



شكل ٢٢١: الشجب العربي!

(الأهرام، ١١ يناير ٢٠٠٩)



شكل ٢٢٢ الوساطة التركية!

"فوج من الممرضات التركيات يطير إلى تل أبيب ثم غزة .. ويعود بعشرات المصابين للعلاج في تركيا ..."

مواطن: "أهو ده أجمل مسلسل تركي"

(الأهرام، ١٥ يناير ٢٠٠٩)

ويعمل العديد من النشطاء في جميع أنحاء العالم على كسر الحصار الإسرائيلي المفروض على قطاع غزة. وفي ٢٣ أغسطس ٢٠٠٨، نجح ٤٤ من المتضامنين على متن السفينتين "غزة الحرة" و"الحرية" في كسر الحصار لأول مرة منذ فرضه بعد سيطرة حماس على القطاع في يونيو عام ٢٠٠٧[1].

وتحركت في ١٩ يونيو ٢٠١٠ من تركيا قافلة بحرية من ثلاث سفن، ضمن أسطول بحري يضم تسع سفن (سفينتين من بريطانيا، وسفينة من كل من اليونان وأيرلندا والجزائر

(١) كفاح زبون، سفينتا "غزة الحرة" و"الحرية" تنجحان في كسر حصار غـزة، "الشرق الأوسط"، ٢٤ أغسطس ٢٠٠٨، تم الاطلاع في ١٧ يوليو ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=10852&article=484004&feature=/details.asp

والكويت)، أطلق عليه "أسطول الحرية لغزة"، في طريقه للقطاع لفك الحصار بالرغم من التهديدات الإسرائيلية بأنها لن تسمح للأسطول بالوصول إلى هدفه[1].

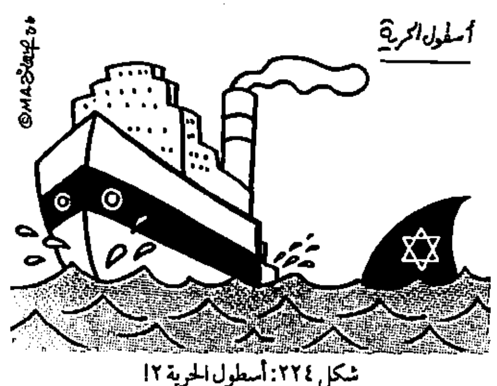
وبالفعل نفذت إسرائيل تهديدها وهجمت على القافلة في عرض البحر من قبل قوات كوماندوز، استخدمت فيه الرصاص الحي والغاز، لتقتل تسعة نشطاء من الأتراك، وتجرح العشرات. عصفت بإسرائيل تنديدات دولية أثيرت جراء اعتدائها الدامي، وأجمع المجتمع الدولي، بما فيه الأمم المتحدة، على ضرورة تشكيل لجنة تحقيق دولية للوقوف على ما حدث. وصورت الرسوم الكاريكاتورية الهجوم الإسرائيلي على الأسطول البحري بالبلطجة والقرصنة.



شكل ٢٢٣: أسطول الحرية!

الجندي الإسرائيلي: "الدكر اللي فيكي يطلعلي يا منطقة!"

(المصري اليوم، ١ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٢٢٤: أسطول الحرية ٢!

(المصري اليوم، ٢ يونيو ٢٠١٠)

(١) سي إن إن بالعربية، أسطول "الحرية" ينطلق إلى غزة رغم تهديدات إسرائيلية، الشرق الأوسط، ٢٢ يونيو ٢٠١٠، تم الاطلاع عليه من على الموقع الإلكتروني:
http://arabic.cnn.com/2010/middle_east/5/22/free.gaza/index.html

وفي محاولة لامتصاص الغضب الدولي، شكلت إسرائيل لجنة تقصي حقائق داخلية "تيركيل"، التي بعد ما يقرب من خمس شهور من العمل انتهت إلى أن "الهجوم كان اضطراريًا وشرعيًا في دفاع إسرائيل عن نفسها وليس فيه خرق للقانون الدولي". بينما توصل تقرير لجنة التحقيق التي شكلت من قبل تركيا إلى أن إسرائيل قد انتهكت القانون الدولي بحصارها المفروض على قطاع غزة وهجومها على قافلة المعونات الإنسانية، وبالتالي طالبت تركيا إسرائيل بالاعتذار عن الهجوم والتعويض عن الخسائر[(١)].

وقد انتقدت حنين زعبي، عضو الكنيست عن حزب التجمع الوطني، والتي كانت من المشاركين في أسطول الحرية وعلى متن سفينة "مرمرة" وقت الهجوم، تقرير "تيركيل" وأعربت أنه "بالكاد الشهادة الإسرائيلية الرسمية لمن قرر مهاجمة سفينة مرمرة وخطف ٦٠٠ ناشط سياسي من قلب المياه الدولية، ولمن أعطى الضوء الأخضر لقتل ٩ نشطاء سياسيين تتراوح أعمارهم بين ١٩ و٦٥ سنة". كما ترى زعبي بأن تقرير اللجنة لم يبت في تفاصيل مقتل التسعة نشطاء وهو الدافع الأول للمطالبة التركية والعالمية بتشكيل لجنة تحقيق[(٢)]! ولقد سخرت دعاء العدل في كاريكاتير من فكرة تشكيل إسرائيل للجنة تحقيق، فكيف يكون الجلاد هو القاضي في نفس الوقت!



شكل ٢٢٥: إسرائيل تحقق مع نفسها!

جندي إسرائيلي: "عيب كده يا واد يا خلبوص!!"

(المصري اليوم، ١٢ يونيو ٢٠١٠)

(١) نظير مجلي، لجنة التحقيق الإسرائيلية تبرئ الجيش من الاعتداء على سفينة "مرمرة"..وسط ذهول تركي، "الشرق الأوسط"، ٢٤ يناير ٢٠١١، تم الاطلاع في ٨ يوليو، ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=11745&article=605150&feature=

(٢) نظير مجلي ، المرجع السابق.

وطبعا نالت الحكومات العربية وموقفها المتخاذل والمتوقع نصيبًا من سهام رسامي الكاريكاتير.



شكل ٢٢٦: إسرائيل تضرب قافلة الحرية!

حاكم عربي: "كل مرة نستنكر وبعدين ندين ونشجب ومافيش حاجه بتحصل .. المره دي لازم نغير الخطة! نشجب في الأول وبعدين نستنكر وندين براحتنا!"

(المصري اليوم، ٢ يونيو ٢٠١٠)

وبسبب رسوماتهم اللاذعة، اتهم عدد من الرسامين المصريين من قبل إسرائيل بـ "معاداتهم السامية"، المصطلح الذي أستخدم في الأصل للتعبير عن الكراهية لليهود، والذي فيما يبدو تتخذه إسرائيل لإخراس الأصوات التي تتكلم ضد سياساتها أو ممارساتها، وقد تم إلقاء الضوء على هذه الجزئية في الفصل التالي.

غزو العراق:

غيرت أحداث ١١ سبتمبر سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وكانت الذريعة الرئيسية للدعاية الأمريكية حُملتها العسكرية للقضاء على "الإرهاب"، والتي كان بديهيًا أن تبدأ من معقل الإرهاب في أفغانستان بعد أن أعلن تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن مسؤوليته عن الأحداث.

وفي أعقاب هجمات سبتمبر، انتشر عدد من نظريات المؤامرة في الشارع العربي بشكل عام، وفي الشارع المصري بشكل خاص، والتي منها أن جهات أجنبية وليست عربية هي وراء هجمات سبتمبر، فكيف لرجال كهوف من أمثال بن لادن ورجاله أن يكون لهم القدرة على تنفيذ عملية من هذا النوع وبهذه الدقة والكيفية التي نفذت بها هجمات سبتمبر. وكان هناك أيضًا نظرية تقول بأن هناك ما يقرب من ٥٠٠ موظف يهودي لم يحضروا إلى مقر عملهم بالبرجين، في إشارة لعلم إسرائيل مسبقًا بموعد الهجمات. وهناك أيضًا نظرية واسعة الانتشار ومفادها بأن بن لادن ما هو إلا صناعة أمريكية وعميل أمريكي، وأن ما

حدث كان مرتبًا ليكون للولايات المتحدة الأمريكية ذريعة قوية لشن حملاتها العسكرية ونشر قواعدها العسكرية في محيط الشرق الأوسط.

وبعيدًا عن نظريات المؤامرة، فإن ثمة حقيقة واحدة، وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت أن تنشئ عددًا من القواعد العسكرية العملاقة في نطاق الشرق الأوسط، واستطاعت أن تضع يدها على عدد من حقول النفط.

اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالعراق لم يكن وليد اللحظة، فقد كان ضمن خطة إستراتيجية ذات مدى طويل وضعت منذ عقود لتوسيع نفوذها في منطقة الشرق الأوسط. ترى الباحثة الأمريكية فيليس بنيس بأن الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت لثماني سنوات والتي بدأت بغزو العراق لإيران في سبتمبر ١٩٨٠ جاءت كفرصة إستراتيجية جديدة لصناع القرار في الولايات المتحدة. فإيران والعراق هما الدولتان الوحيدتان في الشرق الأوسط اللتان تملكان الشروط المطلوبة لتصبحا قوى إقليمية: المياه والنفط والحجم، فالمياه تجعلهما مكتفيتان ذاتيا والنفط يقدم لهما الثروة وحجم الأرض والسكان يضمن لهما إمكانية السيطرة. أيضا ليس من قبيل الصدفة أن إيران والعراق وهما اثنتان من ثلاثة بلدان شرق أوسطية (الثالثة مصر) لها تاريخ طويل كبلاد مستقلة ومتحدية للهيمنة الأمريكية. وبالتالي فهذه الحرب من شأنها إضعاف إمكانيات كلا الدولتين الإقليمية وإهدار ثرواتها القومية والقضاء على مئات الآلاف من خيرة شبابهما[(١)].

تحركت الولايات المتحدة بسرعة لتأخذ جانب العراق، الطرف الأضعف من وجهة نظرها وذلك بهدف الحفاظ على بقاء القتال لأطول فترة ممكنة. كما أن إدارة ريجان قد تورطت في بيع أسلحة سرًا لإيران (بما يعرف بفضيحة إيران كونترا)، أما العسكرية الأمريكية والدعم المالي الرئيسي وتكنولوجيا الأقمار الصناعية فذهبت للعراق[(٢)].

وبعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية وفي يوليو ١٩٩٠ وقبل أسبوع واحد من غزو الكويت، أعطت السفيرة الأمريكية إبريل جلاسبي الرئيس العراقي صدام حسين ضوءًا أصفرًا فيما يتعلق بنيته لغزو الكويت وأخبرته بـ "إننا ليس لدينا رأي بشأن النزاعات العربية العربية، مثل خلافك على الحدود مع الكويت". وما لبثت واشنطن أن استخدمت هجوم العراق على الكويت كذريعة لشن حملة عالمية تهدف إلى إعادة تأكيد الولايات المتحدة كقوة

---

(١) فيليس بنيس:
Phyllis Bennis. (2009). Understanding the US-Iran Crisis: A Primer. United States: Olive Branch Press

(٢) فيليس بنيس: المرجع السابق.

عظمى. وأصبح العراق الهدف الجديد وأخذ صدام حسين بسرعة محل آية الله الخميني كالخصم الشرير[١].

وباحتلال صدام حسين للكويت نشبت حرب الخليج الثانية أو ما يعرف بعملية عاصفة الصحراء في ١٧ يناير ١٩٩١، والتي شنتها قوات التحالف الدولية المكونة من ٣٤ دولة تحت قيادة الولايات المتحدة لتحرير الكويت. كان يمثل غزو صدام للكويت صدمة لجميع الشعوب العربيه التي لم يسبق وأن شاهدت دولة عربيه تبتلع جارتها، إلا أن رد فعل الحكومات العربيه تباينت من بين مؤيدة ومتحفظة ومستاءة. واستنكرت الرسوم الكاريكاتورية المصرية غزو العراق للكويت منذرة من خطورة أن يحدث تغيير كامل لخريطة المنطقة من جراء ذلك.

يعتقد أستاذ الاقتصاد جلال أمين بأن إرسال مصر لقوات إلى المملكة العربية السعودية لم يكن في حقيقة الأمر ذا جدوى، فقد كان الجيش الأمريكي يكفي ويزيد لحماية الأماكن المقدسة وحقول النفط. فثمة فائدة وحيدة لإرسال قوات مصرية وهي "إسباغ بعض القبول على الوجود الأمريكي في الجزيرة العربية"، كما أن الإشارة إلى القوات الموجودة على أنها "قوات دولية" أو "متعددة الجنسيات"، له صدى مقبول عند الرأي العام الأمريكي، فالقرارات كانت في يد أمريكا فقط، وعلى القوات الأخرى بما فيها المصرية التنفيذ[٢].

ولأن كل شيء لابد وأن له مقابل، فقد تم الإعلان عن إعفاء مصر من الديون العسكرية الأمريكية المتراكمة عليها، إلا أن الطريف في الأمر، أن هذا القرار ظل ينتظر موافقة االكونجرس شهورًا، يمكن خلالها أن تبتز أمريكا مصر لتقديم تنازلات سواء اقتصادية أو عسكرية أو لصالح إسرائيل قبل إلغاء الدين، الذي يجرى تعويضه فورًا من نواحٍ أخرى[٣].

ترى بنيس بأنه لا مجال للشك في أن حكومة البعث لصدام حسين كانت قمعية للغاية وأن العراق مثله مثل العديد من حلفاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط تقلصت فيه الحقوق السياسية مثل حرية التعبير وتراوحت عقوبة المناهضين للنظام فيه من اعتقال لسجن لتعذيب لاغتيال أو إعدام. كما أن الاثنى عشر عامًا من العقوبات المفروضة على

---

(١) فيليس بنيس: المرجع السابق.

(٢) جلال أمين، "العرب ونكبة الكويت"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص: ٢١.

(٣) جلال أمين، المرجع السابق، ص: ٢٢.

العراق عقب حرب الخليج ١٩٩١ قد شلت اقتصاد العراق ومزقت حياته الفكرية ونسيجه الاجتماعي وأصابت شعبه باليأس حتى آمل العديد منهم في أن تأتي قوة خارجية لتنقذهم وتطيح بالدكتاتور، ومع ذلك لم يصدق معظم العراقيين بأن الولايات المتحدة قد خاضت الحرب لتقاتل نظامهم بدلًا منهم وتدافع عن حريتهم وليس دفعًا وراء مصالحها[١].

والحق أن دعوة الولايات المتحدة "لتحرير" العراق ووضع نهاية لدكتاتورية صدام حسين لم تجد صداها في الشرق الأوسط، كما حدث في ١٩٩١ عندما أيد الكثير من العرب الدعوة وتعاونوا مع الولايات المتحدة لتحرير الكويت. ويمكن تفسير رد الفعل العربي بالرجوع للمثل الشعبي القائل: "أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب". وعكست الرسوم الكاريكاتورية الرأي العام المصري الذي لم يكن على قناعة بالدوافع المعلنة لغزو الولايات المتحدة للعراق من امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل وصلته بشبكة تنظيم القاعدة، في حين شاع بأن النفط العراقي لابد وأنه السبب الحقيقي وراء الغزو.



شكل ٢٢٧: نفط العراق!

عم سام: "لن نترك العراق قبل الحصول على آخر نقطة "حرية" وآخر كيس "ديمقراطية" للشعب العراقي"

(الأهرام، ٦ يوليو ٢٠٠٣)

وترى بنيس بأنه في الوقت الذي يحاول فيه المسؤولون بإدارة بوش إقناع المتشككين داخل الولايات المتحدة والرأي العام العالمي بأن النفط ليس سببًا وراء الحرب، كشف الصحفي بصحيفة "الواشنطن بوست" بوب وودوارد حصول بوش على مذكرة سرية من مجلس الأمن القومي بعنوان "التخطيط للبنية التحتية للنفط العراقي" قبل الغزو بأقل من

---

(١) فيليس بنيس:
Phyllis Bennis. (2009). Ending the Iraq War: A Primer. United States: Olive Branch Press.

شهر. وتوضح بنيس بأنه ليس الحصول على النفط هو ما يشغل الولايات المتحدة، فهي بأية حال قد قللت وارداتها من النفط الشرق أوسطي لصالح النفط الكندي والمكسيكي والفنزويلي وغيرهم. ما يعنيها هو السيطرة على حقول النفط العراقية الشاسعة وكذلك الحال بالنسبة لإيران والمملكة العربية السعودية. فسيطرتها على حقول النفط بشكل عام يضمن لها السيطرة على سعره وحصص الإنتاج منه، كما أن سيطرتها على حقول العراق بشكل خاص يضمن لها نفوذا أكبر على أكثر الدول اعتمادًا عليه مثل ألمانيا واليابان[1].

ولقد أعلنت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة الحرب على العراق، بالرغم من موقف الأمم المتحدة ودول أوروبية مثل فرنسا وألمانيا وبلجيكا الرافض للحرب. ويرى مصطفى حسين أن سياسة الحرب التي تبناها كل من الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن ورئيس وزراء بريطانيا توني بلير تذكره بالشقيقتين ريا وسكينة، اللتين كونتا في أوائل القرن العشرين عصابة متخصصة في خطف وقتل النساء (انظر الكاريكاتير التالي). ويصور محمد عمر محاولات بوش "الفاشلة" في الحصول على تأييد المجتمع الدولي له لضرب العراق، "كالذي ينفخ في قربة مقطوعة". كما يعتقد محمد عمر بأن الولايات المتحدة قد أخذت قرار خوض الحرب على العراق بصرف النظر ما إذا كان هناك بالفعل أسلحة دمار شامل من عدمه! وحذر من أن قرار الحرب من شأنه أن يعزل الولايات المتحدة عن بقية العالم! ويصور عبد الحليم البرجيني كيف أن الولايات المتحدة قد فضلت سياسة الحرب على السلام، بينما يرى أسامة قاسم بأن الولايات المتحدة فيما تفعله تعود بنا إلى العصر الحجري عندما كان الناس تحصل على ما تريد بقوة "الذراع".



شكل ٢٢٨: ريا وسكينة!
(كاريكاتير، ٣ إبريل ٢٠٠٣)

(١) فيليس بنيس، المرجع السابق.



شكل ٢٢٩: المجتمع الدولي يرفض تأييد الولايات المتحدة!

الأمم المتحدة: "انت بتنفخ ف قربة مقطوعة!!"

(آخر ساعة، ١٩ مارس ٢٠٠٣)



شكل ٢٣٠: الحرب على العراق!!

بوش: "حتى لو العراق معندهاش أسلحة دمار شامل..أنا عندي!!"

(آخر ساعة، ٢٦ مارس ٢٠٠٣)



شكل ٢٣١: الحرب .. العزلة!

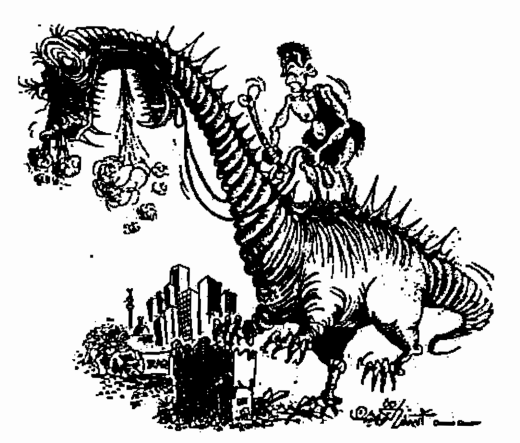
(آخر ساعة، ١٧ مارس ٢٠٠٣)



شكل ٢٣٢: الحرب على العراق ٢!

الحرب: "أمريكا جوزتنا لبعض والكلمة أصبحت كلمتي"

(كاريكاتير، ٣ مايو ٢٠٠٣)



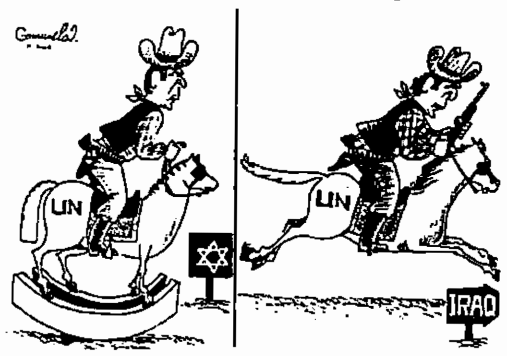
شكل ٢٣٣: حرب العصر الحجري!

(الأهرام ويكلي، ٢٠-٢٦ مارس ٢٠٠٣)

استفزت سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق الكثير من العرب والمسلمين الذين رأوا فيها قدرًا كبيرًا من الازدواجية والانحياز، فحين لا تهتم الولايات المتحدة بقرارات الأمم المتحدة عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، تكون على استعداد لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ولو بالقوة عندما يتعلق الأمر بالعراق. وقارنت العديد من الرسوم بين موقف العراق

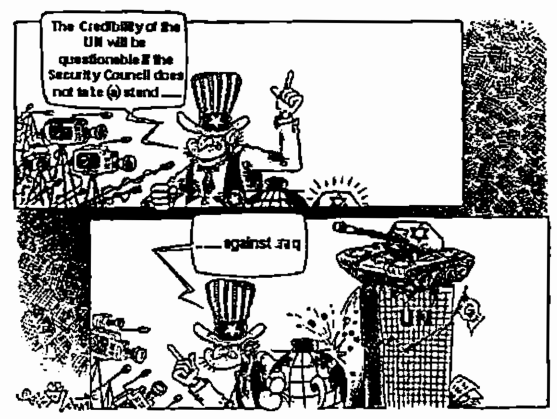
وإسرائيل من احترام القوانين الدولية، ففي حين يجبر العراق على الموافقة على استئناف التفتيش عن أي أسلحة دمار شامل، يغض المجتمع الدولي عينيه عن الأسلحة التي تمتلكها إسرائيل.

وعقد جمعة مقارنة بين علاقة الولايات المتحدة بقرارات الأمم المتحدة فيما يخص إسرائيل وفيما يخص العراق. وصور أسامة انتهاك إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة بالدبابة الإسرائيلية التي "تركد" على مبنى الأمم المتحدة متسببة في شرخه، بينما يبرر "عم سام" للإعلام حربه على العراق بأنه لدعم الأمم المتحدة التي ستتأثر مصداقيتها إذا لم يأخذ مجلس الأمن خطوات حازمة ضد العراق.



شكل ٢٣٤: الولايات المتحدة وقرارات الأمم المتحدة ١!

(الأهرام ويكلي، ١٤-٢٠ نوفمبر ٢٠٠٢)



شكل ٢٣٥: الولايات المتحدة وقرارات الأمم المتحدة ٢!

(الأهرام ويكلي، ١٣-١٩ فبراير ٢٠٠٣)

خرج الآلاف من المواطنين في عدد من الدول العربية والإسلامية في مظاهرات تندد بخطة الولايات المتحدة لضرب العراق. كما أصيب العديد من المواطنين بخيبة أمل كبيرة من جراء صمت حكامهم العرب تجاه قضية الحرب على العراق. وعبر عن ذلك حسن المصري في كاريكاتير يصور فيه هيمنة الولايات المتحدة المنحازة لإسرائيل على الحكام العرب.



شكل ٢٣٦: الحكام العرب!

".. أقول آه ولا لسه؟!!"

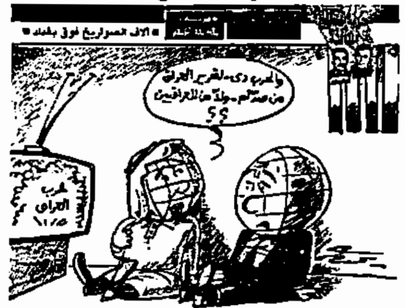
(كاريكاتير، ٣ مايو ٢٠٠٣)

وكان الرأي العام المصري متعاطفًا مع الشعب العراقي الذي دفع ثمن ١٢ عامًا من العقوبات التي فرضت عليه بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩١، والذي لم يساعده كثيرًا برنامج الأمم المتحدة "النفط مقابل الغذاء" في تقليص معاناته. صور مصطفى حسين التناقض البين بين ما تؤمن به أمريكا على أرضها وبين سياستها الخارجية، فرسم "تمثال الحرية" مغادرة أمريكا وهي منكسرة الرأس في دلالة على خجلها وعدم رضاها عن ما يحدث. ويرى كل من محمد عمر و ياسر جعيصة بأن الشعب العراقي هو من ستناله قذائف وصواريخ الولايات المتحدة.



شكل ٢٣٧: رحيل تمثال الحرية!

(كاريكاتير، ٢٥ مارس ٢٠٠٢)



شكل ٢٣٨: آلاف الصواريخ فوق بغداد!

الشعب العربي: "والحرب دي.. لتحرير العراق من صدام.. ولا من العراقيين؟؟"

(آخر ساعة، ٢٦ مارس ٢٠٠٣)





شكل ٢٣٩: شعب العراق!

الطيار الأمريكي: "أعتقد أنهم كما قال الرئيس جورج بوش إرهابيون وتجار أسلحة كيميائية وبيولوجية ودمار شامل"

(صباح الخير، ٤ فبراير ٢٠٠٣)

وتساءلت الرسوم الكاريكاتورية بعد سقوط بغداد عن ما ستقدمه الولايات المتحدة للشعب العراقي وعن الوقت الذي ستنهي فيه احتلالها للعراق.



شكل ٢٤٠: شعب العراق والاحتلال!

الاحتلال الأمريكي: "مش انا اللي ريحتك من نظام صدام؟ .. خلاص .. سيبني أرتاح شوية!!"

(كاريكاتير، عدد ١٤، سنة ٢٠٠٣)



شكل ٢٤١: شعب العراق والاحتلال ٢!

الاحتلال الأمريكي: "إنسى مية نهر الفرات خالص .. أنا ح أجيب لكم مياه معدنية أمريكية!!"

(كاريكاتير، ٣ مايو ٢٠٠٣)

وسقطت بغداد في ٩ إبريل ٢٠٠٣ سريعًا بشكل صادم لكثير من العرب الذين التصقوا بشاشات التلفاز يتابعون باهتمام اقتلاع تمثال صدام حسين في وجود قلة من العراقيين تهتف وترقص. فلم يتوقع الكثير من العرب سقوط بغداد بهذه السرعة في ظل تصريحات وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف حتى اليوم السابق لسقوط بغداد، التي ساهمت في نشر الاعتقاد بتقدم المقاومة العراقية وحتمية فشل القوات الأمريكية. وبعد سقوط بغداد، تم تداول تصريحات الوزير السابق كنكت تتفكه بها الشعوب العربية وتسخر من الواقع المؤلم الذي حل بها.



شكل ٢٤٢: وزير الإعلام العراقي!

الصحاف: "أنا بأحيي كل أصدقاءنا اللي منورينا النهارده .. وسواقين الميكروباص .. والمكوجيه .. ومسعني سلام بودعك!"

(كاريكاتير، ٣ مايو ٢٠٠٣)

وسقوط بغداد بهذه السرعة ساعد على انتشار المخاوف والتخمينات على من ستكون الدولة التالية في خطة الحرب الأمريكية في الشرق الأوسط، خاصة بعد أن قامت إدارة بوش تكرارًا ومرارًا بتهديد كل من سوريا وإيران. يرى سمير عبد الغني أن الولايات المتحدة قد أتبعت سياسة "إضرب المربوط يخاف السايب" في غزوها للعراق.









شكل ٢٤٣: من التالي ١!

- "سياسة أمريكا في الشرق الأوسط .. أضرب المربوط يخاف السايب"
- "مين المربوط"
- "العراق وليبيا والسودان"
- "واحنا"
- "سايبانا لبعد الحرب"

(كاريكاتير، ٣ إبريل ٢٠٠٣)



شكل ٢٤٤: من التالي ٢!

- "أنا خايف أمريكا تبعت لنا مفتشين عن أسلحة الدمار الشامل"
- "ما تبعت .. إحنا معندناش أسلحة لكن عندنا دمار شامل"

(العربي، ٧ سبتمبر ٢٠٠٣)

وأصبح موضوع أسلحة الدمار الشامل والذي كان الدافع الرئيسي لحرب أمريكا على العراق شغل شاغل للرأي العام المصري والعالمي بعد سقوط بغداد. ويعتقد نبيل تاج أن الفقر هو سلاح الدمار الشامل الوحيد الذي وجدته الولايات المتحدة في العراق. ويرى ممدوح طلعت بأن الولايات المتحدة لا يمكنها غزو مصر وذلك لتسلح المصريين بالـ "الفول"، سلاح الدمار الشامل والوحيد في مصر! واقترح شريف عرفة تغيير اسم ميدان "طلعت حرب" إلى ميدان "طلعت سلام" تجنبًا للمشاكل.



شكل ٢٤٥: أسلحة الدمار الشامل ١!

"مش خايف ويقولك أهه عندي سلاح أقوى من كل أسلحة الدمار الشامل..الفقر!!"

(الأهرام، ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٤٦: أسلحة الدمار الشامل ٢!

"على الطلاق..لا امريكا ولا غيره..احنا الحكومة مسلحانا كويس"

(كاريكاتير، ٣ مايو ٢٠٠٣)



شكل ٢٤٧: ميدان طلعت حرب!

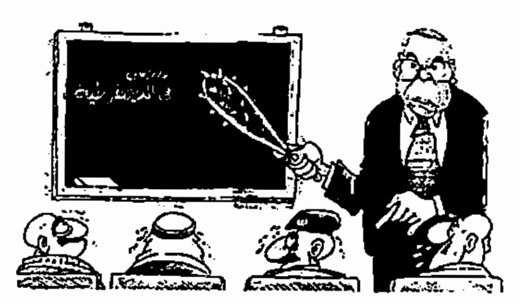
"مش عايزين مشاكل يا عم .. دي سياسة الدولة!!"

(كاريكاتير، عدد ١٥، سنة ٢٠٠٣)

وحدث ما يسمى بـ "الحرج الأمريكي"، فلا وجود لأسلحة دمار شامل ولا وجود ما يثبت تورط العراق مع منظمات إرهابية. فكيف يحلها بوش؟ فكانت "الديمقراطية"، الكلمة السحرية التي باتت تستخدمها الولايات المتحدة لتبرر سياستها في الشرق الأوسط بعد أن نصبت نفسها قاضيًا دوليًا، وولت نفسها مهام نشر الديمقراطية في أنحاء العالم. ولما لا وقد وجدت لها أرضًا خصبة يحكمها أنظمة عربية ضعيفة وخاضعة للهيمنة الأمريكية. يرى العديد من المراقبين بأن الحرب على العراق كانت إشارة لعودة الهيمنة الغربية وفرض النظام العالمي الجديد بالقوة تحت غطاء "الديمقراطية" (انظر الرسوم التالية).



شكل ٢٤٨: الشعب العراقي والديمقراطية!
(الأهرام، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٤٩: دروس في الديمقراطية!
(الأهرام ويكلي، ١٥ مايو ٢٠٠٣)

وكان اختفاء صدام حسين من بعد الاحتلال الأمريكي الإنجليزي للعراق موضع تساؤل وفضول، وربط البعض بين سيناريو اختفائه وبين اختفاء بن لادن بعد هجوم أمريكا على أفغانستان.



شكل ٢٥٠: اختفاء صدام!

(تامر يوسف ٢٠٠٣)

وفي ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣، تم القبض على صدام مختبئًا في داخل حفرة في مزرعة بالقرب من تكريت واضعًا نهاية لـ ٣٥ عامًا هي عمر نظامه. رحبت معظم الصحف المصرية والرسوم الكاريكاتورية بهذا النبأ لكنها في نفس الوقت لم تغير موقفها المناهض للحرب على العراق والمعني أكثر بمعاناة الشعب العراقي خلال الاحتلال. صور مصطفى حسين كيف أن الألم الذي يعاني منه الشعب العراقي تحت الاحتلال منعه من أن يشعر بالسعادة للقبض على صدام. وأشار نبيل تاج إلى القبور الجماعية التي عثر عليها بعد سقوط بغداد والتي كان صدام يدفن فيها معارضيه (انظر الرسوم التالية).



شكل ٢٥١: الشعب العراقي والاحتلال والقبض على صدام!

الشعب العراقي: "بيقولولي ابسط .. قبضنا لك على صدام حسين .. أبسط ازاي؟"

(الأخبار، ١٦ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٥٢: قوات التحالف والقبض على صدام!

(الأهرام، ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٥٣: القبض على صدام!

- "مسكوا صدام في حفرة تحت الأرض"
- "دي أول حفرة من حفر صدام فيها حد حي!!!"

(الأهرام، ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٥٤: ليلة القبض على صدام!

"وده درس لكل ديكتاتور وكل سفاح"

(الأهرام، ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣)

وربط الرسامون بسخرية بين القبض على صدام وبين البحث الجاري عن أسلحة الدمار الشامل، فسخر مصطفى حسين من مشهد الكشف الطبي على صدام الذي تم بثه على شاشات العالم، كما سخر ماهر داوود من إعلان اختبار الحمض النووي الذي أثبت شخصية صدام حسين.



شكل ٢٥٥: صور اعتقال صدام حسين في التلفزيون!

"أبدًا..لا كشف طب ولا حاجة..دول لسه بيدوروا على أسلحة الدمار الشامل"

(آخر ساعة، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٣)



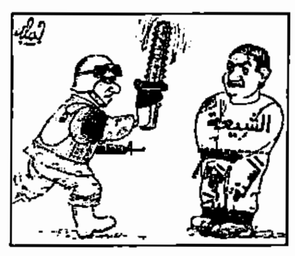
شكل ٢٥٦: اختبار الحمض النووي يثبت شخصية صدام!

"حمض نووي؟! .. يعني عثروا على سلاح الدمار الشامل؟!"

(الأهرام، ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٣)

ترى بينيس بأن أخطر ما هدفت إليه الولايات المتحدة منذ بداية الحرب هو العمل على تقويض الهوية الوطنية وترسيخ الانقسامات الطائفية في العراق وتوزيع السلطة بمجلس الحكم العراقي الذي أنشأته على أساس نسبة كل مجموعة طائفية من إجمالي مجموع السكان. كما أشعلت المنافسة على السلطة ليس فقط بين الأحزاب التي تتبنى مذاهب مختلفة ولكن بين الأحزاب التي تتبنى المذهب نفسه. وتشير فيليس إلى مشكلة تعدها الأخطر وهي طريقة معالجة الدبلوماسيين والقادة العسكريين الأمريكيين الوضع في العراق وفرط استخدامهم لصيغة الضمير "نحن" والذي يعكس تلك الافتراضات الاستعمارية التي ترى أن لديها "الحق" في فرض إرادتها على العراق وشعبه ومثال ذلك الجدل القائم حول ما إذا كان عليهم تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء (سنية وشيعية وكردية) أم لا[1].

وتنبأ مبكرًا عدد من الرسامين وعلى رأسهم جمعة فرحات بالاضطرابات الطائفية التي ستحدث في العراق ومحاولات لاحتلال الأمريكي في تمزيق النسيج الوطني للعراق وتقسيمه إلى دويلات.



شكل ٢٥٧: تقسيم العراق!

(الأهرام، ٢١ يناير ٢٠٠٤)

(١) فيليس بنيس، المرجع السابق.

تم إعدام صدام حسين في فجر يوم عيد الأضحى الموافق ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦، مما أثار حفيظة المسلمين في كل مكان، حيث يخصص هذا اليوم للأضحية ولا يجرى أي تنفيذ لحكم إعدام في أيام الأعياد. ولد هذا الفعل العديد من التنديدات والاحتجاجات الإسلامية مما أكسب الشارع العربي تعاطفًا تجاه صدام وضد أمريكا.



شكل ٢٥٨: إعدام صدام ١!

بوش: "وكان القصد من إعدام صدام في هذا الوقت علشان نشارك كل المسلمين فرحتهم ونضحي معاهم في العيد الكبير"

(الأخبار، ٢٤ فبراير ٢٠١٠)



شكل ٢٥٩: إعدام صدام ٢!

العراق: "حضرتك مش شايف إن هديتك ليا في العيد دي غريبة شوية؟!"

(الأهرام، ١ يناير ٢٠٠٧)

وانتهت قصة ديكتاتور نهاية مأساوية، إلا أن شعب العراق لا يزال يدفع ثمنًا غاليًا من حريته واستقراره تقابله العديد من التحديات على الصعيدين الداخلي والخارجي،

ويعطر جوه رائحة برك الدم وسقوط قتلى من الأبرياء. لم يشعر العراقيون بأن وطنهم الذي اغتصبه منهم صدام قد رجع إليهم في ظل وجود الاحتلال الأمريكي والتدخل الأمريكي في شؤونهم الداخلية.

القضايا الداخلية:

فيما يلي مناقشة أهم القضايا الداخلية التي تعرض لها الكاريكاتير والتي كان بعضها سببًا مباشرًا لغليان الشارع المصري ومن ثم إشعال فتيل ثورة ٢٥ يناير التي أطاحت بمبارك وعائلته وبعض من رموز نظامه.

نبدأ هنا بأهم قضية تناولها الرسامون على الإطلاق وهي "استشراء الفساد"، والتي تعتبر السبب الرئيسي وراء تدهور معظم، إن لم يكن كل، مؤسسات الدولة وبالتالي فهي عامل مشترك لكل القضايا اللاحقة التي سيتم مناقشتها. واتبع الرسامون في تناولهم للقضايا الداخلية أحد اتجاهين: التعميم أو التخصيص. فقد تم تناول بعض القضايا دون الإشارة إلى مؤسسة ما بعينها، ويرجع السبب في ذلك إلى مدى تطابقها على كل مؤسسات الدولة الخاصة والعامة، مثل مشكلة استشراء الفساد مثلًا، فالرسام هنا لا ينتقد مؤسسة بعينها على أنها المسبب للفساد، ولا يشير إلى مؤسسة بعينها على أنها فاسدة، إنما يعمم بفساد النظام. وفي المقابل، يتبع الرسام "التخصيص" عند تناوله لقضايا لها طبيعة خاصة مثل مشكلة التعليم مثلا، فهنا الرسام ينتقد مؤسسة بعينها حتى لو لم يشر إليها بشكل مباشر، ولكن يبقى معروفًا لمن يوجه رسالته.

استشراء الفساد:

شمل الفساد كل أشكال الحياة بما فيها الحياة السياسية والإعلامية، فلم يكن محصورًا فقط بالفساد المالي والإداري، ومازالت قاعدة تقريب أهل الثقة و"الشللية" هي السائدة في اختيار الكوادر في مؤسسات شتى بما أثر بالسلب على التنمية الداخلية وعصف بنهضة مصر بشكل درامي، وتسبب في تأخرها وفقدانها لموقعها الريادي في المنطقة.

أصبح فساد الياقات البيضاء آفة هذا العصر، فقد تورط في قضايا فساد عدد من كبار المسؤولين وأعضاء بالبرلمان ورجال أعمال واداريون في بنوك وفي شركات قطاع عام وخاص. كما انتشرت الرشوة والمحسوبية وتهريب الآثار والأموال على نطاق واسع.

ويمكن أن يطلق على عام ٢٠٠٣ بعام سرقة الأموال العامة، فقد شهد سرقة حوالي ٢٢ مليار جنيه من الأموال العامة، كما شهد ١٤٧ قضية رشوة و٦٥٠ قضية تغيير عملة

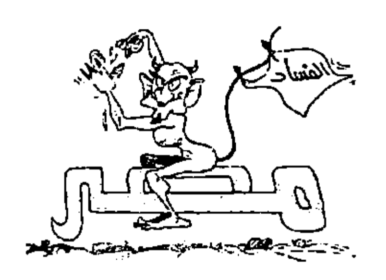
و١١٥ قضية توظيف أموال[1]. كما عرف عام ٢٠٠٣ بعام تهريب الآثار، حيث ألقي القبض على ٥٠ مسؤولًا لتهريبهم ما يقرب من ٢٠٠ قطعة أثرية للخارج، وتم القبض على أكبر مهرب للآثار مع ١٧ آخرين بعد نجاحهم في تهريب أكثر من ٤٠٠ قطعة أثرية[2].



شكل ٢٦٠: سرقة الآثار!

(الأهرام، ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣)

وفي تلخيص مبدع، يصور ممدوح طلعت كيف استشرى شيطان الفساد وتربع على عرش مصر و"بيديها رقص". كما يصور عمرو عكاشة كيف يلتف حبل الفساد حول رقبة المواطن في ظل عدم مبالاة من الحكومة، كما صور الفساد على هيئة أفعى تلتهم البلاد، وعلى هيئة سمكة عملاقة يعلو قشور جسمها كلمة "الفساد"، في إشارة إلى أن رائحة الفساد قد "فاحت". في حين يسجل محمد حاكم تساؤل المواطنين محدودي الدخل عن السبب وراء استشراء الفساد.



شكل ٢٦١: الفساد!!

(كاريكاتير، ٢ يوليو ٢٠٠٢)

(١) عبد العال، عام المليارات الطائرة، "الأهرام، "٢٠٠٣، عدد ٤٢٧٥٤.

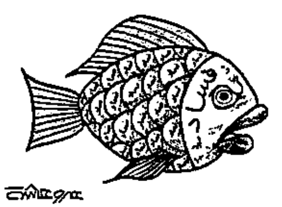
(٢) محمد شمروخ:

Mohamed Shamroukh. (2003). Lusus Athar khamas nigum (Five Star Antiquities thieves). Al Ahram. Issue 42754



شكل ٢٦٢: الفساد ٢!

(الدستور، ٢٥ سبتمبر ٢٠١٠)



شكل ٢٦٣: الفساد ٣!

(الوفد، ٨ أكتوبر ٢٠١٠)



شكل ٢٦٤: الفساد ٤!

"أيـوه البيـضه بـشلن علـشان ده بـيض "فـسدان"..ماإنـت عـارف إن كـل حاجـة في البلـد "فسدانه"..!!"

(الأهالي، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٦٥: الفساد ٥!

مواطن: شوفي لي .. مين سبب الفساد؟"

(الأهالي، ٣ ديسمبر ٢٠٠٣)

ومن القضايا التي شغلت الرأي العام كانت قضايا "نواب القروض"، في إشارة إلى استيلاء عدد من رجال الأعمال على المليارات من أموال البنوك عن طريق تفويضات ائتمانية أعطت لهم دون الوفاء بدراسات جدوى. ويرى بعض المراقبين بأن قضية نواب القروض تكشف عن خلل في السيطرة على القطاع المصرفي، كما تكشف عن قبض الفساد في هذا القطاع. وطبعًا حل نواب القروض ضيوفًا على الساحة الكاريكاتورية، خاصة بعد أن أذهلوا الشعب المصري "الغلبان" بكم الملايين (الأرانب) التي نهبت في ء ضح النهار.



شكل ٢٦٦: قروض البنوك!

"جاتك وكسة ياراجل..الناس دلوقتي بتسرق "أرانب"..وإنت رايح تسرق فراخ!!"

(الوفد، ٦ أكتوبر ٢٠٠٢)

صورت الرسوم كيف بدت مصر كأنها "تورتة" يتهافت عليها الفاسدون ليتقاسموها وينال كل منهم ما استطاع منها، وأن المنافسة الحقيقية باتت بين اللصوص في نهب مصر. كما صورت الرسوم كيف أن في النهاية من يدفع ثمن الفساد هو المواطن المصري من قوته وماله (انظر الرسوم التالية).



شكل ٢٦٧: نهب مصر ١!

"سيب .. دي بتاعتي .."، "لا بتاعتي أنا"، "لا انت ولا هو .. دي بتاعتي أنا!!"

(الدستور، ٦ أغسطس ٢٠٠٩)



شكل ٢٦٨: نهب مصر ٢!

"بفكر أغير تسميتي الوظيفية..بدل رجل أعمال حرة..أخليها رجل حركات قرعة"

(روزاليوسف، ٦-١٢ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٦٩: نهب مصر ٣!

(كاريكاتير، ١٥ يونيو ٢٠٠١)



شكل ٢٧٠: نهب مصر ١٤!

خادمة شقة الحكومة: "الفساد بيسأل يا سيدي؟ ح تنهب و لا ح تصوم؟!!"

(الأهالي، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٧١: نهب مصر ١٥!

(الأهالي — ١٠ ديسمبر ٢٠٠٢)



شكل ٢٧٢: نهب مصر ١٦!

"أنا كتبت للمدير بحث من ٧٠٠ ورقة بس عن كيفية ترشيد استهلاك الورق بالشركة!!"

(الأخبار، ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٧٣: نهب مصر ٧!

ترزي: "لا يا فندم ما ينفعش مدير ينفع وكيل مصلحة بس!"

(صباح الخير، ١٤ يناير ١٩٩٩)

تدهور مستوى التعليم:

شغلت المنظومة التعليمية وتداعياتها مساحة كبيرة من اهتمام الرسوم الكاريكاتورية في محاولة لفك العديد من ألغازها وشفراتها والتي تتفاقم عامًا بعد عام. ويتم تطبيق نظريتين أساسيتين في التعليم الأساسي والجامعي بنجاح: نظرية الحشر فأصبح مألوفًا تكدس الطلاب سواء في الفصول أو في المدرجات بالجامعة، ونظرية الحشو المؤقت والتي تعمل على التلقين الذهني بالمعلومات والتي يجترها الطالب في الامتحان فلا يبقى منها شيئًا بعد ذلك. رسم حجازي في عدد "روزاليوسف" (١ إبريل ١٩٧٤) مسؤول يحدث مؤلف كتب وزارة التعليم قائلًا: "برضه لسه شوية، عايز موضوعات المطالعة أبوخ من كده، والشعر أرزل من كده، لانك عارف طبعًا أن التلميذ لو قرأ شعر جميل وموضوعات ظريفة، ح ينبسط ويفتكر التعليم مسألة سهلة!"

أما الظاهرة الأساسية التي تطرق أبواب أولياء الأمور قبل بدء العام الدراسي هي ظاهرة الدروس الخصوصية. فقد اضطرت الأسر إلى اللجوء إلى المدرسين الخصوصيين ليشرحوا لأطفالهم الدروس التي صعب استيعابها داخل الفصل وإعدادهم للامتحانات النهائية. ونظرًا لتدني الأجور، وجد المدرسون في الدروس الخصوصية وسيلة لزيادة دخلهم وبالتالي رفع مستوى معيشتهم.



شكل ٢٧٤: الدروس الخصوصية!

"- أنا ما أعتبرش ولادي انتظموا في الدراسة..غير لما اشوف المدرسين الخصوصيين داخلين خارجين!"

(الأهرام، ١٩ أكتوبر ١٩٨١)

وتعتبر الشهادة الجامعية ذات أهمية خاصة جدًا عند معظم المصريين، فهي جواز سفر لتأمين فرص عمل "مرموقة". ومن أجل ضمان الالتحاق بكليات تعتبر في الصدارة (القمة)، يجب الحصول على مجموع كبير في امتحانات الثانوية العامة. ويضع معظم الآباء مزيدًا من الضغوط على أطفالهم لتحقيق حلمهم والالتحاق بكليات القمة، ويعتبر هذا سببًا آخرًا للجوء الآباء إلى الدروس الخصوصية ورفع حالة الطوارئ داخل المنزل لتهيئة الجو للاستذكار. وعادة ما تكون السياسة المستخدمة في الدروس الخصوصية هي سياسة تلقين الطالب بالمعلومات اللازمة لاجتياز الامتحانات بنجاح، مما يؤثر بالسلب على أداء الطالب في وقت لاحق في الجامعة أو بعد التخرج (انظر الرسوم التالية).

شكل ٢٧٥ ضغوط الآباء !!

"الحمد لله ما طلعناش بني آدمين..كان زمانهم يزنوا علينا..ذاكروا..ذاكروا..ذاكروا..ذاكروا"

(كاريكاتير، ٢ يوليو ٢٠٠٢)



شكل ٢٧٦: ضغوط الآباء ٢!

"-يكون في علمك لو مجبتش مجموع كويس حتقعد في البيت لغاية ميجي عدلك...!!"

(الأهرام، ١٥ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ٢٧٧: ضغوط الآباء ٣!

- "المجموع اللي انت جايبه ده مش يوديك كليه..ده يوديك في ٦٠ داهيه!!"

- "هاهاها..أنا كنت عبيط زيك كده من ١٠ سنين عشان فرحت إني جبت ٩٩٪..وأديني إتخرجت ومش لاقي وظيفه لحد دلوقتي!!"

- "دي دموع الفرح؟"

- "لأ..دي دموع الندم ع اللي دفعته في دروسك الخصوصية!!"

(الوفد، عدد ١٠١٢، سنة ٢٠٠٣)

ورسم رؤوف في صباح الخير (٢٤ مايو ١٩٧٩) أم تقدم لابنها فنجان قهوة قائلة: "طب ما بلاش يا حبيبي الثانوية العامة دي وذاكر حاجة تانية"، وفي كاريكاتير آخر، رسم الأم تتوعد طفلها الصغير قائلة: "إلهي أشوفك متشحطط في الثانوية العامة يا بعيد"! وكثيرًا

ما يكون التركيز إعلاميا على مدى صعوبة الامتحانات، بتصوير حالة التلاميذ النفسية حال خروجهم بعد الامتحانات، ولا مانع من وضع صعوبة الامتحانات في قالب كاريكاتوري سياسي ساخر.



شكل ٢٧٨: الامتحانات!

"يا بابا محدش من الطلبة حل حاجة، الامتحان كان صعب ومعقرب..عامل كده زي شروط الترشيح للرئاسة!!"

(المصري اليوم، ١٦ يونيو ٢٠١٠)

وتشكل الدروس الخصوصية ومجاميع التقوية عبئًا ماليًا ثقيلًا على الأسر المصرية في بلد يفترض أن التعليم فيه "مجانًا"! ووفقًا لمسح أجراه المعهد القومي المصري للتخطيط (٢٠٠٢)، تنفق الأسر الفقيرة خمس دخلها السنوي على التعليم[1].



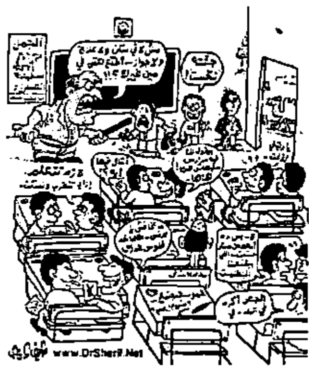
شكل ٢٧٩: مصاريف المدارس!

"ماقدرش ابيع حاجه تانيه ح اتفضح..!!"

(كاركاتير، ١ أكتوبر ٢٠٠٢)

(١) ماريز تادروس:
Mariz Tadros. (2001). Resistance clouds the future. Interview. Al-Ahram Weekly. Issue 558.

كما انتشرت ظاهرة العنف في المدارس، والحقيقة إن العنف لا يكون فقط من طرف المعلمين، بل في أحيانًا كثيرة يكون من طرف الطلبة. وفي لوحة كاريكاتورية معبرة صور شريف عرفة شكل الحياة الطلابية داخل الفصول الدراسية، وحمل المدرس المسؤولية الأكبر وراء العنف ضد الطلبة، وأن سلوكه هذا هو انعكاس لمشاكله الشخصية والتي هي اقتصادية بحتة.



شكل ٢٨٠: هموم المدرسين والطلبة!

المدرس للطالب المعاقب: "مش لاقي سكن ولا علاج ولا جواز..أطلع همي في مين غيرك؟!!"

طالب يشير إلى زميله المعاقب: "جتته نحست"!

طالب يحدث نفسه: "ياريتني زوغت"

طالب لزميله: "بيقول لك فيه مدارس مفيهاش ضرب! هاها.." يرد زميله: "أمال فيها إيه"؟!

طالب آخر لزميله: "لازم تتعلم ازاي تنضرب وتسكت".

طالب لزميله: "لا..بس ده أرحم من مستر حشمت..اللي بيقلعنا البنطلونات.."

طالب آخر لزميله بيدخن: "ماتخافش يا برنس..طالما أخد فلوس الدرس"

طالب آخر يحدث نفسه: "الجهل أكرم في البلد دي.."

طالب كتب عبارة على طاولته: "الموت للمجتمع.."مشروع إرهابي"

(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)

ولا يلبث أن يكتشف الطلاب الجامعيون بأن دراستهم الجامعية بعيدة عن متطلبات السوق واحتياجاته، ليصطدم الخريجون بصعوبة الحصول على عمل له علاقة بتخصصاتهم، وإن حدث ووجدوا وظائف تتطلب شهاده جامعية فإن مرتباتها لا تفي بالاحتياجات

المعيشية الأساسية. ورسم عمرو عكاشة (الدستور ٢٠٠٩) واحد عاطل "جامعي" يقول لزميله وهما جالسين على رصيف الشارع: "ليل نهار واجعين دماغنا بأطفال الشوارع .. ومحدش جايب سيرة شباب الشوارع!!"

للأسف الصفة العامة الملموسة في هذه الفترة هي عدم تقدير ذوي الكفاءات والتضييق عليهم ووضعهم تحت ضغوط بيروقراطية للنيل منهم وإحباطهم وتثبيط عزيمتهم ووضع العراقيل أمام تقدمهم المهني والأدبي. ولعل هذا هو السبب الرئيسي وراء هجرة عدد من المصريين الأكفاء إلى حيث التقدير والمناخ المناسب الذي يتناسب مع كفاءاتهم وعطائهم العلمي أو الأدبي. قدم شريف عرفة صورة كاريكتورية للوضع الذي وصل إليه البحث العلمي في مصر من خلال عرض سيناريو تخيلي للوضع الذي كان سيؤول إليه أشهر علمائنا اذا لم يهاجروا وفضلوا البقاء في مصر. فلو لم يهاجر دكتور أحمد زويل الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء لأصبح حبيسًا في معمل ذي إمكانيات فقيرة وسعيدًا لحصوله أخيرًا على "شهادة تقدير وعلاوة ١٦ جنيهًا"وأما عالم الفيزياء العالمي د. مصطفى السيدألكان في أشد درجات الإحباط وهو يفتقر إلى دخل كريم يتأمل بحسرة بعض علب صفيح السردين المستخدمة قائلًا: "مش لاقيين دهب...قالوالي: إعمل أبحاثك عالصفيح.." وأما عالم الفضاء د. فاروق الباز لتم ممارسة أسوأ أنواع البيروقراطية عليه لعدم رغبة النظام في الاستفادة من خبراته وإجباره على الحفر في أرض فضاء بسبب: "قلت لهم فيه بئر عذب هنا..قالوا لي: احفره انت!!" وأخيرًا عالم الفضاء د. عصام حجي لأصبح ليس أكثر من مدرس متواضع "يجري" خلف "لقمة العيش".



شكل ٢٨١: ماذا لو لم يهاجروا!

(www.drsherif.net، ٢٠٠٩)

ارتفاع معدلات البطالة:

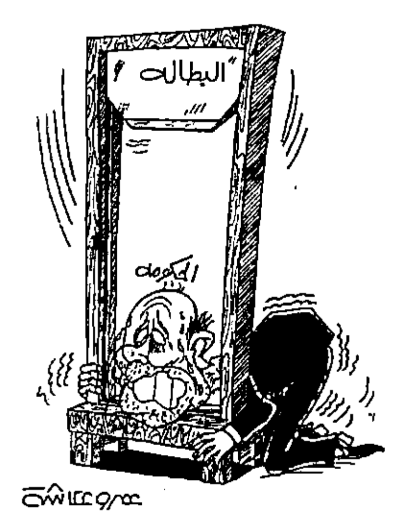
أزمة البطالة هي إحدى المشاكل الرئيسية التي تواجه مصر منذ فترة طويلة لكنه لم يكن أبدًا ملحوظًا بهذا الشكل كما هو اليوم. والحقيقة أن البطالة قد امتدت حتى بين بعض رسامي الكاريكاتير الذين لا يجدون مساحة لنشر أعمالهم. وأجمل ما رسم عن البطالة كان كاركاتير بريشة طوغان الذي يرى بأن البطالة منعت مصر من الاستفادة من مواردها البشرية الشابة. ويحذر عمرو عكاشة من خطر البطالة التي تشكل تهديدًا وتحدي حقيقيًا حقيقي لأي حكومة، بينما ينتقد سمير عبد الغني تعامل الحكومة مع مشكلة البطالة.



« المخزون الـــراكد! »

شكل ٢٨٢: المخزون الراكد!

(الجمهورية، ٢٠٠٣)



شكل ٢٨٣: أزمة البطالة ١!

(الوفد، ٢٢ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ٢٨٤ أزمة البطالة ٢!

(العربي، ٣ نوفمبر ٢٠٠١)

وقد ساهم نظام التعليم بشكل كبير في ارتفاع معدلات البطالة. فعادة ما يصطدم شباب الخريجين عندما يكتشفون أن دراستهم الجامعية لا تؤهلهم بشكل كافٍ للعثور على وظيفة ولا تقدم لهم المهارات اللازمة لضمان الحصول على فرص عمل. ويكتشف الخريجون بأنهم في حاجة إلى التدريب لفترة طويلة قبل أن يوظفوا، وفي نفس الوقت وبسبب حالة الركود، فإن أرباب العمل لا يملكون الوقت أو المال لتدريب شباب الخريجين ويفضلون "الجاهزين" ممن يملكون الخبرة. ولا يجد العديد من شباب الخريجين وظائف في

مجال دراستهم ولأسباب مادية يضطرون بالقبول بوظائف بعيدة تمامًا عن طموحاتهم أو خلفيتهم التعليمية. فاليوم من الشائع أن ترى طبيبًا أو محاسبًا يعمل كمندوب مبيعات أو كعامل دهان أو كموظف استقبال أو حتى عاملًا في مقهى أو مطعم.



شكل ٢٨٥: أزمة البطالة ٣!

الزبون: "ازايياابني .. تبقى دارس طب وتشتغل هنا؟"

الجرسون: "أستاذي في الجامعة هو صاحب الكافيتريا"

(العربي، ٣ نوفمبر ٢٠٠٢)

تدهور الاقتصاد المصري:

الركود الاقتصادي وأزمة السيولة وارتفاع الأسعار وتدني متوسط الدخل وانخفاض قيمة الجنيه المصري تعتبر من المرادفات اللغوية الضديقة التي يكثر الإشارة إليها في حديثنا العابر اليومي أو في الصحف وبرامج "التوك شو". وكانت الحكومات المتعاقبة دائمًا ما تلقي اللوم على الانفجار السكاني كسبب رئيسي لحالة الركود.

وكما أشرنا سابقًا، فقد تبنى السادات سياسة الانفتاح بعد نصر أكتوبر التي وصفت من قبل كثير من المتخصصين بالكارثة. ومع أن هذه السياسة قد نجحت في تدفق كميات كبيرة من العملة الأجنبية، إلا أنها أتت بنتائج سلبية على عكس ما كانت تتوقعه الحكومة. فقد أدت إلى ارتفاع الأسعار وتدهور القطاع العام وعدم القدرة على منافسة الواردات، والأهم، ذهبت الاستثمارات إلى قطاعات مثل السياحة والعقارات والبنوك ولم تذهب إلى قطاعات تنموية مثل الصناعة.

أدرك نظام مبارك الأخطاء الاقتصادية التي وقع فيها السادات فخطط أن يكون الانفتاح جذابًا للمستثمر المصري والأجنبي وأن يوجه للإنتاج أكثر منه للاستهلاك وذلك جزئيًا عن طريق محاولة الحد من استيراد السلع الغير ضرورية[1]. وتعاملت الحكومات في عصر مبارك بحذر مع المواد الغذائية المدعمة لتجنب تكرار مظاهرة رغيف العيش التي حدثت في عصر السادات. وبخلاف الخبز المدعم هناك عدة سلع غذائية رئيسية يتم دعمها من قبل الحكومة ومنها: الدقيق والعدس والفول والزيت والسكر أبها يشكل عبئًا على ميزانية الحكومة لتلبية احتياجات الطبقة الفقيرة. ومع ذلك لا يرى مصطفى نوفل أستاذ علوم الأغذية بجامعة الأزهر أنها تلبي الاحتياجات الرئيسية للفقراء. فهو يعتقد بأن الحكومة لابد وأن تضيف السكر البني لما يحتويه من حديد وكالسيوم وأن تضيف البيض واللبن ليحل محل اللحم الذي لا تستطيع العائلات الفقيرة أن تشتريه[2].

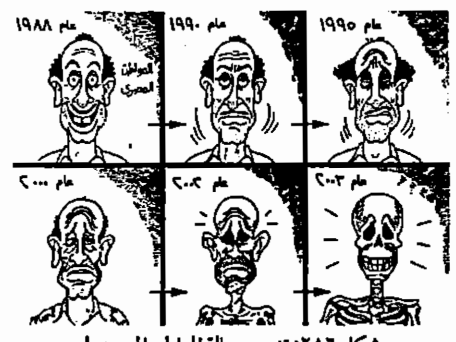
تصور الرسوم الكاريكاتورية المواطن المصري على أنه ضحية الغلاء وارتفاع الأسعار دون مبرر واضح في ظل غياب حقيقي لمفهوم "حماية المستهلك". وأصبحت لعبة العصا والجزرة التي أطلقت مرارًا على سياسة أمريكا في الشرق الأوسط هي اللعبة المفضلة لدى الحكومة المصرية عندما تتعامل مع المواطن المصري الذي لا يسمع غير الوعود الرنانة بتوفير حياة كريمة ولا يجد في الواقع غير قسوة الغلاء وأزمة السكن والبطالة ورداءة الخدمة في كثير من القطاعات.

استعرض الرسام عمرو عكاشة في الكاريكاتير التالي تأثير حالة التدهور في الاقتصاد المصري على المواطن المصري منذ الثمانينيات. وصور أحمد طوغان حجم الأعباء الملقاة على كاهل المواطن المصري الضعيف والتي منها الديون الخارجية والإهمال والركود الاقتصادي والانفجار السكاني...إلخ. كما سجل زهدي العدوي معاناة الفلاح الذي أصبح أكثر فقرًا ولا عجب أن يساوي حصيلة دخله صفرًا.

---

(١) ديريك هوبوود:
Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.

(٢) محمد النحراوي:
Mohamed Al Nahrawi. (2003). Al aawda lebtaqat al tamwin (Back to the food-supplies card). Al-Ahram. Issue 42754.



شكل ٢٨٦: تدهور حالة المواطن المصري!

(الوفد، ٢٥ أغسطس ٢٠٠٣)



شكل ٢٨٧: حمال الأسية!

(الجمهورية، ٢٠٠٢)



شكل ٢٨٨: دخل الفلاح المصري!

(زهدي، ١٩٩٨)

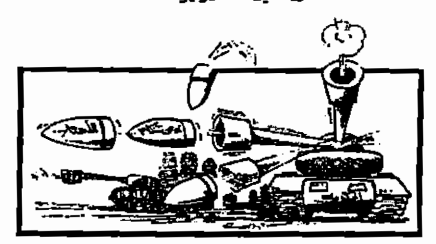
قدمت الرسوم الكاريكاتورية الغلاء في هيئة غول أو حيوان مفترس أو قط شره ينقض على طعام "الغلابة" ليسلب ما فيه. ولطالما وضعت الأجور في مقارنة مع ارتفاع الأسعار، فصورت الأجور بسلحفاة تسير بمحاذاة حصان أو بزوج نحيل جدًا يجلس ملاصقًا لزوجته البدينة جدًا. كما صورت الرسوم ارتفاع الأسعار بحرارة الصيف الشديدة "المولعة"، وساد اتجاه كاريكاتوري بوضع اللحمة في فاترينة عرض لإتاحة الفرصة لرؤيتها طالما أصبح من الصعب اقتنائها.

أكد عبد العزيز تاج أن متوسط الأجور لا يتناسب مطلقًا مع الأسعار ولا يغطي النفقات العادية، بينما حمل ممدوح طلعت الحكومة المسؤولية لارتفاع الأسعار وتثبيط الشكوي. وصور محمد حاكم حالة الإفلاس التي وصل إليها المواطن المصري الذي أصبح لا يحتكم على مليم واحد داخل جيوبه. ورسم عمرو عكاشة كيف أن الموظفين والأطباء قد انضموا مؤخرًا إلى صف المتسولين. وصور حسن فداوي كيف أن خط الفقر "مطاطي" تتحكم به فئة رأس المال المسيطرة. كما قدم وليد طاهر مفارقة بين ما يطالب به الفقراء وهو "الحد الأدني من الأجور"، وما يطالب به الطبقة الثرية الفاسدة وهو "الحد الأقصى للفجور"! وكانت معظم المظاهرات التي شهدتها مصر خاصة في عامي ٢٠١٠ و٢٠١١ تطالب برفع الحد الأدنى للأجور، كما ستتم مناقشته لاحقًا.



شكل ٢٨٩: الأجور!

(كاريكاتير، ٥ يونيو ٢٠٠١)



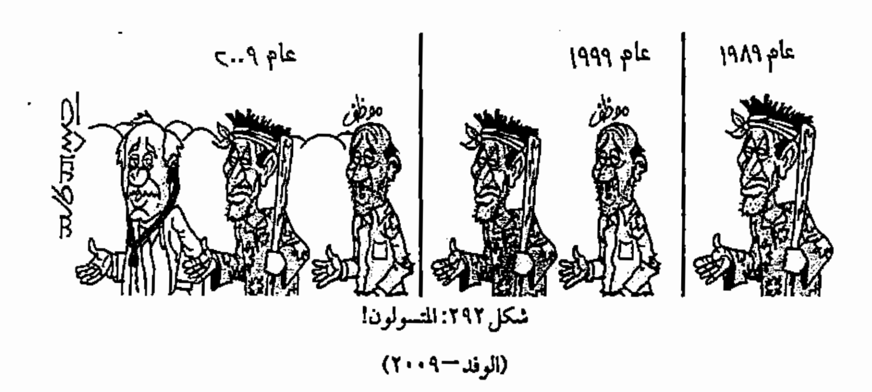
شكل ٢٩٠: ارتفاع الأسعار !!

(كاريكاتير، ٣ مايو ٢٠٠٣)



شكل ٢٩١: الجيوب الخاوية!

(كاريكاتير، ٢٥ مارس ٢٠٠٢)



شكل ٢٩٢: المتسولون!

(الوفد – ٢٠٠٩)



شكل ٢٩٣: خط الفقر!

فقير: "هو اللي بيتحكم في خط الفقر .. يعليه على مزاجه ويوطيه على مزاجه"

(حسن فداوي[1]، ٨ أغسطس ٢٠١٠)



شكل ٢٩٤: الحد الأدنى للأجور!

(الشروق، ٥ مايو ٢٠١٠)

---

(١) حسن فداوي، موقعه الشخصي على "فيس بوك"، ٢١ أغسطس ٢٠١٠، تم الاطلاع في ٨ أغسطس ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
https://www.facebook.com/media/set/?set=a.10150170302205252.428371.877935251&type=3

ومن قلب مؤسسة "أخبار اليوم"، ظهر الدويتو الشهير، الرسام مصطفى حسين والكاتب الساخر أحمد رجب، اللذان عملا سويًا ومتعا قرائهما بمزيج كاريكاتوري من الخطوط المبهرة والنقد اللاذع وابتكرا سويًا عددًا من الشخصيات الكاريكاتورية التي خرجت كخلاصة لنماذج إنسانية عديدة زخر بها المجتمع المصري ونالت شهرة واسعة، ومن أشهرها حنطورة، وعبده مشتاق، وفلاح كفر الهنادوة، والكحيت، وعزيز بك الأليت، وعبد الروتين، ومطرب الأخبار، وعباس العرسة، وعلي الكومندا، وكمبوره بيه، وغيرهم.

اعتمدت معظم رسومهما على المحادثات الطويلة الساخرة بين شخصين أو أكثر، ومن أشهرها تلك التي كانت بين رئيس الوزراء آنذاك عاطف عبيد وفلاح كفر الهنادوه، السلسلة التي كان لها تأثير كبير وسجلت نسبة مشاهدة عالية بين الجمهور المصري. في الكاريكاتير التالي، يشرح عاطف عبيد لفلاح كفر الهنادوة أسباب أزمة السيولة في مصر!



شكل ٢٩٥: إشاعات!

"..وماتديش ودنك للإشاعات..إحنا نسبة الفقر عندنا ٣٪ يعني حوالي ٢ مليون فقير..إحنا أغنيا..إحنا أقويا..شوف هرم خوفو يساوي كام..أبو الهول..النيل..وعايزك تعرف إن معندناش أزمة اقتصادية..الفلوس موجودة بس عندنا أزمة فكة..معانا ورقة بخمسين مليار وعاوزين نفكها ومش لاقين حد معاه فكة ٥٠ مليار..آدي القصة وبطلوا إشاعات"

(أخبار اليوم، ٨ مارس ٢٠٠٣)

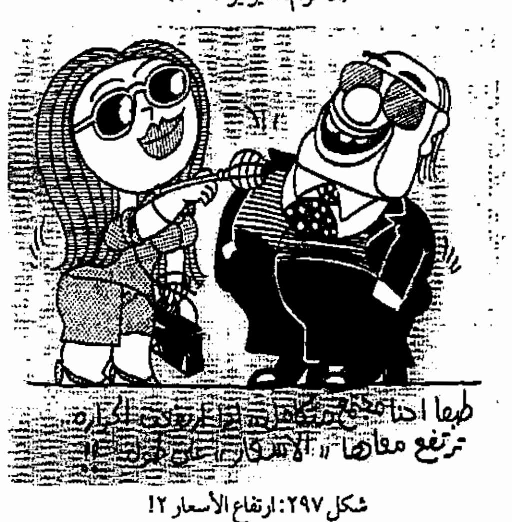
ويعتقد جمعة فرحات بأن ارتفاع الأسعار وليس ارتفاع درجات حرارة الصيف هو السبب وراء تصبب المواطنين العرق، بينما يرى تاج بأن الحكومة تستغل حرارة الشمس لتبرير "ارتفاع" الأسعار. ويعتقد تامر يوسف بأن حمى ارتفاع الأسعار قد أصابت أيضًا رسوم المكالمات المحلية.



شكل ٢٩٦: ارتفاع الأسعار ١!

"إنت مش مستوي م الحر..ده إنت أكيد مستني زيي م الأسعار"

(الأهرام، ٨ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ٢٩٧: ارتفاع الأسعار ٢!

(كاريكاتير، ٢٥ مارس ٢٠٠٢)



شكل ٢٩٨: ارتفاع الأسعار ٣!

بابا نويل: "يا ناس اختشوا...حاجيبلكم إيه..والأسعار مولعة كده"

(الأهرام، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٢٩٩: ارتفاع الأسعار ٤!

"المسكين يا عيني اتجنن من ساعة ما جاتله فاتورة التليفون!"

(كاريكاتير، ٢ يوليو ٢٠٠٢)

ويطرح رجائي ونيس تأملاته حول النظام العالمي الجديد الذي تصنف فيه "اللحمة" من ضمن الأثريات المتوفرة فقط داخل المتاحف، ليتمكن العامة من رؤيتها والتعرف عليها. في حين يطرح سمير عبد الغني المشكلة التي تواجه الكلاب الآن بعد أن تحول الناس إلى أكل العظام كبديل عن اللحم!





شكل ٣٠٠: النظام العالمي الجديد!
(بهجت[1]، ١٩٩٥)



شكل ٣٠١: أزمة عضم!

"الناس لما كانت بتاكل لحمه .. إحنا كنا بنلاقي العضم .. لكن لما الناس تاكل العضم الكلاب تعيش ازاي في البلد دي ..!"

(العربي، ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٣)

(١) بهجت، "رفاق سلاح"، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٥.

حتى الفول المصري الذي يشكل الطبق الرئيسي للبروتين (تعويضًا عن اللحمة) عند أغلب الشعب لم يسلم هو الآخر من ارتفاع الأسعار. ويتوقع جمعة أن تصبح "قدرة" الفول في "مقام" اللحمة وتعلق هي الأخرى خلف الجزار، بينما يحذر عمرو عكاشة من انقراض "قدرة" الفول ويحث الناس على التقاط صور تذكارية لها. ويربط فرج حسن بين ارتفاع سعر الفول وارتفاع سعر طن الحديد!



شكل ٣٠٢: ارتفاع سعر الفول ١!

(الأهرام، ١٥ يوليو ٢٠٠٣)



شكل ٣٠٣: ارتفاع سعر الفول ٢!

"صور بسرعة..أحسن مش هشوفه تاني!!"

(الوفد، ٢٠٠٣)


شكل ٣٠٤: ارتفاع سعر الفول ٣!

"غالي إيه يا أستاذ داك له حديد وشوف سعر الطن وصل كام"

(الأهرام، ١٢ أغسطس ٢٠٠٨)

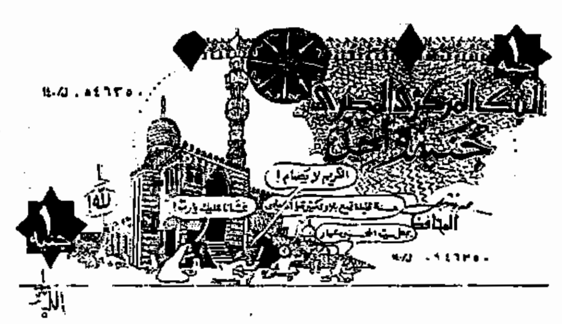
تحسرت الرسوم الكاريكاتورية على الأيام الخوالي للجنيه المصري (أيام ما كان "جبس"، عشر ورقات منه تعيشك ملك)، وتبكي حاله اليوم بعد أن أصابته عوامل التعرية لينكمش حجمًا وقيمة ومع كثرة تداوله يصل إلى أيدي الناس باليًا وتظهر عليه علامات التعفن ناقلًا للفيروسات والميكروبات ونصيحة.. إياك وأن تشمه.

وبعد أن تغنت الطفلة فيروز للريال (فئة العشرين قرشًا) في فيلم "ياسمين" عام ١٩٥٠ قائلة: "معانا ريال معانا ريال...دا مبلغ عال ماهوش بطال"، رسمها رمسيس ("صباح الخير"، ١٨ فبراير ٢٠٠٣) تقدم أغنيتها بعد التعديل بما يتناسب مع متطلبات العصر "معانا مليار معانا مليار!!" كما غنى عمرو عكاشة باكيًا في وداع الجنيه المشلول والمغلوب على أمره: "يا جنيه قولي رايح على فين...يا جنيه قولي وفايتني لمين". وقدم محي الدين اللباد توقعاته للشكل الذي ستكون عليه ورقة البنكنوت فئة الجنيه بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات حتى تتناسب مع المتغيرات المحلية، فيظهر أمام مسجد السلطان قايتباي (على وجه الجنيه) مجموعة من المتسولين (الشعب المصري) يطلبون صدقة. أما على ظهر الجنيه، فتظهر صورة جورج واشنطن، أول رئيس للولايات المتحدة، في إشارة لهيمنة الدولار على الجنيه المصري.

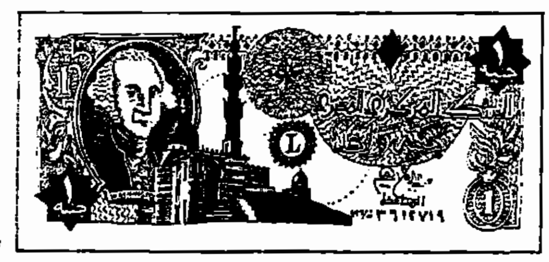


شكل ٣٠٥: الجنيه المصري ١!

(الوفد، ٢٣ يوليو ٢٠٠٢)



شكل ٣٠٦: الجنيه المصري ٢!
(اللباد ١٩٨٧)



شكل ٣٠٧: الجنيه المصري ٣!
(اللباد ١٩٨٧)

ومؤخرًا صكت الحكومة من الجنيه عملة معدنية حتى "يشخلل" جيب المواطن، كخطة لإنعاش حركة شراء البنطلونات المحلية ذات الجيوب بعد أن ركد بيعها فترة!! وفي كاريكاتير لعمرو عكاشة نشر في صحيفة "٢٤ ساعة" (٢٠٠٩)، أحد الأشخاص يسير وجيوبه "تشخلل" من امتلائها بعملات فضية ويرد على شخص آخر ينادي عليه قائلًا: ""أبو علي" مين..دانا حاسس إني "أبو لهب" بعد ما أخدت باقي الـ ٥٠ جنيه..جنيهات فضة!"

ويتوقع سمير عبد الغني ضياع هيبة الجنيه محليًا وتفضيل تداول العملة الأجنبية بديلًا له، بينما يرى فرج حسن أن في هبوط "سعر" الجنيه تأكيدًا على أن ليس كل السلع أسعارها في ارتفاع. ووضحت دعاء العدل كيف أن فئات المجتمع محدودة الدخل أكثر تأثرًا بهبوط قيمة الجنيه. وفي لوحة كاريكاتورية بديعة، حسم مصطفى حسين نهاية المواطن المصري مصلوبًا على قدره "الجنيه" الذي لا مفر منه.



شكل ٣٠٨: الجنيه المصري ٤!

"احمد ربنا .. إني بتعامل معاك بالجنيه المصري"

(العربي، ٧ سبتمبر ٢٠٠٣)



شكل ٣٠٩: الجنيه المصري ٥!

"بالعكس فيه سلع "سعرها" بيقل عنك مثلًا الجنيه.. "سعره" في النازل أهه"

(الأهرام، ٨ مايو ٢٠٠١)





شكل ٣١٠: الجنيه المصري ٦!

(المصري اليوم – ١٩ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٣١١: الجنيه المصري ٧!
(النصف الآخر، نصف الدنيا، ٩ نوفمبر ٢٠٠٢)

ونتيجة للأوضاع الاقتصادية السيئة، نمت لدينا ثقافة "الفاترينة" بشكل أصبح يستفز أصحاب المحلات والعاملين فيها، فمن المعتاد رؤية العشرات وقد اصطفوا أمام فاترينة ما وكأنهم يشاهدون "ماتش" كورة أو بوستر لمارلين مونرو. وشغلت هذه الظاهرة لب وريشة رسامي الكاريكاتير على ما يقرب من نصف قرن، فنجد كاريكاتير لكمال، في "صباح الخير" في أواخر الثمانينات، وفيه بائع الياميش يخاطب مذيعة التلفزيون قائلًا: "حاليا عندي نوعين من الزباين..نوع مستهلك وده نادر..ونوع متفرج وده اللي متوفر!!"

وتسبب عدم توفر أو ارتفاع سعر رغيف العيش إلى تنغيص حياة المواطن المصري ليصبح شغله الشاغل، فبدونه لا يهدأ له بال ولا يبالي بأعياد أو مناسبات. من منا لا يتذكر شادية وهي تشدو في الثمانينيات احتفالًا بتحرير سيناء: "ياللي من البحيرة وياللي من آخر الصعيد..ياللي من العريش الحرة أو من بورسعيد..هنوا بعضيكم وشاركوا جمعنا السعيد..سينا رجعت كاملة لينا..ومصر اليوم..مصر اليوم في عيد". الأغنية التي ارتبطت بأعياد تحرير سيناء في ٢٥ إبريل، مع إنها لم "ترجع كاملة لينا"، فقد كان ينقصها طابا. فوفقًا لمعاهدة السلام ١٩٧٩، تعهدت إسرائيل بسحب قواتها كاملة من سيناء في ٢٥ إبريل من عام ١٩٨٢. إلا أن إسرائيل لم تلتزم بتاريخ الانسحاب وبحثت في جعبتها عن ادعاءات باطلة تفيد حقها في منطقة طابا، لتخلق بذلك أزمة سياسية ويحال النزاع إلى هيئة تحكيم دولية في عام ١٩٨٦، والتي أعلنت عن وجوب عودة طابا إلى أحضان الوطن الأم في ٢٩

سبتمبر ١٩٨٨. واختتمت المفاوضات بين مصر وإسرائيل بشأن طابا في ٢٦ فبراير ١٩٨٩، ليرفرف علم مصر أخيرًا فوق سماء طابا في ١٩ مارس ١٩٨٩.

والمثير للدهشة أنه بدلًا من أن تفرد المساحات الشاسعة احتفالًا بعودة طابا إلى السيادة المصرية، فرضت مشكلة رغيف العيش نفسها على الساحة الإعلامية وسرقت قدر من فرحة المصريين بعودة طابا. فعلى سبيل المثال، تنوعت العناوين والمواضيع في "روزاليوسف" من "صباح الخير يا طابا" و"عودة طابا" إلى "معركة رغيف العيش" و"قضايا تهريب الدقيق التي وصلت لـ ٥٠ قضية في شهر واحد" إلى "مسلسل بيع العيش في السوق السوداء". وفي إحدى تحقيقات "روزاليوسف" يفصح عمال المخابز وأصحابها بأنهم لعشرين سنة مضت لم يسبق وأن رأوا مثل هذه الطوابير التي تتزاحم أمام مخابزهم!!

وأثر ذلك بالتبعية على الرسوم الكاريكاتورية التي مزجت بين احتفالات عودة طابا ومعارك طوابير العيش. فصور محمد حاكم فرحة رجوع طابا بفرحة الأب (مصر) بعودة ابنه الصغير إلى أحضانه. ورسم جمعه فرحات ملاك السلام (على هيئة امرأة جميلة ذات جناحين) وهي تقلد الرئيس حسني مبارك نيشان طابا. ورسم محمد حاكم مبارك وهو يقود أفراد الشعب ويحمل علم مصر. ورسم رؤوف عياد مواطنًا يحتد على عامل "بمخبز زينهم" قائلًا: "عرفنا نفتح "منفذ طابا" .. مش عارفين تفتحوا "منافذ" لتوزيع العيش .. يا متخلفين..!!" وصور جمعة وزير التموين السابق جلال أبو الدهب وهو يعلن تخوفه من توفير رغيف العيش حتى لا ينادونه "بأبو دقيق"! ويشدو رؤوف بإحدى أغاني عبد الحليم حافظ يجدها مناسبة لهذه الأزمة: "عيش" أيامك "عيش" لياليك...خللي شبابك يفرح بيك!!"



شكل ٣١٢: عودة طابا !!

(صباح الخير، ١٦ مارس ١٩٨٩)



شكل ٣١٣: عودة طابا ٢!

(روزاليوسف، ٢٧ مارس ١٩٨٩)



شكل ٣١٤: وعادت سيناء!

(صباح الخير، ٢٩ إبريل ١٩٨٢)



شكل ٣١٥: أزمة رغيف العيش ١!

"عرفنا نفتح "منفذ طابا"..مش عارفين تفتحوا "منافذ" لتوزيع العيش..يامتخلفين..!!"

(صباح الخير، ٣٠ مارس ١٩٨٩)



شكل ٣١٦: أزمة رغيف العيش ٢!

"خايف أوفر لهم العيش أحسن يسموني "أبو دقيق" مش "أبو الدهب"...!!"

(روزاليوسف، ٣ ابريل ١٩٨٩)



شكل ٣١٧: أزمة رغيف العيش ٣!

"- وفي ذكرى رحيل عبد الحليم حافظ نقدم لكم أغنية "عيش" أيامك.. "عيش" لياليك.. خللي شبابك يفرح بيك!!"

(صباح الخير، ٦ ابريل ١٩٨٩)

تناولت الرسوم معاناة المصريين مع طوابير العيش التي قد تمتد إلى خارج حدود البصر، هذا بخلاف المعارك التي تشهدها التي كثيرًا ما تسفر عن سقوط ضحايا. رسم رؤوف عياد في كاريكاتير نشر في "روزاليوسف" في إبريل ١٩٩٠ تحت عنوان "إميتاب باتشان ٣ ساعات" وفيه وزير التموين يقول مستنكرًا: "الناس غريبة..تموت في الفرجة بالثلاث ساعات...ولما "يموتوا" في طوابير العيش ولا سكر يزعلوا..!!"



شكل ٣١٨: طابور العيش ١!

"لو مشيت مع الطابور ده طوااااالي....عارف تلاقي إيه؟...تلاقي مخبز نص آلي"

(الأخبار، ٢١ ديسمبر ٢٠٠٣)



شكل ٣١٩: طابور العيش ٢!

(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٣٢٠: طابور العيش ٣!

"وانا في أول الطابور الواد كان في أولى ابتدائي ..ولما وصلت لآخره..الواد بقى في تانيه!"

(٢٤ ساعة، ٢٠١٠)



شكل ٣٢١: طابور العيش ٤!

"بقالي أسبوع ما شوفتش حد من عيليت..العيال في طابور العيش وأمهم في طابور الجمعية وأنا في طابور المعاش!!"

(٢٤ ساعة، ٢٠٠٩)

وصور مصطفى حسين فلاح كفر الهنادوة وهو يعرض على رئيس الوزراء وقائع الصراع القائم حول قانونية توريث مطرح "المرحوم طلبه الكلاف" في طابور العيش. وصور عمرو عكاشه كيف أن رغيف العيش أصبح أفيون المصريين، فرسم المواطن "يترجى" رئيس الوزراء أحمد نظيف "يديله شمه".



شكل ٣٢٢: طابور العيش ٥!

"...والإصة إن المرحوم طلبه الكلاف سقط ميت وهو واقف في طابور العيش..قامت مراته وقفت ابنها الواد جعدار مطرح أبوه في الطابور..الناس زرجنت في الطابور..قالت لهم ده شرع الله وحق الولد يورث المطرح اللي كان واقف أبوه تلت تيام بلياليها لحد ماطب ساكت..رد زغلول افندي وقال لها الكانون بيقول لازم إعلام وراثة عشان ابنك يورث

مطرح أبوه في الطابور..قالوا البيه عاطف يكلم وزير التموين يبعت طورة عيش لأم جعدار..رد ابن ابو سليم قال ده تلاقي الوزير واقف طابور بقاله يومين..نهايته كلفوني اترجى البيه عاطف يخلص لها إعلام الوراثة لجل ما الواد يورث مطرح ابوه في الطابور..ربنا ما يوقعك في ديقة يا بيه ويخللي لك الكرسي ويجعله عامر"

(أخبار اليوم، ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٣)



شكل ٣٢٣ رغيف العيش!

(الوفد، أغسطس ٢٠٠٨)

ومن المآسي التي كثرت في الآونة الأخيرة ما يتعلق بأزمة "أنابيب البوتاجاز"، التي مازالت تشكل أحد مصادر الوقود الرئيسية المهمة في الحياة اليومية للأسرة المصرية. وتكثر المأساة حينما ينفذ في المستودعات الكمية المناسبة التي تكفي احتياجات المواطنين، لتنتشر مافيا السوق السوداء التي تستفيد من نقص الكميات لتبيعها أضعافًا مضاعفةً للأهالي، كما تظهر أعمال البلطجة في طوابير البوتاجاز لتكون أكثر ضراوة من مثيلاتها في طوابير العيش، ويقع من جرائها جرحى وقتلى. رسم توفيق في "المصري اليوم" (١١من فبراير ٢٠١٠) مواطن معدم في صحراء جرداء وتحت قسوة الشمس القارصة يجري خلف سراب لأنبوبة بوتاجاز، يراها ولكن لا يستطيع الوصول إليها.

أما حلمي التوني فقد قارن في صحيفة "الأهرام" تحولات المرأة المصرية التي لقبها "بالجميلة" عبر العصور، ففي الزمن الماضي كانت "الجميلة" تحمل فوق رأسها بدلال "زلعة" الماء أو الجبن، بينما في الحاضر، تبدو السيدة المصرية أكثر قبحًا وغضبًا وأجدر على دخول معارك طاحنة للحصول على "أنبوبة البوتاجاز" التي أصبحت هي ما تحمله فوق

رأسها، في إشارة إلى كيف ساهمت البيئة "القاسية" في تحول المرأة المصرية، فشتان بين "الزلعة" و"أنبوبة البوتاجاز".

تطور الجميله المصريه عبر العصور !!



شكل ٣٢٤: تطور الجميلة المصرية عبر العصور!

(الأهرام، ٢٩ يناير ٢٠٠٩)

وعمل أيضًا الكاتب الساخر أحمد رجب مع الرسام عمرو فهمي في سلسلة "كفر الهنادوة" الكاريكاتورية، وفي الكاريكاتير التالي يحكي فلاح كفر الهنادوة لأحمد نظيف مشكلة الدعم وأنبوبة البوتاجاز.



شكل ٣٢٥: الحكومة والدعم!

"والواد ابن ابو سليم آل بيقول الحكومة حتشيل الدعم في الوقت اللي مجلس الشعب هايج على مصاريف الحكومة بالمريارات في الفشخرة والفنجرة..قلت له اخرس ياوله..اخرس ايه..يعني يصح يابا الحاج نشتري بمبة البوتاجاز بـ ٢٧ جنيه والرغيف بتلاتين قرش والحكومة بتاكل بغاشة؟ هب الشيخ حمزة وقال ده تمن باب واحد من المرشيدس..يجيب

الشئ الفلاني للدعم..وراح مطلع السبحة السودة بتاعة الدعا وهات يا دعاع الحكومة وربنا يسلم ويجعله عامر"

(عمرو فهمي[1]، ٢٠١٠)

ومع زيادة معاناة فئات الشعب الكادحة، تصور دعاء العدل كيف تعوض بعض الأسر متطلباتها الترفيهية التي لا تستطيع توفيرها، مثل الذهاب إلى مصيف. ففي الكاريكاتير التالي، هيأ رب الأسرة الجو التخيلي للمصيف، وكأنه هو وزوجته وأولاده يجلسون على شاطئ البحر.



شكل ٣٢٦: المصيف!

(المصري اليوم، ٧ يوليو ٢٠١٠)

ويعلن مبارك سنويًا عن العلاوة الاجتماعية التي تصرف في أول يوليو من كل عام، والتي ينتظرها جموع الشعب مع اداركهم بأن العلاوة ستأتي ومعها كما هو معتاد زيادة في أسعار مواد غذائية رئيسية، وبالتالي لن "يلحقوا" ويهنؤوا بها، فما سيأخذونه باليمين سيسلب منهم باليسار أضعافًا مضاعفة، ومع ذلك ينتظر الناس "العلاوة" بفارغ الصبر.



شكل ٣٢٧: علاوة أم عضمة!

مسؤول: "الشعب ده مالهوش علاوه غير دي"

(الأهالي، ٢٢ يوليو ٢٠٠٥)

---

(١) عمرو فهمي، موقعه الشخصي، تم الاطلاع في ١٠ من ديسمبر ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني: http://www.amr-fahmy.com/fallah.asp?c=4&id=2519



شكل ٣٢٨: العلاوة!

"عشمتني بالحلق..خرمت انا وداني....بعد ما قلت هسدد ديوني..بقيت أقول آه ياني..أشوف فيك يوم يالي كسرت بخاطري وخاطر عيالي..يجيلك ويحط عليك انت وحبيبك "الغالي"!"

(الدستور، إبريل ٢٠٠٩)

وكأن كل ما سبق لم يكن كافيًا للتضييق على المواطن المصري، فأصدر وزير المالية السابق يوسف بطرس غالي لائحة تنفيذية لقانون جديد للضرائب العقارية، عرف بـ "قانون غالي"، رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠٨، والذي شمل على ٢٢ مادة يتم تطبيقها في يناير ٢٠٠٩، وهي ضريبة لا تحصل على وحدات تقل قيمتها السوقية عن ٤٥٠ ألف جنيه. تم الإعلان عن هذا القانون في ظل انتقاد وسخط واسع النطاق، فهناك من يرى أن الضريبة غير دستورية بالمرة لانتهاكها صون الملكية الخاصة التي كفلها الدستور وانتهاكها مبدأ العدالة الضريبية التي تمنع اقرار ضريبة على رأس مال ثابت لا يدر دخلًا. وفي ظل إصرار الحكومة على تمرير القانون بعد الموافقة عليه من قبل مجلسي الشعب والشورى، فاجأ مبارك الناس، في زيارة له بكفر الشيخ (٢٠١٠)، بتصريحه بأن القانون "لم يحسم بعد"[١]، مما شكل إحراجًا لحكومة أحمد نظيف آنذاك، الذي أصدر على أثره قرارًا يقتضي بتجميد العمل بالقانون رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠٩ بشأن الضريبة على العقارات المبنية.

ومن المثير للدهشة أنه بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، أصدر المجلس العسكري مرسومًا عسكريًا يقضي بعودة فرض الضريبة على العقارات المبنية، وفقًا لأحكام "قانون غالي" رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠٩ (دون تعديل) اعتبارًا من أول يناير ٢٠١٢[٢]، في وقت يتهم صاحب

(١) محمد عبد السلام، "تصريحات الرئيس مبارك بخصوص الضريبة العقارية"، مقالات وكتاب، "الأهرام الرقمي"، ١٩ يناير ٢٠١٠، تم الاطلاع عليه في ٢٥ ديسمبر ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني: http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=73109&eid=2555

(٢) المجلس العسكري يعيد فرض "للضريبة العقارية"، "المصري اليوم"، ١٦ سبتمبر، ٢٠١١.

القانون الوزير السابق بإفساد الحياة الاقتصادية والسياسية. لم يلق المرسوم العسكري صدى في الشارع لانصراف انتباه الناس لتحديات ما بعد الثورة كنتيجة لاستمرار الاحتجاجات والانفلات الأمني والهبوط الاقتصادي، كما سنشير إليه لاحقًا.



شكل ٣٢٩: كبسة..كبسة!

"مبارك: الضريبة العقارية لم تحسم بعد!"

(المصري اليوم، ٢٠ يناير ٢٠١٠)



شكل ٣٣٠: لضرائب العقارية!

"بتدفع عليه ضرائب؟"

(صباح الخير، ٢٦ يناير ٢٠١٠)

وسلطت الرسوم الضوء على بعض الدراسات التي أفادت بأن نسبة المواطنين المصريين المصابين بالاكتئاب بسبب التدهور الاقتصادي الحالي في ازدياد. ففي كاريكاتير له نشر بالوفد، حمل عمرو عكاشة الحكومة المسؤولية للحالة النفسية التي وصل إليها المواطن المصري. ويؤكد سمير عبد الغني على أنه ثمة علاقة بين سوء الأحوال الاقتصادية التي يعيشها المواطن المصري وانتشار مرض الاكتئاب. وطبعًا لم يفوت الكاتب الساخر أحمد

رجب الفرصة في تقديم رد تخيلي لرئيس الوزراء عاطف عبيد عن مسألة الاكتئاب هذه، وأجده من أطرف ما كتبه أحمد رجب في مسألة الغلاء والتدهور الاقتصادي.



شكل ٣٣١: الاكتئاب ١!

"ولسه .. في الخطة الخمسية الجايه هيوصلوا لـ ٦٦ مليون!!"

(الوفد، ٢٠٠٣)



شكل ٣٣٢: الاكتئاب ٢!

"احكي لك ايه يا دكتور ... هو انت مش من البلد دي؟"

(العربي، نوفمبر ٢٠٠١)



شكل ٣٢٣: الاكتئاب !!

"حتقوللي الغلا والكوا أقولك كداب مفيش لا غلا ولا كوا..حتقوللي الجنيه نزل النص أقولك كداب الجنيه بخير ومكتوب عليه جنيه مش نص جنيه..حتقوللي الناس بتشتكي أولك كداب محدش بيشتكي إلا أنت..حتقوللي الناس عندها اكتئاب أقولك كداب..الناس كلهم مبسوطين ومن انبساطهم نازلين تنكيت ع الحكومة وبيضحكوا..حتقوللي يجعله عامر أقولك عامر غصبن عنك"

(أخبار اليوم، ١ مارس ٢٠٠٣)

وزادت في السنوات الأخيرة نسبة الانتحارات خاصة من ذوي معدومي الدخل. وشهد عام ٢٠١٠ حادثة انتحار لشاب شنق نفسه من أعلى سور كوبرى قصر النيل، لفشله في الارتباط بحبيبته، ليترك جسده يتدلى في وسط ذهول الناس المارة ومحاولات إنقاذ فشلت أن تلحقه قبل أن يلفظ أنفاسه، وسبقه بعدة سنوات أب شنق نفسه أعلى كوبرى فيصل ليأسه وعدم قدرته على تلبية احتياجات أسرته. ومما لاشك فيه أن الظروف الاقتصادية الصعبة هي على رأس أسباب محاولات الانتحار.

و ينتقد مخلوف كيف أن الخوف من التورط ظلمًا في أي من الحوادث التي ممكن أن تقع على قارعة الطريق كان السبب في انتشار ظاهرة السلبية وقتل "النخوة" المعروفة بها الشعب المصري.



شكل ٣٣٤: ظاهرة الانتحار ١!

أسد قصر النيل: "إلحق في واحد بيحاول ينتحر!!"

أسد قصر النيل الثاني: "يا عم ملناش دغوة أحسن يقولوا إحنا اللي موتناه!!"

(المصري اليوم، ١٢ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٣٣٥: ظاهرة الانتحار ٢!

ناوي ينتحر: "لو سمحت يا أخ..اللي عايز يروح كوبرى قصر النيل من هنا يركب ايه؟!"

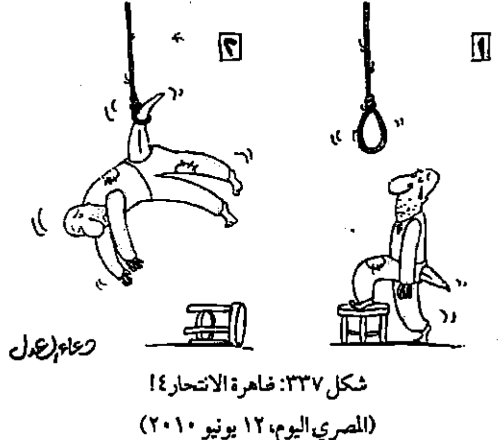
(المصري اليوم، ١٢ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٣٣٦: ظاهرة الانتحار ٣!

منتحر: "طب واللي أنا عايش فيه بذمتك ماسمهوش كفر برضه..؟!"

(المصري اليوم، ١٢ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٣٣٧: ظاهرة الانتحار ٤!

(المصري اليوم، ١٢ يونيو ٢٠١٠)

نظيف: مستوى المعيشة في إرتفاع مستمر



شكل ٣٣٨: ظاهرة الانتحار ٥!

نظيف: "مستوى المعيشة في ارتفاع مستمر"

(المصري اليوم، ١٣ يوليو ٢٠١٠)

واشتد البؤس بالشباب ليقع فريسة الهجرة غير الشرعية لدول بأوروبا مثل قبرص أو اليونان أو إيطاليا، وانتهزت عصابات الهجرة حاجة الشباب الماسة للعمل وضيق حالهم وقلة حيلتهم لتحملهم على قوارب قديمة متهالكة تكون دائمًا مسيرها محتوم في مشهد مأساوي تكرر مرارًا، إما بغرقهم أو في النهاية باعتقالهم فور وصولهم بعد رحلة شاقة. وأصبح خبرًا "عاديًا" أن تقرأ عن حادثة مروعة راح ضحيتها فوج من الشباب المصري غرقًا في عرض البحر بعد أن غرقت معهم أحلامهم وأمانيهم وكل ما يملكونه من مال دفعوه ثمنًا لهذه المغامرة.



شكل ٣٣٩: الهجرة غير الشرعية ١!

غرق ٣ من ضحايا الهجرة غير الشرعية إلى إيطاليا

هيكل عظمي غارق: "رايح فين يا ابني انت وهوا..فين تأشيرة إيطاليا؟!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٣٤٠: الهجرة غير الشرعية ٢!

وزير الصناعة والتجارة الخارجية رشيد محمد رشيد: "الشباب متفائل جدًا ومش "عايز" يهرب من البلد"

- "عفوًا...ومش "عاااارف"!!!

(المصري اليوم، ١ نوفمبر ٢٠١٠)

تجمد الحياة السياسية:

شهدت مصر في هذه الفترة ركودًا في الحياة السياسية وغياب أحزاب سياسية فعالة وانعدام المشاركة في عملية صنع القرار. وظهرت الرسوم الكاريكاتورية تنادي بأهمية الإصلاح السياسي لتحسين التدهور الاقتصادي الملحوظ الذي تشهده مصر وتطالب بإجراء تغييرات جذرية كوسيلة لتفعيل الحياة السياسية، وتعبر عن سخط الجماهير تجاه الوضع السياسي الراهن. وظهرت معظم الرسوم التي تتناول مناخ الحياة السياسية في مصر في صحف المعارضة أو المستقلة أو الناطقة بغير اللغة العربية، وهذا لاتسامها بسقف حرية أكبر مما هو متاح في الصحف الرسمية.



شكل ٣٤١: التغيير الوزاري!

"مفيش فايدة..حالته مش هتتحسن إلا إذا حصل تغيير وزاري!!"

(الأهرام ويكلي، عدد ٦٣٨، سنة ٢٠٠٣)



شكل ٣٤٢: الإصلاح السياسي!

"بعد الإصلاح السياسي والاقتصادي في عصر عاطف عبيد..مصر بقت تجنن"

(العربي، ٧ سبتمبر ٢٠٠٣)

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه لا وجود لهيكل سياسي واضح لمصر، فيرى بعض المحللين أن سياسة مبارك قد اتخذت خطًا وسطًا بين اشتراكية ناصر الحازمة وبين نظام السادات الأكثر رأسمالية. إلا أن مبارك اتسم ببعض المرونة عن سابقيه عندما سمح بعودة الأحزاب السياسية وصحفها وتقبل النقد وسمح بنشاطات وحركات أكثر سياسية[1]. ومع ذلك شهدت مصر غياب لدور حزبي نشط قادر على البقاء باستثناء الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم، كما شهدت غياب حوار وطني حقيقي بين الأحزاب السياسية مما عكس هيمنة الحزب الحاكم على مجريات الحياة السياسية وعلى عملية صنع القرار بما شكل تهديد حقيقي للعملية الديمقراطية وللتداول السلس للسلطة (انظر الرسوم التالية).



شكل ٣٤٣: الحزب الوطني ١!

"حوار الحزب الوطني وليس الحوار الوطني"

(الوفد، عدد ١٠٢٣، ٢٠٠٣)

ويعتقد عمرو عكاشة بأن قانون الطوارئ (الذي بقي العمل به ساريًا منذ اغتيال السادات وحتى يومنا هذا) له دور كبير في شل الحركة السياسية. كما صور عمرو عكاشة كيف أن قانون الطوارئ كان إحدى آليات الحزب الوطني للهيمنة على الأحزاب الأخرى!



شكل ٣٤٤: قانون الطوارئ ٢!

فوز الحزب الوطني في المرحلة الأولى لانتخابات الشورى

الأحزاب: لو راجل صحيح .. انزل لي!!"

(الوفد، ٢٢ مايو ٢٠٠١)

(١) ديريك هوبوود: المرجع السابق.

وطالبت قوى وحركات معارضة ومنظمات حقوق إنسان وقف العمل بالقانون لما فيه من انتهاكات وتقييد للعمل السياسي، حيث يجيز اعتقال أشخاص لفترات قد تطول وبدون محاكمة، كما يجيز انتهاك الحرية الشخصية وخصوصيتها في الاجتماع والانتقال والإقامة. واستقبل بخيبة أمل كبيرة موافقة مجلس الشعب في ١١ مايو ٢٠١٠ على تمديد فترة العمل بالقانون لعامين إضافيين، على أن يكون مقصورًا على مكافحة المخدرات والإرهاب، فانفجرت الاحتجاجات والمظاهرات المطالبة بإنهاء حالة الطوارئ. نقد محمد أنور انتهاك المادة الثانية لخصوصية المواطن المصري التي تجيز "وضع قيود على حرية الأشخاص في الاجتماع والانتقال والإقامة". ويرى مصطفى الشيخ بأن " قانون الطوارئ" ما هو إلا العصا التي يتوكأ عليها الرجل الأعمى (الحزب الوطني)، بينما يرى مخلوف بأن المواطن المصري قد "اتهرى قفاه" من تفعيل قانون الطوارئ حتى أنه لا يوجد مكان لمزيد من الانتهاكات!

◆ المادة ٢ من قانون الطوارئ: يجوز وضع قيود على
حرية الأشخاص في الإجتماع والإنتقال والإقامه ◆



شكل ٣٤٥: قانون الطوارئ ٣!

"المادة ٢ من قانون الطوارئ: يجوز وضع قيود على حرية الأشخاص في الاجتماع والانتقال والاقامة"

رجل الأمن: "كفاية عليك كده..فز قوم..!"

(المصري اليوم، ١٥ مايو ٢٠١٠)



شكل ٣٤٦: قانون الطوارئ ٤!

مواطن: "أصله من غيرها ما يشوفش!!"

(الوفد، ١٣ مايو ٢٠١٠)



شكل ٣٤٧: قانون الطوارئ ٥!

مسؤول: "مدوا العمل بقانون الطوارئ.."

رجل الأمن: "مفيش مكان يا فندم!!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)

وزاد من سوء الحالة السياسية، التدهور الملحوظ في أداء الحكومات المتعاقبة، وتحول الوزراء شيئًا فشيئًا لأقرب لسكرتارية عن كونهم أصحاب قرار. وارتبطت كل حكومة بقضية ما أو أزمة ما، وبالتالي كان رئيس الحكومة موضع النقد في الرسوم الكاريكاتورية.

فعلى سبيل المثال، نقد رؤوف عياد سياسة رئيس الوزراء عاطف صدقي التي اعتمدت على الخصخصة وأدت إلى التضخم وانخفاض قيمة الجنيه.

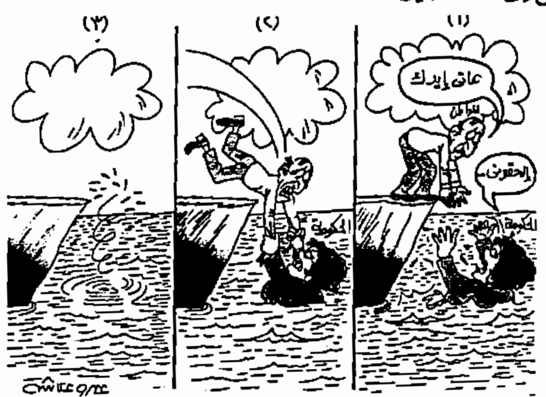


شكل ٣٤٨: حكومة عاطف صدقي!

الطبيب: "طبعًا الخصخصة..والتضخم..وانخفاض الجنيه..وزيادة الكوليسترول..كل دول مع بعض يعملوا أزمة ورا أزمة تهد اللي ما يتهد...!!"

(صباح الخير، ١٩٩١)

ويرى عمرو عكاشة بأن الأداء الحكومي بشكل العام من شأنه "إغراق" المواطن المصري لا مساندته. أما دعاء العدل فتصور الوزارات أو الأجهزة المعنية بالجزر المنعزلة التي لا تستطيع أن تصل إلى المحتاجين!



شكل ٣٤٩: عندما تنقذ الحكومة مواطنًا!

(الوفد، ٩ مارس ٢٠٠٤)



شكل ٣٥٠: الجزر المنعزلة!

(المصري اليوم، ١١ فبراير ٢٠١٠)

وشهدت آخر فترة مبارك أسوأ حكومة على الإطلاق والتي كان يرأسها أحمد نظيف والتي تم تشكيلها في يوليو ٢٠٠٤ وفقًا لخريطة الطريق لمشروع التوريث، والتي كان من أهم ملامحها هو تعيين بعض رجال الأعمال والمستثمرين كوزراء، لتلقب بوزارة "رجال الأعمال" أو وزارة "البيزنس" التي باركت التزاوج بين السلطة والمال، كما شهدت علاقة نسب وقرابة بين بعض وزرائها تحقيقًا لمبدأ "الشللية"، وكان جليًا وقوف الابن جمال وراء بعض هذه التعيينات. كما سميت أيضًا بـ "وزارة الكوارث" في إشارة إلى حجم المصائب والكوارث التي شهدتها نتيجة للإهمال والفساد.



شكل ٣٥١: كوارث حكومة نظيف!

العرافة: "بصرت ونجمت كثيرًا .. لكني لم أشهد أبدًا فنجانًا يشبه فنجانك .."

(الوفد، ٢ نوفمبر ٢٠٠٩)

وانتقد كثير من الرسامين أداء حكومة نظيف وعدم مبالاتها بمعاناة الناس، وتصريحاتها التي لا تسمن ولا تغني من جوع. ومع زيادة الاحتجاجات في تلك الفترة، لم تأخذ الحكومة أي موقف فعلي لامتصاص تذمر وغضب الشارع المتصاعد.



شكل ٣٥٢: حكومة نظيف!

رئيس الوزراء أحمد نظيف: "ماشربتش من نيلها..جربت تغني لها..جربت في عز ما تحزن تمشي في شوارعها وتشكي لها!"

(الدستور، ١٥ أغسطس ٢٠٠٩)

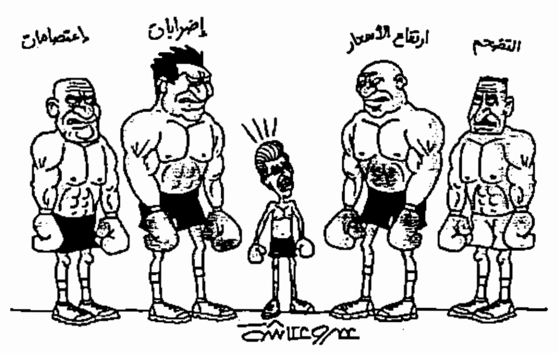
ومن الجدير بالذكر أن نظيف كان يتولى منصب وزير الاتصالات والمعلومات قبل توليه رئاسة الحكومة، وبالتالي اهتم خلال فترة حكومته بتنفيذ عدد من المشاريع والبرامج الخاصة بتكنولوجيا المعلومات، ودعم انتشار وسائل الاتصال والخدمات الإلكترونية، ولعله السبب وراء تسمية حكومته بالحكومة الإلكترونية أو الحكومة الذكية. إلا أن بعض المختصين يرون بأن الحكومة ساهمت في تراجع معدلات التنمية وذلك لإهمالها قطاعات كبيرة مؤثرة في الدولة مثل قطاع الصحة والتعليم والنقل والسياحة والصناعة والزراعة، كما لم تستطع السيطرة على ظاهرة ارتفاع الأسعار بشكل عام وأسعار المواد الأساسية بشكل خاص، في ظل تردي الظروف الاقتصادية وزيادة التضخم وتدني مستوى الأجور، مما كان سببًا لانفجار الكثير من الاحتجاجات والاضطرابات والاعتصامات خاصة بين فئة طبقة العمال والموظفين بالهيئات الحكومية. الأمر الذي جعل بعض المراقبين يلقبها بالحكومة "الغبية"!



شكل ٣٥٣: الحكومة الذكية هنجت!

"حاجة غريبة جدًا..اسمنا الحكومة الذكية وعندنا القرية الذكية والمدرسة الذكية والكروت الذكية وبرضه البلد بترجع! تفتكر سعادتك السبب إيه؟!"

(المصري اليوم، ٢٧ فبراير ٢٠١٠)



شكل ٣٥٤: حكومة نظيف!

(الدستور، ٢٠ إبريل ٢٠٠٩)

وقدم عمرو عكاشة رائعته "وزارة فرفشة" بصحيفة "الوفد"، والتي بها عدد من من الشخصيات الكاريكاتورية التي ابتكرها، والتي يقدم من خلالها أخبار لا تخلو من الاسقاطات على أداء الوزارات في مصر وقتها. ومن أهم الشخصيات التي قدمها عمرو: ""ختار قطارة" وزير المياه المقطوعة، "سمير بخير وزير الشؤون اللي بره"، و"سلومة الزيرو وزير الصفر"، و"بكر سطر وسطر وزير التعليم"، و"شلبي محلك سر وزير القوى العاملة"، و"نوفل عبده نوفل، وزير شؤون الآخرة"، و"حنفي بيك آب وزير النقل"، و"مطاوع وز وزير الحديد"، و"طشطوش الدش مفتي الفضائيات"، وآخرون.



هيمي البوهيمي- وزير الثقافة



بستانة الهفتانة- الشئون الاجتماعية

شكل ٣٥٥: وزارة فرفشة!

"هيمي البوهيمي وزير الثقافة وبستانة الهفتانة وزيرة الشؤون الاجتماعية"

(الوفد، ٢٠٠٧)

وكان من أهم رموز حكومة نظيف رجل الأعمال أحمد عز، الذي كان يشغل منصب أمين التنظيم وعضو لجنة السياسات بالحزب الوطني الديمقراطي الحاكم، والذي عرف عنه احتكاره للحديد، من خلال رئاسته لمجموعة شركاته "عز" للحديد، مما شكل عبئًا كبيرًا على المواطنين، والذي أشار إليه البعض بأنه كان مهندسًا لانتخابات مجلس الشعب ٢٠١٠، والتي تعتبر من الأسباب التي عجلت بثورة لغضب، والذي استقال في اليوم التالي من جمعة الغضب (٢٨ يناير ٢٠١١) من الأمانة العامة للحزب.



شكل ٣٥٦: فوازير رمضان!

"تاجر في ديون مصر وعمل مليار مليار..واللي زيه وفي سنه شايفين المرار...عاوز ياخد كل حاجه ويقول الشعب هو اللي اختار..قسم البلد كلها فقوس وخيار!"

(الدستور، ١٠ سبتمبر ٢٠٠٩)

وشهدت هذه الفترة ظاهرة نهب أراضي الدولة والمال العام، ما جعل عمرو عكاشة يلقبها بـ "أزهى عصور الحرامية"، حيث يشعر "الحرامية" بالأمان والامتنان لبلدهم مصر. وفي كاريكاتير آخر، ينتقد عكاشة أسلوب النظام "الراعي" للصوص، إلى الحد الذي قد يكافئهم على سرقاتهم، ويتضح من شكل "الأنف" أن المسؤول الجالس في الكاريكاتير هو مبارك شخصيًا (انظر الرسوم التالية).



شكل ٣٥٧: أزهى عصور الحرامية!

(الدستور، ٩ يوليو ٢٠٠٩)



شكل ٣٥٨: مافيا نهب الأراضي!

"عظيمة يا مصر.. يا أرض النعم!!"

(الدستور، ٢٠ أغسطس ٢٠٠٩)



شكل ٣٥٩: مبدأ توزيع المناصب!

"وحياتي عندك تقبل المنصب .. كفاية التعب اللي تعبته في الوزارة اللي سبتها .. خدلك رئاسة شركه ولا اتنين!!"

(الدستور، ٢ يوليو ٢٠٠٩)

وبات أن الاهتمام الأكبر ذهب إلى الاستثمار العقاري خاصة في شكل منتجعات سياحية وشواطئ خاصة بتقديم تسهيلات لمستثمرين مصريين وعرب وأجانب، في الوقت الذي مازال يحرم فيه أهالي سيناء من حق امتلاك أرضي لهم على أرض سيناء!!



شكل ٣٦٠: أهالي سيناء!

مستثمرين عرب وأجانب وأصحاب منتجعات وشواطئ خاصة: "وسينا رجعت كاملة لينا .. ومصر اليوم في عيد"!

(المصري اليوم، ١٩ يوليو ٢٠١٠)

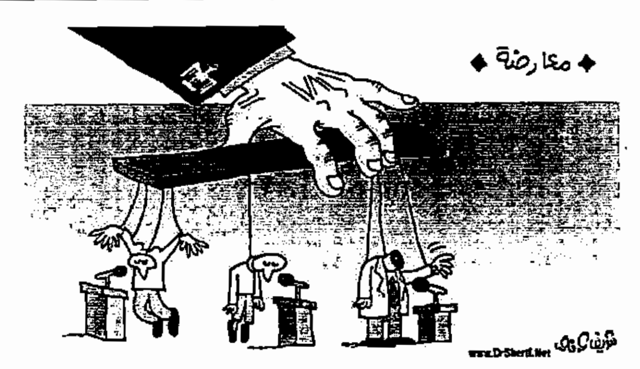
طالبت جميع الأحزاب المعارضة بتعديل بعض مواد الدستور الذي أقره السادات في سبتمبر من عام ١٩٧١، وعلى رأسها المادة ٧٧ التي تقرر عدد الفترات التي تسمح بإعادة انتخاب الرئيس. ففي الأصل، كانت المادة ٧٧ تقر بأن الرئيس يجوز إعادة انتخابه لفترتين فقط، إلا أن السادات غير "الفترتين" وجعلها مدة مفتوحة[١]. ورسم حجازي شخص يشرح لفئات المجتمع نصوص الدستور قائلًا: "حسب نص الدستور، ماده أولى زيطة وزمبليطة ومبايعة، ماده اتنين زيطة وزمبليطة واستفتاء، ماده ثالثه زيطة وزمبليطة وتهاني[٢]!" وباءت محاولات الأحزاب والمعارضين جميعها بالفشل في ظل حكومة وصفها عمرو عكاشة بالصماء التي لا تتفاعل مع المطالب الشعبية من إجراء إصلاح سياسي أوتعديل للدستور. ويصور شريف عرفة قوى المعارضة على هيئة "دمى" يحركها النظام، في إشارة إلى ضعفها.



شكل ٣٦١ الحكومة صماء!
(الوفد، ٢٧ أغسطس ٢٠٠٣)

(١) جمال عصام الدين: Gamal Essam El-Din. (2004). 'It won't happen here.' Home. Al-Ahram Weekly. Issue 672.

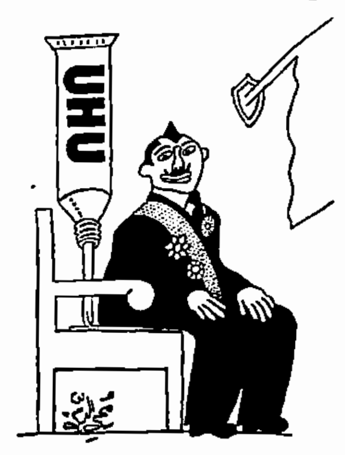
(٢) الكاريكاتير وحقوق الإنسان، المنظمة العربية لحقوق الإنسان، منظمة الأمم المتحدة للعلوم والثقافة. جمعية الكاريكاتير المصرية، دار المستقبل العربي. القاهرة، ١٩٩٠.



شكل ٣٦٢: قوة المعارضة!

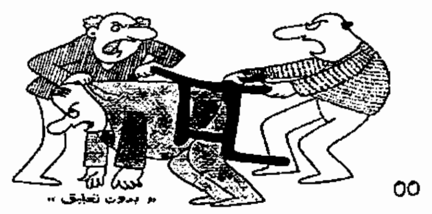
(www.drsheif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)

وشيئًا فشيئًا نمت لدينا ثقافة الكراسي، فما أن يصل أحدهم إلى منصب ما حتى يفعل المستحيل للاحتفاظ "بكرسيه" لأطول فترة ممكنه. وألهمت ثقافة الكراسي العديد من الرسامين الذين باتوا يحللون سبب التصاق أصحاب المناصب في كراسيهم. يعتقد محيى الدين اللباد بأن سر التصاق ذوي المناصب الرفيعة في كراسيهم مدة طويلة هو لاستخدامهم الغراء الشهير "أوهو" السريع المفعول. ووصف سمير عبد الغني إزالة أي مسؤول عن منصبه بالعملية الصعبة إن لم تكن مستحيلة.



شكل ٣٦٣: الكرسي !١

(اللباد، ٢٠٠١)



شكل ٣٦٤: الكرسي ٢!

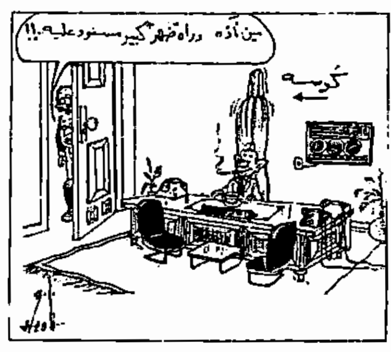
(نهضة مصر، ٩ ديسمبر ٢٠٠٣)

وكان طبيعيًا أن يشجع هذا الجو، الذي انعدم فيه تداول سلس لأي سلطة، العاملين على منافقة رؤسائهم والسعي لإرضائهم لضمان احتفاظهم هم أيضًا بوظائفهم لأطول فترة ممكنة. كما شجع انتشار ظاهرة المحسوبية (الكوسة) لضمان الحصول على وظيفة ما أو لضمان الإبقاء عليها (انظر الرسوم التالية).



شكل ٣٦٥: الكرسي ٣!

(كاريكاتير حكم، ١٩٩٧)



شكل ٣٦٦: كوسة!

"مين آده .. وراه ضهر كبير مسنود عليه..!!"

(الأهرام، ١٦ أكتوبر ٢٠٠٣)



شكل ٣٦٧: أرض النفاق!

"نحن غرابه عبد عبد.. نحن غرابه عبد عبد.."

(الدستور، ٢٩ سبتمبر ٢٠١٠)

وتعتبر الانتخابات الرئاسية التي أقيمت في ٧ سبتمبر من عام ٢٠٠٥ هي أول انتخابات تعددية بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لاختيار رئيس للجمهورية. فقد طالب وقتها مبارك في خطوة اعتبرت مفاجأة وإيجابية بتعديل المادة ٧٦ من الدستور المصري لفتح الباب لمن ينطبق عليه الشروط لترشيح نفسه رئيسًا للجمهورية.

وبالفعل نافس مبارك ذو السبعة والسبعون عامًا وقتها على مقعد الرئاسة تسع مرشحين: أيمن نور رئيس حزب الغد وقتها، ونعمان جمعة رئيس حزب الوفد الجديد وقتها، وأسامة شلتوت رئيس حزب التكافل الاجتماعي، ووحيد فخري الأقصري رئيس حزب مصر العربي الاشتراكي وقتها، وإبراهيم ترك رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي وقتها، وممدوح قناوي رئيس حزب الدستوري الاجتماعي الحر، وأحمد الصباحي خليل عن حزب الأمة، وفوزي خليل غزال عن حزب مصر ٢٠٠٠، والسيد رفعت العجرودي عن حزب الوفاق القومي.

وفاز وقتها مبارك بأغلبية الأصوات بنسبة ٥٧ , ٨٨ ٪ يليه أيمن نور بنسبة ٥٨ , ٧ ٪ ونعمان جمعه بنسبة ٩٣ , ٢٪، ومع أنها كانت تجربة جديدة، إلا أن لجان الانتخابات شهدت نسبة مشاركة ضئيلة بلغت ٩٥ , ٢٢ ٪ لإجمالي المحافظات، كما رصدته موقع "لجنة الانتخابات الرئاسية" التابع لمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار[1]، بما يمثل مؤشرًا سلبيًا.

(١) لجنة الانتخابات الرئاسية ٢٠٠٥، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، تم الاطلاع في ٥ يونيو من على الموقع الإلكتروني:
http://www.egyptelection2005.gov.eg/election2005/ElectionTotalStatistics.asp

كما قابلت الانتخابات عقبات كثيرة أمام نزاهتها كان من أهمها كشوف الناخبين التي ثبت أنها تحمل العديد من أسماء المتوفين، مثلًا.

وتعتبر قضية "التوريث" أحد القضايا التي قابلها رفض شعبي، وأحد الأسباب الرئيسية التي عجلت بالثورة، التي كان من أهم مطالبها تيسير تداول السلطة. وقد أعلن الرئيس مبارك في أكثر من مناسبة بأن نجله لن يخلفه بأي حال من الأحوال، وأنه لا يوجد توريث للحكم في مصر. كما سبق وصرح جمال مبارك شخصيًا بأن الترشح للرئاسة ليس في ذهنه أبدًا. ومع ذلك لم يصدق الشارع المصري هذه التصريحات وأصبح واثقًا من أن ثمة سيناريو محدًا سلفًا لخلافة جمال لوالده. وشجع من ترسيخ هذا الاعتقاد تولي جمال منصب رئيس لجنة السياسات بالحزب الوطني الحاكم. وأسهمت الرسوم الكاريكاتورية هي الأخرى في ترسيخ وجود نية "للتوريث" لدى النظام، وحذرت منه وانتقدته (انظر الرسوم التالية).



شكل ٣٦٨: فيه توريث!

"مفيش توريث .. فيه توريث ..فيه توريث .. فيه توريث!!".

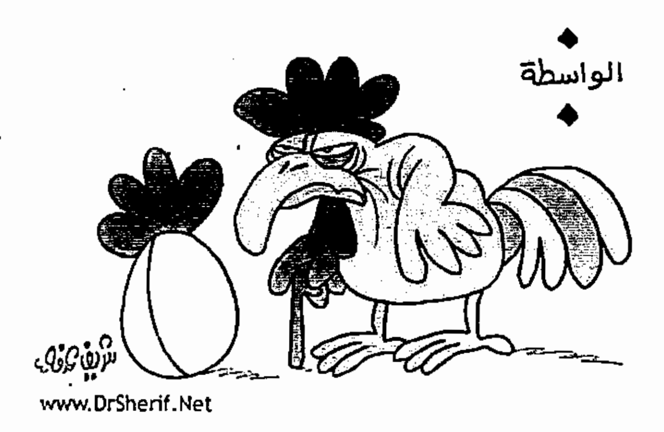
(الدستور، ٥ إبريل ٢٠٠٩)



شكل ٣٦٩: القراءة الرشيدة!

"ت: ثبات في الكرسي، و: واضح زي الشمس، ر: رجل الأعمال، ي: يجوز ييجي بدري، ث: ثورة على الحرس القديم"

(الدستور، ١٦ إبريل ٢٠٠٩)



شكل ٣٧٠: الواسطة!

(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٣٧١: الحزب الوطني وجمال مبارك!

"حاليًا بنجاح ساحق فيلم الموسم "أنا"، بطولة: جمال مبارك بالاشتراك مع: جمال مبارك وضيف الشرف: جمال مبارك، قصة وسيناريو واخراج: الحزب الوطني"

(الدستور، ٥ يونيو ٢٠٠٩)



شكل ٣٧٢: المسرح السياسي!

المخرج: "وأول ما اديك الإشارة..تطلع انت واكومبارس تقولوا اللي اتفقنا عليه!"

الملقن لجمال مبارك: "قول ورايا..منكم ولكم وبكم..من أجلكم رشحت نفسي.."

ضابط الشرطة (الحكومة) للعم سام: "أهم حاجه تكون مبسوط احنا مانقدرش على زعلك!"

أحد المتفرجين: "بيقولوا اللي يخرج عن النص..هيقصفوا رقبته!!"

أحد المتفرجين لآخر: "مسرحية ايه دي؟"

يرد أحدهم: "التوريث!"

أحد المتفرجين: "أمال فين باقي الأبطال؟"

يرد أحدهم: "..يا اتسجنوا..ياسافروا بره!!"

أحد المتفرجين: "أنا سمعت انهم هيجيبوا "محلل" الأول قبل ما يظهر البطل!!"

أحد المتفرجين: "يظهر ان "السنيد" هيطلع في الفصل الأخير!"

أحد المتفرجين يرتكن على وساده: "ده فيلم الحفيد؟"

يرد آخر وهو مستلقي هو الآخر على وسادة: "لا..الوريث!"

أحد المتفرجين يسأل متعجبًا من يجلس بجانبه: "بتعمل ايه؟"

يرد: "بقرا الفاتحة على روح المعارضة!"

أحد المتفرجين: "بيقولوا المسرحية كانت ٣ فصول..بس خلوها فصل واحد عشان الظروف!!"

(الدستور، ١٧ يونيو ٢٠٠٩)

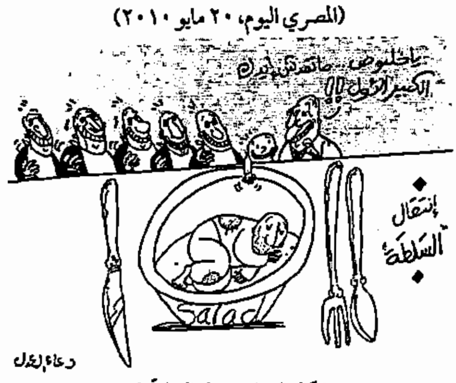


شكل ٣٧٣: التوريث!

الابنة: "وتفتكر يا بابا ممكن على أيامنا ست توصل لمنصب الرئاسة؟!!"

الأب: "هاهاااء..ولا راجل وحياتك!!"

(المصري اليوم، ٢٠ مايو ٢٠١٠)



شكل ٣٧٤: انتقال السَلطَة!

الأب لإبنه الصغير: "ياخلبوص ... ما تمدش إيدك .. الكبير الأول!!"

(المصري اليوم، ٤ أكتوبر ٢٠١٠)

وأصاب عمرو سليم غيرة شديدة ونقد استغلال التشابه بين الاسمين: اسم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والشاب جمال مبارك الذي يتطلع للسلطة، ولأنه شتان بين الاسمين، رسم بجرأته المعهودة يحذر المستهلك من الاسم التقليد. كما أثيرت حفيظة سليم عندما تم استغلال الأغنية المعروفة "جمال حبيب الملايين" التي أعدت مخصوصًا لجمال عبد الناصر في حملة الدعاية لجمال مبارك للترشح لرئاسة الجمهورية. فقد استخدم منسقو الحملة الأغنية كخلفية لفيلم تسجيلي عن جمال مبارك تم عرضه في جولات ميدانية في عدد من المحافظات لجمع توقيعات مؤيدة لجمال. فرسم سليم الرئيس الراحل يطالب بمقاضاة مستغلي الأغنية التي أعدت خصيصًا له، والتي غناها عبد الحليم حافظ وكان مطلعها: "يا جمال يا حبيب الملايين .. يا جمال .. ماشيين في طريقك مش ناسيين .. يا جمال .. يا حبيب الملايين .. للنور طالعين .. للخير رايحين وإياك يا حبيب الملايين..إحنا الملايين إحنا الملايين".



* عزيزي المستهلك - هذا المنتج أصلي.. أي منتج آخر بنفس الاسم تقليد.. احذروا التقليد *

شكل ٣٧٥: جمال الأصلي وجمال التقليد!

"عزيزي المستهلك .. هذا المنتج أصلي .. أي منتج آخر بنفس الاسم تقليد .. احذروا التقليد"

(المصري اليوم، ٢٧ سبتمبر ٢٠١٠)



شكل ٣٧٦: حملة جمال مبارك .. يا جمال يا حبيب الملايين!

جمال عبد الناصر: "حأرفع قضية غش وتدليس! أغنية يا جمال يا حبيب الملايين" اتعملت لي أنا مش لأي حد تاني!"

(المصري اليوم، ٦ سبتمبر ٢٠١٠)

وقدم عمرو عكاشة رائعته "سلطنة بورنجا"، التي نشر جزء كبير منها على صفحات "الدستور"، والتي شملت إسقاطات على أهم الأحداث الداخلية في السلطنة (مصر)، وعلى حاكمها "عظمة السلطان مارينجوس"، الذي يمهد لحفيده الأمير كهرمان أن يخلفه. يقدم عكاشة السلطنة بقوله: "بلدنا يا بورنجا يا بلد الفسيخ والرنجة .. ماسكينك الحرامية وشافطينك زي السفنجة .." ومن أهم حاشية "الافتكاسـت السلطانية"، التي يرأسها الأمير كهرمان، شهبندر التجار صاحب الجاه والعز، في إشارة إلى رجل الأعمال أحمد عز. المثير للدهشة أن عكاشة قد تنبأ بعدة أحداث ووقائع من خلال السلطنة قبل حدوثها في الواقع. مثال ذلك كتابة عكاشة عام ٢٠١٠ عن وقائع زيارة السلطان مارينجوس للولايات المتحدة ومقابلته للرئيس أوباما بالبيت الأبيض، فإذا بأقل من شهرين يسفر مبارك لأمريكا ويزور أوباما بالبيت الأبيض. أيضًا كتب عكاشة تصريح على لسان "اللهو الخفي" كبير الحاشية السلطانية بأن "الأمير

كهرمان مش هيبقى سلطان"، والتي نشرها تقريبًا في أول أكتوبر ٢٠١٠! ولم يكشف عكاشة عن من يعنيه بشخصية "اللهو الخفي"، الشخصية المحورية في السلطنة والتي تملك صلاحيات قد تفوق صلاحيات السلطان نفسه، وبالتالي لها قدرة في تشكيل والتحكم في مسار الأحداث.



شكل ٣٧٧: السلطان مارينجوس!



شكل ٣٧٨: الأمير كهرمان وشهبندر التجار!



شكل ٣٧٩: اللهو الخفي!



السلطان مارينجوس يزور أوباما في البيت الأبيض

كان ياما كان.. في سالف العصر والأوان.. سلطنة صاحبها سلطان.. عنده حاشية وصولجان.. وشعب كبير غلبان.. راح يزور الأمريكان.. قاله شعبه.. خليك هناك لآخر الزمان..

الدستور 7 7 2010

اخبار اليوم 4 9 2010

الرئيس حدد لجميع الأطراف روشتة نجاح المفاوضات

الثقل المصري والدعم الأمريكي والمتابعة الدولية.. أهم عناصر التفاؤل

شكل ٣٨٠: زيارة مبارك للولايات المتحدة!

(الدستور، ٧ يوليو ٢٠١٠، أخبار اليوم، ٤ سبتمبر ٢٠١٠)

كما شرح عمرو عكاشة الوضع الداخلي وقتها من خلال تصوير مصر على شكل سيارة ميكروباص وقد كتب على لائحتها: "أجرة الحزب الوطني ٩٩أ٩"، وخط سيرها محطات الحزب الوطني التي تمثل شعاراته: "العبور للمستقبل" و"مصر بتتقدم بينا" و"من أجلك انت" و"؟؟؟؟؟" أو المجهول!



شكل ٣٨١: موقف الشرق الأوسط!

أحد المواطنين: "مين اللي هيسوق بينا المشوار ده؟"

مواطن آخر محذرًا: "ما تتكلمش في السياسه!"

المنادي: "ياللا يا خوانا..كله يركب ورا..والمعارضة تركب مكان الاستبن!"

السائق: "رايح فين يا استاذ..المكان اللي قدام محجوز امانة السياسات!"

أحد المواطنين: "إحنا رايحين على فين؟"

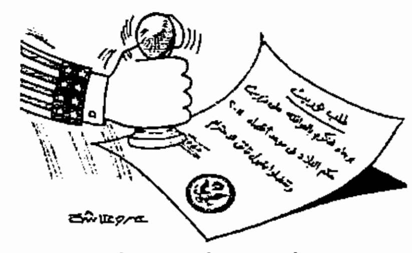
مواطن آخر: "علمي علمك!"

أحد المواطنين: "بتاع الكارته ده منشار..بياخد عموله على كل طلعه!"

مواطن آخر: "فين العدل؟ ... اشمعنى "الوطني" يركب قدام على طول؟"

(الدستور، ١٣ نوفمبر ٢٠٠٩)

وتشكك عدد من المراقبين في الغرض الحقيقي من وراء زيارة مبارك الأخيرة لواشنطن في منتصف أغسطس ٢٠٠٩ لإجراء مباحثات مع الرئيس الأمريكي باراك أوباما، خاصة بعد اصطحاب نجله جمال معه، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن زيارة مبارك لم تكن غير مباحثات للحصول على الدعم الأمريكي لملف التوريث.



شكل ٣٨٢: طلب توريث!

"برجاء التكرم بالموافقة على توريث حكم البلاد في موعد أقصاه ٢٠١١ وتفضلوا بقبول فائق الاحترام."

(الدستور، ٢ سبتمبر ٢٠٠٩)

ودائمًا ما يتم الإعداد جيدًا لزيارة مبارك لواشنطن حتى يظهر نظامه في أحسن صورة له، ويشرح وليد طاهر مراسم الإعداد للزيارة من خلال مسؤول يحمل عدد من الملفات إلى "مغسلة كي وبخاره..تفاهمات..وتنظيف ملفات!"، وعلى رأس هذه الملفات، ملفات "حقوق إنسان" و"الديمقراطية" و"قانون الطوارئ" و"القضايا السياسية" و"الإرهاب" و"فلسطين"، وملفات بعض الشخصيات والحركات السياسية مثل "أيمن نور"، و"سعد إبراهيم"، و"حماس".



شكل ٣٨٣: قبل زيارة واشنطن!

(الشروق، ٢٨ فبراير ٢٠٠٩)

التبعية للغرب وخاصة للولايات المتحدة الأمريكية:

بما لا يدع مجالًا للشك أنه قد ساءت صورة الولايات المتحدة الأمريكية بقوة في فترة مبارك. يرى أستاذ الاقتصاد جلال أمين أن مساوئ النظام عديدة إلا أن أسوأها على الإطلاق "ضعفه المذهل" أمام الإدارة الأمريكية، والاستعداد للانصياع لها ومن ثم لما

تريده إسرائيل. ويرى أمين بأن هذه التبعية للولايات المتحدة بدأت في عصر السادات، ولم يحد عنها نظام مبارك، بل قدم تنازلات عدة والتي كان على رأسها التنازل عن زعامة مصر للبلاد العربية والتنازل عن ولائها للقضايا العربية، والتنازل عن حماية القطاع العام والاقتصاد الوطني بفتح الأبواب بلا ضوابط لاستيراد السلع ورؤوس الأموال الأجنبية، غير مبالٍ بالأضرار التي يمكن أن تلحق بالصناعات والاستثمارات الوطنية، دون الاهتمام بتحقيق حد أدنى من الاكتفاء الذاتي لسلع أساسية كالقمح، مما سمح للولايات المتحدة "باستخدام حاجتنا إلى القمح كوسيلة للضغط علينا لتنفيذ أغراضها الاقتصادية والسياسية في المنطقة"[(١)].

وقدم بهجت عثمان رائعته "بهجاتيا العظمى"، تلك الدولة ذات النظام الديكتاتوي، ويرأسها "بهجاتوس"، راصدًا للأوضاع التي يعيشها شعب "بهجاتيا" وطبيعة علاقته برئيسه. وفي الكاريكاتير التالي، قارن بهجت بين شكل العلاقة التي يفرضها الحاكم على شعبه، وعلاقته هو شخصيًا بعم سام (الولايات المتحدة).



شكل ٣٨٤: معاملة الرئيس لشعبه ومعاملته لسفراء الدول الصديقة!

"وبعد ذلك يستقبل أبناء شعبه أولًا"

"ثم يستقبل سفراء الدول الصديقة"

(الدكتاتورية للمبتدئين[(٢)]، ١٩٨٩)

وتاريخ مصر مع المعونة ليس قاصرًا على المعونة الأمريكية فقط ولكنها أشهرها، فقد سبقتها المعونة الروسية والإنجليزية وغيرهما. وتأتي المعونة الأمريكية في أشكال عدة وتساند مشاريع تنموية عديدة في مصر سواء في مجال التعليم أو الرعاية الصحية أو لتعزيز بعض الخدمات التنموية للمجتمعات العمرانية الفقيرة.

---

(١) جلال أمين، الثورة المصرية ومشكلة التبعية، "الشروق"، ١٢ أغسطس ٢٠١١، عدد ٩٢٣.
(٢) بهجت، "الكتاتورية للمبتدئين: بهجاتوس رئيس بهجاتيا العظمى"، مصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، مارس ١٩٨٩.

وأتذكر أني شاهدت في احدى دور العرض في التسعينيات فيلم أمريكي بعنوان "يوم الاستقلال" أو "Independence Day" وكان الحضور أغلبه من الشباب فوق الـ ١٨ ودون الثلاثين. يحكي الفيلم عن معتدين من الفضاء الخارجي قاموا بغزو الأرض وأصابوا العديد من مدنها بالدمار الشامل، لتقرر أمريكا قيادة العالم في حرب هي الأولى من نوعها لطرد الغزاة. ويخاطب الرئيس الأمريكي العالم في عيد الاستقلال معلنًا قيام الحرب وأن يوم الرابع من يوليو لن يكون بعد ذلك اليوم الذي تحتفل به أمريكا وحدها باستقلالها بل ستحتفل به كل دول العالم لانتصارهم على الغزاة. وما أن أنهى الرئيس الأمريكي خطابه، وإذا بجموع الحاضرين بالسينما يصفقون بحرارة وينادي أحدهم بصوت مرتفع : "المعونة يا ريس" لينفجر الجميع بالضحك حتى نهاية أحداث الفيلم!!

والمعونة ترتبط بالدرجة الأولى بالأجندة السياسية لأمريكا والتي أعلنها صراحة الرئيس السابق جورج بوش الابن في دعوته للانضمام لغزو العراق: "من ليس معنا فهو ضدنا". والحق أن هذا التصريح قد أثار حفيظة الرأي العام العالمي وعلى رأسهم العديد من الصحفيين ورسامي الكاريكاتير الأمريكان لإيمانهم بأن هذه السياسة تنتقص من مصداقية أمريكا، وتبعًا لذلك اختلفت حجم المعونات الأمريكية من دولة لأخرى قياسًا على مدى ولائها للولايات المتحدة، لتصبح إسرائيل أكبر متلقٍ للمعونة الأمريكية.

أشارت الرسوم الكاريكاتورية إلى المعونة مرارًا وتكرارًا والتي تراها تهديدًا لاستقلالية مصر وسيادتها في المنطقة، ومن أجمل ما رسم في هذا الموضوع هو كاريكاتير لبهجت عثمان وفيه تلخيص دقيق لحال الحكومة المصرية مع المعونة الأمريكية، وفيه تأكيد على سياسة الولايات المتحدة التي تقوم على تعزيز دورها وتأثيرها في المنطقة من خلال المعونات التي تقدمها.



شكل ٣٨٥: المعونة الأمريكية!
(بهجت[1]، ١٩٩٥)

(١) بهجت، "رفاق سلاح"، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٥.

وانقسم رسامي الكاريكاتير حول انطباعاتهم عن الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما فور فوزه في الانتخابات الرئاسية، إلا أنهم اتفقوا على أن أي رئيس يحل مكان بوش لابد وأنه سيكون أفضل. واختار أوباما القاهرة ليلقي خطابه الموجه للعالم الإسلامي في ٤ من يونيو ٢٠٠٩، والذي تطلعت إليه الشعوب العربية والإسلامية آملة أن يضع حدًا للصراع العربي الإسرائيلي الممتد لأكثر من ستين عامًا.

رسم عكاشة بانوراما كاريكاتورية تخيلية لاستقبال أوباما والتي نشرت في اليوم السابق لوصوله "بالدستور"، والتي نلاحظ أنه رسم فيها شخص مبارك كاملًا. كما لابد أن يكون القارئ مصريًا أو فاهمًا للثقافة المصرية حتى يتمكن من فهم العبارات الشهيرة سواء من أغانٍ أو مسرحيات التي استخدمها عكاشة ووظفها لخدمة السياق الدرامي.



شكل ٣٨٦: زيارة أوباما!

لافتات: "الحزب الوطني: تسقط إيران ويحيا الأمريكان"، و"سيد قراره: مصر تؤيدك بنسبة ٩٩,٩٪"

أوباما: "مين دول؟" مبارك: "دول الهتيفة بتوعنا..بيقولوا البقين دول لأي واحد يقف ع المنصه!!" هتافات: "بالروح.. بالدم.. نفديك يا أوباما.." مواطن: "أنت.. القلب الكبير.. أنت.. نعمة واحسان.. بحكمتك تختال علينا.." مواطن مقبوض عليه: "رجب.. حوش صاحبك عني!" مواطن: "المنحة يا ريس.." مواطن آخر: "يابني ده بيدي معونة.. مش

منحه!!" الـ FBI: "الشعب بتاعكم لابس اسود ليه؟" ضابط أمن: "ده مش الشعب.. دول عساكر الأمن المركزي!" مواطن: "وحياة والدك تعديني عشان أسأل أوباما فيه "توريث" ولا لأ!!" ضابط شرطة: "ايه اللي جابكم النهارده؟ الميتين: "أبدًا.. لقينا اللمه.. والأمن المركزي والريس.. فافتكرنا انتخابات الرياسة!!" خنزير: "سيبني أشتكي له.. هو الوحيد اللي يقدر يوقف المدابح بتاعتنا!" عسكري أمن مركزي: "يا عالم.. يا هوو بقالي ٣ أيام واقف... عاوز أروح دورة المية!!"

(الدستور، ٣ يونيو ٢٠٠٩)

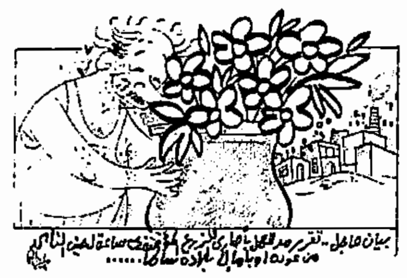
وسخر فرج حسن من المبالغة في الإعداد لاستقبال أوباما، فرسم سيدة تطلب من خادمتها "غسل الزبالة" قبل رميها في الشارع حتى "يبانوا" متحضرين أمام الضيوف الأجانب. وعبر وليد طاهر عن سعادة المواطن المصري للقرار الذي اتخذ بمد فترة بقاء "اصاري" الورد في الشوارع حتى التأكد من عودة أوباما إلى بلاده!



شكل ٣٨٧: في استقبال أوباما!

"عندنا ضيوف أجانب مهمين ولازم نبقى متحضرين.. اغسلي الزبالة كويس قبل ما ترميها في "الشارع" من الشباك.."

(الأهرام، ٤ يونيو ٢٠٠٩)



شكل ٣٨٨: في استقبال أوباما!

"بيان عاجل..تقرر مد العمل بأصاري الزرع المؤقتة ٢٤ ساعة لحين التأكد من عودة أوباما إلى بلاده سالمًا....."

(الشروق، ٦ يونيو ٢٠٠٩)

وأشار جورج بهجوري إلى الانطباع الايجابي الذي لابد وأن حمله أوباما بعد مغادرته مصر، فرسم ميشيل أوباما تسأل زوجها قائلة: "جبتلي إيه من مصر..أنا عاوزه مسله زي الملكة حتشبسوت"، في الوقت الذي يقدم لها أوباما كتاب ضخم بعنوان "الحضارة المصرية ٥٠٠٠ سنة".



شكل ٣٨٩: انطباع أوباما عن مصر!

(الأهرام، ٨ يونيو ٢٠٠٩)

بينما رأى جمعة فرحات بأن أوباما لا يختلف كثيرًا عن جورج بوش الابن، فما هو إلا قناع يخفي تحته نفس سياسة بوش.



شكل ٣٩٠: خطاب أوباما!
(الأهرام، ٩ يونيو ٢٠٠٩)

حرية التعبير ومفهوم الديمقراطية عند مبارك:

يرى المؤرخ عبد العظيم رمضان بأنه قد ظهرت مبكرًا نظرة نظام مبارك للصحافة وحرية التعبير، فقد تم مصادرة صحيفة "الأهالي"* في ٣٠ سبتمبر ١٩٨٧، عشية إعادة الاستفتاء على مبارك لفترة رئاسية ثانية في ٥ أكتوبر والتي انتهت بحصوله على أغلبية ١٢, ٩٧٪ من الأصوات(١). فقد تم التحفظ على العدد ١٦ من كتاب "الأهالي" تحت عنوان "لهذا نعارض مبارك"، والذي كان يشمل كل الافتتاحيات والمقالات التي اعترضت على قرارات أو مواقف أو خطب للرئيس مبارك في الفترة من ١٩ مايو ١٩٨٢ وحتى منتصف سبتمبر ١٩٨٧(٢).

وكتب مدحت الزاهد تحقيقًا كاملًا عن المضايقات التي تعرضت لها "الأهالي" والضغوط التي مورست عليها لإجبارها على حجب معلومات وحقائق عن الرأي العام. فلم تكن هذه المرة الأولى، فقبل هذه المصادرة ببضع سنوات مورس على الحزب وعلى الجريدة ضغوط هائلة لوقف نشر حلقات "خريف الغضب" للكاتب محمد حسنين هيكل، مع أن الكتاب متاح في المكتبات وبجميع اللغات. أيضًا قبل المصادرة بشهور، تم الضغط على "الأهالي" لرفع تصريح لمسؤول عسكري قد أدلى به عن الأخطار التي تهدد الأمن القومي، وبالفعل تم رفع الخبر بعد طباعة ٤٠ ألف نسخة(٣).

---

*صحيفة "الأهالي" تصدر عن حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

(١) د. عبد العظيم رمضان، "الصراع الإجتماعي والسياسي في عصر مبارك"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القهرة، ١٩٩٣، ص: ٢٦٧.
(٢) د. عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص: ٢٦٩.
(٣) مدحت الزاهد، القصة الكاملة لمصادرة الأهالي وكتاب الأهالي قبل الاستفتاء على الرئاسة، "الأهالي"، ٧ أكتوبر ١٩٨٧.

يرى الزاهد أن هذه المصادرة كانت غريبة لأنها تمت قبل خمسة أيام من الاستفتاء على رئاسة مبارك لدورة ثانية وبدون أمر من القضاء، ويعتقد أن الهدف منها هو حجب موقف الحزب الداعي إلى رفض ترشيح مبارك لدورة ثانية، ليبقى فقط مهرجانات المبايعة والتأييد المروجة لـ "نعم للديمقراطية .. نعم للاستقرار .. نعم للأمان"[1].

والحقيقة أن "الأهالي" كانت ثابتة على موقفها ضد ترشيح مبارك، وقد أعلنتها بصراحة مع كل دورة استفتاء على الرئاسة، والذي تراه باطلًا وغير دستوري، كما طالبت مبارك بإنهاء علاقته بالحزب الحاكم.



شكل ٣٩١: الديمقراطية وصحفي الحكومة!

الطبيب: "حالتك الديقراطية متدهوره، عندك تضخم في الـ "نعم" وضمور في الـ "لا"!"

(الأهالي، ١٤ أكتوبر ١٩٨٧)



شكل ٣٩٢: الحزب الوطني وتزوير الانتخابات والحكومة!

مواطن: "أسمع كلامك يعجبني" .. "أشوف عمايلك أستعجب!"

(الأهالي، ١٤ أكتوبر ١٩٨٧)

(١) مدحت الزاهد، المرجع السابق.



شكل ٣٩٣: الاستفتاء على رئاسة الجمهورية!

"غريبة.... هو الملك فاروق اتشال ولا إيه...؟"

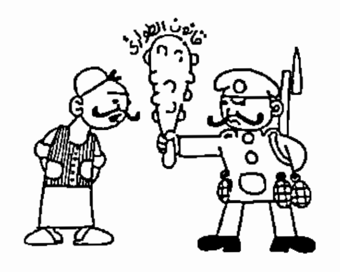
(الأهالي، ١٤ أكتوبر ١٩٨٧)

ووصف كل من بهجت وحجازي شكل العلاقة بين الحكومة والشعب في ظل وجود قانون الطوارئ.



شكل ٣٩٤: حكومة وأهالي وقانون الطوارئ ١!

(بهجت[1]، ١٩٨٧)



شكل ٣٩٥: حكومة وأهالي وقانون الطوارئ ٢!

(بهجت[2]، ١٩٨٧)

(١) بهجت، "حكومة وأهالي..وخلافه"، كتاب الأهالي، القاهرة، ١٩٨٧.

(١)بهجت، "حكومة وأهالي..وخلافه"، كتاب الأهالي، القاهرة، ١٩٨٧.



شكل ٣٩٦: قانون الطوارئ ١٢

"إحنا عايشين في بلد ديموقراطي، من حق أي مواطن إنه يعترض ويقول "لا"، لكن أحسن له يقول "نعم"!"

(الأهالي، ٧ أكتوبر ١٩٨٧)

ومع أن مبارك قد سمح بنشأة الأحزاب وصدور الصحف المعارضة والمستقلة كما أشرنا سابقًا، إلا أن عصره اتسم بضعف القوى المعارضة وعدم حصولها على آليات أو صلاحيات تستطيع من خلالها تفعيل لدورها في الحياة السياسية ليبقى الحزب الوطني القوة المؤثرة المسيطرة والوحيدة.

وتحولت الصحف الرسمية مثل صحيفة "الأهرام" و"الأخبار" و"الجمهورية" خاصة في الفترة الأولى لحكم مبارك إلى لسان حال النظام والمدافعة عن رؤيته. إلا أن في العشر سنوات الأخيرة من حكم مبارك تنوع الخط التحريري للصحف الرسمية ليكون أيضًا ناقدًا للنظام وكاشفًا لبعض قضايا الفساد وإن كان يصاحبه سقف حرية أقل بكثير من ذلك الذي تتسم به الصحف المعارضة أو المستقلة.

بشكل عام كان الخط التحريري لصحف المعارضة الحزبية يتسم بأنه نقدي ساخن إذا ما قورن بالصحف "الحكومية" إلا أن سقف الحرية قد ارتفع في السنوات الخمس الأخيرة خاصة بعد ظهور عدد من الصحف المستقلة وعلى رأسها صحيفة "المصري اليوم".

يصف رمضان الحرية التي أتاحها نظام مبارك بـ "حرية الصراخ"، أي حرية في ابداء الخلاف في الرأي، في الوقت الذي لا يسمح بنقل السلطة من يد الحزب الوطني إلى أي حزب آخر[١]. رسم عمرو عكاشة على موقع "حريتنا" (٢٠١٠) رجل شرطة (النظام)

(١) د. عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص: ٢٧١.

يضرب مواطن بعصا غليظة قائلًا: "يابني افهم..الحرية إنك تقول اللي انت عاوزه..واحنا نعمل اللي احنا عاوزينه!!" وفي كاريكاتير آخر، رجل الشرطة بعد أن قيد حركة مواطن وكمم فمه يقول له: "أنا سايبك تعبر بحرية..قول آه..قول لأ..اعمل اللي انت عاوزه!"



شكل ٣٩٧: حرية التعبير!

ضابط شرطة: "أنا سايبك تعبر بحرية..قول آه..قول لأ..اعمل اللي أنت عاوزه!"

(حريتنا[١]، ٢٠١٠)

ومع إن عصر مبارك قد شهد إثراءً في الحياة السياسية من خلال عودة ظهور عدد لابأس به من الصحف المعارضة والخاصة، إلا أنه شهد سجن أول رسام كاريكاتير بسبب رسومه وهو الرسام عصام حنفي الذي قد ذاق ويل الحبس ثمنًا للتعبير عن رأيه وعن رأي جريدته "الشعب" من خلال رسومه ضد وزير الزراعة السابق يوسف والي[٢].

ويعاني معظم رسامي الكاريكاتير في يومنا هذا من مقص رئيس التحرير. فبينما كان الرقيب في الماضي كثيرًا ما كان يحذف كلمة أو جملة من مقالة ما، رئيس التحرير اليوم يمكنه أن يرفض نشر مقالة كاملة أو كاريكاتير يتعارض مع أجندته الخاصة. وتحدث ناجي كامل عن تجربته الشخصية عندما تفاجأ بكاريكاتيره منشور وقد تم تغيير التعليق به بدون الرجوع إليه وكيف أنه أعرب مرارًا لرئيس التحرير بأن إلغاء الكاريكاتير كلية أهون عنده مائة ألف مرة من أن يتم التغيير فيه بدون الرجوع إليه[٣]!

(١) موقع حريتنا، اضحك مع عمرو عكاشة، تم الاصطلاع عليه في ٨ سبتمبر ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.horytna.net/Articles/Details.aspx?TID=1&ZID=349&AID=19099

(٢) رانيا صالح:
Rania M.R. Saleh (Fall 2007). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2), 187-225

(٣) رانيا صالح، المرجع السابق.

وسرعان ما ظهرت أسوأ أنواع الرقابة في عصرنا الحديث وهي "الرقابة الذاتية" التي يطبقها رسام الكاريكاتير على نفسه ليتجنب مشاكل لا طائل له بها. يعتقد الرسامون بأن هناك عددًا لا نهائيًا من الخطوط الحمراء غير المكتوبة والتي يجب عدم المساس بها في أعمالهم والتي لم تملى عليهم صراحة من أي طرف. ويفكر الرسامون بتأني قبل تخطى أي منها وقياس ما إذا كانت هذه المجازفة تستحق العناء أم لا، هذا بالإضافة لقناعتهم الشخصية بأنهم حتى لو تجاوزوا أيًا منها فلن يجدوا من يقبل نشرها.



شكل ٣٩٨: الرقيب!
(بهجت[١]، ١٩٩٥)

وفي ٧ أكتوبر ٢٠٠٧، احتجبت ٢٢ صحيفة حزبية وخاصة عن الصدور، احتجاجًا على انتهاك حرية الصحافة بعد صدور أحكامًا بالحبس والغرامة ضد عدد من رؤساء التحرير والصحفيين[٢]، بتهم نشر أخبار كاذبة (على خلفية نشر الإشاعات التي تناولت صحة الرئيس) تسببت في "تكدير" المناخ العام، ولم يجد قراء الصحف مع الباعة في ذلك اليوم سوى الصحف الحكومية الثلاث وبعض الصحف والمجلات الأسبوعية[٣].

---

(١) بهجت، "رفاق سلاح"، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٥.

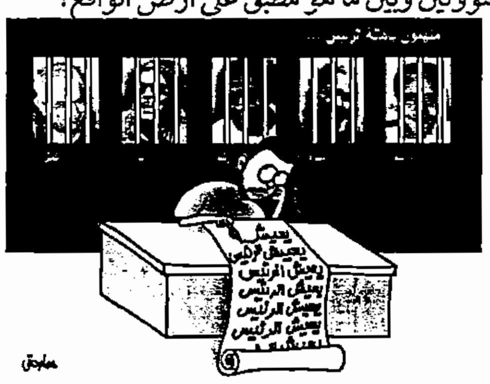
(٢) محمد عبد الخالص مساهل، احتجاب الصحف يتحول إلى "يوم دولي" للتضامن مع حرية الصحافة المصرية، "المصري اليوم"، ٨ أكتوبر ٢٠٠٧، تم الاطلاع في ٦ يوليو ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=78622&IssueID=821

(٣) عبد البصير حسن، مصر: احتجاب صحف حزبية ومستقلة عن الصدور، بي بي سي العربية، ٧ أكتوبر، ٢٠٠٧، تم الاطلاع في ٢٠ أغسطس ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_7032000/7032266.stm

ولم تكن هذة المرة الأولى في فترة مبارك التي تحتجب فيها الصحف عن الصدور احتجاجًا على قمع حرية الرأي، فقط احتجبت أكثر من عشر صحف حزبية ومستقلة في بداية عام ٢٠٠٦، اعتراضًا على مناقشة البرلمان لمشروع قانون يشمل مواد تقضي بحبس الصحفيين في قضايا نشر، وتدخل وقتها مبارك وألغى مواد الحبس[1].

كانت لهذه الأحكام صداها على المستوى المحلي والدولي. فقد أصبحت مادة غنية للنقاش والتعليق في العديد من المواقع والمدونات العربية وغير العربية على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت)، كما أصبحت على رأس أجندة العديد من المنظمات الحكومية والغير الحكومية المحلية والدولية المعنية بحقوق الإنسان والتي تسعى لإلغاء وتعديل القوانين التي تسجن الصحفيين في قضايا النشر. والحق أن حرية الرأي والتعبير مكفولة بموجب الدستور المصري ولها معايير محددة تجعلها مسؤولة وملتزمة أدبيًا عندما تأتي في اطار تقصى الحقائق ونشر الوقائع للصالح العام بعيدًا عن أي أطماع أو أغراض شخصية. إلا أن هناك معايير أخرى غير مكتوبة تضع حدود لحرية التعبير وتعمل على قمعها لصالح مراكز القوى.

وقد رسم عصام حنفي ساخرًا من البديل الذي يريده ويطلبه انظام من الصحفيين وهو منافقة الرئيس! في حين يصور شريف عرفة التباين بين مفهوم "الديمقراطية" الذي يسمع في تصاريح المسؤولين وبين ما هو مطبق على أرض الواقع!



شكل ٣٩٩: متهمون بإهانة الرئيس!

"يعيش الرئيس!"

(الوعي المصري، ٢٥ مايو ٢٠٠٦)

---

(١) عبد البصير حسن، المرجع السابق.



شكل ٤٠٠: الوطن ينعم بالديموقراطية!

"إغلاق الصحف المعارضة، تعذيب المعتقلين، اعتقال المعارضين، عاش الحاكم"

(www.drshrif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)

وشهد عام ٢٠١٠ أزمة مدوية في الوسط الصحفي، عندما تفاجأ القراء ببيع صحيفة "الدستور" التي تعد من أنجح التجارب الصحفية تحت رئاسة تحرير إبراهيم عيسى للدكتور السيد البدوي رئيس حزب الوفد (بشخصه وليس ممثلًا لحزب الوفد) ورجل الأعمال رضا إدوارد، مع الوعد بالحفاظ على السياسة التحريرية كما هي والتي كانت من أهم ما يميزها.

إلا أن الأزمة اشتعلت بعد قرار البدوي بإقالة عيسى لينظم على أثره صحفيو الدستور اعتصامًا مفتوحًا بمقر الجريدة تضامنًا مع رئيس التحرير السابق، فيما توالت الوقفات الاحتجاجية التي اشترك فيها عدد من الصحفيين وبعض الحركات السياسية مثل حركة شباب من أجل العدالة والحرية وحركة شباب ٦ إبريل على سلم نقابة الصحفيين للتضامن مع صحفيي الدستور اعتراضًا منهم على إقالة عيسى وعلى تغيير السياسة التحريرية للجريدة. وما أن اشتدت الأزمة احتدامًا حتى فاجأ البدوي الجميع بتنحيه عن رئاسة مجلس إدارة الصحيفة وعضويتها، تاركًا الملعب كله لإدوارد باستحواذه على حصة البدوي في الجريدة.

ورأى أغلب الصحفيين ورسامي الكاريكاتير بأن ما حدث هو مؤامرة مدبرة لاغتيال الصحيفة بسبب خطها المعارض الساخن ضد النظام الحاكم ولجنة السياسات التي يرأسها جمال مبارك، فكان جليًا أن هناك من اختار أن يخرس "الدستور" إلى الأبد في إطار حملته لتكميم الأفواه المعارضة، خاصة وأن النظام يمهد لانتخابات برلمانية ورئاسية قادمة.

ومن تجربته الشخصية، يرى عمرو عكاشة بأن أعلى سقف للحرية وجده كان في صحيفة "الدستور"، تحت السياسة التحريرية لإبراهيم عيسى الذي قال له: "سقفك

النسا"! فلم يكن هناك أي رقيب على رسومه سوى ضميره. ويؤكد عكاشة هنا على أهمية أن يراعي الإنسان "ضميره" في عمله، في وقت غلبت على الوسط الصحفي مؤخرًا المصالح الشخصية عن المصلحة العامة. وفيا يبدو أن لمراعاة الضمير ثمنًا، فقد تعرض عكاشة خلال عمله بصحيفة "الدستور" لتهديدات بالأذى الجسدي له ولأسرته ومن يحب إذا لم يتوقف عن الرسم، وقد قام عكاشة بعمل محضر يثبت فيه وقائع التهديدات ولم يتوقف عن الرسم.



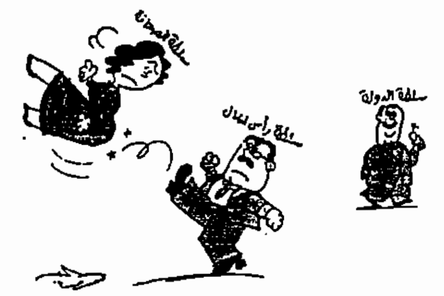
شكل ٤٠١: الدستور!

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

"توفيت جريدة "الدستور" المصرية لسان حال الشعب المصري بعد صراع طويل مع الحكومة منذ عام ١٩٩٥ .. للفقيدة الرحمة وللشعب المصري خالص العزاء..تؤدى صلاة الغائب على الفقيدة في شارع أحمد نسيم..الجيزة"

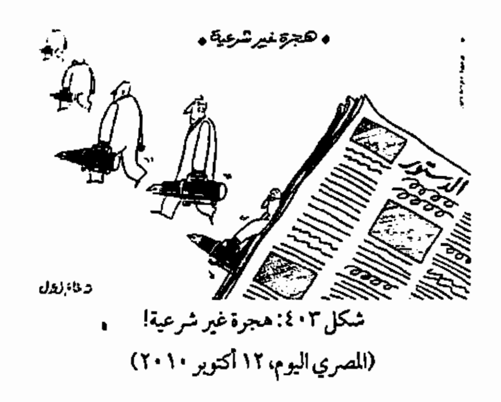
(الوفد، ٥ أكتوبر ٢٠١٠)

وشرح عمرو سليم طريقة استخدام سلطة الدولة لسلطة رأس المال في القضاء على سلطة الصحافة، بينما أوضحت دعاء العدل كيف "هجر" عدد كبير من صحفي الدستور الجريدة بعد بيعها!



شكل ٤٠٢: سلطة الدولة وسلطة رأس المال وسلطة الصحافة!

(المصري اليوم، ٩ أكتوبر ٢٠١٠)



شكل ٤٠٣: هجرة غير شرعية!

(المصري اليوم، ١٢ أكتوبر ٢٠١٠)

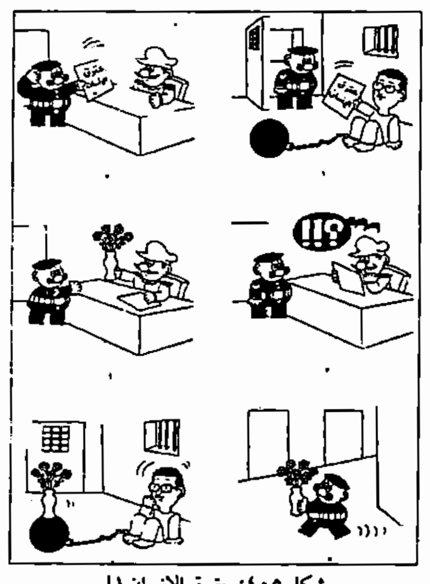
ولخص شريف عرفة الوضع في مشهد كاريكاتوري صور فيه "غراب" حر يسأل طائر بغبغاء عن سبب وضعه داخل قفص، ليرد البغبغاء قائلًا: "عشان باتكلم.."!



شكل ٤٠٤: عشان باتكلم!

(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)

وظهرت في مصر عدد من المنظمات والمؤسسات النشطة المعنية بحقوق الإنسان، ومنها الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، والمركز المصري لحقوق المرأة، ومركز هشام مبارك، والجمعية المصرية لمناهضة التعذيب، والجمعية الوطنية لحقوق الإنسان والتنمية البشرية، ومركز الأرض لحقوق الإنسان وغيرها. وتجد على الموقع الإلكتروني لكل منها العشرات إن لم يكن المئات من التقارير والتوصيات عن ما تنسبه من انتهاكات لحقوق الإنسان على أرض مصر. ويبقى بعض هذه التوصيات إن لم يكن معظمها حبيس الأدراج كشاهد فقط على ما وصل إليه الحال وكشاهد على اتساع الفجوة بين النظرية والتطبيق ونقصان الوعي المطلوب لإلمام المواطنين بحقوقهم. وقد عبر كل من حجازي وأحمد عز العرب ورؤوف عياد ببراعة عن التباين بين رؤية المواطن ورؤية النظام حول مفهوم "حقوق الإنسان".



شكل ٤٠٥: حقوق الإنسان ١!

(بهجت[1]، ١٩٩٥)



شكل ٤٠٦: حقوق الإنسان ٢!

النظام: "اضحك الصورة تطلع حلوه"

(الأهالي ٢٠٠٠)

(١) بهجت، "رفاق سلاح"، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٥.



شكل ٤٠٧: حقوق الإنسان ٣!

المواطن: "حقوق الإنسان؟"

النظام: "تاخدهاع الجزمه"

(الأهالي، ١٩٩٧)



شكل ٤٠٨: حقوق الإنسان ٤!

(رؤوف عياد، ٢٠٠٤)

وقد أفادت عدد من الدراسات إلى أن ازدياد عدد مستخدمي الإنترنت أدى إلى تحريك عجلة تدفق المعلومات وانتشارها في وقت أقل بكثير وعلى نطاق أوسع مما لو كان بالطرق التقليدية، ومن هنا كان جليًا أن انتشار مواقع اجتماعية مثل المدونات، خاصة تلك التي تعود لنشطاء سياسيين، قد فتحت قنوات أخرى للتعبير كانت أحد أسباب اتساع هامش الحرية بالصحف القومية والمعارضة والخاصة. وكان أهم ما لفت الانتباه وقت ظهور المدونات هو نشر المواضيع الصحفية التي منع نشرها أو التي طالها مقص رئيس التحرير.

ومن أشهر النشطاء المدونين كان وائل عباس (صاحب مدونة "الوعي المصري")، وعلاء عبد الفتاح وزوجته منال حسن (مدونة "منال وعلاء")، ومالك مصطفى (مدونة "MaLek X")، وعمرو عزت ("مابدالي")، وحسام الحملاوي أو عمو حسام ("عرباوي")، وشاهيناز عبد السلام ("واحدة مصرية")، ومصطفى النجار ("أمواج التغيير")، ومحمد خالد ("دماغ مك")، عبير العسكري ("عبير العسكري" أو "stranger2day")، وعمر الهادي ("أسد")، وخالد كامل ("ورقصني يا جدع")، محمد الطاهر ("مواطن مصري واخد على قفاه")، ومحمود صابر (Mahmoud Saber's)، ومحمد عادل ("العميد ميت")، وكريم الشاعر ("مصر الحرة")، عبد المنعم محمود ("أنا إخوان")، وغيرهم.

واتضح مدى خطورة هؤلاء المدونين الشباب على النظام عندما كرسوا حياتهم لكشف عوراته، وكانوا السبب وراء الانتشار السريع لعدد من مقاطع الفيديو التي ترصد "حفلات" تعذيب لمواطنين بأقسام الشرطة على يدي بعض الضباط بهدف نزع اعترافات منهم أو إذلالهم، مما ساعد على نشر الوعي بين المواطنين بأهمية الإبلاغ عن أي ممارسات قمعية تمت أو تتم ضدهم، وبالتالي ساعد النشطاء على اختراق ما كان يعتبر من فترة بسيطة سابقة أحد التابوهات المحرم الاقتراب منه، كما أثمر جهودهم على القبض على بعض ضباط التعذيب ومحاكمتهم. وبالتالي لم يسلم هؤلاء النشطاء من الاضطهاد والتهديدات الأمنية من اعتقالات واحتجاز وتعذيب وامتهان وخطف وحبس وملاحقات قضائية بأحد التهم "الشعبية" ومنها محاولات تكدير الأمن العام، مما أثار وقتها تساؤلًا حول مدى اتساع حرية التعبير الفردية. كما أن ملاحقة المدونين يثبت حقيقة وجود مراقبة إلكترونية للشبكة العنكبوتية تتم من قبل جهاز أمن الدولة.

واتسمت فترة مبارك بالاحتجاجات ضد انتهاكات الشرطة، والتي كان من أشهر ضحاياها الشاب خالد سعيد الذي تم ضربه من قبل مخبرين حتى الموت وكان أحد أسباب الشحن لثورة ٢٥ يناير (كما سيتم الإشارة إليه لاحقًا)، والشاب السيد بلال الذي تم تعذيبه حتى الموت بعد اعتقاله بدون إجراء قانوني على خلفية أحداث انفجار كنيسة القديسين في مطلع عام ٢٠١١.



شكل ٤٠٩: انتهاكات الشرطة!

"إذا كان رب البيت على القبض معتاد.. فشيمة أهل البيت كلهم الفساد!!"

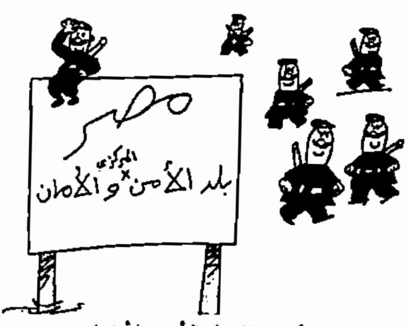
(الدستور، ١٨ سبتمبر ٢٠١٠)



شكل ٤١٠: اللي سبق أكل النبق!

ضابط الشرطة: "يا سلام يا أخويا ... جاي دلوقتي تعترف إنك القاتل؟! طب والراجل إللي بنعذب فيه من أسبوع لحد ما أعترف؟! يرضيك يعني تعبنا معاه يروح هدر؟!"

(المصري اليوم، ١٩ نوفمبر ٢٠٠٩)



شكل ٤١١: بلد الأمن والأمان!

"مصر بلد الأمن "المركزي" والأمان"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)

وشهدت هذه الفترة ميلاد حركات مقاومة مهدت لسقوط مبارك بعد أن تخطت حاجز الخوف وخرجت تعبر عن سخطها بشكل سلمي مطالبة علانية بالتغيير الجذري. ونادت هذه الحركات بالوقوف صفًا واحدًا ضد الظلم والقمع والفساد وإلى ضرورة أن يتخلى الشعب عن سلبيته، لأنه من غير الشعب وإرادته الحرة لن يكون لمطالبهم المشروعه أي صدى عند أركان النظام.

كانت أولى هذه الحركات هي "الحركة المصرية من أجل التغيير" أو كما اشتهرت تحت اسم "كفاية" والتي ظهرت عام ٢٠٠٤، ونظمت عدد كبير من المظاهرات مطالبة بالحريات وانتهاء احتكار السلطة وتقليل صلاحيات الرئيس وإلغاء قانون الطوارئ، ورافضة للأوضاع التي آلت إليها الحياة السياسية في مصر ورافضة للتجديد لمبارك ورافضة لتوريث السلطة لابنه. وقد انضم إليها نخبة من المثقفين والمفكرين والشخصيات العامة.

كما شهدت هذه الفترة ميلاد حركة "شباب ٦ إبريل" التي شكلت علامة فارقة في حياة المصريين والحركات السياسية المصرية، فمع أول ظهور لها نادت (بالاشتراك مع حركات وقوى سياسية أخرى) بالإضراب العام في يوم ٦ إبريل من عام ٢٠٠٨ تضامنًا مع عمال شركة المحلة للغزل الذين أعلنوا إضرابهم احتجاجا على الأحوال المعيشية المتدهورة وغلاء الأسعار. وسرعان ما انتشرت فكرة الإضراب من خلال مواقع التواصل الاجتماعي على الانترنت ومن خلال خاصية الرسائل القصيرة على هواتف المحمول.

ومما لا يدع مجالًا للشك فقد مثل هذا الإضراب أول صفعة للنظام حيث استجاب للدعوة وبشكل ملحوظ طوائف عديدة من الشعب، فقد امتنع العديد من الطلاب من الذهاب إلى المدارس أو الجامعات وشهدت الهيئات والمصالح الحكومية غياب عدد من الموظفين عنها. وتوج هذا اليوم بانتفاضة أهالي وعمال مدينة المحلة الكبرى الذين صمدوا ضد القمع الأمني ضدهم وآلياته من هراوات وقنابل غاز ورصاص حي، مما أدى إلى سقوط عشرات الجرحى والموتى واعتقال المئات بما يعرف فيما بعد بأحداث المحلة. وتعتبر أحداث المحلة باكورة ثقافة الاعتصامات والإضرابات، فقد وجد المغضوب عليهم من طوائف الشعب الكادحة الشارع متنفسًا لهم للتعبير عن سخطهم من الظروف المعيشية المتدهورة التي يعيشونها ومن تدني أجورهم بما لا يتناسب مع تكلفة البقاء على قيد الحياة ومن عدم قدرتهم على معالجة أمراضهم لارتفع سعر الكشف الطبي والدواء.

رسم جورج بهجوري معلقًا على أحداث المحلة رئيس الوزراء وقتها أحمد نظيف وهو يبدوا هائمًا وقد اعتلى وجهه مزيج من معالم الدهشة والحيرة في كيفية التعامل مع الاحتجاجات التي سادت أنحاء البلاد.



شكل ٤١٢: أحمد نظيف!

(الأهرام ويكلي، ١٠-١٦ ابريل ٢٠٠٨)

لم تتوقف الاحتجاجات العمالية منذ عام ٢٠٠٤ وحتى نهاية عام ٢٠١٠ دفاعًا عن مطالب العمال وفي مواجهة مع نظام انحازت قوانينه (ولا تزال) لفئة رجال الأعمال على حساب حقوق العمال في ظل تنظيم نقابي عمالي فاسد ونظام سياسي قمعي لم يتوانى عن استخدام القوة والعنف في مواجهة العمال واعتقال بعض قادتهم بموجب قانون الطوارئ، كما حدث مع عمال المحلة في إبريل ٢٠٠٨، وتقديم البعض الآخر لمحاكمات عسكرية كما تم مع عمال الإنتاج الحربي في ٢٠١٠[١].



شكل ٤١٣: عمال أمونسيتو يعاودون الاحتجاج!

لافتات: "عايز حقي" .. "حقوق العمال!" .. "يا خارمينها"

(المصري اليوم، ١ يونيو ٢٠١٠)

(١) مركز الدراسات الاشتراكية، تقرير: المركز المصري وأولاد الأرض يرصدان إرهاصات الثورة وتداعياتها على العمال، مؤسسة أولاد الأرض لحقوق الإنسان والمركز المصري للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، فبراير ٢٠١١، تم الاطلاع في ١ نوفمبر ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني: http://www.e-socialists.net/node/6493.



شكل ٤١٤: اعتصام أهالي طوسون!

الأب: "هاسميه (معتصم) .. واكتب محل الميلاد أمام سور وزارة الزراعة!!"

(الوفد، ٦ مايو ٢٠١٠)



شكل ٤١٥: استمرار اعتصمات العمال أمام مجلس الشعب!

اللافتات: "أين حقوق العمال".."عايز أعيش"

مسؤول: "يوووه .. كل يوم نفس اليفط..!! إبقوا خلوهم يغيروها عشان وجعتلي عنيا"

المساعد: "سلامة عنيك يا فندم"

(المصري اليوم ٢٦ إبريل ٢٠١٠)

ومن الجدير بالذكر، أنه في مارس ٢٠١٠ حصلت الطبقة العاملة المصرية على حكم قضائي بإلزام رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس المجلس القومي للأجور بوضع حد أدنى للأجور يتناسب مع الأسعار ويضمن للعمال حياة كريمة، وتمسك العمال بمطلب

١٢٠٠ جنيه كحد أدنى للأجور. وبعد أن امتنع النظام عن تنفيذ الحكم لمدة سبعة شهور، نجحت الطبقة العاملة في الحصول على حكم ثان يلزم الحكومة بتنفيذ الحكم الأول، فحاول النظام الالتفاف على الحكم بإصدار قرارًا برفع الحد الأدنى للأجور إلى ٤٠٠ جنيهًا شهريًا كأجر شامل وأن ينطبق هذا القرار على عمال القطاع الخاص فقط متجاهلًا تطبيقه على عمال القطاع العام والحكومي وهو ما أجبر الطبقة العاملة للاستمرار في معركتها بشأن زيادة الأجور[١].

ولاقت دعوة الاعتصام في يوم ٢ مايو ٢٠١٠ من أجل تحديد حد أدنى عادل للأجور قبولًا لدى العديد من أفراد الشعب، وشاركت فيه قوى عمالية وسياسية ومنظمات حقوق إنسان وأطباء وصيادلة وممرضون ومهندسون وموظفون وأصحاب معاشات، كما تقدم أعضاء من مجلس الشعب بمجموعة من طلبات الإحاطة والاستجواب من أجل تفعيل الحكم القضائي[٢].



شكل ٤١٦: حد أدنى للأجور!

الضابط: "نفسك قبل ما تموت يتعمل حد أدنى للأجور ١٥٠٠ جنيه؟ الكلام ده مش دلوقتي"

المتهم: "خلاص يا بيه .. نستنى أما يعملوه!!"

(الوفد، ٢٤ ديسمبر ٢٠١٠)

ومن الجدير بالذكر، أن صورة الرئيس الراحل عبد الناصر قد تصدرت اللافتات التي رفعها العمال المتظاهرين في الحقبة الأخيرة من مبارك، كما ظهرت أيضًا صورته بشكل ولو رمزي في بعض الرسوم الكاريكاتورية لنصرة العمال والفقراء.

(١) مركز الدراسات الاشتراكية. المرجع السابق.
(٢) في يوم ٢ مايو..كل فئات الشعب تعتصم من أجل حد أدنى للأجور، "الأهالي"، ٢٨ ابريل، ٢٠١٠.



شكل ٤١٧: فض اعتصام امونسيتو بالقوة!

"عاش جمال عبد الناصر نصير العمال"

(المصري اليوم، ٢٥ مايو ٢٠١٠)

تضامنت الرسوم الكاريكاتورية مع نبرة غضب الشارع ونفاذ صبر المتضررين من قسوة المعيشة وانحراف ميزان العدالة الاجتماعية والتي كانت السمة العامة لملامح هذه الفترة، فزادت جرعة الرسوم المناهضة للفساد والظلم والقمع الأمني ، ولم تشر الرسوم بشكل مباشر إلى أي من الحركات السياسية إلا في أضيق الحدود، كالإشارة لحركة ٦ إبريل.

انتقد عمرو سليم في مشهد كاريكاتوري تخيلي قرارات وزيرة القوى العاملة وقتها "عائشة عبد الهادي" الغير منصفة للعمال والتضييق عليهم كنوع من الانتقام لمشاركتهم في أحداث ٦ إبريل. وصورت دعاء العدل كيف أصبح لرجال أمن الدولة "عقدة" من مجرد سماع اسم حركة ٦ إبريل. وتمنى عمرو عكاشة أن لو ينشغل جهاز أمن الدولة بالقبض على المجرمين بدلًا من شبه تفرغه لملاحقة أصحاب القضايا والرأي وأعضاء حركة ٦ إبريل. ويشير عمرو سليم كيف أن بعض رجال الأمن المسؤولين عن فض مظاهرات ٦ إبريل بالقوة هم أنفسهم يعانون من "قرف" المعيشة المسببة للتظاهرات!



شكل ٤١٨: ٦ إبريل!!

وزيرة القوى العاملة: "كلامي يتنفذ بالحرف الواحد.. العمال يتخصم منهم ١٥ يوم بحالهم .. بمناسبة أحداث ٦ إبريل!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٤١٩: ٦ إبريل ٢!

"بقى ككده يا راجل يا ناقص تقبض عليا..كل ده عشان قولتلك هات ٦ أرغفة و٦ بيضات و٦ بيريل!!"

(المصرى اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٤٢٠: حركة ٦ إبريل ٣!

الأمن: "آسف جدًا يا جماعة..افتكرتكم من المجرمين بتوع ٦ ابريل..خدوا راحتكم ع الآخر!!"

(الوفد، ٨ أكتوبر ٢٠١٠)



شكل ٤٢١: ٦ إبريل ٤!

الزوجة: "طب والعيال دول اللي انت عجنتهم في المظاهرة .. إيه اللي كان مضايقهم بالظبط؟!" رجل الأمن: "العيشة اللي تقرف!!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)

وربطت دعاء العدل بين أحداث فيلم "البريء"، الذي يتناول لمحات من الفساد السياسي في مصر خاصة خلال الفترة التي شهدت انتفاضة العيش ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧، وبين ما جرى من فض للاعتصامات بالقوة من قبل جنود الأمن المركزي الذي تصرفوا بوحشية مع المواطنين العزل، تفكرنا بالشخصية الرئيسية في الفيلم "أحمد سبع الليل" الشاب الريفي الساذج الذي تم تجنيده ضمن قوات حراسة لأحد المعتقلات المسؤولة عن تعذيب وامتهان أصحاب الرأي وتدريبه على إطاعة الأوامر بصورة عمياء وزرع الاعتقاد لديه بأن من يحاربهم ويشارك في تعذيبهم هم أعداء الوطن.



شكل ٤٢٢: البريء!

إنهاء الاعتصام على رصيف مجلس الشعب!

(المصري ليوم، ٢٢ مايو ٢٠١٠)

وانتقد عمرو عكاشة ظاهرة تحرش بعض ضباط الشرطة بالفتيات المشاركات في المظاهرات ومحاولة إذلالهن.



شكل ٤٢٣: أمام الحيتان..أمام النسوان!

(الوفد، ٦ مايو ٢٠١٠)

وصدم الرأي العام عندما طالب ثلاثة نواب بمجلس الشعب (نائبي الوطني حسن نشأت القصاص وأحمد أبو عقرب ونائب الغد رجب هلال حميدة) وزارة الداخلية بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين. وتصاعدت الاحتجاجات والمظاهرات في عدد كبير من المحافظات ضد نواب الرصاص مطالبة بطردهم من البرلمان. وصدم الرأي العام مرة ثانية عندما اكتفى مجلس الشعب برئاسة فتحي سرور بتوجيه اللوم لنواب الرصاص بعد أن ساد الاعتقاد بأنه لابد وسيتم حرمانهم على الأقل من دخول البرلمان!



شكل ٤٢٤: نواب الرصاص ١!

رئيس مجلس الشعب فتحي سرور: "ما تعملش كده تاني .. فاهم؟!"

(الوفد، ٨ مايو ٢٠١٠)



الشكل ٤٢٥: نواب الرصاص ٢!

"ضربوني بالنار يا فسواني ... مع إني مش من شباب ٦ ابريل!!"

(المصري اليوم، ٢٢ ابريل ٢٠١٠)

كما ظهرت "الجمعية الوطنية للتغيير" برئاسة المدير السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية محمد البرادعي والتي جاءت لتحرك المياه الراكدة للحراك السياسي الداخلي. ففي بيان أطلقته نادت بوجوب إجراء تغيير جذري بمصر والتوصل إلى نظام سياسي يقوم على الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ورأت أنه حتى يتحقق ذلك لابد من كفالة الضمانات لانتخابات نزيهة وحرة وذلك من خلال تمكين القضاء المصري للإشراف الكلي على الانتخابات، وأن تجرى الانتخابات تحت إشراف محلي ودولي وتعديل المواد ٧٦ و ٧٧ و ٨٨ من الدستور. وقامت الجمعية بتجميع توقيعات المصريين للمطالبة بالتغيير تحت بيان بعنوان "معًا سنغير"، ورأى العديد من المصريين في الجمعية الأمل الجديد لصناعة مستقبل مصر، ووضع عدد لا بأس به من المصريين أملًا في البرادعي وسياسته الإصلاحية التي من شأنها أن تحسن من أوضاع الفرد!



شكل ٤٢٦: الجمعية الوطنية للتغيير!

"قطع غيار أصلي"!

(الشروق، ١ مارس ٢٠١٠)



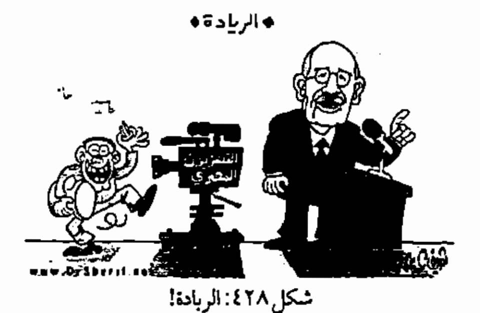
شكل ٤٢٧: مصاريف أول الشهر!

الزوج: "طب..كلمي البرادعي كده!!"

(الشروق، ١ إبريل ٢٠١٠)

وتوالت الصفعات لنظام مبارك عندما نقلت الكاميرات من أمام صالة الاستقبال بالمطار في ١٩ فبراير ٢٠١٠ الحشود الشعبية التي جاءت من مختلف المحافظات لاستقبال البرادعي حاملة لافتات تأييد له لما يرونه مرشحًا مناسبًا للانتخابات الرئاسية القادمة. وقد عمل على التنسيق لوصول هذه الحشود لاستقبال البرادعي كل من الحملة الشعبية لدعم البرادعي وحركة شباب ٦ إبريل وحملة "عايز حقي" وغيرها. كان الغرض الرئيسي لتأييد البرادعي هو الرد على المزاعم المسيطرة في تلك الفترة من عدم وجود بديل لجمال مبارك.

وركزت الرسوم الكاريكاتورية على "فزع" النظام من سطوع نجم البرادعي، فعقد شريف عرفة مقارنة بين البرادعي والتلفزيون المصري إذا ما تطرقنا إلى مفهوم "الريادة". ورسم عمرو عكاشة مسؤول يفهم من زاوية أنفه وشفايفه أنه حسني مبارك وهو مستلقي أمام طبيبه الذي يكتشف متعجبًا أن رؤيته لصورة البرادعي تتسبب في ارتفاع ضغطه. ويرى مخلوف في البرادعي منقذًا لسكان مصر من الغرق المحتم. بينما يرى عمرو سليم البرادعي كمرشح للشباب إذا ما قورن بمبارك الذي يكبره بأكثر من عشر سنوات.



شكل ٤٢٨: الريادة!

(www.drsherif.net، ٢٥ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٤٢٩: البرادعي ١!

الطبيب: "غريبة .. كل ما بتبص على الصورة دي .. ضغطك بيزيد!!"

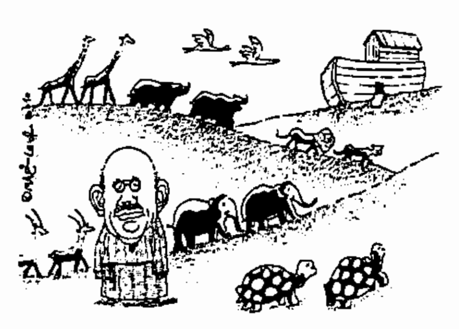
(الدستور، ١٩ يناير ٢٠١٠)



شكل ٤٣٠: البرادعي ٢!

النظام: "البرادعي لا يصلح للرئاسة .. ما المرشحين كتير أهه يا جدعان!"

(www.drsherif.net، ٢٠٠٩)



شكل ٤٣١: سفينة نوح!

(المصري اليوم، ٢٨ فبراير ٢٠١٠)



شكل ٤٣٢ انتخبوا مرشح الشباب!

"أنا شخصيًا حانتخب مرشح الشباب..اللي عنده ٦٧ سنة بس!!"

(المصري اليوم، ٢٧ فبراير ٢٠١٠)

وصورت دعاء العدل كيف أن البرادعي وصل إلى قلوب الناس، حتى إلى قلوب عساكر الأمن شخصيًا. ورأى مخلوف أن كل ما يهم الأمن هو التوقف عن الحديث عن "تأييد البرادعي. ويرى عمر حسونة بأن البرادعي شخصيًا يرى أن الناس محتاجة معجزة حتى تستطيع أن تتخلص من النظام.



شكل ٤٣٣: البرادعي في قلوب الناس!

ضابط الأمن: "يعني ايه "البرادعي" في قلوب الناس عايزك تعتقل قلوبهم وكلاويهم كمان!!"

عسكري و"البرادعي" في قلبه: "أوا..أوامر..سعادتك يا باشا!!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٤٣٤: قلوب المصريين!

الدكتور العالمي مجدي يعقوب: "قلوب المصريين الأكثر ألمًا ومرضًا بسبب القهر والظلم!!"

الأمن: "سيبوه يقول اللي هو عايزه، المهم .. ميجبش سيرة تأييد البرادعي!!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٣٥٤: المعجزة!

البرادعي: "أنا متشكر أوي يا جماعه على استقبالكم لي .. بس أحب أقولكم انتو مش محتاجين البرادعي .. انتو محتاجين معجزة!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)

وتعتبر انتخابات مجلس الشعب لعام ٢٠١٠ بمثابة أحد أوراق التوت التي سقطت تباعًا عن نظام مبارك، ولقد وافقت الأحزاب المعارضة على خوض الانتخابات بعد أن كانت تدرس بالفعل مقاطعتها تلبية لدعوة محمد البرادعي. شهدت هذه الانتخابات أحداث عنف واشتباكات في عدد كبير من الدوائر أدت إلى سقوط قتلى. وأجريت الانتخابات بدون إشراف قضائي وعارية من أية نزاهة، فقد اتهم الحزب الوطني بشبهة التزوير. وانسحب كل من حزب الوفد ومرشحي الإخوان المسلمين من جولة الإعادة احتجاجًا على ما رأوه من تزوير وأعمال عنف وبلطجة صاحبت الجولة الأولى.

كان الجو العام ينبئ بأن هذه الانتخابات ستكون الأسوأ على الإطلاق. وكذلك كانت رؤية رسامي الكاريكاتير وقناعتهم بأن الحزب الحاكم سيفعل المستحيل حتى يضمن أغلبية المقاعد بالبرلمان. كما سخر الرسامين من تصريحات الحزب الوطني بوصف هذه الانتخابات بـ "النزيهة"، ومن كشوف الأموات التي تستغل أصواتهم في الانتخابات.



شكل ٤٣٦: انجازات الحزب الوطني!

مواطن: "عايز أطلع على منجزات الحزب الوطني في ٢٣ سنه..من باب العلم بالشيء"

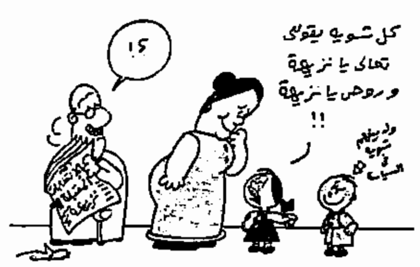
(الأهالي، ٦ أغسطس ٢٠٠٥)



شكل ٤٣٧: الانتخابات!

"وتنتحر ليه دلوقتي..ما تستنى بعد الانتخابات!"

(الأهالي، ٢٥ مايو ٢٠٠٥)



شكل ٤٣٨: الانتخابات المقبلة نزيهة!

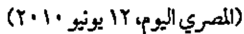
الفتاة: "كل شويه يوقللي تعالي يا نزيهة وروحي يا نزيهة!!"

(المصري اليوم، ٢٦ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٤٣٩: من أجلك انت!

"هع هع هع..عايزين ما أزورش الانتخابات..عشان يحصل فيا زي ما حصل في محمود أباظة بتاع حزب الوفد؟!!"


(المصري اليوم، ١٢ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٤٤٠: الأموات يصوتون في الانتخابات!

الخانوتي: "قوم ياخويا منك له..الانتخابات قربت!!"

(الوفد، ١ أكتوبر ٢٠١٠)



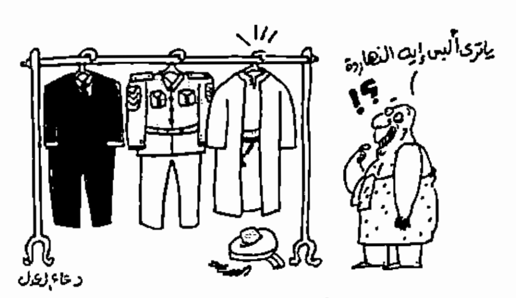
شكل ٤٤١: تصويت الأموات في الانتخابات!

"ياباشا انتوا زهقتونا..شعب وشورى..ولسه انتخابات الرياسة!!"

(الوفد، ٨ أكتوبر ٢٠١٠)

كما أشار الرسامين إلى تلون الحزب الوطني للتأثير على الناس واستغلاله الخطاب الديني للدعاية له.

◆ أزياء الوطني في إنتخابات ٢٠١٠ ◆



شكل ٤٤٢: أزياء الوطني في انتخابات ٢٠١٠.

الحزب الوطني: "ياترى ألبس إيه النهاردة؟!"

(المصري اليوم، ٢٧ نوفمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٤٣: رمضان كريم!

مواطن: "هوه اللي يزور الانتخابات في رمضان يا مولانا .. يدخل النار؟!"

الشيخ: "أنا أؤيد الحزب الوطني"

(الأهالي، ١٢ أكتوبر ٢٠٠٥)

وأشار عدد من الرسامين إلى بلطجية الحزب الوطني المأجورة التي تتواجد في كل انتخابات، وتساهم في إحداث أعمال عنف واشتباكات الغرض منها ترهيب المنافسين وناخبيهم.



شكل ٤٤٤: بلطجة الانتخابات!

"إديها ميه تديك طراوة كانت زمان..دلوقتي إديها بلطجه..تديك حصانة!!"

(الوفد، ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٤٥: بلطجي تحت الطلب!

بلطجي: "احنا بلطجية الانتخابات..قول للدكتور مش عايز حاجة مننا؟!"

(المصري اليوم، ٢٧ فبراير ٢٠١٠)

وحتى بعد إعلان نتائج "انتخابات" مجلس الشعب، استمر عدد كبير من الرسامين خاصة بالصحف المعارضة والمستقلة بتناول قضية الانتخابات والسخرية من نتائجها "المزورة". صور رؤوف عياد (الأهالي، ٨ يونيو ٢٠٠٥) مواطنًا يستمع لبيان تلفزيوني يقول: "ويسعدنا أن نعلن أن جميع مشاهدي التلفزيون المصري والقنوات المحلية وفضائيات "نايل سات" و"هوت بيرد" قالوا "نعم"!" بينما رسم عمرو سليم ودعاء العدل أعضاء الحزب الوطني يسخرون من عامة الشعب! وأشار وليد طاهر إلى الأموال الطائلة التي تصرف على الدعاية للفوز بمقعد بالبرلمان، بينما أشار عمرو عكاشة وعبد الله والعدل لحجم التزوير الذي شهدته هذه الانتخابات، التي كان مسؤولًا عن إدارتها أمين التنظيم بالحزب الوطني أحمد عز.

نتيجة الإنتخابات

شكل ٤٤٦: نتيجة الانتخابات!

(المصري اليوم، ١٩ ديسمبر ٢٠١٠)

نتيجة الإنتخابات ....

أنظر الكتاب صفحة ← ٢٠٠٥



شكل ٤٤٧: نتيجة الانتخابات..انظر الكتاب صفحة ٢٠٠٥!

(المصرى اليوم، ٧ ديسمبر ٢٠١٠)



الشكل ٤٤٨: كرسي البرلمان!

"ماتبصليش بعين رديه..بص للي..إدفع فيه!!!"

(الشروق، ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٤٩: التزوير قبل وفي انتخابات ٢٠١٠!

(الوفد ٦ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٥٠: التزوير في الانتخابات!

مزور: "ليه يارب خلقت الإنسان بإيدين اتنين بس؟!"

(المصري اليوم، ٧ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٥١: كائنات أسطورية مستحيل وجودها!

"الغول والعنقاء و"نزيهة"!!"

(المصري اليوم، ٢٩ نوفمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٥٢: أحمد عز مهندس انتخابات ٢٠١٠!

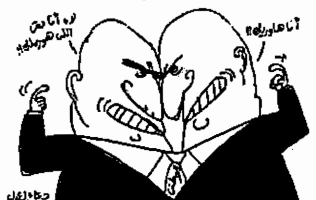
(الوفد، ٧ ديسمبر ٢٠١٠)

ورأى بعض الرسامين أن نتيجة انتخابات مجلس الشعب أظهرت خلو المجلس من أي معارضة ليتحاور الحزب الوطني في النهاية مع نفسه.



شكل ٤٥٣: مجلس الشعب بدون معارضة!

(الأهرام، ٧ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٥٤: انتخابات ٢٠١٠ .. الوطني ينافس الوطني!

الوطني: "أنا هاوريك!!"

وطني آخر: "لاء أنا بقى اللي هوريك!!"

(المصري اليوم، ١٠ نوفمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٥٥: نواب البراشوت!

(المصري اليوم، ٨ مايو ٢٠١٠)



شكل ٤٥٦: على كل لون يا باطسطا!

"متهم بالفساد وتبديد الاموال العامة عضو بمجلس الشعب"، و"شتام عضو بمجلس الشعب"، و"المحرض على ضرب المسيحين عضو بمجلس الشعب"، و"لاعب قمار عضو بمجلس الشعب".

المواطن: "مي اللي قال إن مجلس الشعب ما بيمثلش كل الطوائف؟!"

(المصري اليوم، ١٦ يناير ٢٠١٠)

ورسم عمرو عكاشة متحسرًا على حال البلد بعد عملية تزوير الانتخابات التي فاقت في حجمها المرات السابقة والتي كانت على مشهد ومسمع من الرأي العام.



شكل ٤٥٧: انتهاكات الحزب الوطني في الانتخابات!

الموطن: "وطني حبيبي الوطن الأكبر..يوم ورا يوم وفضايحه بتكتر..وانكساراته ماليه حياته..وطني بيخسر وبيستهتر..وطني يا مالك حبك قلبي..وطني يا بلد الحزب الوطني..كرشك كبير كبير..مخك خطير خطير..!"

(الوفد، ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠)

وما لبث أن أدت إحدى رسوم عمرو سليم إلى نشوب أزمة بين صحيفة "المصري اليوم" الناشرة للكاريكاتير ومجلس الشعب، الذي اعتبر في الكاريكاتير إهانة للمجلس، وقام بتشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في الكاريكاتير.



شكل ٤٥٨: انتخبوني..ممثل القطط وخير من يمثلكم!

قطة: "من طينة غير طينتنا ولا شبهنا ولا بيتكلموا زينا..ورغم كده هما اللي بيمثلونا في كل مجلس!"

(المصري اليوم، ١١ ديسمبر ٢٠١٠)

في المقابل، رسم ناجي كامل معبرًا عن إحساسه بمضمون خطاب مبارك أمام مجلسي الشعب والشورى في افتتاح الدور البرلمانية لعام ٢٠١٠، الذي يراه ايجابيًا. والحقيقة أن ما رسمه ناجي يعتبر مفاجئًا ومخالفًا للتوقعات، فقد رسمه في ظل وجود احتجاجات واسعة ضد هذه الدورة البرلمانية بالتحديد. وبشكل عام لا يمكن أن تجد مثل هذه النوعية من الرسوم في الصحف الحزبية المعارضة أو المستقلة.



شكل ٤٥٩: استطلاعة جديدة من وحي خطاب الرئيس ١!
(الأهرام، ٢٢ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٦٠: استطلاعة جديدة من وحي خطاب الرئيس ٢!
(الأهرام، ٢٤ ديسمبر ٢٠١٠)

سياسة التنفيس:

عمل نظام مبارك بمبدأ التنفيس حتى لا يحدث انفجارًا، فكان يسمح بإعطاء بعض الحركات تصاريح لإقامة مظاهرات، ثم يقوم بقمعها وبشدة. وكان يسمح بالنقد اللاذع وفي نفس الوقت يقوم بإرهاب المعارضين بأشكال عدة. فلم يخف عن الجهات السيادية مدى الغليان الذي وصل له الشارع المصري ولكن كان لديها دائمًا طمأنينة أنه عملًا بنظرية التنفيس ستبقى سيطرتهم على الشارع وزمام الأمور. ومن أشكال التنفيس التي استطاع النظام توظيفها لصرف الناس عن مشاكلهم ومعاناتهم الحقيقية مرضي أنفلونزا الطيور

والخنازير ومباريات كرة القدم والتي كان على رأسها مباراة مصر والجزائر للتأهل لنهائيات كأس العالم ٢٠١٠.

أشار عمرو سليم إلى نظرية التنفيس والأثر النفسي على المواطن المصري الذي تتركه كم الأزمات والكوارث التي تتصدر المشهد الإعلامي، والتي منها "أزمة التلفزيون وقناة الجزيرة"، و"أزمة البرادعي وجماعة التغيير"، و"أزمة القضاة والمحامين"، و"أزمة الشرطة وقتيل الإسكندرية".



شكل ٤٦١: الخطة!

أحد المسؤولين: "الخطة نجحت ودماغ المواطنين جابت جاز .. نصدر للخارج بقى يا فندم"

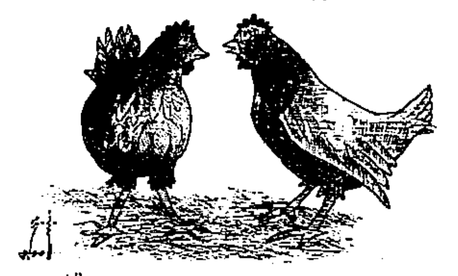
(المصري اليوم، ١٥ يونيو ٢٠١٠)

ظهر في مصر منذ عام ٢٠٠٦ مرض معد يعرف بمرض أنفلونزا الطيور، الذي ينتقل للإنسان نتيجة المخالطة لطيور منزلية مصابة بالمرض، والذي قد يتسبب نوع منه معروف باسم (اتش ٥ إن ١) الوفاة بين البشر، مما دفع منع تداول الطيور الحية. وبالتالي تم إعدام ملايين من الطيور الداجنة لأهالي وشركات بما أضرت بشكل كبير على الثروة الداجنة. فوفقًا لتقرير عن مجلس الوزراء أن السلطات أعدمت ٣٤,٤ مليون طائر قيمتها في الأشهر الـ١٣ التي تلت ظهور المرض ٩٧٧ مليون جنيه، مما أدى إلى تحويل البلاد إلى مستورد للدواجن بتكلفة بلغت ٨٠,٥ مليون جنيه بعدما كانت قد كسبت ٢١,٥ مليون جنيه من صادرات الدواجن عام ٢٠٠٥[١]. ولعل هذا هو السبب الذي دفع بعض الناس خاصة من المتضررين إلى التشكك بأن وراء الأمر مؤامرة للقضاء على الثروة الداجنة واحتكار سوق اللحوم البيضاء في مصر لأشخاص محددين!

(١)إعدام دواجن قيمتها ١٧٢ مليون دولار في مصر، الأخبار، الاقتصاد والأعمال، "الجزيرة نت"، تم الاطلاع عليه في ١ يناير ٢٠١٢ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1038528

ويستغرب الكاتب والأديب محمد سلماوي من توقيت وصول أنفلونزا الطيور إلى مصر، في الوقت الذي مازال الشعب مهمومًا بمأساة عبارة الموت التي راح ضحيتها مئات الأبرياء. يعتقد سلماوي بأن الحكومة أسرعت بإعلان وجود المرض لتحويل اهتمام الناس بعيدًا عن موضوع العبارة التي لا تريد التحقيق فيه لأن مالك السفينة "صديق للمسؤولين"(١).

ولم تمر بضع سنوات وحتى تم "الإعلان" عن ظهور وباء آخر بمصر اسمه "أنفلونزا الخنازير"، ليعلن النظام خطته في حصار الوباء باتباع تقريبًا نفس السيناريو الذي اتبعه مع أنفلونزا الطيور من خلال قرار إعدام جميع الخنازير في مصر، الخطة التي لاقت نقدًا وإدانة سواء على المستوى المحلي أو الدولي. وتبنت عدد من الصحف فكرة وجود ثمة مؤامرة وراء التهويل من حجم خطر الفيروس عالميًا، والتي يقف خلفها بعض شركات الأدوية المصنعة للمصل المضاد والتي ارتفع أسهمها في هذه الفترة بشكل ملحوظ(٢).



شكل ٤٦٢: ظهور انفلونزا الطيور وانفلونزا الخنازير!

"الخنازير ورانا ورانا مش راضية تسيبنا في حالنا..!!"

(الأهرام، ٢٩ ديسمبر ٢٠١٠)

(١) محمد سلماوي، أنفلونزا الطيور ونظرية المؤامرة!، "المصري اليوم"، ٢٤ فبراير ٢٠٠٦.

(٢) خالد أحمد دياب، نظرية المؤامرة: انفلونزا الخنازير سلاح بيولوجي تستفيد منه شركة يساهم فيها رامسفيلد وريجان، "المصري اليوم"، ١٢ مايو ٢٠٠٩.



شكل ٤٦٣: أنفلونزا الخنازير!

الأب: "يا غشاش يا ضلالي أشتري منك صنف لحمة واحد.. يطلع ثلاث أصناف!!"

(المصري اليوم، ١٠ نوفمبر ٢٠٠٩)



شكل ٤٦٤: انفلونزا الخنازير!

أحمد نظيف: "نام .. بقولك نام .. شد اللحاف .. ركز في انفلونزا الخنازير وإنساني خالص!!"

(الوفد، ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩)

ومما لا يدع مجالًا للشك أن ملابسات مباراة مصر والجزائر كانت من أحد الحيل التي وظفها النظام لضمان صرف انتباه واهتمام الناس عن مشاكلهم وأزماتهم الحقيقية، ويبدو أنه بشكل ما نجح في هذا خاصة مع شعب عرف عنه عشقه "للكورة" وأنها كل ما تبقى لديه ليزيح بها عنه قليل من همومه.

كانت المباراة الأولى قد تمت في القاهرة في ١٤ نوفمبر ٢٠٠٩، والتي انتهت بفوز المنتخب المصري بهدفين للاشيء. وتأزم الموقف الرسمي قبل الشعبي عندما انتشرت أنباء عن تعرض حافلة المنتخب الجزائري لاعتداء من جماهير مصرية قامت برشقها بالحجارة وتكسير زجاجها. وتوالت الأخبار عن وقوع اعتداءات على مصريين مقيمين في الجزائر عقب فوز المنتخب المصري على نظيره الجزائري في القاهرة، على إثر بث إحدى الصحف

الجزائرية خبرًا كاذبًا عن مقتل عدد من الجزائريين وإصابة مئات في القاهرة، وهو ما أدى إلى مهاجمة مجموعة جزائرية مقار سكن وعمل مصريين بالجزائر.

وأقيمت المباراة الفاصلة في أم درمان بالسودان في ١٨ نوفمبر ٢٠٠٩، وانتهت بفوز الجزائر ١ -صفر وتأهلها لنهائيات كأس العالم ٢٠١٠، وسجل الإعلام المصري حدوث أعمال شغب وعنف، واتهم مشجعي الجزائر باعتدائهم على مشجعين مصريين وحافلاتهم سواء بالحجارة أو الأسلحة البيضاء، مما تسببوا في وقوع إصابات.

بصرف النظر عن المذنب أو المستفيد من وراء أحداث الشغب التي تمت، فمن الملاحظ أن الإعلام قد تبنى بشكل عام سياسة التهييج والتصعيد وليس التهدئة، وللأسف لم يراعِ الكثير من المهنية في نقل وتناول الأحداث، وسلك في البداية عدد من الرسامين نفس السياسة الإعلامية في التحريض ضد مشجعي الجزائر. واستفاد النظام من أحداث الشغب في السودان كغطاء للهزيمة. ولا ننسى أن أحداث الشغب كانت سببًا لعلو نجم علاء مبارك (الابن الأكبر لمبارك)، بعد أن قام بمداخلة هاتفية على الهواء مباشرة لإحدى البرامج التلفزيونية يندد ضد الأحداث ويرى أنه لابد وأن يكون هناك موقف ضد ما حدث! ومن الجدير بالذكر، أن كلًا من علاء وجمال قد حضرا المباراة الفاصلة.



شكل ٤٦٥: البلطجية اشتكوا من كتر سكاكينك!

(المصري اليوم، ١٩ نوفمبر ٢٠٠٩)



شكل ٤٦٦: ماتش الجزائر!

"حضارة سول: ٧٠٠ سنة خبرة في إبادة الحشرات الضارة"

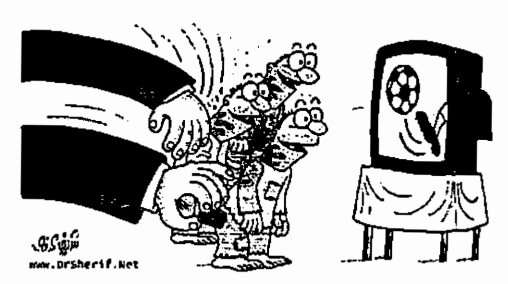
(أخبار اليوم، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٩)



شكل ٤٦٧: كورقي وكورتك وانفرقوا الكور!

"طبيعي طبعًا إننا نتخانق ونزعق ونتحمق .. أصل الكورة هيه الحاجة الوحيدة اللي فاضلة لنا!"

(المصري اليوم، ١٦ نوفمبر ٢٠١١)



شكل ٤٦٨: الزمبلك!

(www.drsherif.net، ١٣ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٤٦٩: الانتماء!

الشعب: "فرجني الماتش بسرعة .. أرجوك محتاج الجرعة.."

(www.drsherif.net، ١٩ يونيو ٢٠١٠)

شكل ٤٧٠: يحدث في بلد تركب الأفيال!

مسؤول: "مالك انت ومال هندوراس؟! قلت لك ميت مرة خليك مركز في أحداث ماتش الجزائر!"

(المصري اليوم، ٢ ديسمبر ٢٠٠٩)



شكل ٤٧١: صعود نجم علاء مبارك!

"مش شرط إن المهاجم الصريح هوه اللي يجيب الجون .. في خطط اللعب الحديثة اللي يجيب الجون بيكون جاي من الخطوط الخلفية!"

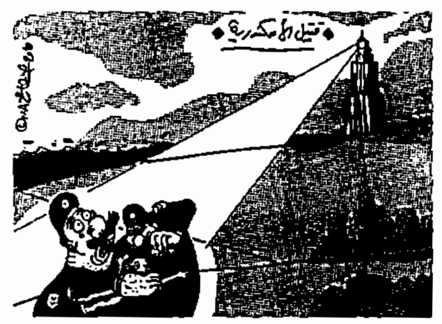
(المصري اليوم، ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٩)

خالد سعيد:

وقعت حادثة زلزلت الإسكندرية في ٦ يونيو ٢٠١٠ كان ضحيتها شاب يدعى خالد سعيد، الذي وفقًا لشهود عيان قد تم تعذيبه حتى الموت على أيدي اثنين من مخبري الشرطة التابعين لقسم شرطة سيدي جابر بالإسكندرية، القضية التي مازالت في أروقة المحاكم للمطالبة بالقصاص من قتلته.

وسرعان ما انتشرت قصته على موقع "فيس بوك" لتتسع دائرة الاحتجاجات وتشمل جميع محافظات مصر ضد التعذيب والتعامل بوحشية داخل أقسام الشرطة من قبل بعض رجال الأمن. كشفت هذه الحادثة عن قدرات موقع مثل "فيس بوك" على تنظيم الاحتجاجات والمظاهرات، وذلك من خلال ظهور صفحتين، "كلنا خالد سعيد" و"اسمي خالد سعيد"، واللتين كان لهما دورًا كبيرًا في تنظيم الاحتجاجات ضد انتهكات الشرطة بشكل عام وضد ما حدث مع خالد سعيد بشكل خاص. من هذه الوقفات الاحتجاجية المنظمة، قام آلاف من المصريين بارتداء ملابس سوداء، والوقوف صامتين بطول "الكورنيش" في العديد من المحافظات، ووجوههم مواجهة للبحر أو للنيل، حدادًا على شهيد الطوارئ.

وثارت الرسوم الكاريكاتورية متعاطفة مع قضية خالد سعيد وضد انتهاكات الشرطة.



شكل ٤٧٢: قتيل الإسكندرية!

(المصري اليوم، ١٤ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٤٧٣: تاريخ الشرطة..حوادث التعذيب!

(المصري اليوم، ٢٩ يونيو ٢٠١٠)



شكل ٤٧٤: محاكمة قتلة خالد سعيد!

"سنة كاملة..ولم يعاقب قتلة خالد سعيد!"

بهلوان: "بقى يا راجل فاتت سنة ولسه مانستش خالد سعيد؟!!"

زميله: "ولا ميت سنه"

(الأهرام، ٩ يونيو ٢٠١١)

الثورة التونسية:

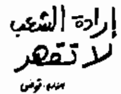
لم يصدق المصريون أنفسهم وهم يتابعون ثورة تونس التي اندلعت في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ ويتساءلون، إذا كان قد حدث في تونس فما يمنع حدوثه هنا؟ ومن قراءة سريعة للنكت التي أطلقها المصريون على أنفسهم وقتها، تعرف أنهم غير راضيين عن موقعهم كمتفرج وانهم نووا على القيام بثورة. وكانت أشهر النكت: "يعني إيه كوك زيرو: يعني البرادعي يطالب بالتغيير في مصر، الشعب يستجيب في تونس"، و"الفرق بين الشعب المصري والتونسي إن الشعب التونسي تقول له ثور فيثور والشعب المصري تقول له ثور يقول احلبوه"، و"تونس اختارت التغيير ومصر اختارت شيسي بالجمبري"، و"بن علي بيتصل بمبارك ومبارك بيكنسل عليه"، وأخيرًا "هو ليه شباب تونس بيتظاهروا في الشوارع هو مفيش عندهم فيسبوك".

وطبعًا وجد الرسامون أخيرًا ضالتهم ويدؤوا يدقون طبول الحرب (الثورة) بمساندتهم لثورة تونس في الكاريكاتير. كما عبر الرسامون عن قلق الأنظمة العربية بما فيها نظام مبارك على أنفسهم بعد أحداث ثورة تونس.



شكل ٤٧٥: تونس....أكبر النار من مستصغر الشرر!

(الأهرام، ١٥ يناير ٢٠١١)





شكل ٤٧٦: إرادة الشعب لا تقهر..التوقيع تونس!

(المصري اليوم، ١٥ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٧٧: الآن فهمتكم!

الزوجة: "يا قوة الله.. ده الحكام بياخدوا وقت طويل قوي على ما يفهموا الشعب يا سي سيد!"

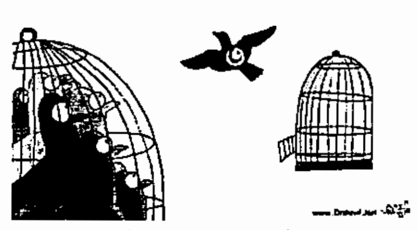
(المصري اليوم، ٢١ يناير ٢٠١٠)



شكل ٤٧٨: ثورة تونس!

فيروز: "ايه في أمل!!"

(الشروق، ١٩ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٧٩: ثورة تونس!

(www.drsherif.net، ١٨ يناير ٢٠١١)

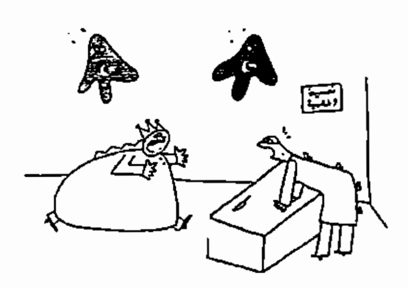


شكل ٤٨٠: الأنظمة العربية وثورة تونس!

الأنظمة العربية: "ما لكش دعوه خاااالص باللي بيحصل في تونس..فاهم؟!!"

(المصري اليوم، ١٢ يناير ٢٠١١)

يشفيك يا دكتور.. بقالي فترة تعبان وبشوف أشباح قدامي..



شكل ٤٨١ ثورة تونس!

الأنظمة العربية: "يشفيك يا دكتور..بقالي فترة تعبان وبشوف أشباح قدامي.."

(اليوم السابع، ٢٠ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٨٢: مصر غير تونس!

التلميذ: "يعني إيه مصر غير تونس؟!"

المدرس: "يعني لا عندهم لجنة سياسات ولا احتكارات.."

(اليوم السابع، ٢٦ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٨٣: أحداث تونس!

مواطن مصري: "ياااااارب..ال..."

الأمن: "تمام يا فندم..ظبطنا واحد بيقول يارب..نقبض عليه ولا نستنى لما يكمل؟!"

(الوفد، ١٥ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٨٤: الوضع في مصر!

الكائنات المصرية: "يااااارب .. احنا تعبنا بقى!!"

(الوفد، ١٦ يناير ٢٠١١)

وسجلت بعض الحوادث الفردية لأفراد قاموا بحرق أنفسهم اعتراضًا على ظروف معيشتهم أسوة بمحمد بوعزيزي مفجر الثورة التونسية. وعلق عدد من الرسامين على الأحداث، فصور ياسر جعيصة رد فعل المسؤولين للمواطن المصري الذي فكر في حرق نفسه احتجاجًا على ظروفه، كما رسم عمرو عكاشة "تنظيم عنبر ٩" المجانين يفند افتراءات الحكومة بأن من يحرق نفسه هو واحد مجنون.



شكل ٤٨٥: هاولع في نفسي!

"خلاص زهقت .. فقر.. بطالة..جوع .. أنا خلاص هاولع في نفسي..!"

(ياسر جعيصة[١]، ٢٠ يناير ٢٠١١)

(١) ياسر جعيصة، ٢٠ يناير ٢٠١١، تم الاطلاع في ٢٤ يناير ٢٠١٢ من على الموقع الإلكتروني:
https://www.facebook.com/photo.php?fbid=484181277110&set=a.6213072110.15525.642902110&type=1&theater



شكل ٤٨٦: تنظيم عنبر ٩!

"هذا البيان لكل مسؤول.."سبق وحذرنا من إلصاق أي تهمة بنا.. دلوقتي كل ما حد يولع في نفسه يقولوا عليه مجنون..ونحن نحذر من تكرار ذلك..صحيح مش هنولع في الراجل الطيب ده..لكن هنحط واحد كبير مكانه..احنا ولاد مجنونه ونعملها..وقد أعذر من أنذر"!!

(الوفد ١٨ يناير ٢٠١١)

كانت نظرة الرسامين بشكل عـم للواقع ولمستقبل مصر يتسم بالتشاؤم في ظل استشراء الفساد، واحتكار بعض رجال الأعمال القريبين من النظام لسوق المال، ولا يوجد آليات أو نية لوقف نزيف النهب والسرقات.



شكل ٤٨٧: مستقبل مصر!

مواطن: "تفتكر..أنا اللي مش شايف أدامي واللا أدامي...هو اللي مش موجود!!"

زميله: "الاتنين!!"

(الشروق، ١ نوفمبر ٢٠٠٩)



شكل ٤٨٨: ما شربتش من نيلها!

"ماشربتش من نيلها.... ما سرقتش مصانعها.... جربت في عز ما تحزن تمشي في شوارعها وتشكيلها.... دور جواك تلقاها هي عز وهي جمال.... غيرك عملوا من قوتنا ثروات ولا جت على بال....يمكن ناس لأنك فيها.... يوماتي شايف بلاويها.... بس اللي مجروب وفارقها قال في الدنيا مفيش زيها"

(الوفد، ٩ ديسمبر ٢٠١٠)

الإرهاب والفتنة الطائفية:

بدأت السنة الجديدة ٢٠١١ بحادث إرهابي مروع أخذ بأفئدة ولب المصريين من بشاعته، فقد حدث تفجير استهدف كنيسة القديسين بالإسكندرية في ليلة رأس السنة وقت الاحتفال بعيد الميلاد، مما أودى بحياة عشرات القتلى وما يقرب من ٩٠ جريح. وكانت هذه آخر ورقة توت سقطت عن نظام مبارك.

كان ثمة اتجاه إعلامي استمر لسنوات يطلق على حوادث الاعتداء على الأجانب والمناطق السياحية بالإرهاب، في حين يطلق على حوادث الاعتداء على الأقباط أو على دور عبادتهم بالفتنة الطائفية. ولعل السبب الذي يرجع للمسمى الأخير هو أن الاعتداءات على الأقباط يكون الغرض منه إشعال الفتنة بين فصيلي المجتمع الواحد. وهذا يدفعنا للتساؤل هل يوجد فتنة طائفية وهناك من يريد أن يوقظها؟ أم هناك طائفية تحتاج من يقضي عليها؟ وإذا سلمنا بأن هناك فتنة نائمة، فمن من مصلحته أن يوقظها؟

ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن تضاؤل دور الأزهر في السنوات الأخيرة أتاح للمد الوهابي أن يملأ الفراغ الذي خلفه والذي يحمل خطابًا دينيًا متشددًا يزيد من حالات الاحتقان، إن وجدت، بين فصيلي المجتمع. وبسبب ضعف الأزهر وفقدانه لسيطرته على بعض المساجد خاصة في المناطق الريفية أو الشعبية، وقع بعض الناس ضحايا لفكر خطابي متشدد. فهناك بشكل ما طائفية يتوجب التصدي لها برجوع الأزهر لمكانته ودوره الريادي كمنار للإسلام الوسطي.

وإذا سلمنا بوجود متعصبين من المسلمين فهذا لا يعني بأي حال أنهم ممن يتبنون فكرة الاعتداء على من هم على غير دينهم. فمازالت فطرة المصريين بشكل عام لا تتبنى العنف ولا تتخذه مبررًا. ونقصد هنا المواطنين العاديين ممن لا ينتمون لجماعات إسلامية متطرفة قد اتخذت في الماضي العنف مذهبًا وارتكبت أعمالًا إرهابية.

فقد عرفت مصر مبكرًا جدًا وبشكل عملي نتيجة الخلطة السرية للجهل والتعصب مع فقر وفساد في شكل عدد من العمليات الإرهابية التي استهدفت أبرياء من المصريين والسائحين الأجانب. وقد دق ناقوس خطر التطرف وعلاقته بالإرهاب مبكرًا مع اغتيال السادات عام ١٩٨١ على يد عناصر منتمية للجماعة الإسلامية.

يعتقد بعض الرسامين بأن ثمة علاقة قوية بين الفساد والإرهاب. كما أن انتشار الفقر والجوع والجهل والبطالة من العوامل التي هيأت بيئة خصبة لانتشار الأفكار المتطرفة والهدامة.



شكل ٤٨٩: الإرهاب!

الزوجة: "والغلا اللي احنا فيه ده .. مش إرهاب برضه يا سي عبده؟!"

(الأهالي، ١١ مايو ٢٠٠٥)



شكل ٤٩٠: الفساد والإرهاب!

(زهدي، ١٩٩٨)

وتعتبر حادثة الأقصر (١٧ نوفمبر ١٩٩٧) من أبشع الحوادث الإرهابية الدموية التي ارتبطت بالجماعات الإسلامية المتطرفة، والتي استهدفت السائحين الأجانب بالدير البحري، وراح ضحيتها ما يقرب من ٥٨ سائحًا من جنسيات مختلفة، وقد أعقب هذه الحادثة إقالة وزير الداخلية وقتها حسن الألفي، وتولية حبيب العادلي مكانه.

هاجمت الرسوم وقتها التطرف الديني والإرهاب، كما سخرت من نفاق المسؤولين وعدم شفافية تصريحاتهم حول حقيقة ما يحدث. رسم رؤوف في "الأهالي" (٣ ديسمبر ١٩٩٧) مسؤول يحدث صحفيًا قائلًا: "واكتب إن السياحة بخير .. والتدفق السياحي مستمر .. ويقول لأهالي الأقصر بطلوا زن وكل واحد يحاول يسافر يشوف شغلانه في الخليج!"

كما أشار رؤوف أن الأهم من تغيير القيادات الأمنية تحسين الوضع المتدني والظروف الاقتصادية الصعبة التي يعمل في ظلها عساكر أمن "الأقصر"!



شكل ٤٩١: عساكر الأمن بالأقصر!

"مش مهم تغيير القيادات الأمنية .. المهم تغيير الفول والطعمية والبصل..!"

(الأهالي، ٣ ديسمبر ١٩٩٧)

ومع أن الإرهاب كان محليًا صرفًا، إلا أن ماهر داوود في "الأهرام" (٢٩ يناير ١٩٩٨) تحت عنوان "فوازير الإرهاب"، ربط بين الإرهاب وإسرائيل، فصور رجلًا، يرتدي جلابية ويضع عصابة على عينيه وقد أخذت لحيته شكل نجمة داوود، يسأل متعجبًا ضابط شرطة قد ألقى القبض عليه: "إنما إيش عرفك إني إرهابي وعميل؟!"، في إشارة إلى أن ما يقترفه الإرهابيون من جرائم في مصر يقع في مصلحة إسرائيل، وبالتالي ليس مستبعدًا أن يكونوا عملاء لإسرائيل.

ولم تكن حادثة الأقصر الأولى أو الأخيرة، بل أعقبها سلسلة من التفجيرات، ففي ١٥ أكتوبر ٢٠٠٤، وقعت تفجيرات في فندق هيلتون في منتجع طابا بسيناء، أوقعت ٣٤ قتيلًا و١٠٥ جرحى، وكان من بين القتلى ابنة رئيس وزراء إسرائيل شارون وحفيداه

وسكرتيرته. وفي ٧ و٣٠ إبريل ٢٠٠٥، تعرضت القاهرة ليومين دامين من العنف في حي خان الخليلي وميدان عبد المنعم رياض، قتل فيهما ثلاثة سائحين أجانب، وأصيب ١٨ شخصًا بينهم عشرة مصريين. وفي ٢٣ يوليو ٢٠٠٥، شهدت مدينة شرم الشيخ سلسلة من الهجمات الإرهابية، أودت بحياة ٨٨ قتيلًا، معظمهم من المصريين، وأعلنت مجموعة سمت نفسها كتائب عبد الله عزام تابعة لجماعة "القاعدة" الإرهابية، مسؤوليتها عن الحادث. وفي ٢٤ إبريل ٢٠٠٦، وقعت ٣ تفجيرات متزامنة بمتجع دهب في شرم الشيخ، أودت بحياة ٢٣ شخصًا وجرح ٦٢ آخرين معظمهم من المصريين. وفي ٢٢ فبراير ٢٠٠٩، في سوق خان الخليلي قرب المشهد الحسيني في حي الحسين بالقاهرة، انفجرت قنبلة أسفرت عن مقتل فتاة فرنسية تبلغ من العمر ١٧ عامًا، وإصابة ٢٥، من ضمنهم أربعة مصريين.

وتذكرنا مذبحة القديسين والتي شهدت بعدها ثورة ٢٥ يناير، بـ "مذبحة كنيسة السويس" في ٤ يناير ١٩٥٢، والتي شهدت بعدها حريق القاهرة ٢٦ يناير التمهيدي لثورة يوليو ١٩٥٢. لم يكن الحادثتين تمهيدًا مباشرًا للثورتين، لكنه بكل تأكيد كان إشارة لحتمية إنهاء نظام الظلم.

وتعتبر "مذبحة كنيسة السويس" من أخطر الأحداث التي هددت الوحدة الوطنية في منطقة القنال، وكادت أن تؤدي إلى فتنة وأن تؤدي إلى انسحاب الاقباط من الحركة الوطنية في مصر كلها. وقد تبين من التحقيقات أن السبب في الحريق هو أحد الشباب المرتزقة الذين كانوا يعملون في المعسكرات الإنجليزية والذي عرف عليه عدد من السوابق الإجرامية من قبل[1].

وساهم في امتصاص الغضب والحيلولة دون حدوث فتنة بعض الأقلام الشريفة الواعية من الأقباط الذين أشاروا إلى قناعتهم بتورط الإنجليز في هذا الحادث، وبالتالي أغلقوا كافة النوافذ والأبواب على المؤامرة وفشلت فتنة السويس في الإطاحة بالحركة الوطنية. ففي المقال الافتتاحي بالصفحة الأولى من جريدة "النيل" (١٤ يناير ١٩٥٢)، على سبيل المثال، كتب تادرس شنودة واصف مقالًا تحت عنوان "اضربوا على الأيدي العابثة" يسجل فيه قناعاته ويقول فيه: "إننا نرى أن الأصبع الإنجليزي قد بدأ يلعب فعلًا"، و"نعم إن الإنجليز يهمهم جدا أن يروا عنصري الأمة وقد افترقا فيسهل تمزيق الجميع وبذلك يطمئنون على أنهم باقون بدعوى حماية الأقليات ولكن أين الأقليات ولما يسموا الأقباط

(١) الدكتور محمد أنيس، "حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأول مرة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص: ٢٣.

بأقليات إن الأقباط والمسلمين في وادي النيل مصريون أخوة في وطن واحد"[١].

ووفقًا لصحيفة "الشروق"[٢]، فإن هناك سردًا طويلًا لحوادث الفتنة الطائفية في مصر، فلا يكاد يمر عام إلا وتكون هناك مواجهات بين مسلمين وأقباط في مكان ما. وتعتبر حادثة "الخانكة" عام ١٩٧٢ أولى حوادث الفتنة الطائفية في شكلها المعهود التي نعرفها اليوم، فقد حدث مواجهات بين أقباط ومسلمين بسبب محاولة بعض الأقباط تحويل منزلهم إلى كنيسة، ثم كانت أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١ والتي أشار إليها السادات في إحدى خطاباته بمجلس الشعب والتي نشبت على أثر خلافات عادية، ثم كانت أحداث "الكشح" الأولى عام ١٩٩٨، على خلفية ثأر بين عائلة مسلمة وأخرى قبطية، وبعدها بعامين، كانت أحداث "الكشح" الثانية على خلفية نزاع بين تاجر مسلم وآخر قبطى، أسفرت عن مقتل ٢٢ شخصًا بينهم ٢١ من الأقباط بالقرية. وشهد النصف الأول من عام ٢٠٠٩ تسع حوادث طائفية وفقًا "للمركز المصرى للتنمية والدراسات الديمقراطية" و"الجمعية المصرية لدعم التطور الديمقراطى".

وعلى خلفية تفجيرات كنيسة القديسين، تم اعتقال عدد من المنتمين لجماعات سلفية من غير تهم موجهة لهم، لتسقط ضحية جديدة لتعذيب أمن الدولة، وهي للشهيد الشاب السيد بلال، الذي مازالت أسرته تناضل عن طريق القضاء لتحاكم قتلته.

انتشرت في الرسوم الكاريكاتورية نفس الأكليشيهات المعتادة التي تستخدم عند تناول حوادث الفتنة الطائفية، مثل رمزي الهلال والصليب، ورمز مفتاح النيل، وتصوير الفتنة الطائفية كشيطان، للتعبير عن غضبهم وصدمتهم فيما حدث، والتأكيد على صمود روح الوحدة الوطنية. واستطاع بعض الرسامين أن يخرجوا من هذه القوالب المعتادة ويعبروا بأسلوب وشكل جديد عن الحدث.



شكل ٤٩٢: العزاء للمصريين!

(الشروق، ١ يناير ٢٠١١)

(١) الدكتور محمد انيس، المرجع السابق، ص: ٢٤-٢٥.

(٢) "الشروق"، من الخانكه وحتى فرشوط..رصيد الفتنة الطائفية لا ينفد..فمن ينزع الفتيل؟، ٨ يناير ٢٠١٠.



شكل ٤٩٣: الوحدة الوطنية ١!

(الأهرام، ١١ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٤٩٤: الوحدة الوطنية ٢!

المذيع: "في نهاية الحديث تحبي تقولي إيه لأبنائك؟"

مصر: "أقول لأبنائي مصر أكبر من الأحزان وفوق الجميع".

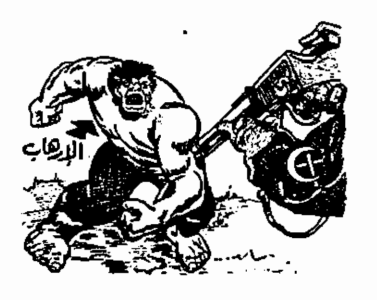
(الأهرام، ١٠ يناير ٢٠١١)

وشدد الرسامون بأن يقظة المصريين ستحول بين أن يفرق "الإرهاب" أو أيا من كان بين فصيلي الأمة.



شكل ٤٩٥: الإرهاب ويقظة المصريين!

(الأهرام، ١٨ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٩٦: الوحدة الوطنية ضد الإرهاب!

(الأهرام، ١٧ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٩٧: كنيسة القديسين!

(المصري اليوم، ٢ يناير ٢٠١١)



شكل ٤٩٨: الفساد!

المواطن المسيحي: "من غير حلفان...عارف إن مش انت اللي عملت كده...وعارف كويس مين اللي عامل فينا كده!!"

(المصري اليوم، ٢ يناير ٢٠١١)

ويعتقد ناجي كامل بأن ثمة أيادي خارجية وراء تفجير الكنيسة، وهي إسرائيل. كما أعاد ناجي نشر نفس الكاريكاتير (شكل ٥٠٠) الذي سبق وأن نشره في ٢٠ يناير ٢٠١٠، تعقيبًا على أحداث الفتنة الطائفية بنجع حمادي.



شكل ٤٩٩ الإرهاب!
(الأهرام، ١٦ يناير ٢٠١١)



شكل ٥٠٠: الفتنة الطائفية!
(الأهرام، ٢ يناير ٢٠١١)

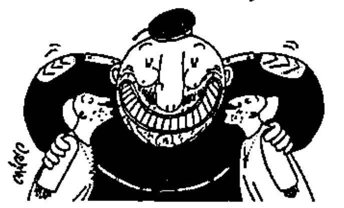
وسجل عدد من الرسامين رفضهم لطريقة معالجة النظام "العقيمة" والمتوقعة لتفجيرات كنيسة القديسين، والتي أضحت لا تمتص غضبًا ولا تقلل احتقانًا. فالصورة المعتادة بعد حوادث الاعتداءات على الأقباط أو دور عبادتهم أن يركز الإعلام على مقابلة كل من البابا شنودة، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، مع شيخ الأزهر، وهما يتصافحان ويقبلان بعضهما البعض، و"خلصت الحدوته". كما يركز التلفزيون المصري على إذاعة بعض الأغاني عن الوحدة الوطنية التي يعاد إذاعتها خصيصًا بعد هذه الحوادث.



شكل ٥٠١: مبوسة الوحدة الوطنية!

إعلان: "حاليًا بالأسواق..المزيل الفعال للإحتقان..الاختراع العجيب..إموواااه"

(المصري ليوم، ٤ يناير ٢٠١١)



شكل ٢٠٥: النهاية السعيدة!

(المصري اليوم، ٥ يناير ٢٠١١)



شكل ٣٠٥: خطوات فعالة لإخماد الفتنة!

رئيس الوزراء أحمد نظيف: "طبعًا أخدنا خطوات فعالة لإخماد الفتنة.. الصبح هنعرض أغنية "ما شربتش من نيلها".. والضهر.. "يبقى انت أكيد في مصر".. أما بالليل هنعرض أغنية "يا حبيبتي يا مصر"!!

(الوفد، ١١ يناير ٢٠١١)

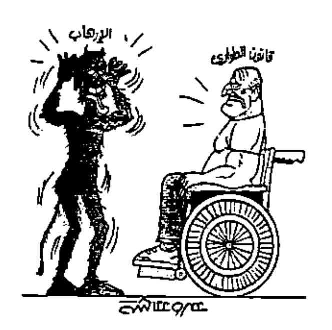


شكل ٥٠٤: كاريكاتير الوحدة الوطنية!

الأمن: "ارسم كاريكاتير يؤكد وجود الوحدة الوطنية!!"

(المصري اليوم، ٢٧ يوليو ٢٠١٠)

ومن الجدير بالذكر أن نظام مبارك كان يتخذ من مثل هذه الأحداث الإرهابية مبررًا وراء تمسكه بالعمل بقانون الطوارئ، وبالتالي وجدها عمرو عكاشة مناسبة للسخرية من "قانون الطوارئ" الذي بدا عاجزًا أمام الإرهاب.



شكل ٥٠٥: الإرهاب وقانون الطوارئ!

(الوفد، ١ يناير ٢٠١١)

وقارن عمرو عكاشة بحسرة بين ما أقره النظام للمتوفي في حادث كنيسة القديسين (٢٠ ألف جنيهًا مصريًا)، وبين ما دفعه للمتوفي الروسي في حادث قرش شرم الشيخ (٥٠ ألف دولار).



شكل ٥٠٦: تعويضات للمصري والأجنبي!

"٢٠ ألف جنيه للمتوفي في حادث كنيسة القديسين بالإسكندرية"

"٥٠ ألف دولار للروسي المتوفي في حادث قرش شرم الشيخ"

المواطن المصري: "لو لم أكن مصريًا ... لوددت أن أكون روسيًا!"

(الوفد، ٦ يناير ٢٠١١)

ومن المفاجآت التي أثيرت بعد ثورة ٢٥ يناير هي ظهور مستندات تفيد باحتمالية تورط وزير الداخلية السابق حبيب العادلي في تفجير كنيسة القديسين[١]، والتي مازالت رهن التحقيقات ولم يبت بعد في مدى صحتها.

تنبؤات بالثورة:

ولكن هل تنبأ الرسامون بحدوث ثورة؟ ما هو ثابت من الرسوم أن بعض الرسامين كان يعتقد بأن رياح التغيير لابد وستهب وأنه لابد للظلم والفساد من نهاية. وفي عدد من المقابلات الصحفية معهم قبل الثورة، كان لسان حالهم هو الاستياء مما يحدث، حتى أن وصل الإحباط حده مع بعض منهم أن فكر في الاعتزال.



شكل ٥٠٧: التغيير قادم لا محالة!

الشويش: "ماعاش اللي يضايقك كده ياباشا..قوللي بس الجدع اللي اسمه "إيكونوميست" ده ساكن في أنهي زقاق وأنا أجيبهولك من لغاليغه!!"

(المصري اليوم، ٢٧ يوليو ٢٠١٠)



شكل ٥٠٨: عنوسة شعب..في انتظار التغيير!

(المصري اليوم، ٢٤ يونيو ٢٠١٠)

(١) ميرفت رشاد، بالمستندات..تفاصيل خطة حبيب العادلي لتفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية..، "اليوم السابع"، ٣ مارس ٢٠١١.



شكل ٥٠٩: الاستقرار!
(الشروق، ٦ مارس ٢٠١٠)

لكن ما هو ثابت أيضًا أن بعض الرسامين قد تنبؤوا بنهاية النظام وبعض رموزه وتحديدًا في عام ٢٠١١. فعلى سبيل المثال، لمح بعض الرسامين، وعلى رأسهم عمرو سليم ودعاء العدل ومخلوف، وفي أكثر من مناسبة في رسومهم عن حدوث ثورة باستخدامه لكلمة "ثورة" ووضعها في سياق ذكي. كما أن عمرو عكاشة نشر رسومًا مع نهاية عام ٢٠١٠ تنبأ فيها بزوال عدد من الرموز ورجال الأعمال وعلى رأسهم وزير التعليم السابق أحمد زكي بدر ونائب مجلس الشعب ومحتكر الحديد أحمد عز. وكانت قنبلة عكاشة على الإطلاق هي كاريكاتيره الذي زعم أننـ سنرى مثله في عام ٢٠١١، يصور فيه شاهدقبر كتب عليه ""عاش سنين طوال في البلاد.. وأخيرًا استراح منه العباد".



شكل ٥١٠: ثورة البركان في أيسلندا!

رئيس التحرير: "انت اتجننت؟! غير الكلمة الهباب دي فورًا! خليها "تمرد محدود للبركان تمت السيطرة الأمنية عليه"!

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)



شكل ٥١١: ذكرى ثورة يوليو!

مواطن: "عاوزين بقى نعمل ثورة تانية!"

"عفوًا لقد نفذ رصيدكم"

(المصري اليوم، ٢٧ يوليو ٢٠١٠)



شكل ٥١٢: الاحتفال بـ ثورة ٢٣ يوليو!

الأمن: "شيل يابني كلمة "ثورة" .. مش عايزين نفتح عيون الناس على الحاجات دي!!"

(المصري اليوم، ٢٧ يوليو ٢٠١٠)



شكل ٥١٣: دعاء على وزير التعليم السابق أحمد بدر!

"اللهم إننا شكونا للكبير الرزين...فعمل ودن من طين وودن من عجين...ولم يسمع شكوانا لأنه عنيد...يحب أن يضربنا بيد من حديد...فلم نجد أكبر منك يا رحمن...لنشكو له ظلم الوزير الإنسان...اللهم أرنا عظيم آياتك التي لا تخطر على بال...لتكون على الظالمين وبال...وأرنا في العام الجديد...وزير جديد...فهذا ليس عليك ببعيد...في مفاجأة تهز قلوب الظالمين...من يوافقني يردد ورائي آمين...!!"

(الوفد، ٢٩ ديسمبر ٢٠١٠)



شكل ٥١٤: في ٢٠١١..سوف تجدون هذا المشهد!

"عاش سنين طوال في البلاد..وأخيرًا استراح منه العباد"

(الوفد، ٢٩ ديسمبر ٢٠١٠)

ثورة ٢٥ يناير: ثورة الثمانية عشر يومًا:

انتشرت دعوات شبابية على الشبكة العنكبوتية تنادي بالنزول يوم الثلاثاء ٢٥ يناير وجعله يوم الغضب الشعبي، وما لبث وأن استجاب للدعوة عدد كبير من الشباب وتم الحشد للنزول. وكانت من أكثر الصفحات التي كانت تروج ليوم الغضب، صفحة "كلنا خالد سعيد" وصفحة "حركة شباب ٦ إبريل". ووفقًا لصحيفة "الشروق"[(١)]، فإن ثمة تسع حركات صنعت يوم الغضب وهي حركة "شباب من أجل العدالة والحرية" التي ظهرت في منتصف يوليو ٢٠١٠، والحركة الشعبية للتغيير "حشد" التي ظهرت في أغسطس ٢٠١٠، وحركة "شباب ٦ إبريل" التي ظهرت في ٦ إبريل ٢٠٠٨، و"الجبهة الحرة للتغيير السلمي" والتي تأسست في منتصف عام ٢٠١٠، و"تيار التجديد الاشتراكي" الذي أقيم في ٢٥ سبتمبر ٢٠١٠، و"الحملة الشعبية المستقلة لدعم البرادعي" التي ظهرت للنور في ١٩ فبراير ٢٠١٠، و"حملة دعم حمدين صباحي مرشحًا للرئاسة"، وحركة "كفاية" التي ظهرت على الساحة السياسية في صيف ٢٠٠٤.

ولم يكن غريبًا اختيار ٢٥ يناير (عيد الشرطة المصرية) تحديدًا ليكون يومًا للثورة على النظام، فقد أصبحت الشرطة في الآونة الأخيرة أحد أذرع النظام التي لا تهتم إلا بحمايته، ناهيك عن الانتهاكات التي اقترفتها ضد مواطنين داخل أقسامها وأروقتها. وبالتالي شتان بين خروج الناس يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ للتنديد بقتل أفراد من الشرطة المصرية على يد المحتل الإنجليزي يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ عندما رفضوا تسليم مواقعهم وفضلوا المقاومة، وبين خروج الناس يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ ضد انتهاكات الشرطة في عصر مبارك، والذي تحول شعارها من "الشرطة في خدمة الشعب" إلى "الشرطة في خدمة النظام".

ولعل هذا يفسر حالة "انتكاسة" الداخلية وأحد أسباب الانفلات الأمني الذي تعيشه مصر منذ الثورة وحتى الآن. فمازالت العقلية الأمنية ترفض التصالح مع ثورة ٢٥ يناير التي رأت أنها قامت ضدها.

كان أهم ما أصر عليه الشباب في المظاهرات هو حتمية سلميتها، فكان ردهم للقمع الدموي من قبل الجهات الأمنية بترديد هتاف "سلمية..سلمية". لقد اختار الشباب أن تكون "السلمية" هي لغتهم لإحداث تغيير وليس العنف، وبالتالي كان صوتهم أعلى، لتصبح الثورة المصرية ملهمة العديد من الحركات العالمية والشعوب التي تتطلع للتغيير.

---

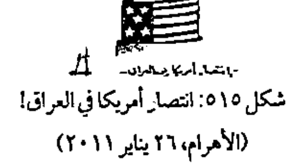
(١) ندى الخولي، إنترنت ودعوات "افتراضية" و ٩ "حركات" صنعت "يوم الغضب"، "الشروق"، ٢٩ يناير ٢٠١١، عدد ٧٢٨.

اتسم يوم الغضب بمواجهات عنيفة بين أجهزة الأمن والمواطنين في أغلب الشوارع الرئيسية والميادين العامة في القاهرة والمحافظات، استخدم فيها الأمن القنابل المسيلة للدموع والرصاص المطاطي والهراوات لتفريق المتظاهرين. وكانت أكثر المدن التي شهدت التحامًا وظهورًا شديدًا في أيام الثورة الأولى بالإضافة إلى القاهرة الإسكندرية والسويس والإسماعيلية ودار السلام والمحلة وشمال سيناء والفيوم. ورفع المتظاهرون شعار الثورة "عيش..حرية..عدالة اجتماعية"، الثلاثة مطالب الأساسية والآدمية. ولم تكن الثورة ثورة جياع، إنما كانت ثورة كرامة، خرجت لتثأر لكرامة المصري التي امتهنت داخل بلده قبل خارج بلده. وكان من أهم الشعارات التي رفعت خلال التظاهرات "الشعب يريد إسقاط النظام"، و"يا مصري خايف ليه في ايه تاني هتبكي عليه".

وللأسف لا يوجد حصر دقيق لعدد الشهداء والجرحى الذين سقطوا منذ ٢٥ يناير، كما مورسَ عدد من الضغوط على أهالي الشهداء والتي منها رفض تسليمهم تقارير تسجل السبب الحقيقي للوفاة.

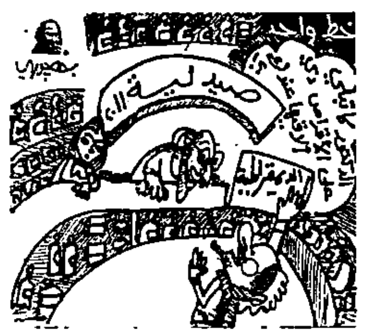
وتنوعت تغطية الصحف لأحداث يوم الغضب من متجاهلة موالية للنظام، لمرحبة معارضة للنظام، لحذرة مترقبة أو "ماسكة العصايا من النصف". فبالرغم من المعرفة المسبقة بميعاد الثورة إلا أنه لا أحد كان متوقعًا بقدرتها على إسقاط رأس النظام وفي مدة قياسية (١٨ يومًا). وظهرت الرسوم الكاريكاتورية متفاوتة هي الأخرى متماشية مع اتجاهات المطبوعة وتجاوبها مع أحداث الأيام الأولى من الثورة. ولا نستطيع أن نقيم حقيقة تفاعل بعض الرسامين مع الثورة (خاصة بالصحف القومية) بناءً على ما نشر لهم من رسوم، إلا إذا رسموا صراحة ضد الثورة مثلًا. وهذا لا يمنع أن هناك من الرسامين من أبدوا تعاطفًا ملحوظًا مع مبارك خاصة بعد خطابه الأول والثاني خلال الثورة، وكانوا من مؤيدين لفكرة التهدئة ومنح مبارك فرصة أخرى.

ظهر كاريكاتير لناجي "بالأهرام" ثاني أيام الغضب عن المأساة التي تعيشها الولايات المتحدة بالعراق، أما بهجوري فقد رسم يبحث في صيدلية عن أقراص "الديمقراطية"، ولعله إشارة غير مباشرة عن أحداث الأمس.



شكل ٥١٥: انتصار أمريكا في العراق!

(الأهرام، ٢٦ يناير ٢٠١١)

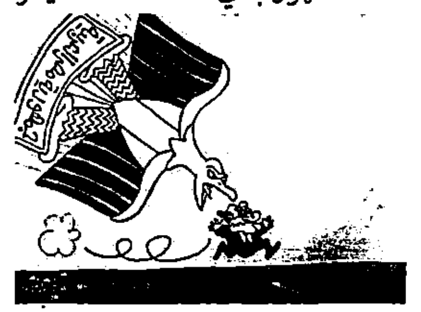


شكل ٥١٦: الديمقراطية!

"الدكتور كاتبلي على الاقراص دي ألاقيها عندك؟!"

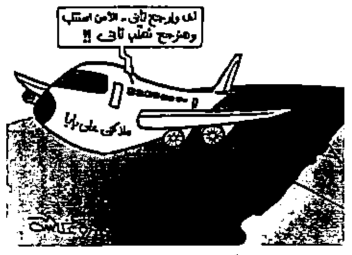
(الأهرام، ٢٦ يناير ٢٠١١)

ورسم شريف عرفه النسر المصري وفيما يبدو قد فاض به الكيل ويريد النيل من رأس النظام. أما عمرو عكاشة فكان يرى أن النظام لن ينصلح ولن يتخلى عن أهم مبادئه وهو "النهب"، وأنه قد أعد خطة للهروب في حالة أن فقد السيطرة.



شكل ٥١٧: النسر المصري والنظام!

(www.drsherif.net، ٢٦ يناير ٢٠١١)



شكل ٥١٨: الهروب!

"لف وارجع تاني .. الأمن استتب وهنرجع نهلب تاني!!"

(الوفد، ٢٦ يناير ٢٠١١)

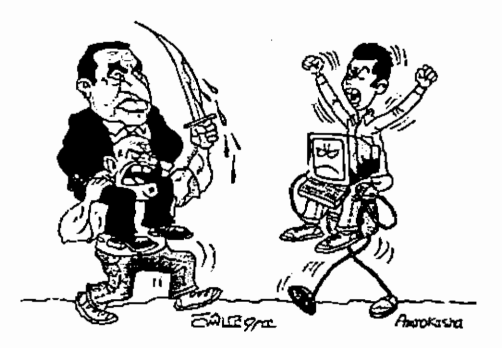
واستفز عدد من الرسامين في الصحف المعارضة والمستقلة تجاهل النظام لليوم الثاني على التوالي للمظاهرات المنتشرة في البلاد والتي يتم مواجهتها بوسائل قمع وحشية. رسم عمرو عكاشة أحمد نظيف يرتدي عصابة حول عينيه ويرد على مذيعة قائلًا: "مظاهرات ايه..البلد زي الفل!!" وفي كاريكاتير آخر رسم عكاشة مبارك يتابع المظاهرات وقمعها وانهيار البورصة وهو "بيقزقز" لب قائلًا مقولته المشهورة: "خليهم يتسلوا".



شكل ٥١٩: خليهم يتسلوا!

(الوفد، ٢٧ يناير ٢٠١١)

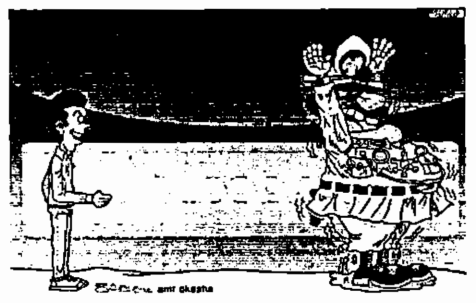
ولم ينس الرسامون الإشادة بدور "الفيس بوك" في الحشد والدعاية لثورة ٢٥ يناير. رسم عمرو عكاشة كيف أن الشباب استخدموا سلاحهم "الفيس بوك" لإسقاط نظام. وأشار عمرو سليم إلى المحاولات العديدة للنظام للسيطرة على ثورة الشباب الإلكترونية من خلال المراقبات.



شكل ٥٢٠: شباب الفيس بوك وبلطجة النظام!

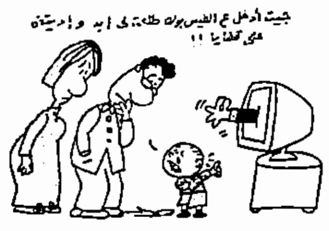
(حريتنا[١]، ٢٠١١)

(١) موقع حريتنا، اضحك مع عمرو عكاشة، تم الاطلاع عليه في ٨ سبتمبر ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://www.horytna.net/Articles/Details.aspx?TID=1&ZID=349&AID=19099



شكل ٥٢١: الفيس بوك!

(كرتون موفمنت، ١٩ يونيو ٢٠١١)



شكل ٥٢٢: الفيس بوك!

"جيت أدخل ع الفيس بوك طلعت لي ايد واديتني على قفايا!!"

(المصري اليوم، ٢٧ يناير ٢٠١٠)

ولم يجد النظام بدًا لوقف تزايد الزحف الشبابي للميادين والشوارع الرئيسية إلا بقطع شبكة الإنترنت عن مصر في ٢٧ يناير، وقطع خدمات شركات المحمول الثلاث في ٢٨ يناير، كما اتسمت تصريحاته الرسمية بالتهجم والاستنكار والرفض للمظاهرات ومطالبها، وبالتالي دعت القوى الشعبية إلى جمعة الغضب بالخروج في وقت واحد بعد صلاة الجمعة من المساجد والكنائس. ونجحت جمعة الغضب نجاحًا غير متوقع ولاقت حضورًا شعبيًا كبيرًا في مختلف الميادين، فلم يمنع قطع شبكات الإنترنت والمحمول المواطنين من النزول.

ولعل ما يدعو للتساؤل في كل مرة تقمع فيه مظاهرة، ما هو الموقف الإنساني لرجل الأمن المركزي من المظاهرة، وكيف تم تدريبه على الضرب حتى القتل إن لزم الأمر. هل شباب الأمن المركزي هم جميعًا "أحمد سبع الليل" في فيلم "البريء"؟ هل يؤمن هؤلاء بأنهم يقاتلون أعداء الوطن؟ ما لاحظته خلال جمعة الغضب ما يخالف هذا الاعتقاد ولو جزئيًا. وأود أن أسجل ملاحظة لي عن شباب الأمن المركزي الذي بدا لي أنهم أكثر وعيًا وإدراكا من "أحمد سبع الليل"، ولكنه الخوف الذي يشكل ردود فعلهم. ولم لا، فلقد احتاج

الشعب عقودًا حتى يكسر حاجز الخوف ويخرج متحديًا جلاده، فما بال من تربى في كنف النظام وتحت سيطرة أهم جهاز سيادي في مصر. ولا ننسى أن الثمن الذي يدفعه رجل الأمن جراء تكسيره للأوامر ثمنًا باهظًا قد يكلفه حياته. لا أنسى أنه بعد أن أخذوا الأمر بالانسحاب بعد أن قاموا دون وصول حشود المتظاهرين لميدان التحرير، استلقى عدد من شباب الأمن المركزي المتبقى على الرصيف أمام إحدى وحدات الشرطة، ونظر لي بعضهم قائلين: "ربنا معاكم"، يعلو وجوههم نظرة رضا لما يحدث!!!!

وبعد اختفاء الشرطة تمامًا عن الشارع، شهد هذا اليوم اندلاع الحرائق ببعض الوحدات والمنشآت والتي على رأسها مبنى الحزب الوطني الحاكم الرئيسي بميدان عبد المنعم رياض المتاخم للمتحف المصري، ودون تدخل لوحدات الدفاع المدني لمحاصرة الحرائق. وشكل المتظاهرون الشباب كردونًا أمنيًا لحماية المتحف المصري من وصول النيران إليه وحماية آثاره من أي عمليات نهب. كما اندلعت حرائق ببعض أقسام الشرطة وهروب المحتجزين بها.

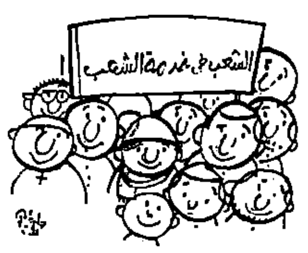
وما لبث وأن تفشت الفوضى وعمليات النهب، فقام المواطنون بتشكيل لجان شعبية لحماية منشآتهم الخاصة سواء السكنية أو التجارية، والتي نجحت بشكل كبير في التصدي للخارجين عن القانون. وبالرغم من أن ما حدث كان مدعاة للقلق وعدم الشعور بالامان، إلا أنها تعتبر من أكثر اللحظات المؤثرة التي لن تنسى التي عكست.قدرة هذا الشعب الفائقة على التكاتف ونبذ الخلافات والالتحام في ظل تلك الظروف. ففي هذه الأيام القليلة ذابت الفروق الاجتماعية والعقائدية، فتكاتف الغني مع الفقير، ساكن العقار مع حارسه، المسلم مع المسيحي لحماية بعضهم البعض. برهن هذا الشعب في تلك الفترة أنه عندما يريد أن يصنع "نظامًا" يصنعه ويسير عليه وبنجاح!



شكل ٥٢٣: اللجان الشعبية!

"تحية إلى رفقاء اللجنة الشعبية"

(الشروق، ٢ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٢٤: الشعب في خدمة الشعب!

(الشروق، ٨ فبراير ٢٠١١)

كما شهد هذا اليوم نزول قوات الجيش لحماية المنشآت الحساسة بالبلاد، والتي تم استقبالها من قبل المتظاهرين بالترحاب والتحية ورفع الأيادي بعلامات النصر، من منطلق الإيمان بأن عقيدة الجيش لا تسمح ولن تسمح بالتعدي على أفراد الشعب. كما أشاد بعض المتظاهرين بأن الجنود أيضًا ردوا التحية لهم رافعين هم أيضًا أيديهم بعلامات النصر.

وتوافد أفراد الشعب على الميادين الكبرى لإكمال ثورتهم هاتفين "الشعب يريد إسقاط النظام"، و"يسقط يسقط حسني مبارك"، "ارحل يعني امشي"، و"جمال قول لأبوك الشعب المصري بيكرهوك"، وغيرها.

وفيما يبدو أن صحيفة "الأهرام" لم يصلها بعد أن هناك ثورة، فنشرت كاريكاتير لناجي عن فكرة نتنياهو عن السلام، في حين رسم وليد طاهر في "الشروق" صرخة المصريين الغاضبة التي أنصت لها العالم كله.



شكل ٥٢٥: نتانياهو والسلام!

(الأهرام، ٢٩ يناير ٢٠١١)



شكل ٥٢٦: المصريين!
(الشروق، ٢٩ يناير ٢٠١١)

وفي ٢٩ يناير، أذاع التلفزيون المصري بيان لمبارك يعد فيه بعدد من الإصلاحات، ويعلن فيه بحل الحكومة مع وعد بتشكيل حكومة أفضل. كما أعلن تعيينه لرئيس جهاز المخابرات المصرية وقتها اللواء عمر سليمان نائبًا له، المنصب الذي ترك شاغرًا طيلة حياته حتى نشوب ثورة يناير. وقوبل البيان باستياء حاد من قبل المتظاهرين والقوى الشعبية. ورسم سعد الدين في "الأهرام" معاتبًا النظام لإهماله لسنوات مطالب الشباب ويطالبه بفتح حوار معه.



شكل ٥٢٧: الشباب والنظام!

"فيه شاب واقف بقاله أربع سنين بره المجلس (مجلس الوزراء).. بيقول إنه عايز يتحاور.. نقوله يدخل؟"

(الأهرام، ٣٠ يناير ٢٠١١)

وفي ١ فبراير أذاع التلفزيون المصري بيان مبارك الثاني الذي يعلن فيه عدم ترشحه لفترة رئاسية جديدة، وتشكيل لجنة لمناقشة تعديل المادة ٧٦ والمادة ٧٧ من الدستور المعنيتين بتحديد فترة ومدد الترشح للرئاسة. وقد لاقى هذا البيان تعاطفًا لدى بعض فئات المجتمع خاصة تلك التي تأثرت عندما أعلن مبارك عن رغبته بأن يموت على تراب مصر.



شكل ٥٢٨: بيان مباركـ!
(٣ فبراير ٢٠١١)[1]

وشهد ٢ فبراير "موقعة الجمل" الشهيرة، عندما تفاجأ المتظاهرون بخيول وجمال (وكأنه مشهد من العصور الوسطى) تقتحم الميدان، يمتطيها رجال يلوحون بالعصي والسياط والسيوف في محاولة للبطش بهم. كما شهد هذا اليوم هجوم لعدد من البلطجية المأجورين على المتظاهرين بالتحرير بالعصي والحجارة والسيوف وقنابل المولوتوف، أسفرت عن عدد من القتلى وآلاف من الجرحى. ولا يوجد رصد دقيق لعدد القتلى والجرحى، فما ترصده الجهات الرسمية يختلف عن تقديرات شهود العيان. ما أسفرت عنه موقعة الجمل من ضحايا رفع نبرة الغضب عالية وتسبب في زيادة حالة الاحتقان والسخط والإصرار على تنحي مبارك.

وشكلت الحكومة الجديدة (حكومة أحمد شفيق) لجنة تقصي حقائق لكشف ملابسات موقعة الجمل والكشف عن منظميها وتقديمهم للمحاكمة، وحتى طباعة هذا الكتاب لم يحاكم أيًا من كان عن ضلوعه في موقعة الجمل. ونشرت عدد من الرسوم تندد ببطء الوصول لمرتكبي موقعة الجمل، وعلى رأسها الرسوم التي نشرت بصحيفة "الأهرام"، التي اختلفت جذريًا في تغطيتها للثورة وأخذت لونًا جديدًا أكثر انفتاحًا بعد التنحي مخالفًا لخطها المعهود لعقود.



شكل ٥٢٩: المحاكمة العاجلة لمرتكبي أحداث ٢ فبراير!
(الأهرام، ١٨ فبراير ٢٠١١)

(١) بيت الكرتون العربي، تم الاطلاع عليه في ٨ أغسطس ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني: http://www.arabcartoon.net/a/subject/egyptcartoons/



شكل ٥٣٠: موقعة الجمل!

أحد المتورطين في موقعة الجمل (جمل): "ماليش علاقة بالوطني..ولا بالسياسات..أنا قالولي حتروح مزرعة برسيم في التحرير..أتاريها "مزرعة طره"..والعياذ بالله"

(الأهرام، ٢٤ إبريل ٢٠١١)



شكل ٥٣١: عودة أبو لهب!

(الأهرام، ٥ إبريل ٢٠١١)



شكل ٥٣٢: في موقعة الجمل!

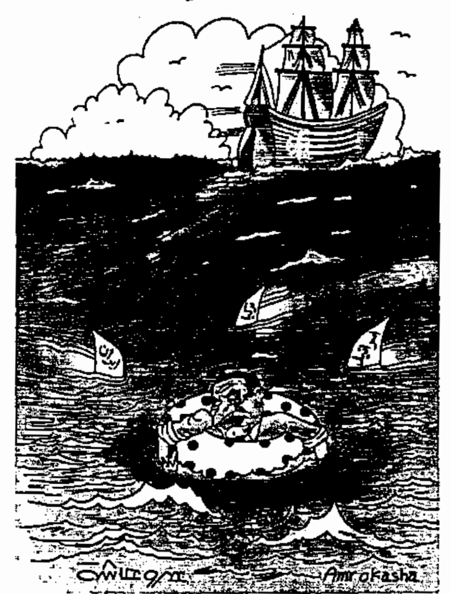
تلميذ: "قوللي يا أشرف..إحنا هزمنا المغول في موقعة عين جالوت ولا حطين؟!!"

زميله: "في موقعة الجمل..ياغبي!!"

(الأهرام، ٢٩ مايو ٢٠١١)

وقرر النائب العام المصري عبد المجيد محمود في ٣ فبراير بمنع سفر أحمد عز أمين التنظيم السابق في الحزب الوطني، ووزير الداخلية السابق حبيب العادلي، ووزير السياحة السابق زهير جرانة، ووزير الاسكان أحمد المغربي وجاء في القرار تجميد حسابات المصارف لهؤلاء، كما شمل القرار عددًا آخر من المسؤولين. القرار الذي قوبل برضا شعبي بالغ. كما صدر في ٥ فبراير قرارًا بوضع العادلي وثلاثة من قياداته تحت الإقامة الجبرية، واقصاء كل من جمال مبارك وصفوت الشريف من أمانة الحزب الوطني وتعيين حسام بدراوي أمينًا عامًا.

والحقيقة أنه في تلك الفترة كانت هناك ملحمة من الرسوم الكاريكاتورية الدولية تدعم موقف الشعب المصري وتسانده في مطلبه بإسقاط النظام. ونشرت صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" كاريكاتير لعمرو عكاشة يصور فيه مبارك بعد أن تخلت عنه صديقته أمريكا وتركته في قلب المحيط يصارع أسماك القرش (تركيا وإسرائيل وإيران) وحيدًا. وفي كاريكاتير آخر رسم عمرو عكاشة الشباب المصري وقد انقض على "أبو الهول" (مبارك).



شكل ٥٣٣: الولايات المتحدة الأمريكية ومبارك!

(لوس أنجلوس تايمز، ٤ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٣٤: أبو الهول!

(لوس أنجلوس تايمز، ٤ فبراير ٢٠١١)

ورسم سمير عبد الغني ضد تعنت مبارك لتلبية المطلب الشعبي له بالتنحي. كما فيما يبدو كان سمير أكثر تفاؤلًا عندما تخيل شكل علاقة الشرطة بالشعب بعد ٢٥ يناير.



شكل ٥٣٥: مبارك يرفض التنحي!

الطفل: "هو ليه يا بابا مش عاوز يمشي؟

الأب: "حكم السن يا حبيبي لازم حد يشيله"

(سمير عبد الغني[1]، ٥ فبراير ٢٠١١)

(١) سمير عبد الغني، موقع الشخصي على "الفيس بوك"، تم الاطلاع في ١٠ ديسمبر ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
https://www.facebook.com/media/set/?set=a.181183705252691.32297.100000831883061&type=3





شكل ٥٣٦: الشرطة والشعب بعد ٢٥ يناير!

(سمير عبد الغني[1]، ٥ فبراير ٢٠١١)

ورسم وليد طاهر "بالشروق" حالة الشعب قبل وبعد ٢٥ يناير، في حين يعلق عمرو سليم على تحرك مبارك ونظامه البطيء نحو تحقيق المطالب الشعبية، فيذكره بمقولة الرئيس التونسي المخلوع بن على "الآن فهمتكم".



شكل ٥٣٧: الشعب قبل وبعد ٢٥ يناير!

(الشروق، ٦ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٣٨: الآن فهمتكم!

(المصري اليوم، ٦ فبراير ٢٠١١)

(١) سمير عبد الغني، المرجع السابق.

فتح عمر سليمان قنوات حوار مع جميع الأحزاب السياسية والحركات المعارضة بما فيها جماعة الإخوان المسلمين التي كانت محظورة حتى ٢٥ يناير، في محاولة للوصول لتسوية ترضي جميع الأطراف. إلا أن الشباب أصر على تحقيق مطالبه والتي كانت تتضمن تنحية مبارك ومن ثم تقديمه لمحاكمة عادلة، وحل مجلسي الشعب والشورى لثبوت تزوير الانتخابات التي أجريت مما يجعل بقاءهما غير دستوري، وتولية رئيس المحكمة الدستورية العليا رئاسة البلاد لفترة انتقالية طبقًا لمواد الدستور الحالي يتولى خلالها الإعلان عن تأسيس جمعية وطنية لوضع دستور جديد للبلاد، وتشكيل حكومة انتقالية لتسيير الأعمال يشارك فيها كل قوى المعارضة الوطنية، وتولي الجيش حفظ الأمن والحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة، مع تولي الشرطة العسكرية مهام الشرطة المدنية لحفظ النظام في البلاد، والتحفظ على المسؤولين السابقين ومنعهم من السفر تمهيدًا لتقديمهم لمحاكمة عادلة، وتجميد أموال المسؤولين السابقين وأسرهم لحين معرفة مصادرها، والإعداد لانتخابات رئاسية وتشريعية وفقًا للدستور الجديد حال الانتهاء منه بعد إقراره من الشعب في استفتاء عام.

لا أبالغ إذا قلت إن هذه الفترة شهدت أسوأ أداء إعلامي مر على مصر، تفوق على إعلام نكسة ٦٧ والذي كان يحسب الأسوأ على الإطلاق، فقد افتقد المهنية والمصداقية بشكل عام، وعمل الإعلام الرسمي ومعه بعض القنوات الخاصة الموالية للنظام بشكل خاص على نشر الإشاعات في محاولة لإجهاض الثورة، ومنها اتهام الشباب الثائر بالعمالة لصالح جهات أجنبية، وبوجود عناصر خارجية في التحرير توزع وجبات "كنتاكي" وفكة دولارات.



شكل ٥٣٩: التلفزيون المصري!

التلفزيون المصري: "لا للخونة العملاء في ميدان التحرير الذين يقبضون بالدولار من الموساد والمخابرات الأمريكية والروسية والإنجليزية والهندية ومخابرات جزر الكاريبي وبلاد الواق واق"

(الوفد، ٦ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٤٠: الإعلام الرسمي!

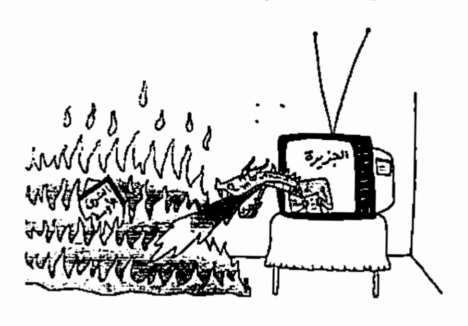
(الوفد، ٨ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٤١: الوضع مستقر تمامًا!

(www.drsherif.net، ٧ فبراير ٢٠١١)

وفي ظل وجود إعلام متجاهل أو متواطئ أو حذر، وجدت قناة "الجزيرة" القطرية أرضًا خصبة لتصبح بأشبه بقناة "الثورة"، حيث استطاعت نقل كل ما يجري داخل الشارع المصري أولًا بأول، وبالتالي الاستحواذ على الجماهير العربية الغفيرة لمتابعة بشغف الثورة المصرية. واستطاعت "الجزيرة" أن تتغلب على بعض العراقيل التي وضعها أمامها النظام المصري بالتشويش تارة على إرسالها أو تغيير بثها. وبالتأكيد لم تستطع قناة الجزيرة القطرية التخلي عن أهم سماتها عند تغطيتها الأحداث بإضافة بعض التوابل حتى تشتعل الأحداث أكثر فأكثر فتجذب عددًا أكبر من المشاهدين.



شكل ٥٤٢: قناة الجزيرة!

(اليوم السابع، ٣ فبراير ٢٠١١)

وازدادت الاحتجاجات وعمت أنحاء البلاد مطالبة بتنحي مبارك، ورفض الشباب فض اعتصامهم بميدان التحرير حتى يتم تلبية مطالبهم. ورصد وليد طاهر الأسباب التي دعت إلى الاعتصامات، بينما رصد عمرو عكاشة الدافع وراء عدم رغبة مبارك في التنحي.



شكل ٥٤٣: الشعب يريد إسقاط النظام..التحرير!

"لك حبي..وفقري وبهدلتي واقساطي وانحطاطي وإحباطي من مرتبي اللي مش كافي وذلي ودلدله كتافي وعيني المكسورة أدام ولادي من قصر الأيادي..وفؤادي!"

(الشروق، ١٠ فبراير ٢٠١١)

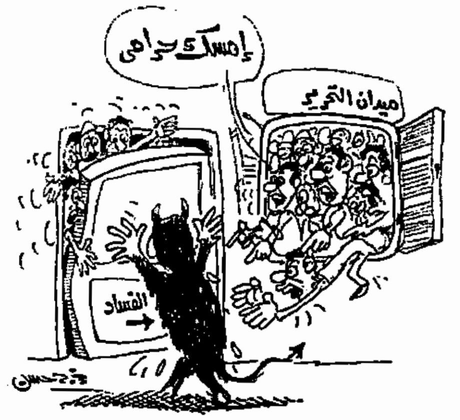


شكل ٥٤٤: ارحل!

مسؤول حرامي لمبارك: "استنى..ماتمشيش دلوقت!!"

(الوفد، ١٠ فبراير ٢٠١١)

وفي ظل الضغط الشعبي المتزايد، ألقى مبارك خطابًا في ١٠ فبراير، أعلن عن تفويضه نائبه عمر سليمان صلاحياته كرئيس للجمهورية بما يسمح له الدستور، وأشار إلى أنه لن يخضع إلى ضغوط أجنبية من الخارج مهما كان مصدرها، واختتم خطابه بعدم وجود أي نية له بمغادرة مصر، وعلى الفور انفجر ميدان التحرير، الذي احتشد فيه مئات الآلاف المحتجين، صارخًا رافضًا ما أعلنه مبارك. وأذيع عقب خطاب مبارك كلمة لنائبه عمر سليمان يؤكد فيها على حس مبارك الوطني ووضعه للمصالح العليا لبلاده فوق كل اعتبار، ويطالب فيها الشباب المصري "بتحكيم العقل" موجهًا خطابه لهم قائلًا: "يا شباب مصر عودوا إلى دياركم وأعمالكم ولا تنصتوا لمحاولات إشعال الفتن والإذاعات والفضائيات التي تسعى لإضعاف مصر". وتصاعدت الهتافات الرافضة بين حشود المحتجين في ميدان التحرير مطالبين عمر سليمان نفسه بالرحيل، مؤكدين على شعارهم السابق "الشعب يريد إسقاط النظام".



شكل ٥٤٥: الفساد وميدان التحرير!
(الأهرام، ١٠ فبراير ٢٠١١)

ليلة سقوط مبارك: جمعة الزحف:

وصلت المظاهرات والاحتجاجات المطالبة بتنحي مبارك لأوجها، وحاصر المتظاهرون القصر الرئاسي وقصر عابدين ومبنى البرلمان. وأصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة بيانات يضمن فيه ما جاء في بيان مبارك من إلغاء قانون الطوارئ وإجراء انتخابات رئاسية نزيهة. وفي الساعة السادسة بتوقيت القاهرة أعلن عمر سليمان تنحي مبارك وتولي المجلس الأعلى للقوات المسلحة إدارة شؤون البلاد. فور إعلان البيان تدفق الملايين من

الناس إلى شوارع القاهرة احتفالًا برحيله، وابتهاجًا بانتصار ثورة ٢٥ يناير، وليكون أول هتاف بعد التنحي "ارفع رأسك فوق أنت مصري".

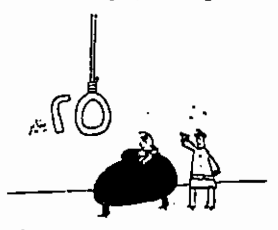
ولم يتخل المصريون عن "خفة دمهم" أثناء الثورة، فقد انتشرت مئات من النكت سواء على مواقع التواصل الاجتماعي مثل "الفيس بوك" و"تويتر" أو من خلال خدمة الرسائل القصيرة الـ إس ام إس. إحدى النكت المشهورة تقول "مبارك بعد ما مات قابل عبد الناصر والسادات، سألوه: هاه؟ سم ولا منصة؟ رد بحرقة وقال: فيسبوك"، ونكتة أخرى تقول "مبارك عقد جلسة طارئة مع وزير الداخلية السابق حبيب العادلي وقاله: منعت الحشيش يا فالح؟ أهو الشعب صحصح"، و"بعد ثورة مصر وتونس يوم الجمعة، القذافي قرر إلغاء صلاة الجمعة في ليبيا"، و"سألوا مبارك عن رأيه في التغيير، قال: التغيير ده سنة الحياة. قالوا طب وسيادتك مش هتتغير؟ قال: أنا فرض مش سنة"، و"مبارك قبل خلعه اتصل بعمر سليمان وقال له: ابعت الفلوس على شرم الشيخ وابعت المسلمين على السعودية والمسيحيين على أمريكا واقفل وهات المفتاح وتعالى". ولما أعلن تنحي مبارك رسميًا، ظهر أحد المواطنين يرفع لافتة كتب عليها: "ارجع يا ريس كنا بنهزر معاك".

وخرجت الرسوم الكاريكاتورية مرحبة ومحتفلة بانتصار ثورة ٢٥ يناير، ومسجلة للتاريخ نهاية نظام دام ثلاثين عامًا. وخرج بعض الرسامين يشبهونها بثورة عرابي أو بثورة ١٩١٩.



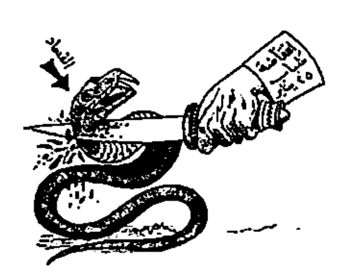
شكل ٥٤٦: تنحي مبارك!

(الوفد، ١١ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٤٧: نهاية الحزب الوطني!

(اليوم السابع، ١١ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٤٨: انتفاضة شباب ٢٥ يناير!

(الأهرام، ١٤ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٤٩: الزعيم أحمد عرابي!

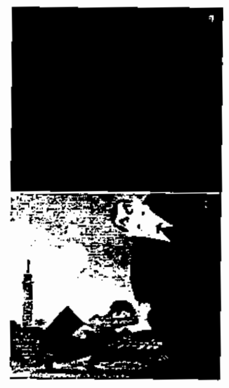
الزعيم أحمد عرابي في مواجهة الخديو توفيق ٩ سبتمبر ١٨٨١: "لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم.."

(الأهرام، ٢٢ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٥٠: ميدان التحرير!

(الأهرام، ٢٤ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٥١: شباب ٢٥ يناير ومبارك!

(www.drsherif.net، ١٣ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٥٢: ثورة ٢٥ يناير ومبارك!

(الأهرام ويكلي، ١٠-١٦ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٥٣: حرة!

(الشروق، ١٢ فبراير ٢٠١١)

وأذيع بيان للمجلس العسكري، أعلن فيه عن توليته لإدارة شؤون البلاد بصفة مؤقتة لمدة ستة أشهر أو حتى انتهاء انتخابات مجلسي الشعب والشورى ورئاسة الجمهورية، معلنًا في ذات البيان تعطيل العمل بالدستور وحل مجلسي الشعب والشورى، وتكليف وزارة شفيق بالاستمرار في أعمالها لحين تشكيل حكومة جديدة، والتزامه بتنفيذ المعاهدات والمواثيق الدولية التي مصر هي طرف فيها(١).

غلب على الأجواء روح مرحبة بالمجلس العسكري وترى فيه "حامي" الثورة وناصرها والذي سيعبر بها بر الآمان والضامن لتحقيق مطالبها. فيما يرى القلة القليلة أن تمثيل المجلس العسكري للثورة هو انتكاسة لها، ويكشف عن أهم عيوب الثورة وهو عدم وجود من يمثلها ممن يحملون روح ميدان التحرير. ولعل هذا هو من أهم الأسباب التي ساعدت على اتساع الفجوة بين "حامي" الثورة وبين شباب الثورة لإيمان الأخير بأن مطالب الثورة لم تتحقق. كما باعد بين الطرفين الظهور المبكر لآليات قمع حرية الرأي على يد الشرطة العسكرية في محاولة لفضها مظاهرات في ٢٥ فبراير، والتي على أثرها بعث المجلس العسكري برسالة (٢٢) اعتذار لشباب الثورة من خلال صفحته الرسمية على موقع "فيس بوك"، مؤكدًا بأن رصيده يسمح.

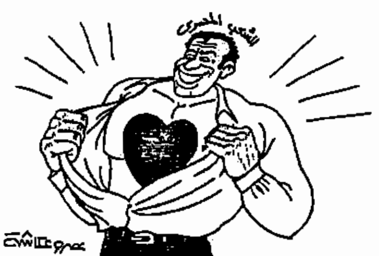
ورحبت الرسوم الكاريكلتورية بالسطلة الجديدة المتمثلة في المجلس العسكري، وسارت لفترة وإن كانت قصيرة على نفس نهج الشعارات المرفوعة وقتها "الشعب والجيش إيد واحدة"، وتعكس عن رصيد الحب الذي يحمله الشعب المصري لقواته المسلحة.



شكل ٥٥٤: الشعب والجيش إيد واحدة!

(المصري اليوم، ١١ فبراير ٢٠١١)

(١) أحمد البهنساوي، المجلس العسكري: كرامة الوطن من كرامة كل مواطن، "الشروق"، ١٤ من فبراير ٢٠١١، عدد ٧٤٤.



شكل ٥٥٥: الشعب المصري والقوات المسلحة!
(الوفد، ٣ مارس ٢٠١١)

ومنذ بزوخ فجر الثورة، انتشرت عدد من الرسوم الكاريكاتورية الجريئة التي تعبر عن نضال الشعب المصري وكفاحه في سبيل حريته وكرامته. كانت الرسوم بريشة رسام برازيلي يدعى "كارلوس لاتوف"، الذي ظهرت رسومه في ميدان التحرير ومرفوعة على لافتات في بعض المظاهرات، ونالت انتشارًا واسعًا خلال مواقع التواصل "فيس بوك" و"تويتر".



شكل ٥٥٦: ثورة ٢٥ يناير!
(كارلوس لاتوف، ٢٠١١)[1]

(١) سي ان ان:
CNN (January 30, 2011). Egypt insists on changing history. Inside the Middle East. Cartoons. Retrieved June 18, 2011 on: http://insidethemiddleeast.blogs.cnn.com/2011/01/30/egypt-insists-on-changing-historty-cartoons/،



شكل ٥٥٧: كايكاتير لاتوف في التحرير!

(تصوير رانيا صالح، ٢٥ نوفمبر ٢٠١١)

لم ينس الرسامون الدماء الغالية التي دفعت لانتصار هذه الثورة، فرسموا تمجيدًا وتخليدًا لذكرى شهداء ثورة ٢٥ يناير، ولمواساة أمهات الشهداء للتخفيف عن أحزانهن.



شكل ٥٥٨: سالي زهران!

"سالي زهران جان دارك المصرية شهيدة ثورة الشباب..تحية واحترامًا"

(الأهرام، ١٢ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٥٩: شهداء الفرح!

"في يوم الوفاء مصر ترتدي فستان الفرح"

(الأهرام، ٢١ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٦٠: أرواح شهداء ٢٥ يناير!

شهداء ٢٥ يناير: "كل سنة وإنتي طيبة يا أمي"

(الأهرام، ٢٤ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٦١: ذكرى الأربعين لشهداء الثورة!

(الأهرام، ١٠ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٦٢: مسيرة المليون لتكريم شهداء ٢٥ يناير!

أم كلثوم: عيشوا أو موتوا كرامًا تحت ظل العلم!

(الأهرام، ٢٣ فبراير ٢٠١١)

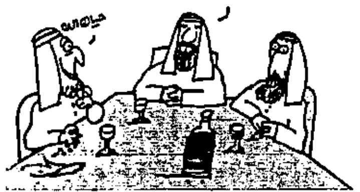
وشتان بين رد فعل الشعوب العربية تجاه الثورة المصرية ورد فعل حكوماتها. فقد كان واضحًا تعاطف الشعوب العربية مع الثورة المصرية، وابتهاجهم فرحًا ورقصًا بعد سماع خبر تنحي مبارك، إلا أن الحكومات العربية كان لها شأن آخر، فقد استقبلت الخبر كالصدمة ولم تخف حزنها.



شكل ٥٦٣: رد فعل الحكومات العربية!

"افهموا بقى...مش دفاع عن مبارك ده دفاع عن النفس"

(اليوم السابع، ٤ مايو ٢٠١١)



شكل ٥٦٤: مساندة الحكومات العربية!

"الرحلة لمصر أدت الغرض، إديناهم أربعة مليار دولار وقلنا لهم حسكم عينكم حد يقرب له واللا يدوس له على طرف!"

(الشروق، ٢٣ مايو ٢٠١١)

لكن سرعان ما رجع الثوار لميدان التحرير مطالبين بإسقاط حكومة شفيق (التي كانت قد شكلها مبارك قبل تنحيه) وتشكيل حكومة جديدة ثورية لضمان تحقيق مطالب الثورة.



شكل ٥٦٥: حكومة شفيق الجديدة!

"حكومة شفيق الجديدة: تغيير ٨٠٪ من الوزراء القدامى والإبقاء على وزير الخارجية وخمسة من القدامى"

مواطن: طول ما فيها وزير الخارجية زي ما هوه تبقى حكومة مش جديدة.."

(الأهرام، ٢٥ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٦٦: الشعب يريد اسقاط الحكومة!
(الشروق، ٢٠ فبراير ٢٠١١)

وما لبث أن انتشر ما يعرف بـ "الثورة المضادة"، والتي بتعريف بسيط هي أي فعل من شأنه إجهاض ثورة ٢٥ يناير. وتذكرنا هذه الثورة المضادة تحديدًا بحرب الولايات المتحدة على "الإرهاب"، ذلك المصطلح الواسع الذي يصعب تخصيصه في شخص ما أو في جهة ما ولكن يسمح بتعميمه ليشمل كل ما تراه الولايات المتحدة مهددًا لمصالحها. وأصبح مصطلح "الثورة المضادة" يظهر إعلاميا مع كل أزمة تمر بها ثورة ٢٥ يناير، وتشير أصابع الاتهام تارة إلى فلول الحزب الوطني الذين لا يتركون أدلة كافيه وراءهم، وتارة أخرى إلى الأموال المتدفقة من الخليج التي تمول بعض المؤسسات التي من مصلحتها انعاش نظام مبارك. وتطور الأمر مؤخرًا إلى أن شملت "الثورة المضادة" الجماعات "الإسلامية" التي فيما يبدو متصالحة جدًا مع السلطة المؤقتة، والتي قصرت أهدافها على حصد أكبر قدر من المقاعد في انتخابات مجلسي الشعب والشورى، وأخيرًا كان المجلس لعسكري شخصيًا "الثورة المضادة" عندما تخبطت إدارته كثيرًا في الفترة الأخيرة التي شهدت قتل وسحل وفقع أعين وامتهان لكثير من المتظاهرين في أحداث وأوقات شتى.

فالثورة المضادة "علميًا" هي موجودة وبقوة، لكن المشكلة تكمن في أنها هي الأخرى كلمة عامة يتخفى خلفها جهات عديدة، وبالتالي فإن نسب بعض الأحداث واشتعالها إلى الثورة المضادة هو بمثابة كارت إنقاذ للمحرك الرئيسي لهذه الأحداث.

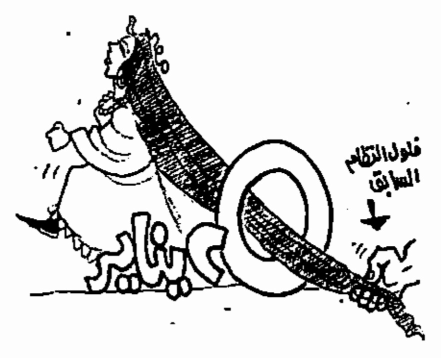
وتنبأ الرسامون مبكرًا بخطر الثورة المضادة، وحذروا من محاولات الالتفاف على الثورة والقضاء على مطالبها الشرعية، ورأوا بأن ثمة محاولات لجر الثورة مرة أخرى للخلف!

رأى عمرو عكاشة مبكرًا بأن هناك محاولات لإجهاض ثورة ٢٥ يناير من قبل الحزب الوطني والمجالس المحلية وأمن الدولة. وأكد فرج حسن على أن "فلول النظام السابق" هم من يعرقلون سير ثورة ٢٥ يناير. بينما يعتقد عمرو سليم بخطر وجود مبارك طليق في شرم الشيخ على الثورة. وسجل وليد طاهر صدمته من مرسوم القانون الذي قدمته حكومة عصام شرف "المنتخبة" واعتمده المجلس العسكري والخاص بتجريم الاعتصامات والتجمهر والذي يعتبر أول التفاف على ثورة ٢٥ يناير وما جاءت به من مبادئ تنادي بالحرية والديمقراطية، والتي لولا الاعتصامات لما انتصرت! وعبر محمود السعيد عن حالة القلق والإحباط التي أصابت الناس من جراء "قانون تجريم الاعتصام"، بما يعطي الإيحاء بأن عقارب الساعة تعود للخلف.



شكل ٥٦٧: ثورة ٢٥ يناير!

(الوفد، ٢٧ فبراير ٢٠١١)



شكل ٥٦٨: فلول النظام السابق!

(الأهرام، ٨ مايو ٢٠١١)



شكل ٥٦٩: مبارك لن يغادر شرم الشيخ!

سوزان مبارك: "مفيش داعي كل شوية تغيظ الناس وتطلع لهم لسانك يا مخلوعي يا حبيبي!!"

(الشروق، ٣٠ مايو ٢٠١١)



شكل ٥٧٠: قانون الاعتصام!

(الشروق، ٢٦ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٧١: قانون جديد يجرم الاعتصام!

مصلح ساعات: "شغلانة بقت تزهق..كل شوية واحد يخش ويقولي عقارب الساعة بقت بترجع لورا.."

(اليوم السابع، ٢ إبريل ٢٠١١)

وسرعان ما تحولت "عجلة الإنتاج" إلى فزاعة المجلس العسكري والمبرر الرئيسي وراء وضع حد للمظاهرات "المليونية" التي تقام أيام الأجازة الرسمية "الجمعة". وأصبحت التهمة التي تلاحق شباب الثورة هي تسببهم في تعطيل "عجلة الإنتاج". وأصبحت عدد من القنوات الإعلامية سواء الرسمية أو الموالية لنظام مبارك ثم للنظام الجديد تركز على ضرورة التركيز في "الإنتاج"، وترك ما يؤثر عليه من اعتصامات وتظاهرات. لم تتبن أي من الرسوم بأن المظاهرات هي السبب وراء تعطيل "عجلة الانتاج"، إلا أن بعض الرسوم دعت إلى التوازن بين الضغط تجاه تحقيق مطالب الثورة وبين العمل في نفس الوقت لبناء مصر.



شكل ٥٧٢: شباب ثورة ٢٥ يناير!

مصر: "نثور بإيد ونشتغل بالإيد الثانية يا شباب"!

(الأهرام، ٣١ مارس ٢٠١١)

والحقيقة أن أكثر من خدم "الثورة المضادة" كان الانفلات الأمني الذي بات واضحًا منذ ثورة ٢٥ يناير وحتى يومنا هذا. تعددت التحاليل حول سبب الانفلات الأمنى وعدم رجوع الأجهزة الأمنية وعلى رأسها الشرطة بكامل قوتها حتى الآن، إلا أن هناك محاولات إعلامية لإلصاق مشكلة الانفلات الأمني بثوار ٢٥ يناير ومظاهراتهم المستمرة حتى الآن، إلى الدرجة التي جعلت بعض المواطنين يربط بين "أمن" مبارك و"أمن" ما بعد مبارك!



شكل ٥٧٣: الانفلات الأمني!

"إذا الشعب يومًا أراد الحياة..فلابد للأمن أن يختفي..ولابد للناس أن يشعروا..برعب وناس لا ترحم"

(اليوم السابع، ٤ فبراير ٢٠١١)

◆ غياب الشرطة ◆



شكل ٥٧٤: غياب الشرطة!

زوجة الشرطي: "إهئ إهئ ... لا أنت في البيت ولا عند أمك ولا في الشارع يبقى أكيد عارف واحدة تانية غيري!!"

(المصري اليوم، ٣ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٧٥: اللجان الشعبية!

بيان جهاز أمن الدولة: "ويهيب جهاز أمن الدولة بالمواطنين تشكيل لجان شعبية لتعذيب . الناس مؤقتًا لحين عودة الجهاز للعمل مرة أخرى!!"

(الوفد، ٣ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٧٦: شعار المرحلة!

"اخدم نفسك بنفسك!! Help yourself"

(المصري اليوم، ٨ يونيو ٢٠١١)



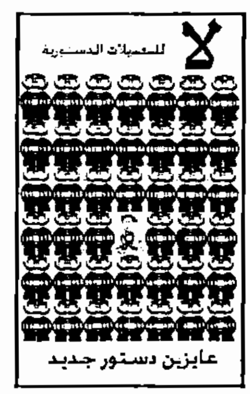
شكل ٥٧٧: مسلسل البلطجية ووزير الداخلية منصور العيسوي يا عينيا!

حنفي: "أنا كلمتي واحدة ولا ممكن تنزل الأرض أبدًا .. حاقضي على البلطجية يعني حاقضي على البلطجية.." الزوجة: "حنفي" حنفي: "مش ممكن.." الزوجة: "حنفي.." حنفي: "يستحيل" الزوجة: "عيسوي..قـ قصدي حنفي.." حنفي: "خلاص..تنزل المرة دي..لكن المرة الجاية..مش ممكن تنزل الأرض أبدًا"

مع الاعتذار لفيلم "ابن حميدو"

(الشروق، ١١ مايو ٢٠١١)

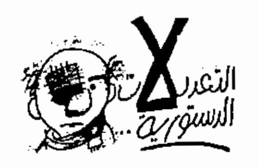
وأعلن المجلس العسكري عن موعد التصويت على التعديل الدستوري سيكون في ١٩ مارس، والذي سيعقبه انتخابات برلمانية في يونيو يعقبها انتخابات رئاسية. وقرر المجلس إجراء عملية الاستفتاء على تعديلات مقترحة على تسع مواد للدستور. انقسم الناس بما فيهم شباب الثورة في بادئ الأمر حول جدوى تعديل مواد من الدستور قد أسقطت الثورة شرعيته، ولم لا يكون هناك إقرار دستور كامل جديد يتناسب مع هذه المرحلة ويكون ضمان لتحقيق مطالب وتطلعات الثورة. ثم ما لبث الخلاف أن أخذ شكل آخر، مع إصرار المجلس العسكري المضي قدما نحو الاستفتاء، وهو الخلاف الدائر بين "نعم" للتعديلات وبين "لا" للتعديلات. وسرعان ما رسخت القنوات الإعلامية المختلفة حجم الاختلاف وأبعاده. وظهر وبشكل واضح صعود منبر "الإسلاميين" الذين تبنوا "نعم" بدعوى أنها للاستقرار، وإن لم تخل دعاياهم في أماكن عدة وداخل المساجد أنها "للدين". وفي رأيي الشخصي، أن هذا الاستفتاء هو أول التفاف على الثورة ومطالبها. ورسم بعض الرسامين مروجين لـ "لا" للتعديلات و"نعم" لدستور جديد!



شكل ٥٧٨: لا للتعديلات الدستورية!

"عايزين دستور جديد"

(سمير عبد الغني[١]، ١٦ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٧٩: التعديلات الدستورية!

(الشروق، ١٤ مارس ٢٠١١)

(١) سمير عبد الغني، المرجع السابق.

وعلى حس الاستفتاء، ظهرت دعاوي تطالب بدينية الدولة في مقابل دعاوي أخرى تطالب بمدنية الدولة، الخلاف الذي وجده الاعلام ولفترة ليست قصيرة مادة ثرية له. ولم تكن هذه المرة الأولى التي تقع فيها مصر بين دعاوي "مدنية" أو "دينية" الدولة. فقد رسم عبد السميع في مايو ١٩٥٢ "المصري أفندي" مشتتًا من جراء دعاوي "دينية" و"مدنية" الدولة، وإن كان يشك في أن هناك من يقف وراء هذا التشتت وله مصلحة في ذلك.



شكل ٥٨٠: دينية أم مدنية ولا ايه بالضبط!

المواطن المصري: "أنا لسه مش مطمئن .. حاسس ان فيه حاجه فوق دماغي!!"

(ابيض واسود، مايو ١٩٥٣)

ورسم أحمد نادي ضد المحاولات التي تمارس من قبل "النخبة" و"المجلس العسكري" و"البابا" و"مرشد جماعة الإخوان" من أجل تشتيت شباب الثورة عن مسارهم الحقيقي، ولأجل مصالحهم الشخصية.



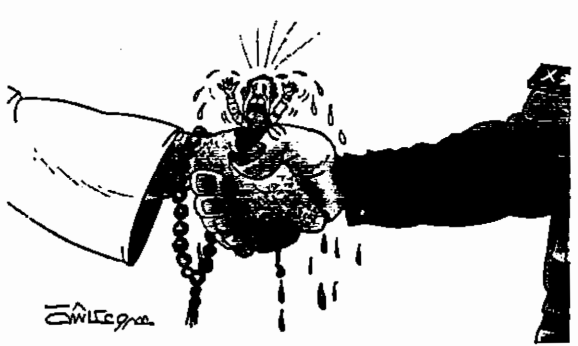
شكل ٥٨١: شباب الثورة بين هؤلاء!

النخبة: "اسمع كلام النخبة"، المجلس: "اسمع كلام المجلس"، البابا: "اسمع كلام بابا"، المرشد: "اسمع كلام المرشد".

(أحمد نادي، ٦ يونيو ٢٠١١)

وكان عمرو عكاشة أول من رسم معتقدًا بثمة صفقة تنفذ بين المجلس العسكري و"الإسلاميين" في المرحلة الراهنة يدفع ثمنها المواطن المصري!

• بدون تعليق •



شكل ٥٨٢: صفقة المجلس العسكري!

(الوفد، ١٦ مايو ٢٠١١)

وبصرف النظر عن الاختلافات التي ظهرت حول شكل الفترة الانتقالية، ودعاوي "دينية" و"مدنية" الدولة، إلا أنه ثمة حقيقة واحدة وهي أنه كان هناك إقبال كبير على صندوق الاستفتاء، مما عمم روح الإيجابية والتفاؤل بالمسار الديمقراطي الذي ارتضاه الشعب.



شكل ٥٨٣: صندوق الاستفتاء يرحب بكم ويتمنى لكم ديمقراطية سعيدة!

صندوق الاستفتاء: "أهلًا أهلًا بالأحرار.. أهلًا أهلًا بالثوار!"

(الشروق، ١٩ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٨٤: نعم ولا!

مصر: كلكم ولادي!

(الأهرام، ٢٢ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٨٥: الاستفتاء!

واحد ميت: "أخيرًا .. أول مرة من ٣٠ سنه ماروحش استفتاء .. ماكنتوش بترحمونا لا دنيا ولا آخره"

(الوفد، ٢٠ مارس ٢٠١١)

والحقيقة أن صعود "الإسلاميين" وأحزابهم "الجديدة" قد أقلق الكثير من الرسامين ودعاة الحرية والديمقراطية، وذلك انعكاسًا لتصريحات عدد كبير من قياداتهم تتبنى مبدأ عدم الخروج على الحاكم، وتتهم من يخالفهم الرأي بالليبرالية والعلمانية "الكافرة". ولقد كشفت نتيجة الاستفتاء على مدى وصول "الإسلاميين" للشارع واستغلالهم للشعارات الدينية في الدعاية لأنفسهم التي ثبت تأثيرها على الناس.



شكل ٥٨٦ : ٢٣٪ فقط قالوا "لا"!

"السلفيون يدعون إلى التصويت بنعم دفاعًا عن الإسلام!"

شيخ: "مجموعك وحش ... ميدخلكش الجنه ..."

(المصري اليوم، ٢٣ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٨٧ : السلفيين!

مواطن: "متهيألي أمن الدولة اللي كان كاتم نفسهم عايزنا نترحم على أيامه"

(الأهرام، ٣ مايو ٢٠١١)



شكل ٥٨٨ : قادمون!

(المصري ايوم، ١٩ إبريل ٢٠١١)



شكل ٥٨٩: ٨٠ مليون مصري ملتحي!

"أحد مشايخ السلفيين يتمنى أن يصبح الـ ٨٠ مليون مصري ملتحين!

(الأهرام، ١٤ يونيو ٢٠١١)



شكل ٥٩٠: طاعة ولي الأمر!

قسيس: "الإنجيل يدعونا إلى تأييد الرئيس!" شيخ: "القرآن يدعونا لطاعة أولي الأمر!"

مواطن مغلوب على أمره: "كفرتونا في عيشتنا!"

(المصري اليوم، ١٨ إبريل ٢٠١٠)

وقام عدد كبير من أئمة المساجد في خطب الجمعة السابقة للاستفتاء بدور كبير في التأثير على الناس والترويج بأن "نعم" هي لأجل إعلاء كلمة الدين الإسلامي وحمايته واحتسابًا للأجر والثواب، بخلاف "لا" التي يأثم من يختارها. كما أشيع أن الكنائس قد روجت لـ "لا". وبالتالي اقترح عمرو عكاشة من باب المساواة أن يتم بناء دور عبادة لكل فصيل سياسي، فلا يقتصر دور العبادة على المتدينين فقط من الدين الإسلامي ولا المسيحي بل يشمل العلمانيين والليبراليين.

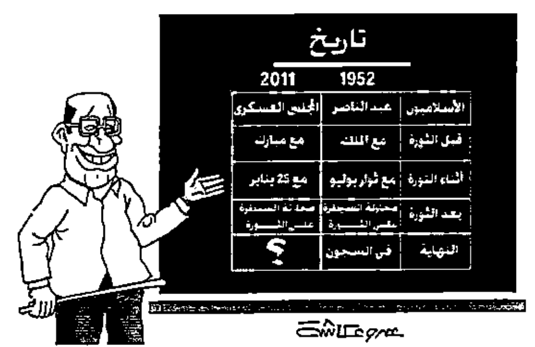


شكل ٥٩١: المساواة بين طوائف المجتمع .. دور عبادة للدعاية الانتخابية!

"مسجد العلمانيين، مسجد السلفيين، مسجد البرادعي، مسجد كنيسة المتدينين، مسجد الليبراليين، كنيسة العلمانيين، مسجد الاخوان، مسجد الوفد، مسجد التجمع"

(الوفد، ٢ يونيو ٢٠١١)

كما حذر عمرو عكاشة أن يعاد العمل بسيناريو عبد الناصر عندما تعاون مع الإخوان المسلمين في أول الثورة ثم فتك بهم عام ١٩٥٤.



شكل ٥٩٢: العلاقة بين الإسلاميين وعبد الناصر، وبين الإسلاميين والمجلس العسكري!

(الوفد، ٣ يونيو ٢٠١١)

وكانت أهم القرارات التي حسبت للثورة، هو قرار النيابة العامة في ١٣ إبريل بحبس مبارك ونجليه علاء وجمال ١٥ يومًا على ذمة التحقيقات، وقرار نقل نجليه إلى سجن طره لقضاء فترة الحبس الاحتياطي، وإعلان محاكمة مبارك ونجليه في ١٩ ابريل ٢٠١١. وفي ١٦ إبريل قررت المحكمة الإدارية العليا بحل الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان يرأسه مبارك، وكذلك تصفية أمواله وأملاكه، وإعادة جميع مقراته إلى ملكية الدولة.



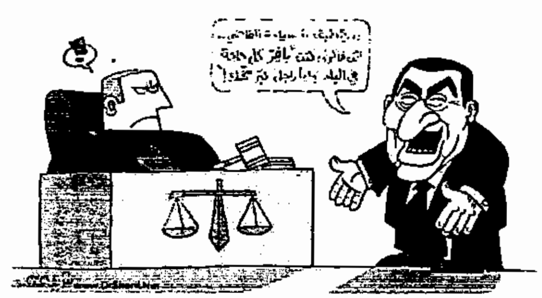
شكل ٥٩٣: حبس حسني مبارك!

(اليوم السابع، ١٦ إبريل ٢٠١١)



شكل ٥٩٤: بعد حبس مبارك ونجليه!

(الوفد، ١٣ إبريل ٢٠١١)



شكل ٥٩٥: بعد حبس مبارك ونجليه!

مبارك: بريء طبعًا يا سيادة القاضي..انت فاكرني كنت "بافر كل حاجة في البلد؟ يا راجل كبر مخك!"

(www.drsherif.net، ١٣ إبريل ٢٠١٠)



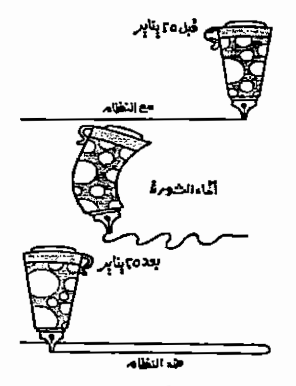
شكل ٥٩٦: محكمة مبارك ونجليه!

"يا نجاتي ي ي ..انفخ البلالين .. فيه ضيوف كبار جايين!!"

(الوفد، ٢٣ إبريل ٢٠١١)

وكما سبق وأن ذكرنا بأن الإعلام المصري يمر بأسوأ فترة له على الإطلاق، فقد افتقد المهنية والمصداقية في العديد من قنواته المسموعة والمرئية والمقروءة، حتى أنه تعدى بمراحل إعلام نكسة ١٩٦٧. ولقد وقع أكثر الإعلاميين خبرة ورصيدًا عند المشاهد أو القارئ في أخطاء مهنية جسيمة، نذكر منها على سبيل الذكر وليس الحصر، عدم مراعاة الدقة في نقل الخبر، وغياب المصادر، أو النقل عن مصدر ليس موثوقًا، كما كثر استخدام عبارات من نوعية "صرح مصدر مسؤول" دون التنويه على الأقل عن الهيئة القادم منها هذا المسؤول.

والأسوأ من هذا أن القنوات الإعلامية التي كانت "تطبل" لنظام مبارك بالأمس القريب، أصبحت "تطبل" للثورة! فقد شهدت هذه الفترة قيادات إعلامية لها قدرة على التلون والتماشي مع أي نظام أيًا كان.



شكل ٥٩٧: الإعلام قبل وبعد الثورة ١!

(خضر حسن، ٢٤ مارس ٢٠١١)



شكل ٥٩٨: الإعلام قبل وبعد الثورة ٢!

قبل الثورة: على الحائط: "اخترناه اخترناه..وإحنا معاه لما شاء الله"

رئيس التحرير: "وأقول للرئيس مبارك بكل وضوح، ما شئت لا ما شاءت الأقدار، احكم فأنت الواحد القهار.."

بعد الثورة: على الحائط: يا بلادي..يا بلادي..أنا بحبك يا بلادي.."

رئيس التحرير: "أحب أشكر الشباب لأنها أعظم ثورة في تاريخ مصر.."

(www.drsherif.net، ٧ مارس ٢٠١١)

ومبكرًا جدًا سجل عمرو عكاشة عن قلقه من محاولات إجهاض الثورة وأنها أصبحت تواجه تحديات كفيلة بقتلها، كما أنه يعتقد بأن ما نزعته الثورة هو فقط رأس النظام، فمازال النظام السابق متغلغل في البنية الأساسية للدولة.



شكل ٥٩٩: تحذير!

"Warning: Mubarak system still running"

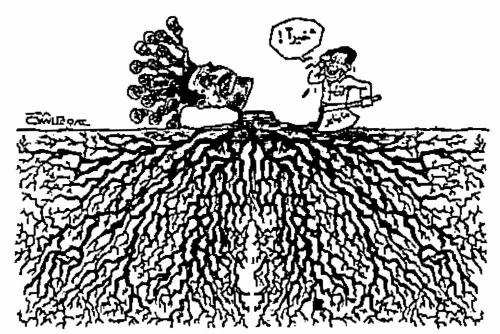
(الوفد، ٢١ فبراير ٢٠١١)



شكل ٦٠٠: أمن الدولة وثورة ٢٥ يناير!

"وتشير آخر التوقعات إلى قدوم عاصفة من الاغتيالات والفتن قادمة من أمن الدولة في اتجاه ثورة ٢٥ يناير..وننصح المواطنين بتوخي الحذر حتى تمر بسلام!!"

(الوفد، ٩ مارس ٢٠١١)



شكل ٦٠١: شباب ٢٥ يناير ونظام مبارك!

(الوفد، ٧ إبريل ٢٠١١)

ورسم عدد من الرسامين ضد المحاكمات العسكرية، والتي يرون أنها ضد مبادئ حقوق الإنسان عندما يحرم مواطن من أبسط حقوقه وهو أن يعرض أمام محكمة مدنية، وفي استطاعته أن يستعين بمحام للدفاع عنه. ورسم أحمد نادي كاريكاتيرًا مستوحى من فيلم "الأرض"، انتاج ١٩٧٠ واخراج يوسف شاهين، والذي يتناول ثورة الفلاحين وعلى رأسهم "محمد أبو سويلم" دفاعًا عن أراضيهم، ويتصدى سويلم لقوات الأمن فتقوم بسحله على الأرض.



شكل ٦٠٢: لا لمحاكمة الغلابة أمام المحاكم العسكرية!

قائد الهجانة: "علشان تبطل يا أبو سويلم تعمل فيها راجل"

سويلم: "كنت فاكر بس إن حصلت ثورة!"

(أحمد نادي، ١٨ يونيو ٢٠١١)

وما هو ثابت أن الكاريكاتير فترة الثورة قد أثبت تواجدًا ويقوة من خلال فن الجرافيتي أو فن الشوارع على أوجه المباني والحوائط حول ميدان التحرير وفي شوارع وسط البلد وفي الشوارع الرئيسية. لم تكن أبدًا مجرد "شخبطة" شباب ثائر، بل كان فيها رسالة وفكرة ممزوجة بشعارات الثورة وألوان العلم المصري (الأحمر والأبيض والأسود).

كانت من أكثر الرموز التي تزينت بها الحوائط، مجموعة زهور تتوسطها عبارة "ثورة ٢٥ يناير" و قبضة يد قوية في إشارة إلى الصمود وشعار حركة ٦ إبريل، مُفتاح النيلُ، شكل الهلال مع الصليب. وظهرت أيضًا عبارات مثل "حرية، وكرامة، و"القلة المندسة"، و"لا للتعذيب". وظهرت رسوم عديدة لشهداء الثورة بألوان بهيجة. كما ظهرت الشخصية الكاريكاتورية "حنظله" على حوائط وسط البلد.

كما رفع مواطنون خلال المظاهرات رسومًا كاريكاتورية، وجدوا فيها وسيلة لنقل صوتهم ورأيهم فيما يحدث وسخريتهم من الأحداث.



شكل ٦٠٣: قل لا للمخدرات (الحشيش والبرشام والتلفزيون المصري)
(تصوير رانيا صالح، ٢٥ نوفمبر ٢٠١١)



شكل ٦٠٤: كاريكاتير مواطن!
(تصوير رانيه صالح، ٨ يوليو ٢٠١١)



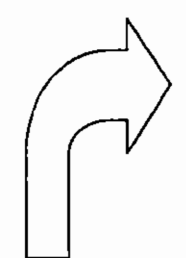
شكل ٦٠٥: كاريكاتير حائطي!

(تصوير رانيا صالح، ٢٥ نوفمبر ٢٠١١)



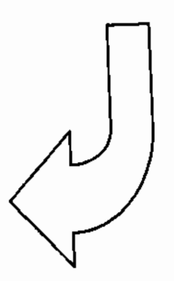
شكل ٦٠٦: ورشة كاريكاتير بالتحرير!

(تصوير رانيا صالح، ٢٥ فبراير ٢٠١١)

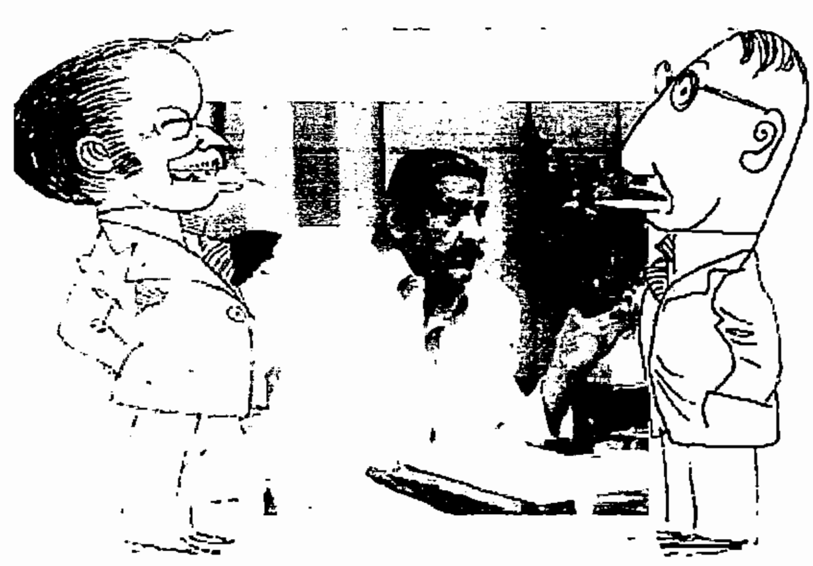


الفصل السادس

رسوم ورسامون







الفصل السادس
رسوم ورسامون

يعتقد جورج بهجوري أن الرسوم الكاريكاتورية في تدهور نتيجة لتقلص حرية التعبير التي سببت حالة من الإحباط بين الرسامين(١)، بينما يؤمن عبد الحليم البرجيني بأن الرسوم الكاريكاتورية تزدهر أكثر في الأوقات التي تشهد إحباطًا اجتماعيًا وسياسيًا وتدهورًا اقتصاديًا وانتشارًا للفساد والظلم(٢).

ويرى محمد عمر بأن دور الرسوم في معالجة المشاكل الجادة أصبح محدودًا لنقص المساحة المخصصة للكاريكاتير في الصحف القومية وهيمنة بعض رؤساء التحرير على مواضيع الكاريكاتير لكونهم أكثر قلقًا من رد فعل السلطة الحاكمة مما يجعلهم يرفضون أي كاريكاتير يمكن أن يهدد بقاءهم في مناصبهم. وعلى العكس، تتبنى بعض الصحف الحزبية والمستقلة دماءً جديدة وتتيح لهم مساحات أكبر لنشر رسومهم(٣).

يرى عمرو عكاشة أن إحدى وظائف الكاريكاتير هو التنبأ بالأحداث القادمة وتصويرها وبالتالي المساهمة في مواجهة أي مشاكل مستقبلية واقتراح حلول، أما تنفيذها فمن وظيفة الحكومات(٤). وسجل بعض الرسامين توقعاتهم لعدد من الوقائع والأحداث، مثل ازدياد انتشار الفساد وارتفاع معدل الجريمة والعنف نتيجة لنقص فرص العمل خاصة بعد تضاؤل فرص عمل المصريين في دول الخليج. والحقيقة أن نقص العمل في مصر يعتبر مثار قلق شخصي لدى رسامي الكاريكاتير في الوقت الذي لا يوجد فيه فرص للنشر أمام كثير من شباب الرسامين. ويعتقد الرسامون بأن الرسم في هذا الموضوع لا يكون فعالًا، إلا أنه يزيد من الوعي عند الشباب المصري حول حقيقة الوضع وحول حقيقة "الوظائف الزائفة" التي تعلن عنها الحكومة مرارًا لتخفيف حدة التوتر.

---

(١) جورج بهجوري، مراسلة بريدية، ٢٢ يونيو ٢٠٠٣.
(٢) عبد الحليم البرجيني، مقابلة شخصية، يونيو ٢٠٠٣.
(٣) محمد عمر، مقابلة شخصية، يونيو ٢٠٠٣.
(٤) رانيا صالح:
Rania Saleh (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo (AUC).

وتوقع الرسامون بأنه في الوقت الذي يحدث فيه تقييد في حرية الصحافة المكتوبة، ستشهد الصحافة الإلكترونية ازدهارًا غير مسبوق والتي سيرتفع فيها سقف الحرية وستكون نافذة للرسامين لنشر أعمالهم الممنوعة أو المرفوضة، وهو ما حدث بالفعل.

وقبل الثورة، تنبأ البعض أن يصبح جمال مبارك الرئيس القادم، وسيكون ذلك في الغالب في فترة حياة مبارك، في الوقت الذي يسجلون فيه رفضهم لما أسموه بـ "توريث السلطة"! وانقسم الرسامون حول مساحة الديمقراطية إن حدث وتسلم جمال السلطة، فالبعض تنبأ بزيادة مساحة حرية التعبير بينما يرى البعض الآخر (وهم الأغلبية) أنه سيحدث انخفاض تراجيدي في سقف الحرية عن ما كان متاحًا في عصر مبارك وأنه سيتم نشر فقط الرسوم التي تؤيده أو تحرض على قبوله. ومع أن قدومه للسلطة سيكون من خلال انتخابات رئاسية إلا أنها ستشهد غياب رسوم كاريكاتورية مؤيدة لأي مرشح.

وتنبأ عمرو عكاشة عام ٢٠٠٣ باستمرار "المحاولات الأمريكية الإسرائيلية لتحييد مصر نهائيًا وذلك بفصل جنوب السودان عن شماله خلال الـ ٦ سنوات القادمة وبذلك يتم الالتفاف حول مصر وتهديد الأمن القومي المصري من الجنوب، وكل ذلك استكمالًا لمخطط تقسيم الدول العربية والذي بدأ تنفيذه في العراق مرورًا بسوريا وانتهاءً بمصر، والتي سيتم فيها محاولة تقسيمها إلى ٣ دويلات: دولة مسلمة في الشمال، مسيحية في الجنوب بالإضافة إلى دولة النوبة![1]" وقد تحققت نبوءة عكاشة الخاصة بالسودان وفي الفترة الزمنية التي حددها!!

كما تنبأ عكاشة (٢٠٠٣) بتولي "حكومة إسرائيلية أكثر تطرفًا ومحاولة جر مصر لخوض حرب إقليمية تنتهي بحرب بين مصر وإسرائيل وكل ذلك خلال الـ ١٠ سنوات القادمة على الأكثر وتلك الحرب يتم على أثرها تهجير الفلسطينيين إلى سيناء وجعل سيناء تحت الحماية الدولية أو بالأصح الأمريكية، وبذلك يكتمل الحلم الإسرائيلي بقيام دولة إسرائيل الكبرى والتي تمتد من النيل إلى الفرات"[2]!

ويعتقد عكاشة (٢٠٠٣) أيضًا أن مصر سوف تتأثر "بالحرب العالمية الثالثة التي ستندلع بين أمريكا والصين حيث ستشكل فيها أمريكا تحالفًا دوليًا تشارك فيه أوروبا وكذلك الدول الإسلامية بقوات وكل ذلك سيتم في خلال العشرين سنة القادمة حيث سيبلغ المارد الصيني أوج قوته وسيحاول الوقوف أمام السيطرة الأمريكية على موارد الطاقة

(١)عمرو عكاشة، مقابلة شخصية، ١ يونيو ٢٠٠٣.
(٢) عمرو عكاشة، المرجع السابق.

في الكرة الأرضية ويظهر ذلك من تحليل علاقات الترقب بين أمريكا والصين والتي بدأت منذ الستينيات وظهرت جلية واضحة في أزمة طائرة التجسس الأمريكية والتي حاولت المقاتلات الصينية التحرش بها، كذلك محاولة أمريكا الالتفاف حول الصين وإنشاء القواعد العسكرية في منطقة آسيا الوسطى ومنطقة الخليج مما يؤكد الاستعدادات الأمريكية المبكرة لمواجهة المارد الصيني والتي ستزيد من احتمالات المواجهة في خلال السنوات القليلة القادمة"[1].

وتنبأ جورج بهجوري (٢٠٠٣) بزيادة معدل التطرف الديني وصعود الجماعات الإسلامية المتشددة والتحكم باسم الدين في الزي والعادات وانتشار النقاب، وتجدد المحنة والأزمة الكبرى للبحث عن نائب للرئيس. ومع ذلك يحتفظ بهجوري دائمًا بتفاؤله وقناعته بأن جمال وسحر نهر النيل سيزداد جمالًا يومًا بعد يوم، وأن لابد وأن ستشهد مصر مستقبلًا أفضل. ويعتقد بهجوري بأن الرسوم الكاريكاتورية ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت أقل تأثيرًا من مثيلاتها في فترة الستينيات، الفترة التي شهدت تألقًا في الرواية والمسرح والفيلم، وذلك بسبب التضييق على حرية الرأي والإحباط الذي أصاب الرسامون[2].

وكما سبق وأن أشرنا فقد تنبأ بعض الرسامين بهبوب رياح التغيير وحدوث ثورة تنهي نظام مبارك وتكون بداية لنظام جديد تتنفس فيه مصر قدر من الحرية تستطيع من خلالها القضاء على بؤر الفساد فيها.

وتنوعت شكل الرقابة على الرسوم الكاريكاتورية من عصر إلى آخر كما سبق وأشرنا. فلم تكن مهنة الرقيب تتطلب مؤهلات عليا أو حتى مهارات فنية محدودة إنما حساسية مرهفة لكل ما يمكن أن يقلق منام النظام أو الحكومة. كان في كل دور نشر رقيب يفحص كل كلمة أو رسمة أو صورة وله الصلاحيات لحذف أو منع نشر ما يراه غير ملائمًا أو لاذعًا أو فيه تجاوز للخطوط الحمراء. ومع ذلك لم يمنع وجود الرقيب أصحاب الرأي ومنهم الرسامين من نشر آرائهم وإن اعتمدوا كثيرًا على سرعة بديهية وذكاء القارئ وقدرته على فهم ما بين السطور وبواطن الكلمات.

قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت الرقابة الصارمة غالبًا ما تفرض على الصحف مواكبة لإعلان الأحكام العرفية في الأوقات التي تشهد اضطرابات سواء داخلية أو خارجية أو حروب تكون بريطانيا طرفًا فيها. وقد كانت الخطوط الحمراء محصورة بين عدم المساس

(١) عمرو عكاشة، المرجع السابق.
(٢) جورج بهجوري، مراسلة بريدية، ٢٢ يونيو ٢٠٠٣.

بوالي مصر وعدم المساس بملك بريطانيا. وقد كان رسامي الكاريكاتير يصبون جام غضبهم على الحكومة المتمثلة في شخص رئيسها من باب قناعتهم أن الملك يملك ولا يحكم. وقد تغير هذا الاعتقاد بشكل تراجيدي وخسر الملك الكثير من رصيده لدى الرسامين بعد النكبة التي حلت من جراء حرب فلسطين ١٩٤٨، والتي شاع تورط الملك ورجاله فيما عرف بقضية الأسلحة الفاسدة. ومن هنا بدأ الإشارة إلى الملك أو فساد السراي بشكل رمزي في الكاريكاتير.

وقد ظهر في رسوم صحف صنوع نقد لاذع مباشر لشخص الخديوي إسماعيل ومن بعده الخديوي توفيق كما سبق وأشرنا، وتم مصادرة صحيفته الأولى "أبو نظارة زرقاء" لنقدها اللاذع للخديوي تبعها نفي صنوع لباريس (وفقًا لروايته). أما صحفه الأخرى فقد أصدرها من باريس في ظروف مختلفة تسمح له باختراق الخطوط الحمراء

كما كان هناك حذر واضح من تناول شخصيات تنتمي للأسرة العلوية الحاكمة أو شخصيات دبلوماسية إنجليزية في الكاريكاتير. وكان هذا سببًا وراء استخدام الرسامين (خاصة في العشرينيات) الديباجة المتبعة عند الإشارة لأي من المسؤولين البريطانيين، فعلى سبيل المثال كانت الإشارة للمندوب السامي البريطاني بـ "فخامة المندوب السامي"، وإن ذكر الاسم مجردًا فلابد وأن يسبقه "مستر"، بشكل لا يتناسب أحيانًا مع القالب الفكاهي الساخر للكاريكاتير. وقد تم التحرر من هذه الديباجة تدريجيًا، وزادت حدة النقد اللاذع للسياسة البريطانية في أوائل الخمسينيات وخاصة بعد إلغاء معاهدة ٣٦ من خلال تشخيص دبلوماسيها كاريكاتوريًا أو من خلال توظيف الشخصية الكاريكاتورية "جون بول"، التي كانت فيما يبدو ملاذًا للرسامين حيث يرتفع عندها سقف النقد إذا ما قورنت بشخصيات بريطانية حقيقية.

وأشار عبد المنعم رخا إلى حقيقة ومشكلة الرقيب في كاريكاتير نشر في "أخبار اليوم" عام ١٩٤٥، حيث صور "ابن البلد" يخاطب مدير المتحف المصري آنذاك الأب دريتون ويشير إلى تمثال "الكاتب" الفرعوني قائلًا: "التمثال ده ناقص...عندنا دلوقتي كل كاتب لازم يكون جنبه رقيب!"



شكل ٦٠٧: تمثال الكاتب في المتحف المصري!

(أخبار اليوم، ٢٨ ابريل ١٩٤٥)

ويرى مصطفى أمين أنه عندما ألغيت الرقابة عام ١٩٥٠ حل محلها ما كان يعرف باسم "مصادرة البوليس"، وكان المتبع أن تنتظر الحكومة أولًا طبع كل كميات العدد الذي تريد مصادرته ثم تنقض عليه! وكان بمقتضى قانون المصادرة، يتم القبض على رؤساء التحرير صباحًا ثم يفرج عنهم ظهرًا بكفالة. وقد تم مصادرة "أخبار اليوم" مايقرب من ٢٥ مرة خلال عام ١٩٥٠، وتم القبض على مصطفى أمين ٢٦ مرة خلال عام ١٩٥١، ولم يحدث أن تجاوزت مدة القبض في أي مرة على الساعات الممتدة من الصباح حتى الظهر، ومع ذلك كان يعتبرها اعتداءً على الحرية حتى جرب السجن لمدة ثماني سنوات ونصف في عهد عبد الناصر[1].

هناك اتفاق عام بأن الرسوم الكاريكاتورية لرسامي الثورة كان لها تأثير أقوى بكثير من رسوم الثمانينيات وما بعدها. ويقصد هنا برسامي الثورة، الرسامون الذين مهدوا برسومهم لثورة ١٩٥٢ حتى ولو بدون وعي منهم وعلى رأسهم عبد السميع الذي استطاع أن يتحايل على الرقابة أوائل الخمسينيات في مناسبتين، عندما رمز للملك قبل الثورة بالبنطلون والحذاء اللامع والغوريلا وعندما أبدع سلسلة "النفاق في حديقة الحيوان" لنقد تملق السلطة المتشر نتيجة لمنع الرأي المضاد لنظام وثورة يوليو. يرى محيى الدين اللباد أن عبد السميع كان أقرب لكونه زعيم سياسي وناشط شعبي له القدرة على شحن وتحريض الناس بسبب رسومه الجريئة والحاسمة[2].

(١) ماجدة الجندي، مصطفى أمين، "صباح الخير"، ٢٩ إبريل ١٩٨٢، ص: ٢١-٢٢.

(٢) رانيا صالح:

Rania M.R. Saleh. (2007). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2). 187-225

وشهد النصف الأول من القرن العشرين حبس اثنين من الرسامين: رخا الذي سجن بسبب إحدى رسومه التي نشرت وفيها سب للملك (كما أشرنا سابقًا)، مع نفيه التام أن يكون قد تم ذلك بعلمه، وزهدي العدوي الذي سجن بسبب انتماءاته السياسية ضد النظام.

وأحدثت ثورة يوليو تغييرًا جذريًا لنظام الحكم والمناخ السياسي في مصر، فمن الملكية القائمة على "الليبرالية" وتعدد الأحزاب والنظام الاقتصادي الرأسمالي إلى الجمهورية القائمة على "الفردية" والنظام الاشتراكي. وشهدت الفترة التي تلت الثورة أهم حدث على الإطلاق، وهو صدور قانون تنظيم الصحافة في ٢٤ مايو ١٩٦٠، فيما يشير إلى رفض الثورة الواضح لمفهوم الليبرالية أو حرية الرأي(١).

ولم تغير الثورة من واقع الرقيب شيئًا ولم تقلص صلاحياته بل اتسمت فترة ناصر بوجود رقيب في كل دار نشر أو مؤسسة صحفية وله صلاحية لمنع النشر إذا شك فقط في مدلول كلمة أو رسمة ما. فعلى سبيل المثال، يذكر مصطفى حسين بأنه في ذات مرة سئل عن المغزى وراء الرقم الذي وضعه على ملابس أحد المسجونين في إحدى رسومه(٢)!!

أطلق رخا على السنوات التي أصيب فيها الكاريكاتير السياسي بالضعف والهزال والخرس بـ "سنوات الحصار" التي لم يجرؤ أحد وقتها على النقد. يقول رخا بأنه منذ قيام ثورة يوليو وقد توقف عن رسم الشخصيات، لأن كل الأشخاص القريبين من السلطة بما فيهم حتى "الصول"، كانوا يعتبرون أنهم في القمة ولا يصح رسمهم، لأن في رسمهم احطاطًا من قدرهم. وكانت العواقب وخيمة إذا تم نقد أي منهم، إلى الدرجة أن الرسام لا يستطيع أن يتوقع ما يمكن أن يحدث له تحديدًا، لأنه كما جاء على لسان رخا "مفيش قانون .. مفيش محاكمة .. فيه بطش"، وبالتالي فإن الخرس الكاريكاتوري جاء كنتيجة ليكون الرسام في منأى من التعرض للامتهان والتعذيب، يقول رخا: "أنا أسمح بأن يحكم علي بالأشغال الشاقة المؤبدة .. ولا أقبل أني آخد قلمًا على قفايا"(٣).

نظريًا جاء الرئيس الراحل أنور السادات بأهم انجاز وهو إلغاء الرقابة على الصحف عام ١٩٧٤، القرار الذي استقبل بحفاوة شديدة وبالتالي لم يصبح لمهنة الرقيب أي وجود.

---

(١) كريمة حسن، صاحبة الجلالة: ٤٨ سنة من التأميم، "المصري اليوم"، ١٣ يونيو ٢٠٠٨، عدد ١٤٦١.

(٢) رانيا صالح:

Rania M.R. Saleh. (2007). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2). 187-225

(٣) سعيد أبو العينين، "رخا..فارس الكاريكاتير"، أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص: ١٤٣.

وقد نشر ناجي كامل كاريكاتيرًا معلقًا على إلغاء الرقابة وفيه شخص يحاول من خلال ثقب في جريدة اختلاس النظر الى سيدتين تسيران أمامه وتخاطب إحداهما الأخرى قائلة :"يظهر أنه لسه معرفش بخبر إلغاء الرقابة على الصحف!"



شكل ٦٠٨: إلغاء الرقابة على الصحف!

(روزاليوسف، ١٨ فبراير ١٩٧٤)

وقد ساد الاعتقاد لفترة وجيزة بأن الإلغاء جاء انتصارًا لحرية الرأي والتعبير، إلا أنه سرعان ما تبين أن الواقع قد تغير للأسوأ عندما أعطى السادات لرئيس التحرير صلاحيات فاقت صلاحيات الرقيب، المشكلة التي تفاقمت ويعاني منها أصحاب الرأي حتى يومنا هذا. فأصبح رئيس التحرير هو الرقيب في ثوبه الجديد، وتنوعت الخطوط الحمراء وتفاوتت من رئيس تحرير لآخر، ولم يسمح وقتها بنشر أي آراء أو رسوم تحمل معارضة لسياسة السادات ونظامه.

ويقارن مصطفى أمين بين مهنة رئيس التحرير "زمان" واليوم بعد أن انتقل إليه "مقص" الرقيب بقوله: "كانت وظيفة رئيس التحرير فيما تسمينه صحافة زمان أن ينشر لكن أصبحت وظيفته في صحافة اليوم أن يشطب"[1]!

وظهرت معاناة رسامي الكاريكاتير مع مقص رئيس التحرير، فبينما كان الرقيب في الماضي كثيرًا ما كان يحذف كلمة أو جملة من مقالة ما، أصبح رئيس التحرير اليوم يمكنه أن يرفض نشر مقالة كاملة أو كاريكاتير يتعارض مع أجندته الخاصة أو يراه مهددًا لمنصبه. وتحدث ناجي كامل عن تجربته الشخصية عندما تفاجأ بكاريكاتيره قد نشر بعد أن تم تغيير

(١) ماجدة الجندي، المرجع السابق، ص: ٢٣.

التعليق به بدون الرجوع إليه، وكيف أنه أعرب مرارًا لرئيس التحرير بأن إلغاء الكاريكاتير كلية أهون عنده مائة ألف مرة من أن يتم التعديل فيه بدون الرجوع إليه[١]!

ومع إن عصر مبارك قد شهد إثراءً في الحياة السياسية من خلال ظهور عدد لا بأس به من الصحف المعارضة والخاصة، فإنه شهد سجن أول رسام كاريكاتير بسبب رسومه وهو الرسام عصام حنفي الذي ذاق ويل الحبس ثمنًا للتعبير عن رأيه وعن رأي جريدته "الشعب" من خلال رسومه ضد وزير الزراعة السابق يوسف والي.

وسرعان ما ظهرت أسوأ أنواع الرقابة على الاطلاق في عصرنا الحديث وهي "الرقابة الذاتية" التي يطبقها رسام الكاريكاتير على نفسه ليتجنب مشاكل لا طائل له بها. يعتقد الرسامون بأن هناك عددًا لا نهائيًا من الخطوط الحمراء الغير مكتوبة و لتي يجب عدم المساس بها في أعمالهم والتي لم تملى عليهم صراحة من أي طرف. ويفكر الرسامون بتأني قبل تخطى أي منها وقياس ما إذا كانت هذه المجازفة تستحق العناء أم لا، هذا بالإضافة لقناعتهم الشخصية بأنهم حتى لو تجاوزوا أيًا منها فلن يجدوا من يقبل نشرها.

وكان هذا سببًا قويًا لأن يجد الرسامون في العالم الافتراضي بالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) متنفسًا لنشر رسومهم الممنوعة أو المرفوضة، والتي لاقت إقبالًا جماهيريًا خاصة من خلال مواقع التواصل الاجتماعي مثل "فيس بوك" و"تويتر"، مما دفع بعض الصحف إلى رفع سقف الحرية بها لتواكب الجرأة التي تميزت بها المواقع الإلكترونية وبالتالي تجذب جماهيرها، بل إن الصحف نفسها قد سعت إلى هذا الجمهور بفتح حسابات لها وصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي مع استخدام لغة أكثر جرأة مما تستخدمه في النسخة المطبوعة.

ويرى بعض الرسامين بأنه بالرغم من أنه كان لديهم قدر أكبر من الحرية إلا أن رسومهم لا تملك نفس تأثير رسوم الزمن الماضي. ويعلل جمعة فرحات ذلك بقوله: "الحرية ليست فقط أن نقول ما نريد بينما تفعل الحكومة ما تريد!" ويستطرد: "الحرية أن يكون لك تأثير ومن ثم تسبب التغيير"[٢]. ويعتقد ماهر داود بأنه حتى لو حدث وتحررت الرسوم الكاريكاتورية من قبضة رئيس التحرير فإنها ستزال بلا تأثير لأن المسؤولين بالحكومة بكل بساطة سيتجاهلونها كأنها غير موجودة[٣].

---

(١) رانيا صالح، المرجع السابق.
(٢) رانيا صالح، المرجع السابق.
(٣) ماهر داود، مقابلة شخصية، يونيو ٢٠٠٣.

ويرى طه حسين أن هناك مشكلة تواجه الرسامين والسبب وراء تراجع جودة لكاريكاتير وهي انتشار ظاهرة المحسوبية واختفاء العديد من الرسامين الأكفاء سواء لاعتزالهم أو لموتهم. ويعتقد تامر يوسف بأنه ثمة فجوة حدثت بين الرسام وجموع الشعب. ففي الماضي كان الرسام يقضي معظم وقته على "القهاوي" ووسط الناس العادية يتواصل معهم. أما اليوم، فعدد من الرسامين يتصرفون كشخصيات مهمة (VIP) ولا يتواصلون إلا مع النخبة المثقفة(١).

ويؤكد سمير عبد الغني بأن هناك حاجة إلى أماكن للتدريب مثل مجلة "روزاليوسف" التي كانت تعتبر مدرسة، تخرج منها معظم الرسامين الذين كانت أعمالهم لها تأثير في مصر والعالم العربي. ويرى تامر يوسف بأن السبب في تدهور حال الكاريكاتير يكمن في غياب إتحاد قوي يحمي الرسامين ويوفر لهم المساعدة ويساهم في حل مشاكلهم والعقبات التي تقف في طريقهم(٢).

وهنا نتساءل هل رسم الرسامون مبارك؟ أو هل كان مسموحًا برسمه؟ كسابقيه من الرؤساء، ظهر مبارك "كاملًا" في الرسوم الكاريكاتورية التي غالبًا ما تهدف إلى مدحه وتصوره كقائد في احترام واجلال، لكن لم يظهر "كاملًا" في حالة انتقاده إلا في الرسوم التي نشرت على صفحات بعض مدونات النشطاء على الانترنت، وفي شكل ملصقات استخدمت في المظاهرات التي خرجت تندد بالنظام وتطالب بإصلاحات جذرية فورية.

واتجه عدد محدود جدًا من الرسامين، مثل عمرو عكاشة، خاصة في السنوات الأخيرة من حكم مبارك، إلى نقده من خلال رسم جزء من ملامح وجهه، مثل الأنف مثلًا، بشكل كان يحمل إيحاءً واضحًا للقارئ بأن المسؤول المستهدف هو مبارك.

وأعرب بعض الرسامين بأنهم لم يكونوا ضد مبارك لشخصه، خاصة في الفترة الأولى من حكمه، بل على العكس كانوا يرونه شخصًا جيدًا على المستوى الإنساني، ولكنهم كانوا ضد سياسته التي اتخذت خطًا مضادًا للإصلاح والوقوف ضد الفساد. ولذلك لم يكن غريبًا أن رسم أغلب الرسامين ضد محاولات الاغتيال التي استهدفت مبارك وأعربوا عن فرحتهم بنجاته. إلا أنه لا مانع أيضًا أن هناك عدد من الرسامين من بالغوا في الإعراب عن حبهم لمبارك بشكل لا يتماشى مع فن الكاريكاتير كفن معارض، فمنهم من رسم يحتفل

(١) رانيا صالح، المرجع السابق.

(٢) رانيا صالح، المرجع السابق.

بعيد ميلاده ويهنئه على سلامة رجوعه إلى أرض الوطن بعد أن مضى فترة في الخارج، كرحلة دبلوماسية أو علاجية.

وأشار طوغان (١٤ يونيو ١٩٩٩) إلى جهود مصر المتمثلة في رئيسها مبارك وهي تحاول إنقاذ عملية السلام بدعوتها إلى قمة عربية تعمل على رأب الصدع وإزالة الخلافات وتوحيد الصفوف.



شكل ٦٠٩: القمة العربية وطوق النجاة!

(طوغان[1]، ٢٠٠١)

ورسم بهجوري مرحبًا بعودة مبارك سالمًا من الخارج، بينما عبر فرج حسن عن أمله في أن يضع مبارك حلًا للحد من الغلاء، في حين يرى ناجي في مساعي مبارك شعلة مضيئة ستنعكس حتمًا على حاضر ومستقبل مصر.



شكل ٦١٠: عودة مبارك!

"حمدلله على سلامتك يا ريس وبالمناسبة دي حارسمك بخط واحد"

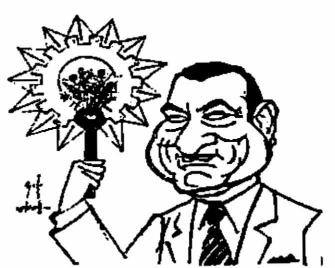
(الأهرام، ١٥ مارس ٢٠١٠)

(١) أحمد طوغان، "يوميات الكاريكاتير في قضية فلسطين (١٩٩٧ – ٢٠٠٢)"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١، ص: ٢٠١.

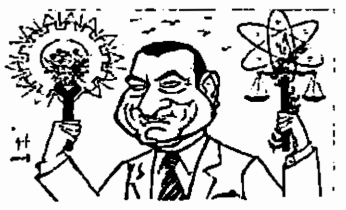

شكل ٦١١: الغلاء!

مواطن: "مش قلتلكم الريس معانا ما تخافوش"

(الأهرام، ١٠ إبريل ٢٠٠٨)


شكل ٦١٢: مبارك والشعلة!

(الأهرام، ٤ مايو ٢٠٠٨)



شكل ٦١٣: مصر اليوم وغدًا!

(الأهرام، ١ ديسمبر ٢٠٠٧)

كانت هذه النوعية من الرسوم الكاريكاتورية غالبًا ما يرسمها الرسام برغبته، أي ليس إملاءً من رئيس التحرير. فالغالب أن رئيس التحرير وإن يملك مقص الرقيب، إلا أنه لا يستطيع أن يرغم صاحب رأي بتناول قضية ما بشكل يخالف ضميره أو اعتقاده. لكن في النهاية يجب الإشارة بأن هذه النوعية من الرسوم لا تظهر غالبًا إلا في الصحف القومية أو الحكومية.

ونشرت مدونة "الوعي المصري" عددًا من الرسوم لطنطاوي متماشية مع مظاهرات ٢٠٠٥ ضد ترشيح مبارك لفترة رئاسية جديدة.

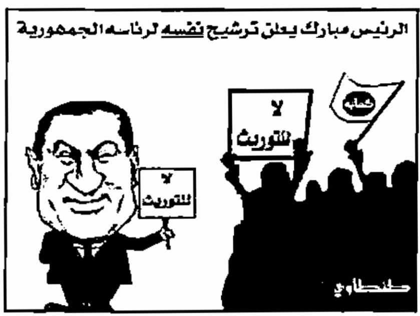


شكل ٦١٤: الرئيس المصري ~ ١٥٩ سنه!

"الأهرام ٥ يوليو ٢٠٤٥، رئيس التحرير نافع السابع عشر، وليخسأ الخاسئون"

"الرئيس في حوار مع رئيس الأهرام نافع السابع عشر: لسه عندي كتير أقدمه لمصر.. افتتاح كوبرى مبارك الـ ٢٩٢ الشهر المقبل.. مازلت لم أقرر بعد ترشيح نفسي للفترة الرئاسية الـ ٥٧.. بعد وفاة ابني وحفيدي والمعارضه اعتقد اني اقرب المرشحين للرئاسة .. مازلنا ندرس إلغاء قانون الطوارئ والإرهاب والمعتقلات والتعذيب "

(الوعي المصري[1]، ٢٩ يوليو ٢٠٠٥)



شكل ٦١٥: لا للتوريث!

"الرئيس مبارك يعلن ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية!

(الوعي المصري[2]، ٢٩ يوليو ٢٠٠٥)

(١) وائل عباس، مظاهرة ضد الدور المصري في غزة، "الوعي المصري"، ٢٩ يوليو ٢٠٠٥، تم الاطلاع في ١٠ يونيو ٢٠١١ من على الموقع الإلكتروني:
http://misrdigital.blogspirit.com/archive/2005/07/ ndex.html

(٢) وائل عباس، المرجع السابق.

ومما لا شك فيه أن الرسوم الكاريكاتورية كان لها دور في التحريض ضد نظام مبارك وكشف الفساد، وأن ثورة يناير جاءت مخالفة لتصور بعض الرسامين بأن رسومهم لا تملك نفس التأثير لتلك في الماضي، فهي لا تسقط نظامًا ولا تستطيع إجبار الحكومة على اتخاذ قرارات إصلاحية. ومع ذلك فقد تنبأ بعض الرسامين بهبوب رياح التغيير (كما سبق وأشرنا) وأنها السبيل الوحيد لوقف نزيف الفساد.

وبالفعل قامت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ لتخلع رأس النظام بعد ثمانية عشر يومًا من الاحتجاجات، تدرجت الدرجة التي عبرت فيها الرسوم عن الحدث من المتحفظة في نقل صوت الثورة، للحذر من الثورة، للمواكبة للاحتجاجات لحظة بلحظة، للمحرضة على النزول للميادين وإسقاط النظام. كان العامل الأساسي وراء ظهور هذا التفاوت في الرسوم هو توجهات الصحف التي سمحت بالنشر، وبالتالي ليس من العدل تحميل الرسام مسؤولية مباشرة لعدم تحريضه لصالح الثورة وقت حدوثها، فعصا التحريض كانت بيد رؤساء التحرير وملاك الصحيفة سواء أحزاب أو أفراد.

وأكثر صحيفة استوقفتني هي صحيفة "الأهالي" التي لا نبالغ إن قلنا أنها كانت ضد سياسة مبارك على طول الخط ولم تنحرف يومًا عن هدفها، وبالتالي كانت من أكثر الصحف المعارضة تشددًا وأعلاها صوتًا. واتسمت الرسوم الكاريكاتورية "بالأهالي" بالجرأة تماشيًا مع الصوت العالي للصحيفة. إلا أنها وقت الثورة اعتمدت أكثر على الصور الفوتوغرافية، إلا في أضيق الحدود بنشرها عدد من الرسوم للرسامة سحر.

ويبقى أن نتساءل عن ملامح الكاريكاتير المتوقعة ما بعد ثورة ٢٥ يناير. يرى أحمد عبد النعيم أن الكاريكاتير استطاع داخل منظومة متكاملة أن يمهد للثورة، وأن سقف الحرية داخل الجرائد قد ارتفع بشكل واضح بعد الثورة خاصة بعد أن تم تغيير عدد من رؤساء التحرير، ومن اللافت للنظر أن الصحف التي يطلق عليها قومية استطاعت أن تتحول سريعًا وتأخذ لونًا جديدًا لاستيعاب القارئ الجديد الذى لن يقبل أن يتم الضحك عليه بعناوين براقة مره أخرى[١].

ويعتقد عمرو عكاشة بأن الرقابة على الرسوم سوف تتلاشى تدريجيًا، فبعد انتقاد مبارك بشخصه انكسر التابوه الرئيسي أمام الرسامين، وانكسرت بالتالي القيود التي كانت تتحكم في مواد النشر سواء كانت قيودًا من قبل أجهزة رسمية أو غيرها[٢]. ويعتقد هاني

(١) أحمد عبد النعيم، رسالة إلكترونية، ٢٤ يوليو ٢٠١١.
(٢)عمرو عكاشة، رسالة إلكترونية، ٩ يناير ٢٠١٢.

شمس بأن الرسامين قد تحرروا من أهم القيود على الإطلاق وهي "وضع الحاكم في مصاف الآلهة بمعنى أنه منزه عن النقد ولا يجب أن يتحدث عنه أحد الا بالمدح فقط"(١).
ويؤكد شريف عرفة بأنه على الرغم من أن الرسامين قد تحرروا بالفعل من أهم قيد على الإطلاق، وهو رسم مبارك بعد أن كان يعامل كشخصية مقدسة، إلا أن بعض المؤسسات ستلعب نفس الدور القديم في نفاق السلطة أيا كانت، وبالتالي ستقوم بفرض رقابة على الرسامين طبقًا لتوجهاتها(٢).

ويرى تامر يوسف أن شخصية مبارك كانت ترسم في مناسبات محددة من باب التودد مثل يوم عيد ميلاده ويوم ذكرى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وكان رسامو الصحف القومية كثيرًا ما يتبرعون بالرسم في هذه المناسبات، التي تشبه كثيرًا موضوعات التعبير التي تأتي في امتحانات الشهادات العامة في مادة رسم مثل "في عيد تحرير سيناء أرسم ما يعبر عن فرحة الشعب المصري بقائده صاحب الضربة الجوية الأولى"(٣). ولا يعتقد يوسف بأنه من الممكن الوصول إلى رسم شخص الرئيس في كاريكاتير تهكمي ساخر مثلما يحدث بشكل يومي في فرنسا أو ألمانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية مهما بلغت سعة صدر الرئيس القادم(٤).

ويعتقد عكاشة بأنه سيتوقف تناول رئيس الجمهورية القادم في الكاريكاتير على طبيعة المكان القادم منه، فلو جاء من المؤسسة العسكرية وكان متجهًا أي يتعامل بشكل عسكري، بالطبع لن يقبل بالنقد، وسيتم التحرش بالرسام إن أصر على النقد واتخذ من مواقع التواصل الاجتماعي مثل موقع "فيس بوك" قنوات للنشر، وبالتالي سيلجأ الرسام إلى الرمز كما كان في الماضي. وفي حالة أن رئيس الجمهورية قادمًا من جهاز كالمخابرات مثلًا، فيتوقع عكاشة أنه "سوف تحدث عدة حوادث اعتداء من مجهولين تجاه من يبالغ في نقده"، والتي ستظهر على أنها حوادث قدرية(٥).

ويرى عبد النعيم أنه كان متعارفًا تصوير الرئيس في الكاريكاتير بمقاييس القائد المنتصر من شموخ ونصر وقوة، قد يصل إلى درجة النفاق، وكانت هذه النوعية من الرسوم كثيرًا ما تظهر في الأعياد والمناسبات القومية، فتجد كاريكاتيرًا يصور مصر تعطي الرئيس

(١) هاني شمس، رسالة إلكترونية، ١١ يناير ٢٠١٢.
(٢) شريف عرفة، رسالة إلكترونية، ١١ أغسطس ٢٠١١.
(٣) تامر يوسف، رسالة إلكترونية، ١٨ يناير ٢٠١٢.
(٤) تامر يوسف، المرجع السابق.
(٥)عمرو عكاشة، رسالة إلكترونية، ٩ يناير ٢٠١٢.

باقة من الزهور أو درع النصر[1]. ويعتقد عبد النعيم أنه بعد الثورة سوف يتحقق لرسام الكاريكاتير قدرًا أكبر من الحرية يستطيع من خلالها تناول شخص الرئيس، ولكنها حرية محكومة بأعراف الشعب وتقاليده وخلفيته الدينية التي في ظلها لن يصل أبدًا النقد إلى الدرجات التي نراها في الرسوم الغربية بأى حال من الأحوال[2].

ويعتقد كل من شمس وعكاشة ويوسف بأن الرسامين سيواجهون نفس المشكلة الأزلية المتمثلة في رئيس التحرير، الذي لايزال يملك أن يرفض نشر مواد يرى فيها تهديدًا لمنصبه، خاصة أولئك المعينين من قبل الدولة أو الأجهزة التابعة لها.

ويرى عكاشة بأن التوسع فى استخدام التكنولوجيا قد قلل كثيرًا من سلطة رئيس التحرير، فبعد ظهور مواقع مثل "فيس بوك" و"تويتر"، أصبح من الصعب منع أى كاريكاتير من النشر. فعلى سبيل المثال، قدم عكاشة كاريكاتيرًا يتناول القوى السياسية المتمثلة في الأحزاب بعد ثورة ٢٥ يناير، إلا أنه قد طلب منه تعديلًا لأحد الأشخاص في الكاريكاتير والذي يرمز لحزب الوفد، فما كان من عكاشة إلا أنه رفض التعديل ونشره بدلًا من الصحيفة على الموقعين، وبالتالي استطاع أن يوصل ما يريده لعدد من قرائه في النهاية[3].

ويرى عكاشة أن التطرف الديني هو من أهم التحديات التي سيواجهها رسامو الكاريكاتير خاصة بعد دخول ذوى الاتجاهات الدينية مجلس الشعب الذى يمكن أن يناقش مشروعات قوانين من الممكن أن تحد من الحريات أو تقيدها. ويتوقع عكاشة أن الرسامين لن يقفوا صامتين بل سيحرضون ضد مثل تلك القوانين، وبالتالي من المتوقع أن يحدث صدام، لأن المشكلة تكمن في أن أصحاب التوجه الديني لا يقبلون بنقدهم ويعتبرون نقدهم من نقد الدين. ويعتقد عكاشة أن الأمر لن يقف عند حد رفضهم للنقد، بل سيصل لما هو أبعد من ذلك، لقضايا الحسبة والتكفير التى يمكن أن ترفع على أى شخص كائنًا من كان[4].

بينما يعتقد شريف عرفة بأنه لن يكون هناك وجود للرقابة السياسية، ولكن سيتوقع مزيد من الرقابة الدينية بفعل صعود التيارات المتشددة التي ستلعب دورًا كبيرًا في الفترة القادمة[5].

---

(١) أحمد عبد النعيم، رسالة إلكترونية، ٢٤ يوليو ٢٠١١.
(٢) أحمد عبد النعيم، المرجع السابق.
(٣) عمرو عكاشة، رسالة إلكترونية، ٩ يناير ٢٠١٢.
(٤) عمرو عكاشة، المرجع السابق.
(٥) شريف عرفة، رسالة إلكترونية، ١١ أغسطس ٢٠١١.

ويرى تامر يوسف أن الرسام كارولس لاتوف قد تخطى الحدود الجغرافية وتخطى كل حدود القيود الفكرية، لأنه ببساطة تواصل مع أصحاب القضية وكأنه أحد أبناء ميدان التحرير. إلا أنه مع الأسف، كل من نهج نفس الاتجاه من الرسامين المصريين تم تجنيبه من النشر مثل أحمد نادي الذي رسم معايشًا ومعاصرًا للأحداث. ولم يكن هو الرسام الوحيد الذي تم تهميشه، فيوسف هو أيضًا واحدًا من الرسامين المصريين الذين لا ينشرون ولا يعملون على الإطلاق، بعد أن تم تجنيبه من العمل بجريدة "الأهرام" بعد أن أمضى فترة الثورة بالكامل بين أروقتها وميدان التحرير[1]!

وتبدو نظرة عكاشة تشاؤمية لشكل مستقبل مصر بعد ثورة ٢٥ يناير، فهو يرى أن مصر ستتحول من سيء إلى أسوأ فأسوأ، وهذا نتيجة لتفشي الجهل والفقر الذي يعاني منهما الشعب، مما يجعله فريسة سهلة لذوي الاتجاهات الدينية، وبالتالي لا يصلح معه ديمقراطية بأي حال من الأحوال. كما ستشهد البلاد محاكم تفتيش جديدة، ولكنها هذه المرة على الضمائر، مع بقاء المحسوبية والرشوة واللتين قد تتغير اسمهما إلى أسماء إسلامية، ليغطي المجتمع عوراته بزي أسود في حين يبقى الجوهر[2].

ولا يبدو شمس متفائلًا هو أيضًا لشكل مستقبل مصر، فبالرغم أنه يتوقع بعض التعديلات الدستورية وبعض التحسن في الأداء الديمقراطي، إلا أنه يرى بأن الثورة لم تكن ثورة كاملة، بل نصف ثورة ونصف انقلاب عسكري، وبالتالي يتوقع أن يحتل منصب رئيس الجمهورية رئيسًا له خلفية عكسرية وينتمي للمؤسسة العسكرية[3].

ويرى عرفة بأن النظام السابق هو المتسبب في ظاهرة التطرف الديني المنتشرة لأنه أهمل الثقافة والتعليم، كما أن "النخبة" مشغولة بتفاصيل إجرائية قصيرة المدى ولا يلتفتون للاقتصاد. كما يعتقد عرفة بأن مستقبل مصر سيكون أفضل في حالة أن تم التخلص من "قاذورات الإعلام" أي تطهيره[4].

في حين يبدي عبد النعيم تفاؤلًا لشكل مستقبل مصر في حالة النجاح في التخلص من الأخطار التي تحاول أن تسرق أهم ما في الثورة وهو تلاحم كل قوى الشعب أمام هدف واحد، والبعد عن التمجيد الشخصي واستخدام لغة التخوين عند الاختلاف في الرأي، باختصار، سيكون مستقبل مصر أفضل في حالة النجاح في المحافظة على أخلاق ميدان

(١) تامر يوسف، رسالة إلكترونية، ١٨ يناير ٢٠١٢.
(٢) عمرو عكاشة، رسالة إلكترونية، ٩ يناير ٢٠١٢.
(٣) هاني شمس، رسالة إلكترونية، ١١ يناير ٢٠١٢.
(٤) شريف عرفة، رسالة إلكترونية، ١١ أغسطس ٢٠١١.

التحرير[1]. بينما يرى يوسف بأن مصر متخبطة الآن بين كل العناصر السياسية التي تحاول أن تثبت نفسها على حساب تقدم مصر، وأن الشعب المصري في حاجه إلى مزيد من التوعية والثقافة وتنمية القدرات حتى يعبر هذه المرحلة بآمان[2].



شكل ٦١٦: بركاتك يا ثورة..حرية التعبير!

تامر يوسف: "أخيرًا..حارسم من غير ما يكون عندي سقف..مني للسما على طول!"

(الأهرام المسائي، ٢٢ فبراير ٢٠١١)

رموز كاريكاتورية محلية وعالمية:

ظهرت مجموعة من الشخصيات الكاريكاتورية المصرية التي لا نبالغ إذا قلنا أنها صممت في المقام الأول كأداة تحريض ضد الاحتلال أو الفساد وشغلت مكانًا مميزًا عند القارئ. كما استعانت الرسوم للتعليق على الأحداث الجارية بشخصيات كاريكاتورية عربية وعالمية مثل شخصية "حنظلة" و"عم سام" و"تمثال الحرية" و"جون بول" و"الأسد" البريطاني و"بابا نويل" و...إلخ.

(١) أحمد عبد النعيم، رسالة إلكترونية، ٢٤ يوليو ٢٠١١.
(٢) تامر يوسف، رسالة إلكترونية، ١٨ يناير ٢٠١٢.

مصر في الكاريكاتير:

كان من البديهي أن تصور مصر كأنثى في الكاريكاتير، حيث أنها تأخذ وضع التأنيث المعنوي في اللغة العربية. فرمز لمصر في العشرينيات بطفلة جميلة، شعرها أسود فاحم قصير مزين "بفيونكة" كبيرة وتحمل عروسة من القماش. كثيرًا ما كانت تقف على مرسى قناة السويس تتابع الأسطول الإنجليزي وتتساءل بطفولية عن سبب بقائه وعن وقت رحيله. كما صورت مصر على هيئة فتاة يافعة تزين وسطها بهلال وثلاث نجمات، وملكة فرعونية شابة جميلة وجذابة، وفلاحة شابة تزين رأسها بالهلال والنجمات أو ترتدي قرطين كليهما على هيئة هلال.



شكل ٦١٧: مصر!

مصر: "بقى إنجلترا علشان ما غرقت لها البارجة زيور تجيب لي الطيارات دي كلها وكمان مراكب حربية؟؟"

(الكشكول، ١١ يونيو ١٩٢٦)

كما صورت مصر على هيئة امرأة ممشوقة القوام ترتدي الجلابية والطرحة (أشبه بالفلاحة في تمثال نهضة مصر) تذرف بالدموع وهي تبكي فقيدها السادات مثلًا، وفلاحة تتشح بالسواد و"تولول" على اغتيال دستور ١٩٢٣، وسيدة شابة جميلة متوجه بالأهرامات الثلاثة ويتدلى من أذنيها قرط على هيئة هلال وهي تزيح شجرة الاحتلال عن أرض سيناء. وقد حدث وأن صورت مصر في هيئة رجل (وإن كان نادرًا)، مثل ذلك الفلاح الذي رحب بعودة ابنه (طابا) إلى أحضانه، وكذلك ذلك الفلاح الذي هب واقفًا ممزقًا لمعاهدة ١٩٣٦ ومواجهًا بثقة المدفعية الإنجليزية. ويؤكد السياق في الكاريكاتيرين على أن الرجلين

يمثلان مصر وليس الشعب المصري مثلًا. ويرجع السبب في استخدام الرسامين لشخصية رجل لتجسيد مصر، هو حاجتهم إلى تجسيد "العضلات"، في الوقت الذي عندما تصور مصر على هيئة امرأة تكون تجسيدًا "للعاطفة".



شكل ٦١٨: الفتنة الطائفية!

(الأهرام، ٤ يناير ٢٠١١)

ورمز لمصر لعقود بالأهرامات والعين الفرعونية وبأبو الهول الذي ظهر في بعض الرسوم بمخالب يهدد بها "جون بول" (الاحتلال البريطاني). كما رمز للشعب المصري برجل يمتطي حصانًا (الحكومة) ويحمل في يديه سيفًا (الصحافة).

وعلى عكس النسر الأمريكي، يقبع النسر المصري (نسر ثورة ١٩٥٢) حبيس اللونين الأحمر والأسود ولا يحمل نفس القدر الذي يحمله النسر الأمريكي من انتماء. فانحسر استخدامه على الطوابع البريدية والأختام الرسمية إلا في أضيق الحدود والمناسبات التي استدعت انطلاقه من محبسه، مثل في تلك الرسوم التي تناولت ثورة يناير.



شكل ٦١٩: النسر المصري!

"طالب بن جوريون مرة ثانية بالصلح مع العرب"

الفأر: "تيجي نصطلح!!"

(روزاليوسف، عدد ١٤٣٨)



شكل ٦٢٠: تعديل في شعار الجمهورية المصرية!
(روزاليوسف، ٢ يوليو ١٩٥٦)

تعتبر شخصية "المصري أفندي" من أهم وأشهر الشخصيات المصرية الكاريكاتورية التي شهدها القرن العشرون، وهي نتاج ابداع كل من السيدة روزاليوسف (مالكة المجلة) ورئيس تحرير "روزاليوسف" آنذاك محمد التابعي والرسام المصري الأرمني الأصل ألكسندر صاروخان، وكان أول ظهور لها عام ١٩٣٢. وقد لعبت كتميمة تمثل المصريين وتعلق على الأحداث الجارية وتلمح ببواطن الأمور وتعمل على شحن قوى الشعب ضد الاستعمار والفساد والنظام. يرتدي المصري أفندي طربوشًا ولا يظهر إلا في كامل وجاهته من أول رابطة العنق والسيديري فالبدلة والحذاء ومع ذلك لا يبدو غنيًا، إنما يرمز إلى الطبقة المتوسطة في ذلك الوقت.

إلا أنه وفقًا لسعيد أبو العينين فشخصية "المصري أفندي" لم تكن ابتكارًا بل كانت اقتباسًا من الشخصية الإنجليزية "ستربب" في "الديلي إكسبريس"، التي كان يمثلها رجل قصير يضع على رأسه "القبعة" ويمسك في يده "مظلة". فتم تحوير الصورة، لتحل محل القبعة "الطربوش" ويحل محل المظلة "المسبحة"(١).

وقد رسمت شخصية "المصري أفندي" بذكاء، ففي لغة الكاريكاتير هناك فروقات مهمة تعكس طبيعة الشخصية المرسومة من نحيل معدم لرشيق طويل جذاب لمفتول العضلات قصير غبي لمفتول العضلات معتدل شرير. وأخيرًا هذه الشخصية المغلوب على أمرها دون امتهان والتي خلت من خلايا الشر ويظهر ذلك واضحًا في ضآلة حجمها اذا ما قورنت بالشخصيات الأخرى المصاحبة لها داخل الكاريكاتير. كما أن جسم المصري أفندي القصير الممتلئ نسبيًا ووجهه الممتلئ ونظارته ذات الاطار الدائري دعمت كلها خصال الطيبة الممزوجة بفطنة فطرية تتيح له القدرة على إدراك ما يدور حوله.

(١) سعيد أبو العينين، "رخا..فارس الكاريكاتير"، أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص: ١٠٨.

ونلاحظ أن "المصري أفندي" لا ينسى أبدًا سبحته!! فإذا أضافت السبحة لهذه الشخصية الكاريكاتورية والتي استمرت عقودًا؟ في رأيي أنها أضافت لها ملامح التقوى متمثلة في الأمانة في حكمه على الأشياء وفي رؤيته ومواقفه من الأحداث الجارية مما أعطى مصداقية أكبر للشخصية وللكاريكاتير بالتبعية في وقت كانت السبحة فقط في يد أكثر الناس إخلاصا وذمة!!

ولم يحتكر رسم الشخصية على صاروخان خاصة بعد خروجه مع التابعي من "روز اليوسف" ليعملا معًا بـ "آخر ساعة"، بل رسمها رسامون آخرون مثل على رفقي وعبد السميع وأحمد طوغان وجورج بهجوري.

و "**ابن البلد**" شخصية كاريكاتورية وطنية نتاج إبداع كل من رسام الكاريكاتير عبد المنعم رخا والكاتب الصحفي مصطفى أمين. و "ابن البلد" رجل بسيط ضئيل الحجم في منتصف العمر، يرتدي جلباب وطاقية وكوفية ويظهر مغلوبًا على أمره ولكنه في نفس الوقت يتسم بالشهامة والشجاعة في إبداء رأيه بلا مواراة. وتعكس الشخصية مفهومًا معينًا يؤمن به رخا في وقت أصبح الشيء الأفرنجي هو الأكثر قيمة بينما يطلق مجازًا كلمة "بلدي" على كل ما هو رديء ولا قيمة له. فجاءت شخصية "ابن البلد" لتؤكد على أن كل ما هو "بلدي" هو أصيل وقيم.

كان أول ظهور للشخصية في أول عدد من مجلة "الاثنين" (١ يوليو ١٩٤١)، وقد قدمها مصطفى أمين في افتتاحية العدد ووصفها بقوله: ""ابن البلد" رجل بسيط يجهل البروتكول والتقاليد المرعبة، أو لعله يتجاهلها، فهو يتحدث مع الكبراء حديث الند للند، وهو يتكبر ويتغطرس على المتكبرين والمتغطرسين. وهو يمثل ١٤ مليونًا من المصريين، سيشرب من ماء النيل القذر إلى أن يرق قلب الحكومة، فتمد أنابيب المياه الصالحة للشرب إلى أفواه الفلاحين... وهو رجل فقير مادام المصريون فقراء..."(١)



شكل ٦٢١: ابن البلد!

"مضى أسبوع لم ترتفع فيه الأسعار"

ابن البلد: "لازم اللي بيعملوا التسعيرة مسافرين الجمعة دي"

(صباح الخير، ٢٠ إبريل ١٩٨٩)

---

(١) سعيد أبو العينين، المرجع السابق، ص: ١١٦.

وعلى نفس المنوال قدم رخا أيضًا "بنت البلد" في ملايتها التي تنساب بسلاسة وترتدي برقعًا أسودَ وتمشي في دلال تعكس خطواتها احساسها بأنوثتها، والتي دائمًا ما تتفوق على قريناتها من بنات الذوات ببساطتها وجاذبيتها. وعَن هذه الشخصية يقول رخا "لقد فكرت فيها عندما وجدت الناس يستعملون كلمة "بلدي" على كل ما هو قبيح ومعدوم الذوق..وللأسف هذا موجود حتى الآن..رسمت بنت حلوة جدًا..جذابة جدًا..وتسخر من كل العادات الوافدة..وتنتصر على خصومها"(١).



شكل ٦٢٢: بنت البلد!
(روزاليوسف، ٧' إبريل ١٩٨٩)

ومن الشخصيات الأخرى التي ابتدعها رخا: "ميمي به"، و"قرفان أفندي"، و"غنى الحرب"، و"رفيعة هانم"، و"السبع فندي"، و"سكران باشا طينه"، و"وفدي أفندي" و"حمار أفندي".

(١) عادل حمودة، رخا ناظر المشاغبين، "روزاليوسف"، ١٧ إبريل ١٩٨٩.



شكل ٦٢٣: حمار أفندي!

حمار أفندي: "أنا مندهش إن ناس بتقول إن فيه ناس جعانين وعريانين، مع إن كل واحد أعرفه عنده مليون جنيه!"

(صباح الخير، ٢٠ إبريل ١٩٨٩)

ولعبت الشخصيات الكاريكاتورية مثل "**رفيعة هانم**" التي اتسمت بخفة الظل وروح الفكاهة على المتناقضات الاجتماعية لدى المواطن المصري. فرفيعة هانم ذات الوجه البريء سيدة بدينة جدًا إلى حد المبالغة اذا ما قورنت بزوجها "السبع أفندي" الرفيع والهزيل جدًا في الشكل والشخصية. ونجد "رفيعه هانم" في قالب فيه قدر من الرفاهية من الاحتفال بالأعياد فاختيار الهدايا والفساتين فلبس المايوهات والمرح على البلاج، وهذا لم يمنع تواجدها أيضًا في قلب ميدان حرب ٤٨ وقد تعثرت بدلال في دبابة إسرائيلية بها جندي رافع يديه الاثنين مستسلمًا قائلة: "حوش يا سبع أفندي ...يظهر إني تعثرت في طوبة.

وهناك شخصيات الثنائي أحمد رجب ومصطفى حسين الكاريكاتورية التي عكست شخصيات حقيقية من المجتمع المصري في قالب فكاهي صادق، فكان سببًا وراء ارتباط الناس بها ونجاحها جماهيريًا. ومن هذه الشخصيات "كمبورة" الذي يتفنن في شراء الذمم ومساومتها، و"قاسم السماوي" الحقود على كل البشر حتى ممن بهم علة أصابتهم، و"على الكومندا"، و"عبد الروتين"، و"عزيز بيه الأليت"، وغيرهم.

حنظلة العربي:

تعد شخصية الطفل "حنظلة" نتاج إبداع الرسام الفلسطيني ناجي العلي من أشهر الشخصيات الكاريكاتورية العربية على الإطلاق، فقد كانت شاهدًا على معاناة ومأساة وطن، وهي انعكاس للصبي داخل ناجي نفسه، وتذكير بطفولته التعيسة بعد أن خرج مطرودًا من قريته ليقيم داخل مخيم "عين الحلوة" للاجئين.

يقول العلي عن الصبي الذي يظهر في رسومه بأنه "رمز..رمز ذاتي في العمق لناجي العلي. وعندما رسمته كنت أحاول أن أعكس ذاتي الشريدة المراقبة من خلاله..في مثل سن هذا الصبي خرجت من فلسطين وعشت تجربة المخيم وبدأ وعيي السياسي والحياتي يتفتح على القهر والفقر والتوق إلى الحرية والعودة إلى معاناة الوطن"..[(١)].

ويعتقد الكاتب نجيب صالح بأن تسمية الطفل "حنظلة" يرجع إلى ثمر من فصيلة الصبار يدعى "الحنظل" ينبت بفلسطين والأردن، وهو من النوع المر جدًا حتى ضرب به المثل: "أمر من الحنظل". وتشبه رأس الطفل الصغير في رسوم ناجي ثمرة الحنظل، رمزًا للمعارضة والرفض ليس فيه تهادن[(٢)].

وتمسك ناجي بالرسم ضد المساومات الظالمة ومن أجل حقوق شعبه المغتصبة، يقول عنه محيى الدين اللباد بأنه "لم يحترم مجرد العمل بالممكن والمتاح. ولذا فقد هجا كل القيادات والأوضاع والأنظمة، لكنه لم يفعل ذلك لحساب أحد إلا لحساب ضميره وقلبه المتوجع. حتى قيادة شعبه الفلسطيني لم تسلم من هجائه اللاذع وتجريحه المتألم المؤلم"[(٣)]. ويحكي ناجي أنه عندما خطب عرفات في الكويت عام ١٩٧٥، وقف يهدد قائلًا: "من هو هذا ناجي العلي، قولوا له إذ لم يتوقف عن رسومه لأضع أصابعه في الأسيد"، وعندما بلغوه ما قاله عرفات، قال لهم: "يا عمي إن فقدت أصابع يدي سأرسم بأصابع رجلي"[(٤)].

---

(١) ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، مركز ناجي العلي الثقافي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢، ص: ٢٩٥.

(٢) ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، مركز ناجي العلي الثقافي، نجيب صالح، "..وحنظلة سيكمل المشوار"، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢، ص: ١٠٢.

(٣) ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، مركز ناجي العلي الثقافي، محيى الدين اللباد، "الرصاص في وجه الكاريكاتور"، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢، ص: ١٠٢.

(٤) ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، المرجع السابق، ص: ٤٣.

وما لبث أن طالته أيدي الغدر واغتالته في ٢٩ أغسطس ١٩٨٧ في لندن، وقد ترددت معلومات وقتها يفيد توجيه أصابع الاتهام إلى "إسرائيل" وجهاز استخباراتها "الموساد"، وذلك من خلال تورط شخصيات عربية مزدوجة العمالة[١].

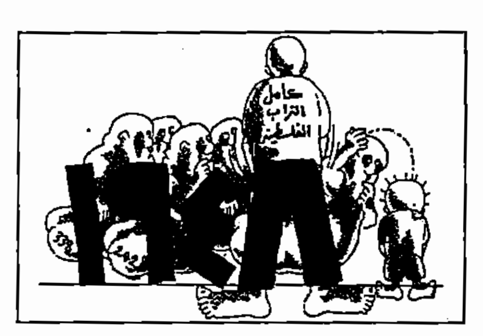
ابتكر ناجي الكثير من الرموز، فصور رجال السلطة العرب بكائن سمين مترهل بلا ساقين يمشي زاحفًا، وصور المتاجرين بالقضية الفلسطينية يستخدمون الحطة "الكوفية" الفلسطينية لتغطية تجارتهم الخائنة، وصور الشهداء والفقراء وقد تكفنوا أو تغطوا بقماش اللافتات التي خطت عليها شعارات زائفة[٢].



شكل ٦٢٤: فلسطين!

"الوطن كامل التراب الوطني كامل التراب الوطني كامل التراب الوطني ..."

(ناجي العلي[٣]، ١٩٩٢)



شكل ٦٢٥: كامل التراب الفلسطيني – ١٩٤٨!

(ناجي العلي[٤]، ١٩٩٢)

(١) "ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، المرجع السابق، ص: ٣٥.
(٢) "ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، المرجع السابق، ص: ١٠٢.
(٣) "ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، المرجع السابق.
(٤) "ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، المرجع السابق.



شكل ٦٢٦: المقاومة!
(ناجي العلي[١]، ١٩٩٢)

ورسم عمرو سليم في ذكرى وفاة ناجى العلى، وأنه حى في قلوب جميع الكائنات.



شكل ٦٢٧: ناجي العلي حي!
(الآداب[٢]، سبتمبر ٢٠٠٢)

ورسم مخلوف "حنظلة" متحسرًا على الموقف العربي المخزي والمعتاد من ما يجرى.



شكل ٦٢٨: أسطول الحرية!

حنظلة: ياللا يا جماعة اشجبوا وادينوا واستنكروا..!!"

(المصري اليوم، ١ يونيو ٢٠١٠)

(١) "ناجي العلي: الفنان – الإنسان – القضية"، المرجع السابق.
(2) Al Adab Labnon magazine, September 10, 2002, Issue 9

العم سام:

لا يحتاج "عم سام" إلى التعريف فهو يعد أكثر الشخصيات الكاريكاتورية انتشارا ممثلًا رمزًا عالميًا للولايات المتحدة الأمريكية مما جعله مألوفًا لرجل الشارع العادي. وقد تعددت الروايات التي تبحث في أصل هذا الرمز ومن الطريف أن النظرية التي لاقت قبولًا عند أغلب المؤرخين ترجح بأن ظهوره كان بمحض الصدفة أو النكتة. ويرجع هذا إلى عام ١٨١٢ عندما خاضت الولايات المتحدة حربًا ضد بريطانيا وايرلندا وكان الجيش الأمريكي في ذلك الوقت متعاقدًا مع شخص يدعى صموئيل ويلسون أو سام ويلسون كما يناديه البعض ليرسل لهم شحنات من اللحم معبئة في براميل تابعة للجيش الأمريكي مختومًا عليها بالحرفين يو إس (U.S.) كاختصار للولايات المتحدة والتي أشار إليها البعض تفكها بـ(Uncle Sam) أو العم سام يقصدوا بها سام ويلسون وما لبثت أن انتشرت هذه الفكاهة لتصبح لقبًا شعبيًا للحكومة الأمريكية.

ويرجح بعض المؤرخيين أن شكل "عم سام" و هيئته اقتبست من رمز وطني كان معروفًا مسبقًا عند الأمريكيين باسم أخ جوناثان أو (Brother Jonathan) والذي يجسد مبادئ الولايات المتحدة ومنها المساواة بين الأفراد. ومع الوقت حل محله "عم سام" و انفرد كرمز للحكومة الأمريكية ودخل بوابة الكاريكاتور السياسي مع الحرب الأهلية وتطور شكلًا على يد توماس ناست أكثر الرسامين شهرة في ذلك الوقت ومبتكر شخصية "سانتا كلوز" أو "بابا نويل".

ويمثل "عم سام" بريشة جيمس مونتجمري فلاج الشكل الكلاسيكي المتعارف عليه والذي ظهر في عام ١٩١٧ في أشهر ملصق في العالم بعنوان "أريدك للجيش الأمريكي" كدعوة للتجنيد في الحرب العالمية الأولى وقد أعيد استخدام الملصق مرة أخرى في الحرب العالمية الثانية (انظر الشكل التالي).

ظهر العم سام مجسدًا للحس الوطني ومرغبًا للانتماء فهو يرتدي ما يعكس ألوان العلم الأمريكي ممثلة في السترة الزرقاء والقبعة البيضاء المزينة بالنجوم ورباطة العنق الحمراء، وتجده شخصًا كبير السن ذا شعر شيب طويل و"سكسوكة"، نظراته تتسم بالجدية الشديدة والصرامة مصوبًا اصبعه تجاهك. والطريف أن هذا الوجه كان كثير الشبه بالفنان نفسه قبل إضافة فرق السن والسكسوكة ، كما أن فكرة هذا الملصق مستوحاة من ملصق آخر سبقه وإن كان أقل منه شهره ظهر عام ١٩١٤ بعنوان "نريدك" كدعوة للتجنيد بالجيش البريطاني.



شكل ٦٢٩: عم سام ١!

واتسع انتشار "عم سام" وتنقل بين صفحات الصحف والمجلات المحلية والعالمية، وتحدث بجميع اللغات وظهر بعدة نيولوك والتي كان أشهرها السترة الزرقاء ذات الذيل الطويل المزينة بالنجوم والبنطلون الأبيض المخطط بالأحمر، وأصبح لسان حال سياسة أمريكا الخارجية من وجهة نظر رسمية ليتخلى تدريجيًا عن أدوار الخير على خشبة المسرح السياسي.

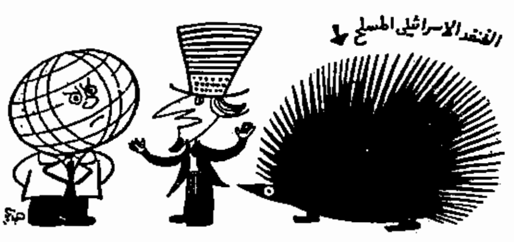


شكل ٦٣٠: عم سام ٢!

"وافق مجلس الأمن بالإجماع على إنذار إسرائيل"

الصهيونية: "حتى أنت كمان بقيت شيوعي .. انجر قدامي!!"

(روزاليوسف، ٢٣ يناير ١٩٥٦)



شكل ٦٣١: عم سام ٣!

"القنفذ الإسرائيلي المسلح"

عم سام: "مسكينة إسرائيل، بتعمل كده لأنها خايفه من العرب وعايزه تعيش في سلام!!"

(روزاليوسف، ٢٦ أكتوبر ١٩٧٠)

النسر الأصلع:

لم يكن "النسر الأصلع" أو Bald Eagle حليق الرأس كما قد يظن البعض إنما يكسو رأسه ورقبته وذيله الريش الأبيض، في حين يغطي غالب جسمه الريش البني الغامق، كما أن منقاره ورجليه لونهم أصفر، مما يجعله من أجمل النسور وأكثرها جاذبية. ولم يكن ذلك هو السبب وراء اتخاذه رمزًا قوميًا للولايات المتحدة الأمريكية، فهذا النسر يحمل الجنسية الأمريكية ولا يعيش إلا على القارة الأمريكية وبالتحديد في أمريكا الشمالية على السواحل المتدة من ألاسكا إلى كندا لشمال المكسيك حيث يتغذى على الأسماك ويقيم أعشاشه على الأشجار ذات الارتفاعات العالية.

تم اختياره رمزًا قوميًا للولايات المتحدة في ٢٠ يونيو ١٧٨٢ وبالتالي توالى ظهوره على معظم الأختام الرسمية بما في ذلك ختم الرئاسة الأمريكية. واتخذ الختم شكلًا دائريًا يزينه النسر الأصلع وهو يحمل في إحدى رجليه مجموعة من الأسهم وفي رجله الأخرى فرع الزيتون وحوله ٥٠ نجمة ممثلة للولايات الأمريكية.

ارتبط النسر الأصلع بالثورة فقد قيل: إن إحدى معارك الثورة نشبت في الصباح الباكر على إحدى السواحل مما أثارت ضوضاء أيقظت النسور النائمة والتي تركت أعشاشها وطافت محلقة عاليًا في شكل دوائر أعلى رؤوس المقاتلين و كأنها هي أيضًا تساند الثوار طالبة للحرية والآمان. فارتبط عندها النسر في مخيلتهم كرمز للثورة والحرية. كما ارتبط النسر ببعض الخرافات والأساطير القديمة، فهناك أسطورة قديمة تقول بأن النسر وحده من بين سائر الحيوانات يستطيع النظر إلى الشمس. وكان يعتبر طائرًا مقدسًا عند

بعض المواطنين الأصليين بأمريكا.

وظهر النسر في الكاريكاتير الأمريكي منقضًا على عدوه مستخدمًا منقاره ومخالبه، وكثيرًا ما كان أحد أطراف النزاع في الانتخابات الأمريكية أو متواجدًا مع "عم سام" منتقدًا بعض الأحداث الجارية، أو بطلًا في الاحتفالات الوطنية أو مغطيًا لأحداث رياضية هامة ذات الصبغة السياسية خاصة عندما يكون المنافس بريطانيا، ففي كاريكاتير نشر في يوليو ١٨٧٨ للرسام الأمريكي توماس ناست، النسر الأمريكي يجلس في حذاء كأنه قارب حاملًا للعلم الأمريكي بينما "عم سام" يجدف وهو يدخن سيجار ويعلو وجههما علامات الرضا والسرور احتفالًا بتقدم طاقم أمريكي من مونرو، ميتشيجان، ملقب بالحذاء على نظرائه من البريطانيين المنافسين والأكثر خبرة في سباق الزوارق (انظر الشكل التالي).

كما ظهر النسر الأمريكي بعد أحداث سبتمبر في صور عدة، فمرة تجده يسنن مخالبه استعدادًا للانتقام من المعتدين وفي أحيانًا أخرى تجده يقتلع رأس المسؤول الأول لتنظيم القاعدة أسامة بن لادن. إلا أنه لم يقابل نفس شهرة "عم سام" في الوطن العربي، فنادرًا ما يظهر في الرسوم الكاريكاتورية رامزًا لأمريكا وناقدًا لسياستها.



"HURRAH FOR THE SHOES!"
Shoe-won-on-the-Fourth-you-Bett.

HARPWEEK

شكل ٦٣٢: النسر الأصلع!

(هربر ويكلي، ٢٠٠١)

تمثال الحرية:

بحث شعب فرنسا عن هدية تعبر عن صداقته للشعب الأمريكي فلم يجد أجمل أو أقيم من "تمثال الحرية" الذي سرعان ما أصبح من أهم معالم الولايات المتحدة الأمريكية وأشهرها عالميًا، وبذلك كلفت فرنسا النحات فريدريك اوجست بارثولدي Frédéric-Auguste Bartholdi ليصمم التمثال، أما الهيكل الحديدي الداخلي فكان من تصميم الكسندر جوستاف ايفل Alexandre-Gustave Eiffel ، مصمم برج إيفل، بينما قاعدة التمثال فكانت من تصميم المعماري الأمريكي ريتشارد موريس هانت Richard Morris Hunt. انتهى العمل من التمثال في فرنسا ومن ثم تم نقله إلى الولايات المتحدة ليستقر على جزيرة على نهر هيدسون في ٢٨ أكتوبر ١٨٨٦، ليقف شامخًا في سماء نيويورك مرحبًا بالقادمين إلى أمريكا خاصة المهاجرين.

التمثال واسمه الرسمي "الحرية تنير العالم" أو Liberty Enlightening the World عبارة عن سيدة تدعى الحرية تقف شامخة ضد الاستبداد ترتدي ثوب طويل فوقه وشاح واسع يعتلي إحدى كتفيها أشبه بملابس الرومان قديمًا، كما يزين رأسها تاج ذو سبعة أسنة أو أشعة ترمز للبحار والقارات السبع، تحمل في يدها اليسرى لوحًا مكتوبًا عليه تاريخ إعلان استقلال أمريكا عن بريطانيا في ٤ يوليو ١٧٧٦، وترفع عاليًا بيدها اليمنى شعلة لتنير العالم.

وبمرور السنوات أصبح التمثال رمزًا قوميًا وعالميًا للحرية والديمقراطية وارتبط الشعب الأمريكي بالتمثال إلى حد الحساسية إذا ما تعرض رمزهم للإساءة فهو بالنسبة لهم رمز يعبر عن إحدى البنود التى يؤمن بها الشعب الأمريكي والتي يعتبرها ميثاق شرف للمعيشة على أرض أمريكا.

ولما كان التمثال امرأة فبديهي أن يصور التمثال في الكاريكاتير على هيئة امرأة ولكن لا مانع أن يصور مرات على هيئة رجل!! ففي كاريكاتير نشر عام ١٨٨٧ بريشة ويليام روجرز، انتقد الرسام طريق السكة الحديد الذي سيتم إنشاؤه ليربط بين منهاتن وجزيرة كوني موطن التمثال. ومع أن السبب غير واضح وراء نقد الرسام للطريق إلا أن البعض أرجع ذلك لخوف الرسام على التمثال نفسه وهذا يفسر لماذا رسم طريق السكة الحديد يلتف حول التمثال كما في الملاهي. وفسر البعض الآخر أن الكاريكاتير ينتقد الفساد الذي استشرى في شركات السكة الحديد في ذلك الوقت ولعله نفس السبب الذي دعا الرسام إلى تصوير التمثال في هيئة رجل كإشارة إلى رموز الفساد.

وتعاظم ظهور "تمثال الحرية" في الكاريكاتير الأمريكي بعد أحداث سبتمبر لترجمة الإحساس بالألم ليس بين جموع سكان نيويورك فقط بل بين جموع الأمريكيين. فظهر التمثال في هذه الفترة على هيئة امرأة تنتحب وتبكي ضحاياها ويديها على وجهها من بشاعة المنظر. ولأنه رمز أمريكي مثله في ذلك مثل "عم سام" فإنه سرعان ما انتشر عالميًا وأصبح أداة رسم تستخدم لانتقاد سياسة أمريكا الخارجية وإن كان ليس بنفس قوة انتشار استخدام "عم سام"، وتنوع استخدامه من هذا المنطلق خاصة في العالم العربي.



شكل ٦٣٣: رحيل تمثال الحرية!
(كاريكاتير، ٢٥ مارس ٢٠٠٢)

جون بول:

عندما تتحدث عن بريطانيا العظمى والشعب الإنجليزي "الوفي" فأنت تتحدث عن "جون بول"، "John Bull"، الرمز القومي لبريطانيا والذي عرفه العالم في القرن الثامن عشر، وكانت ولادته على يد الطبيب جون اربيوثنت John Arbuthnot الاسكتلندي والذي سجل له شهادة ميلاد بين صفحات كتاباته السياسية عام ١٧١٢ في زمن اعتبره البعض العصر الذهبي للهجاء السياسي ببريطانيا. بدأت شعبية "جون بول" تلوح في الأفق مع حلول عام ١٧٦٢ على يد رسامين إنجليز ثم ما لبث أن تصدر الرسوم الكاريكاتورية للإنجليزي السير جون تانيال والتي نشرت أعماله في المجلة الفكاهية الإنجليزية بانش ليتسع انتشاره وتتطور شخصيته بعد ذلك على يد رسامي الكاريكاتير الأمريكي وعلى رأسهم توماس ناست.

خلال حروب نابليون، وظف "جون بول" كرمز قومي ينادي للحرية ويؤكد إخلاصه للملك وبريطانيا العظمى ويشحن الشعب لمقاومة اعتداءات فرنسا. كما استخدم "جون بول" لعقود في حملات بريطانيا لحشد الجنود إبان الحرب العالمية الأولى والثانية.

و"جون بول" عبارة عن رجل في متصف العمر ذي جسد ضخم ووجه ممتلئ يرتدي قبعة قصيرة القامة ومعطف ذي ذيل طويل وصيديري عليه علم بريطانيا وحذاء ذي رقبة وغالبًا ما يصاحبه كلب من نوع البولدوج.

وتعني "بول" في اللغة الإنجليزية ثور ولم يكن اختيار الاسم من قبيل الصدفة فصفات الثور كانت هي الأقرب لصفات المزارع الإنجليزي الذي اتسم بالأمانة والجرأة والشجاعة والصلابة الممزوجة بعند. كما جرى العرف بين المزارعين الإنجليز آنذاك أن امتلاء الوجه وتورده وضخامة الجسد في هذه السن علامة الصحة الجيدة. إلا أن هذه الصفات ما لبثت أن استغلت من قبل رسامي الكاريكاتير خاصة الأمريكيين عند انتقاد سياسة بريطانيا. فصور "جون بول" مرارًا في جسد ثور ورأس آدمي أو "بكرش" كبير خطط عليه خريطة العالم، وفي أوضاع أخرى اعتلى رأسه أذني أو قرني ثور. ففي إحدى رسومه عام ١٨٦٢، انتقد الرسام وليام نيومان William Newman بريطانيا لإعلانها اتخاذ موقف الحياد تجاه الحرب الأهلية الأمريكية، فرسم جون بول برأس ثور هائج وقد حلت عملة (جنيه إنجليزي) محل إحدى عينيه دلالة على جشع بريطانيا واهتمامها فقط بمصالحها المادية.

كما صورت العديد من الرسومات طبيعة العلاقة بين "عم سام" رمز أمريكا و"جون بول" رمز بريطانيا. فتجدهم تارة على وفاق يضحكان ويتصافحان عندما تجمعهما مصالح واحدة، وتارة أخرى كخصمين لدودين عندما تتعارض مصالحهما وتتباين. وكما هو الحال مع "عم سام" فقد عرف "جون بول" عالميًا كرمز لبريطانيا وكثر ظهوره في الرسوم في الفترة التي لاقت بريطانيا النقد الحاد من قبل مستعمراتها المطالبة بالاستقلال التام، وأفل نجمه شيئًا فشيئًا خلال الخمسينيات من القرن الماضي. وعلى عكس "عم سام" أصبح الثور الهائج وديعًا وحبيس تاريخ بريطانيا العظمى ولا يمت بصلة بسياسة بريطانيا الحالية.



شكل ٦٣٤: جون بول!

جونبول – فى عرضك طفى الفتيل ده.

النحاس باشا – مستحيل .. دا اللي حيقرب له يروح معاك!

(روزاليوسف، عدد ١٢٢٣)

الأسد البريطاني:

ساد العرف لقرون عديدة أن الإمبراطورية البريطانية هي أسد العالم. وكما في قانون الغاب يستأثر الأسد بلقب الملك ويكون هو الراعي وصاحب النصيب الأكبر من الثروات والأراضي التي تنضم لعرينه شيئًا فشيئًا.

تقول بعض المراجع بأن الأسد البريطاني ظهر كرمز للإمبراطورية البريطانية لأول مرة في عام ١١٥٤ وقد زين أشرعة ودروع الأسلحة الملكية في عهد الملك هنري الثاني. وكان الرمز عبارة عن أسد ذهبي يقف مستندًا على رجليه الخلفية على خلفية حمراء. وتطور الرمز الى أسدين واقفين في مواجهة بعضهما البعض في عهد الملك ريتشارد قلب الأسد عام ١١٨٩ ثم تطور إلى ثلاثة أسود. ومع الاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندا وشمال إيرلندا، أصبح الشعار أكثر تعقيدًا ليشمل إلى جانب الأسد الريطاني، الأسد الاسكتلندي وآلة الهارب رمزًا لإيرلندا وإن كان استخدام هذا الرمز أصبح محدودًا ولا يكاد يخرج استخدامه عن شؤون المملكة الرسمية وبعض شؤون الحكومة البريطانية.

وكان الأسد البريطاني وجهًا مألوفًا على الساحة الكاريكاتورية الغربية، فظهر بطلًا مشاركًا في الحروب التي خاضتها الإمبراطورية البريطانية، كما ظهر كطرف نزاع مع مستعمراتها العديدة أو مع القوة الأخرى المسيطرة على العالم آنذاك. وبما أنه ملك الغابة فبديهيًا أن نجده في صراع ومنافسه مع القرد الإيرلندي أو مع الديك الفرنسي أو الثعبان الأمريكي أو الكلب الهولندي أو القط الفارسي أو في اشتباك مع النمر الهندي أو مسيطرًا على الكانجرو الاسترالي أو متفاوضًا ومنافسًا مع الدب الروسي أو كخصم عنيد وفي الغالب خاسرًا مع النسر الأمريكي.

و في كاريكاتير يرجع إلى عام ١٨٨٥ للرسام الأمريكي توماس ناست ، يصور الصراع بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية في أفغانستان، فظهرت روسيا في الكاريكاتير كعفريت العلبة الذي أفزع الأسد البريطاني لدرجة أن شعره كله وقف، في إشارة إلى تخوف بريطانيا العظمى وقلقلها الشديد من الزحف الروسي في شمال أفغانستان والذي استمر لعقود نجحت بريطانيا خلالها في غزو أفغانستان لكن لم تستطع احتلالها والاحتفاظ بها لوقت كبير، كما حدث فيما بعد مع روسيا ومع الولايات المتحدة اليوم.

و في عام ١٩٤٠ ومع هزيمة فرنسا في حربها مع إحدى مستعمراتها، ظهر كاريكاتير يصور الأسد البريطاني وهو مجروح الأنف يخاطب الديك الفرنسي المنبطح أرضًا ومخترق صدره سيفًا قائلًا: "مغادرتك تؤثر فيه لكن ياريت تترك لي مستعمراتك هدية"،

دلالة على تشفي الإمبراطورية البريطانية من نظيرتها الفرنسية والسعي لتتربح من هزيمة الأخيرة.

وفي كاريكاتير من مشهدين نشر بصحيفة النيويورك تايمز وأعيد نشره في مجلة المصور في يناير ١٩٥٧، ظهر في المشهد الأول الأسد البريطاني يمشي مزهوًا في اتجاه قناة السويس وفي المشهد الثاني نرى كيف خرج الأسد البريطاني من قناة السويس هزيلًا منكسرًا مذلولًا. ويبقى الأسد البريطاني (انظر شكل ١١٥) علامة على الإمبراطورية السابقة ولا يتمتع بنفس القدر الذي يتمتع به النسر الأمريكي الآن من الحرية، بل حبيسًا في قفص الحديقة الملكية متاحًا فقط للزوار من داخل المملكة المتحدة.

الدب الروسي و لدغات الديك الرومي:

عرف الدب البني العملاق رمزًا قوميًا لروسيا أو الاتحاد السوفيتي سابقًا وإن كانت شهرته تعدت ذلك لكونه من الشخصيات الأساسية في الحكايات الخرافية وقصص الأطفال والتي عكست جانب من شخصيته التي اتسمت بالهدوء والوداعة، فهو كثيرًا ما كان مسالمًا يتغذى على النباتات البرية خاصة التوت وله حرفية في صيد السمك خاصة السلمون. وقد انتشر الدب البني في ربوع غابات روسيا إلا أن بعض الحوادث قد وقعت نتيجة مهاجمته لسكان بعض القرى مما جعله يختلف كثيرًا عن الدب الذي يعشقه الأطفال. وقد صنف بعض العلماء أنواعًا مسالمة منه لم يسجل لها أن هاجمت أشخاصًا وأنواعًا أخرى شرسة. ومع اختلاف الظروف البيئية المحيطة به، يعاني الدب الروسي حاليًا من قلة عدده وندرة طعامه وإحساسه بالخطر.

نجده في الكاريكاتير السياسي أحيانًا يرتدي الزي العسكري وفي أحيانًا أخرى يضع فوق رأسه قبة الكرملين، وكثيرًا ما نراه مع نظيره الأسد البريطاني خاصة فيما يتعلق بالمنافسة على التجارة في الصين. وظهر عدد من الرسوم التي تعالج الصراع بين "الدب الروسي" و"الديك الرومي" رمز الدولة العثمانية في تركيا. فقد شهدت هذه الفترة سلسلة من الحروب بين الأتراك و روسيا لوقف توسع الأخيرة على حساب أراضي الأولى.

ومن أبدع ما رسم ممثلًا لهذا الصراع كان كاريكاتير بريشة الرسام جون تنيال وفيه محاكاة لقصة من الفلكلور الشعبي بعد أن تمت معالجتها بشكل يتناسب مع الأحداث الجارية. تحكي القصة أنه كان هناك دب يهدد النحل إذا لم يعطه العسل مجانًا، فلما رفض النحل، دس الدب يده في الخلية ليأخذ العسل بالقوة وإذا بالنحل ينهال عليه لسعًا ولدغًا ليفر الدب هاربًا مذعورًا. كان النحل الجنود الأتراك الذين هوجموا من قبل الجنود الروسية

(الدب الروسي) الذين تقدموا داخل الأراضي التركية. ويظهر في خلفية الكاريكاتير، مسجد كبير وبعض القباب التي تمثل خلايا النحل.

وظهر "الديك الرومي" أحيانًا يرتدي فوق رأسه هلالًا (رمز الدين الإسلامي)، وفي أحيانًا أخرى يرتدي طربوشًا (الزي الرسمي للأتراك) كما في كاريكاتير نشر بمجلة بانش الإنجليزية عام ١٨٥٣، للرسام جون تنيال تحت عنوان " الديك الرومي في خطر"، وفيه "الدب الروسي" يحتضن "الديك الرومي" بقوة حتى كاد أن يخنقه.

و حقيقة الأمر أن الدب الروسي قد دخل في سبات عميق بعد انتهاء الحرب الباردة إلا أن هناك بعض المؤشرات تقول بأنه بدأ يصحو من غفوته على يد الرئيس بوتن التي عكست تصريحاته وضع روسيا العسكري والذي تحسن كثيرًا، هذا علاوة على تعاونه مع المارد الصيني مما أقلق "النسر الأمريكي" بعودة الحرب الباردة إذا ما خرج الدب الروسي من سباته الشتوي.



شكل ٦٣٥: "الدب الروسي!
(هاربر ويكلي، ١٦ يوليو ١٨٥٣)



شكل ٦٣٦: تركيا في خطر!
(هاربر ويكلي، ٩ إبريل ١٨٥٣)



شكل ٦٣٧: حلف الاطلنطي!

"واشنطن: تطلب روسيا الانضمام إلى حلف والاطلنطي"

(روزاليوسف، ١٢ ابريل ١٩٥٤)



شكل ٦٣٨: روسيا وأمريكا!

"نيويورك: الأوربيون يخشون أمريكا كخشيتهم روسيا"

(روزاليوسف، عدد ١٣٦١)

الديك الفرنسي:

كان الديك cockerel رمزًا قوميًا لفرنسا وممثلًا لها بين القوى المؤثرة التي تحظى بشيء من السيطرة على قوانين البقاء في الغابة. يتميز الديك بحراسته لفراخه وبسيطرته على منطقته ومهاجمته بضراوة أي ديوك تحاول التسلل إليها، لكن هذا لم يكن السبب الرئيسي وراء اختياره رمزًا قوميًا. فيرجع البعض اختياره إلى خلفية دينية مسيحية حيث انتشر استخدام الديك في الرسوم التي تتزين بها الكنائس في فرنسا منذ العصور الوسطى. ومنذ القرن السادس عشر وارتبط رمز الديك بملك فرنسا وبالتالي ظهر على العملات المعدنية ثم ما لبث أن انتشر بقوة خاصة مع الثورة الفرنسية وظهر على العديد من الطوابع وعلى الأختام الرسمية.

ظهر الديك الفرنسي في الرسوم الكاريكاتورية وهو في مواجهات ساخنة مع النسر الأمريكي وأحيانًا في صحبة "جون بول" أو الأسد البريطاني الذي كثيرًا ما كان يتشفى فيه. إلا أنه قد تضاءل استخدامه حاليًا، فلم يعد يظهر إلا في بعض المناسبات المحلية مثل المسابقات الرياضية خاصة كرة القدم والركبي، فقد استخدم كتميمة وشعار لكأس العالم لكرة القدم الذي أقيم بفرنسا عام ١٩٩٨. وفي اطار الاحتفال بافتتاح النفق الذي يربط بين بريطانيا وفرنسا تم إصدار طابع بريد وفيه الديك الفرنسي والأسد البريطاني يتصافحان.

وبعد أن استعرضنا "عم سام" و"جون بول" والنسر الأمريكي والأسد البريطاني والديك الرومي التركي والدب الروسي والديك الفرنسي، أترك الخيال للقارئ للتفكير في أنسب رمز لمصر؟ ولا تنس أنه قد يقف في مواجهة مع كل ما سبق أو في مواجهة للقرد الايرلندي أو الكلب الهولندي أو القط الفارسي أو النسر الهندي أو التنين الصيني.

إسرائيل في الكاريكاتير:

كثيرًا ما صورت إسرائيل في الكاريكاتير المصري على هيئة صهيوني نحيل ذو أنف معقوف ولحية سوداء طويلة نسبيًا، يرتدي جاكيت أو معطفًا أسودًا وقبعة سوداء ذات حافة مستديرة. كانت هذه الصورة مطابقة بشكل كبير الصورة النمطية المعروفة للجماعات الصهيونية في ذلك الوقت.

كان "موشى دايان" رمزًا للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية في حقبة الستينيات والسبعينيات. ورمز إلى الغرور والتعنت الإسرائيلي (بعد نكسة ١٩٦٧) بالديك الرومي المزهو بنفسه والمتعالي، بينما صور (بعد نصر ١٩٧٣) بالديك المذلول والذي يتدلى رأسه للأسفل في انكسار. كما صورت إسرائيل في هيئة أفعى وكلب مسعور. وحل رؤساء وزراء إسرائيل أعداءً على الساحة الكاريكاتورية ورمزًا للسياسة الإسرائيلية ومن أشهرهم: ديفيد بن جوريون وليفي أشكول وجولدا مائير وبنيامين نتنياهو وإيهود باراك وإريل شارون وإيهود أولمرت. وحصل شارون على نصيب الأسد من الرسوم التي صورت سياساته بالعنصرية والدموية والمناهضة للسلام. كما صور هو شخصيًا مرات كشيطان تلمع عينيه احمرارًا أو كمصاص دماء أو قرصان بحر أو رجل الغاب يحمل "شومة".

وكثيرًا ما يشار إلى إسرائيل بأصابع الإتهام عن تورطها في المنازعات التي تحدث في عدد من دول إفريقية. فصورت تارة بالذئب الذي يتربص بفريسته وتارة بنسر أسود ينقض على حمامة "السلام"، وتارة بغول العنصرية أو شبح الإرهاب، أو بمجموعة غربان تنقض

وتفقع عين حمامة "السلام"، أو بالثعبان الذي أحكم قبضته على عم سام. فقد رسم طوغان (١٢ فبراير ١٩٩٩) ذئبًا عليه نجمة داوود رمزًا لإسرائيل وهو يراقب من على هضبة صراع بين اثنين من حيوان الأيل يرمزان إلى كل من اريتريا وأثيوبيا[١]. ورسم طوغان (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠) نسرًا في وضع الهجوم، كتب عليه شارون ويزين كلا جناحيه نجمة داوود، يهب لينقض على إحدى حمامات "السلام" المحلقة في سماء القدس[٢].

وكثيرًا ما يتوسط العلم الإسرائيلي أو نجمة داود الصليب المعكوف رمز النازية. وكثيرًا ما يرسم رئيس وزراء إسرائيل وهو يصافح الزعيم النازي أدولف هتلر وهما واقفان على أنقاض مباني وجثث.

معاداة السامية:

اتهم عدد من رسامي الكاريكاتير المصريين المعاصرين بمعاداة السامية والعنصرية لاستخدامهم نجمة داوود والصليب المعقوف رمز النازية عند تصويرهم لشخصيات إسرائيلية في رسومهم.

ومن الجدير بالذكر أنه انتشرت في الآونة الأخيرة المنظمات اليهودية التى تدعم الباحثين والمتخصصين الموالين لإسرائيل لرصد وتحليل كل ما يكتب ويرسم ويقال فى الإعلام العربى والإسلامى، للحد من انتشار ما سموه «معاداة السامية الجديدة». وأخص هنا بالذكر جويل كوتك Joël Kotek، أستاذ العلوم السياسية بجامعة بروكسيل الحرة، الذي قام بدراسة عينة عريضة من الرسوم الكاريكاتورية العربية التي يظن أنها تعكس "ثقافة الكراهية" ويقول: إن من شأنها نشر وتعزيز صور نمطية غير حقيقية عن اليهود والإسرائيليين، ويظن أنها تحمل نفس الصور النمطية التي اشتهرت بها الرسوم فترة اضطهاد المسيحيين لليهود في العصور الوسطى وحتى فترة النازية[٣].

بشكل عام، يرى الرسامون بأن هذا نوع من أنواع الافتراء عليهم، فلا يمكن بأي حال أن يكونوا أعداءً للسامية وهم أنفسهم ساميون، فمن غير المعقول أن يكونوا أعداءً لأنفسهم[٤]، إلا أن كوتك يرى بأن "معادة السامية" أو "anti-Semitic" تخص اليهود

(١) أحمد طوغان، المرجع السابق.
(٢) أحمد طوغان، المرجع السابق.
(٣) جويل كوتك:
Joël Kotek. (2009). Cartoons and Extremism: Israel and the Jews in Arab and Western Media. Vallentine Mitchell: UK

(٤) رانيا صالح:
Rania M.R. Saleh (Fall 2007). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2). 187-225

وحدهم، فليس صحيحًا القول السائد عند العرب بأنهم هم أيضًا ساميون. فهذه الكلمة كانت من اختراع ويلهلم مار عام ١٨٧٣ واستخدمت من قبل أولئك الذين يسعون إلى تلخيص كراهيتهم المحددة والحصرية لليهود فى كلمة واحدة.



شكل ٦٣٩: المفاوضات في كامب ديفيد!
(الأهالي، ١٧ يوليو ٢٠٠٠)

يعرف كوتك الكاريكاتير المعادى للسامية بأنه يتسم بعنصرية تجاه إسرائيل أو اليهود أو هو الكاريكاتير الذى يصور ممارسات يهودية غير حقيقية مثل "طقوس القتل" و"الإبادة الجماعية" و"قتل الأطفال" وغير ذلك من الأمور الشيطانية – حسب تعبيره.

وشرح كوتك كيف انتقلت عدوى فوبيا اليهود من أوروبا المسيحية إلى مقاطعات عدة من الإمبراطورية العثمانية. ومن هنا عرفت صورة اليهودى شارب الدماء طريقها إلى قلب الأراضى الإسلامية. وبعد إعلان دولة إسرائيل، زاد انتشار تلك الصور النمطية التى استلهمها رسامى الكاريكاتير من الرسوم المسيحية البغيضة ومن تصورات النازية بشكل أفاد النخبة الدينية والسياسية، التى وجدت فيها تبريرًا مناسبًا للهزائم الساحقة فى ١٩٤٨ و١٩٦٧.

لم يوضح كوتك على أى أساس أرجع شرب إسرائيليين لأقداح دم الفلسطينيين فى الكاريكاتير المصري إلى إيمان الرسامين بنفس الخرافة القديمة التى أشارت إليها الرسوم المسيحية فى القرون الوسطى. كان يجب على الكاتب أن يتحرى المرجعية التى استند إليها رسامو الكاريكاتير بسؤالهم شخصيًا وليس بناءً على اجتهاداته الشخصية. فكوتك فى النهاية ليس ملمًا بثقافة الرسامين العرب وطبيعة البيئة التى يعيشون فيها والتى لها انعكاسات مباشرة على أفكارهم. ولا يوجد مجال للشك فى أن رجل الشارع العربى يستطيع أن يفهم من مثل هذه الرسوم أن الإسرائيليين يشربون من دم الفلسطينيين بمعناه الرمزى «أى قتلهم بلا رحمة» وليس بمعناه الحرفى.

ورد الرسام عمرو عكاشة على مزاعم كوتك هذه بتأكيده بأن الرسام حين يرمز للدموية في الكاريكاتير فهو يعني الدموية التى هي نتيجة لغارات القوات الإسرائيلية، وليس لهذا علاقة بالتاريخ السابق ذكره.



شكل ٦٤٠: شارون والسلام!

(الأهرام، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤)



شكل ٦٤١: علاقة شارون بالولايات المتحدة!

(الوفد، ٢٧ مارس ٢٠٠٤)



شكل ٦٤٢: في صحة السلام!

(الأهرام، ٢١ إبريل ٢٠٠١)

تجاهل كوتك الإشارة إلى أهم العوامل المتغيرة عند تحليل الرسوم الكاريكاتورية وهو «المناسبة». فمعظم الرسوم التى تناولت قداح الدم وغلب عليها اللون الأحمر غالبًا ما كانت ردًا على قصف إسرائيلي أودى بحياة أبرياء وأطفال فلسطينيين. فالرسوم التى تظهر على خلفية بعض التصريحات الإسرائيلية غالبًا ما تكون مختلفة فى مضمونها عن تلك التى ظهرت على خلفية قصف غزة مثلًا. وبالتالى فإن تحليل الرسوم الكاريكاتورية بهذا الشكل بعيدًا عن الإشارة إلى بعدها الثقافى ومناسبتها، هو فى حد ذاته عداء للعرب لأنه يؤلها ما ليس فيها.

الخلط بين اليهودى والإسرائيلي:

يرى كوتك أيضًا أنه من الصعب لتفريق بين اليهودي والإسرائيلي فى الرسوم الكاريكاتورية العربية، فكلاهما فى النهاية مخلوق شيطاني أو حيوان مفترس أو مصاص دماء أو ثعبان سام أو جرذ قذر أو نازى. كما أن كليهما يهيمنان على العالم ويسيطران على الولايات المتحدة. وهذا اللبس أراه صحيحًا إلى حد ما فى بعض النماذج الكاريكاتورية التى قدمها الكتاب. فالخلط بين اليهود والصهيونيين وارد جدًا فى الخطاب الإعلامى العربى، مما يجعله، للأسف، هدفًا للمروجين لفكرة مناهضة العرب لليهودية.

ولكن حتى لو كان هذا الخلط صحيحًا، فالإشارة إلى اليهود دائمًا ما يحمل مغزًا سياسيًا وليس دينيًا. فالحديث لا يكون مطلقًا عن الديانة اليهودية ولكن عن اليهود الذين تبنوا فكرة أن يكون لهم وطن قومى حتى ولو على حساب شعبه الأصلى. ومع ذلك أرى أن نضيع عليهم هذه الفرصة وأن نكون أكثر دقة فى استخدام المفردات المناسبة، فعندما نقصد إسرائيل فلنقل «إسرائيل» وعندما نقصد اليهود المتطرفين فلنقل ذلك.

ويرى عمرو عكاشة أن هناك فرقًا بين الصهيوني المغتصب للأرض واليهودي صاحب الديانة. ويؤكد عكاشة أنه عندما يرسم فهو لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسيء إلى أصحاب الديانات لما لها من قدسية خاصة جدًا ليس المفروض أن تمس. أما الصهيوني فيصوره في رسومه بمصاص الدماء لإيمانه بتعديه على أراضي الغير[1].

يعتقد طه حسين بأن "معادة السامية" إنما هي وسيلة يستخدمها الصهيونيون في محاولة لسد أفواه منتقديهم ومحاولة التأثير على الرأي العام خاصة الغربي أنهم هم الواقعون تحت الظلم. ويعتقد أحمد طوغان أن الصليب المعقوف في الرسوم إنما ليقول بأن هناك تشابهًا

(١) عمرو عكاشة، مقابلة شخصية، ١١ ديسمبر ٢٠١٠

بين ممارسات وأساليب إسرائيل المستخدمة في التعامل مع غير إسرائيليين وبين تلك الأساليب التي كان يستخدمها النازيون[١].

إسرائيل كبش فداء:

يرى كوتك أن رسامي الكاريكاتير العرب لا يعملون بنفس الكيفية التى يعمل بها نظراؤهم الأوروبيون والأمريكيون وهذا نتيجة للطابع غير الديمقراطى للبلاد التى يعيشون أو يمارسون فيها مهنتهم. فواحد مثل الفرنسى بلانتو لا ينتقد فقط بوتين أو شارون بطريقة مضحكة، إنما أيضا جاك شيراك وليونيل جوسبان. أما الرسامون العرب فلا يمكنهم شجب أفعال وأخطاء حكوماتهم وبالتالى يحتاجون "لكبش فداء" يلقون عليه اللوم وكل النقد. ويتساءل كوتك لماذا يجذب الفلسطينيون تعاطفًا أكبر فى حين تهمل الرسوم تغطية مصير الأكراد أو الشيشانيين أو السودانيين!

يرى عمرو عكاشة بأن هذا لا ينطبق بأي حال من الأحوال على مصر، فهناك قدر من الحرية يسمح بنقد الشخصيات الرسمية بما فيها الحاكمة. وبالتالي عندما يتم نقد السياسة الإسرائيلية فليس لكونها "كبش فداء" بل لأنها تستحق النقد بالفعل. ويرى عمرو عكاشة أنه تم بالفعل تناول قضايا مثل البوسنة والهرسك والشيشان والسودان في الكاريكاتير، إلا أنه من الطبيعي أن تشغل القضية الفلسطينية اهتمام أكبر لما تشغله من مكانة مميزة وخاصة جدًا لوجود المقدسات المسيحية والإسلامية بها[٢].

مناسبات كاريكاتورية:

هناك بعض المناسبات التي لا يمكن أن يتجاهلها الرسامون، بل إن بعضهم ينتظرها سنويًا ويستعد لها بالجديد من الرسوم الفكاهية التي لا تخلو من مغزى سياسي، ومن هذه المناسبات: رمضان وشم النسيم وكذبة إبريل وعيد الأم واستقبال السنة الجديدة.

رمضانيات:

عندما تتلألأ شوارع المحروسة بالفوانيس وتشد الزينة بين الشرفات خاصة في الشوارع الجانبية وتتكدس المحلات بالياميش ويختنق المرور تعرف حينها أن بشاير رمضان قد هلت.

(١) رانيا صالح، المرجع السابق.
(٢) عمرو عكاشة، المرجع السابق.

يستقبل المصريون رمضان بكل هذه الحفاوة لما فيه من سمو وعلو لقيمه الروحية التي بها تغسل النفوس وتعتق من قيود الشهوات على اختلاف درجاتها وتزدحم دور العبادة بالمصلين رافعين صوتهم بالدعاء خلف الامام أن يعينهم على أعدائهم في كل مكان. وتختلف هوية العدو اللدود من مصلٍّ لآخر وإن كان يشترك المصريون في عدو واحد وهو ظروفهم التي يستقبلون بها شهر رمضان والتي دائمًا ما تواجه مزيدا من الارتفاع في الأسعار.

ويلتفت العالم إلى قدرة المصريين السحرية على السخرية من حالهم فبعد أن تبكيهم ظروفهم وكوارثهم تجدها هي نفسها التي تضحكهم وكأن البسمة التي تصنعها النكتة بلسم يخفف عن الشعب آلامه وأوجاعه أو هي المغرى التي تقول ما لا يسمح به وبالتالي تتخطى كل حواجز الخوف والخطوط الحمراء. وطبعا لا تعدي مناسبة كهذه من غير بعض النكت التي يروجها المصريون أنفسهم للتعبير عن حالهم وللتنفيس عن أوجاعهم، الملكة الوحيدة التي تحسدنا عليها الدول الأخرى، والسلاح المصري الفتاك الذي لا يستطيع منافسته أو الوقوف أمامه أي حاكم أو نظام. ومن أشهر هذه النكت التي قد تكون قد استقبلت أحدها على تليفونك المحمول تقول: "إبليس بيقولك كل سنة وانت طيب و شهر وراجعلك يا جميل،" وأخرى: "قررت الفنانة هيفاء وهبي تقديم فوازير رمضان قبل الفطار عملًا بمبدأ: من أفطر صائمًا كان له مثل أجره." و"صايم يستهبل... سألوه نفسك تسمع ايه ؟، قالهم: آذان المغرب!".

ويأتي رمضان هذه السنة مختلفًا عن أي عام، فهو يأتي في أجواء مازالت محفوفة بعبير ثورة ٢٥ يناير، وبالطبع أتت تعليقات المصريين ونكتهم الساخرة هذه المرة متماشية مع سير أحداث ما بعد الثورة بما فيها من اختلافات وتحديات، والتي منها، "حالة من الجدل بين القوى السياسية حول ما إذا كان الإفطار أولًا أم السحور أولًا"! و"الشعب يريد تدميس الفول"! و"نلحق نختار رئيس قبل العيد عشان نقول حاجة غير عيد مبارك"! و"شرف: إذاعة المحاكمات بعد الإفطار بدل ما الناس تسب الدين للقاضي وتخسر صيامها"! و"يتساءل المصريون: هل استنشاق الغاز المسيل للدموع يبطل الصيام"؟!!

وبالطبع لا تضيع الرسوم الكاريكاتورية فرصة كهذه لتسليط الضوء على المتناقضات الرمضانية. فمع منتصف القرن الماضي، ابتدع عبد السميع شخصيته الكاريكاتورية "الشيخ متلوف" التي لاقت قبولًا وجماهرية واسعة، والتي تركز على المتناقضات بين "متلوف" الإنسان و"متلِف" الشيخ، وتضعها في قالب فكاهي ساخر.



شكل ٦٤٣: الشيخ متلوف..في الاوبرج!
(روزاليوسف، عدد ١٣٦٤)

وتعكس شخصية "الشيخ متلوف" مقدار الحرية التي كانت متاحة للفنان في الماضي، والتي كانت تسمح له بقلب الصور النمطية لبعض الموروثات العقائدية، مثل تلك التي ترى بأن "الشيوخ" معصومون من الخطأ أو لا يخطئون. ولا أعتقد أن في استطاعة الرسامين نشر قوالب جديدة يظهر فيها "الشيخ متلوف" متماشية مع قضايا وقتنا الحاضر، وذلك نتيجة للحساسية الشديدة الذي يتسم به المناخ العام ضد المساس بأي صور نمطية لها مرجعية دينية أو موروثات عقائدية.



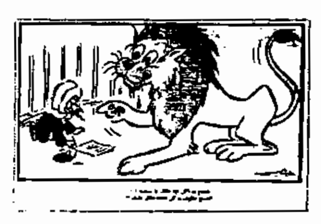
شكل ٦٤٤: رمضان كريم!

هي: "لكن البوسة مش تفطر يا سيدنا الشيخ؟"

الشيخ متلوف: "مادام متوصلش للمعدة خلاص!"

(روزاليوسف، عدد ١٣٥٣)

وصور عبد السميع "الشيخ متلوف" وهو ينافق أيضًا السلطة من ضمن سلسلته الكاريكاتورية الابداعية "النفاق في حديقة الحيوان".



شكل ٦٤٥ النفاق في حديقة الحيوان!

السبع: "آكل ايه حلال يا سيدنا؟"

الشيخ متلوف: "كل حاجة حلال عليك!!"

(روزاليوسف، عدد ١٣٦٢)

كما صور زكي "الشيخ متلوف" في رسومه، ومن الملاحظ أن هذا الأمر متبع وقتها في "روزاليوسف"، فالشخصية التي يبتكرها الرسام تكون ملكًا للمجلة، وبالتالي فطبيعي أن تجد أكثر من رسام يرسمون نفس الشخصية.



شكل ٦٤٦: لشيخ متلوف!

الشيخ متلوف: "باشوف الخدامة الجديدة بتعرف تغسل ولا لأ!!"

(روزاليوسف، عدد ١٤٤٤)

واستقبل الرسام محمود رمضان في "آخر ساعة" عام ١٩٧١ بشخصيته الكاريكاتورية الجذابة "عم رمضان"، ذلك الشيخ البسيط بعمة وعباءة ويمسك بيده مسبحة ويستند على عصا ويحمل أحيانًا فانوسًا الذي يتابع أحوال الناس في رمضان ويفتيهم في شؤون صيامهم وهنا تكمن السخرية. ففي إحدى رسومه، "عم رمضان" ينظر بغضب واستياء لرجل يضع بين شفتيه "ببرونة" يمصها ويبرر الرجل فعلته قائلًا: "دي فيها إيه كمان..أنا باسلي صيامي..؟!" وفي كاريكاتير آخر، "الأتوبيس" وقد اكتظ عن آخره بالركاب الذين التحموا من كثرة الزحام خارجه على الأبواب، إلا أن أحدهم استطاع أن يخرج رأسه بأعجوبة بعد أن أصابته بعض الجروح يسأل "عم رمضان" قائلًا: "قول لي يا مولانا...مش أنا كده أبقى "على سفر"..؟!"



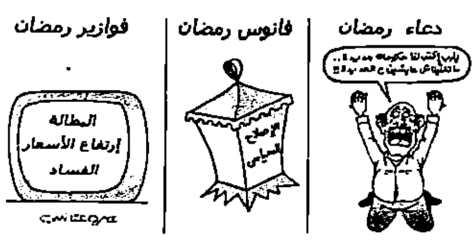
شكل ٦٤٧: عم رمضان!

"دي فيها إيه كمان..أنا باسلي صيامي..؟!"

(روزاليوسف، ١٩٧١)

ولا يتم التعبير عن رمضان، وإلا ويفرض شبح الأزمة الاقتصادية نفسه على الكاريكاتير. ففي كاريكاتير لجمعة بمجلة "صباح الخير" (١٠ إبريل ١٩٨٩)، رجل بسيط يمثل الطبقة الأقل من المتوسط يشير إلى خبر مكتوب في صحيفة يقول: "توفير الخبز والدقيق واللحوم والدواجن والزيت والسكر في رمضان"، ويحدث زوجته قائلًا: "إبسطي ياست...الحكومة حتصومنا طول السنة...عشان تفطرنا في رمضان.....!!"

أما عمرو عكاشة فيصور ثلاثية رمضان التي لا غنى عنها وتكمن في أدعية رمضان المستجابة، والتي تعتبر الفرصة الذهبية للدعاء بحكومة جديدة، وفانوس رمضان (الإصلاح السياسي) وفوازير رمضان عن "البطالة وارتفاع الأسعار والفساد". ويكشف جمعة فرحات عن خطة الحكومة في الاستعداد لرمضان، في حين يقارن محمد حاكم بين الصوم لشهر واحد وبين الصوم لسنة كاملة.



شكل ٦٤٨: رمضان ١!

دعاء رمضان: "يا رب اكتب لنا حكومة جديدة..ماتخليناش عايشين ع الحديدة!!"

فانوس رمضان: الإصلاح السياسي!

فوازير رمضان: البطالة، ارتفاع الأسعار، الفساد

(الوفد، ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٣)



شكل ٦٤٩: رمضان ٢!

الزوج: "ابسطي ياست...الحكومة هتصومنا طول السنة..عشان تفطرنا في رمضان..!!!"

(روزاليوسف، ١٠ إبريل ١٩٨٩)



شكل ٦٥٠: رمضان ٣!

"وايه يعني لما الناس تصوم شهر..ما احنا صايمين طول النسة!!"

(صباح الخير، ٦ ابريل ١٩٨٩)

وفي رمضان تتجلى شخصية المسحراتي، الذي يطوف البيوت خاصة في القرى والنجوع الصغيرة بطبلتة وبصوته الرخيم يردد بعض المواويل التراثية. ويجود عليه بعض السكان ببعض العملات النقدية وفي آخر ليلة من رمضان أو صباح العيد يطوف مرة أخيرة ليأخذ "العدية".

وتطور المسحراتي في رسوم محمد حاكم في أواخر الثمانينات، فها هو يدق على الطبلة وأمامه نوتة موسيقية أو آخر يحمل "كاسيتًا" بدل الطبلة، وآخر "مابينساش" قائلًا: "سحورك يا محمد أفندى..سحورك يا أستاذ عبده..وبلاش انت يا سيد محمود عشان ما دفعتش العيدية السنه اللي فاتت!!!"



شكل ٦٥١: المسحراتي ١!

الزوجة: "قوم يا سي عبده..رمضان بعد يومين!"

(صباح الخير، ٦ ابريل ١٩٨٩)



شكل ٦٥٢: المسحراتي ٢!

(صباح الخير، ٦ ابريل ١٩٩٨)



شكل ٦٥٣: المسحراتي ٣!

(صباح الخير، ٦ ابريل ١٩٨٩)

للموظفين في رمضان حضور كبير في الرسوم الكاريكاتورية. ففي كاركاتير لمحمد حاكم (صباح الخير عام ١٩٨٩)، إحدى الموظفين يخاطب زميله في أول يوم رمضان قائلًا: "ياه..ده رمضان ده طول قوي! لسه فاضل ٢٩ يوم!!!" وفي كاريكاتير آخر، لخص الموظف

لزميله جدوى العمل في رمضان: "ونشتغل ليه اذا كان اللي ح نكسبه من الفوازير قد اللي ح نقبضه في سنه!!"

كذبة ابريل:

تحتفل العديد من دول العالم بالأول من إبريل كـ April Fool's Day أو كما نسميه بيوم كذبة أبريل. وقد تعددت الروايات واختلفت حول قصة هذا اليوم إلا إنها تتفق حول طريقة استقبال الناس لهذا اليوم. فهذا اليوم قائم على الخدع ومن يقع في الخدعة يتم نداءه بالمغفل. من أكثر الخدع شهرة ما أذاعته البي بي سي BBC في أول إبريل من عام ١٩٥٧ على البرنامج الإنجليزي الإخباري الأكثر شعبية بانوراما Panorama ما يقرب من ثلاثة دقائق عن كيفية حصاد غابات الإسباجتي في جنوب سويسرا. فقد تم بث المزارعين وهم يحصدون الإسباجتي من لشجر ويحملونها في سلالهم. بعد البث مباشرة، لقي البرنامج مئات الاتصالات لأناس يسألون عن كيفية زراعة أشجار الإسباجتي في حدائقهم. ومنذ ذلك اليوم وأصبحت بانوراما من أشهر من يقدم خدعة إبريل. ويعتقد البعض أنها تعتبر هي الأولى من نوعها في استخدام التلفاز كأداة لبث خدعة إبريل.

وفي عام ١٩٩٢، قام الراديو القومي بأمريكا من خلال برنامجه Talk of the Nation program أو كلام الشعب بالإعلان عن نية ريتشارد نيكسون في خوض الانتخابات الأمريكية مرة أخرى. أعلن البرنامج أن شعار نيكسون الجديد هو: "أنا معملتش حاجة غلط، ومش هاعمل كده تاني". أذيع أيضا مع الإعلان مقتطفات لخطاب نيكسون للشعب الأمريكي بمناسبة إعادة ترشيحه. مثل هذا الإعلان صدمة للشعب الأمريكي وانهالت المكالمات على البرنامج تعلن عن غضبها واستيائها من إقدام نيكسون على هذه الخطوة. فقط في الجزء الثاني من البرنامج، أعلن المذيع أن ما أعلن كان "خدعة" وأن المقتطفات من خطاب نيكسون كانت بتقليد من الكوميديان Rich Little.

ومن أكثر الخدع طرافة تلك التي ابتدعتها برجر كنج Burger King عام ١٩٩٨ حيث نشرت إعلان لها في صحيفة USA Today تعلن عن الجديد في لائحة طعامها وهو "سندويتش" صمم خصيصًا لمستخدمي يدهم اليسرى حيث ستكون المقادير هي ذاتها من طماطم وخص وبرجر وإلخ، لكن الاختلاف يكمن في أن السندويتش تم لفه على ١٨٠ درجة لإفادة مستخدمي يدهم اليسرى. وفي اليوم الثاني أعلنت برجر كينج أن قصة الإعلان ما هي إلا خدعة ومع ذلك فقد استقبلت آلاف الزبائن يطلبون هذا "السندويتش"، بينما طلب آخرون "السندويتش" المعتاد لمستخدمي يدهم اليمنى.

وكانت استقالة الحكومة المصرية هي أهم خدعة قدمها الرسام بديوي وإن لم تخدع المواطن المصري الذي لا يعيش "كذبة إبريل واحدة"!!



شكل ٦٥٤: استقالة الحكومة..كذبة إبريل!
(كاريكاتير، ٢٥ مارس ٢٠٠٢)

شم النسيم:

ما زلنا نحاكي أجدادنا في طريقة احتفالهم بيوم شم النسيم منذ آلاف السنين، فمن قضاء وقت في الهواء الطلق للاستمتاع بطلة نسمة الربيع، إلى الالتفاف حول مائدة خاصة جدًا من البيض الملون والخس والملانة والبصل والملوحة والفسيخ. ويحتفل المصريون بعيد شم النسيم في أول يوم اثنين بعد احتفالهم بعيد القيامة.

كان البيض في نظر أجدادنا رمز الخلق، كما جاء في بعض القراءات، فمنه تخرج الحياة ولذلك كانوا ينقشون عليه دعواتهم وأمنياتهم للعام الجديد، ثم بدلت النقوش بالزخارف والألوان الجذابة فيما بعد وإن كان لا يزال البعض يعتقد أن أكله يعد فألًا حسنًا بميلاد سنة جديدة طيبة. أما البصل فساد الاعتقاد عند أجدادنا بأنه طارد جيد للأرواح الشريرة وقاهر للمرض ولذلك كانوا يعلقونه في الشرفات ويضعونه تحت الوسائد عشية العيد.

ولا تختلف الوليمة المتعارف عليها في شم النسيم عن تلك التي تجدها على طاولة الرسامين والتي كثيرًا ما يكون أطباقها الرئيسية مكونة من البيض والفسيخ. ففي كاريكاتير لكمال نشر في صباح الخير في إبريل عام ١٩٨٢، الفسخاني وقد تزاحم عليه الزبائن يشترون منه الفسيخ، في حين يقف أحد تجار الأغذية الفاسدة يخاطب زميله قائلًا: "شايف ريحتها واصلة لغاية فين..وعمر ما حد قال: إنها فاسدة!". وطرح عز العرب مشكلة الفراغ الذي يعاني منه الشباب والذي يدفعهم أن يخرجوا ليعاكسوا الفتيات في المناسبات. فرسم ثلاثة من الشباب يعاكسوا الفتيات في الوقت الذي يمر فيه أب يرد على سؤال ابنه وهو يشير

إليهم قائلًا: "المجلس (الأعلى) للشباب؟ ..أهو بيشم النسيم!!"، إشارة إلى دور المجلس الغائب وقتها تجاه ملء الفراغ الذي يعاني منه الشباب.



ـ المجلس (الاعلى) للشباب ؟ .. اهه بيشم النسيم !!

شكل ٦٥٥: شم النسيم!

هو: "المجلس (الاعلى) للشباب؟ .. أهه بيشم النسيم!!"

(صباح الخير، ١٩٨٢)

وحدث في عام ١٩٩٠ أن كانت مناسبة شم النسيم في شهر رمضان، مما يعني أن يبدأ الناس احتفالهم بشم النسيم هذه المرة بعد مدفع الإفطار مباشرة، وطبعًا استغل الرسامون هذه المفارقة ليضعوها في قالب فكاهي ساخر. فرسم محمد حاكم في "صباح الخير" (١٩ إبريل ١٩٩٠) المسحراتي وهو ينادي قائلًا: "فسيخك يا صديم".

ولم تخل الرسومات الكاريكاتورية عن شم النسيم من إسقاطات سياسية، ففي كاريكاتير لمحسن جابر "بصباح الخير" (٢٢ إبريل ١٩٨٢) زوج يطالع صفحة من جريدة عليها صورة للص (مسؤول) وبجانبه "فسيخة" ويضحك قائلًا: "كل لتصريحات النهاردة ريحتها غريبة!!" وفي كاريكاتير آخر لجابر، رجل يحمل صحيفة تحمل خبرًا تحت عنوان "العلاقات الأمريكية الإسرائيلية" ويحدث زوجته التي تحمل "فسيخه" قائلًا: "ارحميني بأه..وكفاية علينا الريحة الهباب اللي في المنطقة.."، في إشارة إلى الخبر!

عيد الأم

يحتفى الناس في مصر وفي العديد من الدول العربية والغربية بعيد الأم كتعبير عن تقديرهم وامتنانهم لأمهاتهم. ويرجع بعض المؤرخين فكرة هذا اليوم إلى أنا جارفيز Anna Jarvis التي تأثرت كثيرًا بفقدان أمها فقررت أن تهب حياتها للاحتفاء بكل أم. بدأت ذلك بشكل مصغر من خلال التجمع في يوم محدد في كنيسة محلية لتعميق الإحساس بقيمة الأم إلى أن عمم هذا اليوم في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٤ عندما أعلن الرئيس الأمريكي وودرو ويلسن Woodrow Wilson بأن الأحد الثاني من مايو يوم للأمهات، وما لبث أن انتشرت هذه الفكرة دوليًا.

وتشارك الرسوم الكاريكاتورية في أنحاء العالم بالتعقيب على هذه المناسبة بالنقد السلبي مصورة أنانية الأبناء وعدم مبالاتهم. ففي كاريكاتير لهارفيل تحت عنوان "امتى تعرف أن شعبيتك نزلت"، الرئيس بوش الابن يحدث والدته قائلًا: "ألو، ماما..أنا جورج. يوم أم سعيد! ماما؟! الو! الو! ماما!؟!"

أما الرسوم المصرية فكثيرًا ما تصور محاولة الأبناء في إدخال السرور على أمهاتهم بمناسبة ذلك اليوم. فرسم عمرو عكاشة (في "٢٤ ساعة"، ٢٠٠٩)، الابن يحمل رغيفين عيش ملفوفين بشريطة حمراء ويقدمها لأمه قائلًا: "ملقتش أغلى من الهدية دي أجبهالك!"

في وداع السنة القديمة:

دائمًا ما يتقدم "بابا نويل" أو سانتاكلوز Santa Claus رحيل السنة القديمة، حيث يعتبر أهم معالم الاحتفال بأعياد الميلاد في جميع أنحاء العالم. وترجع بعض المراجع شخصية سانتاكلوز إلى القديس نيقولاس في القرن الرابع الميلادي والذي عرف بطيبته وعطفه على الفقراء حيث كان يتخذ من الليل ستارًا له حتى لا يراه أحد وهو يوزع المؤن والمساعدات على المنازل الفقيرة إلا أن أمره قد انكشف ليصبح رمزًا للخير والعطاء. ويؤمن الأطفال في أنحاء عديدة من العالم بسانتاكلوز الذي يحلق في عربته الطائرة فوق بيوتهم عشية ليلة الميلاد ليوزع عليهم الهدايا والحلوى. ولا يزال العديد من الأطفال يكتبون لسانتاكلوز كل عام قبل العيد آملين أن يحقق أحلامهم الصغيرة بجلب هدايا بعينها لهم. وقد انتشر الجدل منذ عقود في الأوساط الأمريكية حول ما إذا كان صحيًا إيمان الأطفال وارتباطهم بهذه الشخصية الأسطورية وقد رفض قلة من الآباء إيهام أولادهم بأن الهدايا التي تأتيهم ليلًا هي من سانتاكلوز وليست منهم لاعتبارهم أن هذه خديعة.

ويرمز لسانتاكلوز بعجوز بدين نسبيًا ذو ملامح صافية تعكس طيبته وله لحية بيضاء طويلة يرتدي جاكت أحمر بحزام وقبعة حمراء محددة أطرافها بفرو أبيض يمتطي عربة تجرها أزواج من حيوان الرنة. وترجع هذه الصورة العصرية إلى رسام الكاريكاتير الأمريكي توماس ناست Thomas Nast الذي استطاع أن يعمم ملامح هذه الشخصية لتصبح الشكل القومي السائد والأكثر شعبية لتصدره الولايات المتحدة لجميع أنحاء العالم.

أول ظهور لسانتاكلوز كان في كاريكاتير لناست نشر بجريدة هاربر الأسبوعية Harper's Weekly في ٣ يناير ١٨٦٣ وفيه سانتاكلوز يوزع الهدايا على الجنود والأطفال وهو على عربته التي تجرها زوج من حيوان الرنة مستوقفًا أمام إحدى معسكرات جنود الاتحاد خلال الحرب الأمريكية الأهلية، والذين خرجوا لتحيته في منظر يعلوه جو من الفرح والسرور، وقد ظهرت في الخلفية لافتة مزينة كتب عليها "مرحبا سانتاكلوز"، ونرى أحد الجنود سعيدًا وهو يتفحص زوج من الشرابات الجديدة بينما يظهر آخرون وهم يحملون هدايا مغلفة. يعتقد البعض أن الغرض من هذا الكاريكاتير كان لرفع الروح المعنوية لجنود الشمال بزيارة سانتاكلوز لهم وبالتالي تثبيط الروح المعنوية لدى جنود الجنوب!!

في حين تكشف الرسوم الكاريكاتورية المصرية طبيعة العوائق التي كثيرًا ما تقف أمام "بابا نويل" لتكون حائلًا بين وصول هداياه للشعب المسكين !



شكل ٦٥٦: بابا نويل !١

وزير المالية السابق يوسف بطرس غالي: "على فين..إيدك على ضريبة المبيعات الأول!!"

(الدستور، ٢٩ ديسمبر، ٢٠٠٩)



شكل ٦٥٧: بابا نويل ٢!

(الأهرام ويكلي، ٣-٩ يناير ٢٠٠٨)



شكل ٦٥٨: بابا نويل ٣!

"شوف اما اقولك..مفيش حاجه من دي هتدخل البلد إلا لما آخد حمولتي!!"

(الدستور، ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٩)

منذ أكثر من قرن والرسوم الكاريكاتورية تودع السنة القديمة التي غالبًا ما تعتبرها نذير شؤم بإبراز الكثير من معالم البهجه والفرحة في إستقبال الجديدة. كثيرًا ما صورت السنة القديمة بالمرأة العجوز المهللة الثياب المنحنية الظهر التي تستند على عصى لتعبر بصعوبة من بوابة الزمن وهي تنظر شزرًا لفتاة شابة (السنة الجديدة) فائقة الجمال تشع نضارة وحيوية، يشرق وجهها نور وتفاؤل. كما أشير للسنة الجديدة بطفل صغير مقبل على الحياة وغالبًا ما يكون في استقباله شيخًا (السنة الماضية) قد طالت لحيته حتى أخمص قدميه، تعلو وجهه ملامح الاشمئزاز ويرحل مبتعدًا بعد أن ترك فاتورة ثمينة من الحوادث والمصائب لخليفته!

تنبأ الرسام صاروخان بما ستحمله سنة ١٩٤٨ من أحزان ونكبات، فرسم "بأخبار اليوم" كهل شرير (سنة ١٩٤٧) له ملامح شيطانية من قرنين أعلى رأسه وواحد في ذقنه محاولًا إجلاس طفل مشاغب (سنة ١٩٤٨) مكانه على كرسي تقع تحته قنبلة على وشك

الانفجار، ويحمل الطفل في إحدى يديه عود كبريت مشتعل. يودع الكهل الطفلَ قائلًا: "أرجو لك حظا أحسن من حظي!"



سنة ١٩٤٧ ـ ارجو لك حظا احسن من حظى !

شكل ٦٤٩: السنة الجديدة!
(أخبار اليوم، ١٩٤٨)

وعلى العكس، استقبل الرسامون سنة ١٩٧٤ بقدر كبير من التفاؤل والارتياح، لما حملته سنة ١٩٧٣ من نصر طال انتظاره، في حين صور الرسامون بأن السنة الجديدة لابد وأن وقعها كان سيئًا على الإسرائيليين. فرسم حجازي في "روزاليوسف" في مطلع عام ١٩٧٤ جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل وهي تحدث موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلي قائلة: "شوف لنا نتيجة بأه ما يكونش فيها أكتوبر..!!"

الخاتمة

الخاتمة

وتتوالى الرسوم...

يلتفت العالم إلى قدرة المصريين السحرية على السخرية من أحوالهم، فبعد أن تبكيهم ظروفهم وكوارثهم تضحكهم، وكأن البسمة التي تصنعها النكتة تعمل "كبلسم" يخفف عنهم آلامهم وأوجاعهم أو تعمل كمتنفس تستطيع أن تتخطى الحواجز والخطوط الحمراء. وبالتالي ليس عجبًا تقديرهم للكاريكاتير وإعجابهم به، فهو يلمس أوتارهم وينطق عن ما يجول في صمتهم.

لعبت الرسوم الكاريكاتورية دورًا رئيسيًا في تشكيل الرأي العام وتخفيف حدة التوتر وتفريغ شحنة الغضب. ومن المدهش والمحبط في آن واحد أن الكثير من الرسوم الكاريكاتورية، خاصة تلك التي تلت ثورة ١٩٥٢، مازالت صالحة للنشر إلى يومنا هذا. وهذا يرجع لتناولها نفس القضايا والمشاكل التي نعاني منها الآن.

شهد القرن العشرون ميلاد مدرستين للكاريكاتير: المدرسة القديمة للكاريكاتير والتي نضجت في العشرينيات مع ظهور نخبة من الرسامين الأجانب الذين لعبوا دورًا حيويًا في تسجيل أهم الأحداث السياسية وفي التحريض ضد الفساد والاحتلال وفي بعض الأحيان كسهام رماح تصوبه الأحزاب ضد بعضها البعض، ومنهم الأسباني جوان سانتس والتركي علي رفقي وأخيرًا الأرمني ألكسندر صاروخان الذي منحه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الجنسية المصرية عام ١٩٥٥ تقديرًا لرسومه التي أثرت حركة الكاريكاتير في مصر وامتزجت في نسيج الشعب المصري مسجلة همومه. ثم ظهور أول رسام كاريكاتير مصري، محمد عبد المنعم رخا، الذي استطاع أن يفرض نفسه على الساحة الكاريكاتورية، واستطاع أن يسحب البساط من تحت أرجل العديد من رواد فن الكاريكاتير في ذلك الوقت، ويصبح خصمًا قويًا لزميله ورفيق كفاحه "بأخبار اليوم" آنذاك صاروخان. ثم توالى ظهور عدد من الرسامين المصريين وعلى رأسهم أحمد طوغان (الأب الروحي للرسامين الآن) وزهدي العدوي وأخيرًا عبد السميع.

وظهرت أهم الشخصيات الكاريكاتورية في تلك الفترة ومنها شخصية "المصري أفندي" لصاروخان، وشخصيات "ابن البلد" و"بنت البلد" لرخا. واهتمت تلك المدرسة بقدر من التفاصيل واستخدام الظلال الكثيفة واللعب بالكتلتين الأبيض والأسود لتشكل المساحة السوداء عنصرًا أساسيًا في الكاريكاتير.

ثم ظهرت المدرسة الحديثة للكاريكاتير في منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات من على أغلفة "صباح الخير" و"روز ليوسف"، والتي شكلها ميلاد جيل من شباب الرسامين المبدعين من أمثال إيهاب شاكر ورمسيس وناجي كامل وحسن حاكم ومحيي الدين اللباد ونبيل السلمي وماهر داوود وبهجت عثمان وصلاح الليثي ورجائي ونيس وإسماعيل دياب وجورج بهجوري والمبدعين بشكل استثنائي: صلاح جاهين وأحمد حجازي. فقد اتسم أسلوبهم باختزال التفاصيل إلى خطوط بسيطة رشيقة في غياب للخطوط الكثيفة والظلال العنيفة والتكتلات السوداء التي اتسمت بها رسوم المدرسة القديمة. وفي السبعينيات انضمت ريشات جديدة للساحة الكاريكاتورية، لصاحبها شريف عليش ومحسن جابر ورمسيس في سلسلته الكاريكاتيرية الشهيرة "يا تليفزيون يا..."، ومحمد حاكم وسامي أمين ومحفوظ وكرم بدره وعادل البطراوي وكمال محمود ونزيه الخالدي وأحمد عز العرب ورؤوف عياد وعبد الباقي وشعبان وعفت وآخرين.

ومن المدرسة الحديثة، هناك من انشق مع نفسه ليخلق حالة فريدة من الخطوط التي أصبحت أقرب للإسكتشت مثل تلك للرسام صلاح الليثي. واتخذ أيضًا جورج بهجوري مؤخرًا (خاصة بعد إقامته في فرنسا منذ السبعينيات) خطًا فريدًا وليس سهلًا، فهو يعتمد على مهارات عالية قلما تجدها في رسام. فهو يرسم بخط واحد ولا يرفع قلمه من على الورق إلا اذا انتهى من الرسم. فنجد قلمه يسير في خطوط دائرية ومستقيمة متلاحقة لينتهي بلوحة مختزلة ومعبرة. ذلك الأسلوب الذي لاقى قبول جمهور عريض خاصة من الجمهور الغربي.

ويلاحظ أنه بعد ظهور المدرسة الحديثة، اختلف أسلوب كل من صاروخان ورخا وعبد السميع قليلًا عن ما قبل الثورة. فقد أصبحوا يحاكون أسلوب شباب الرسامين في هذه الفترة باختزال التفاصيل الكثيرة والمعقدة وتحويلها إلى خطوط بسيطة ورشيقة في غياب للخطوط الكثيفة والظلال العنيفة والتكتلات السوداء.

ومازلنا نشهد امتداد للمدرسة الحديثة وإن واكبها بعض التغيير بعد توفر إمكانيات حديثة من كمبيوتر وبرامج جرافيكس وظهور الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت). فأكتسب عدد من الرسامين مهارات جرافيكية، مما وفر لهم كثيرًا في الوقت وأتاح لهم أفاقًا جديدة للإبداع، وسهل عليهم حفظ أعمالهم وتخزينها بشكل آمن على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، السمة التي لم تكن متوفرة من قبل.

ونلاحظ أن طبيعة المواضيع الكاريكاتورية كانت أكثر جرأة وتحررًا في فترتي الخمسينيات والستينيات عن ما هو الآن، فقد تم مناقشة بعض الأفكار التي من الصعب تناولها الآن، فقد قدم جورج بهجوري مثلًا إسكتشات كاريكاتورية على "البلاج" وفي نادي الجزيرة، كما قدم صلاح جاهين إسكتشات كاريكاتورية "لنادي العراة"، التي سخر فيها من القيود التي كانت تكبل المرأة وتمنعها من الخروج للعمل، كما قدم سلسلته "قيس وليلى"، حيث وضع المرأة في إطار لاذع وساخر وهي مندفعة بقوة وبشكل إيجابي مع قضايا الحب.

يتضح من الفصول السابقة إمكانية تتبع تاريخ مصر الحديث ودراسته من خلال الرسوم الكاريكاتورية، التي رسمت من خلال منظور ثقافي ومرجعية تاريخية. كما يتضح دور رسامي الكاريكاتير في تشكيل الرأي العام وشحن قوى الشعب مع أو ضد بعض القضايا المطروحة. فقد مهدوا لثورة ١٩٥٢ ورفعوا الروح المعنوية ضد العدوان الثلاثي ١٩٥٦ وعملوا على تعبئة الشعب للترحيب بحرب ١٩٦٧ ونادوا بوجوب رجوع الأرض بالقوة في فترة حرب الاستنزاف واحتفلوا بنصر أكتوبر ١٩٧٣ وبكوا اغتيال السادات ١٩٨١، وناهضوا العدوان الإسرائيلي وتمسكوا بموقفهم ضد غزو العراق، وحرضوا ضد الفساد والتوريث وانتهاكات الشرطة وسوء المنظومة التعليمية وطالبوا بحلول للبطالة، ورفعوا شعارات مطالبة بالتغيير وإلغاء قانون الطوارئ.

وأكثر ما لفت انتباهي هو التناغم غير المسبوق بين أدوات الإعلام السمعية والبصرية والمقروءة، التي لعبت على وتر الشارع المصري وكان لها دور كبير في التعبئة والشحن الذي حدث لمختلف فئات الشعب للترحيب بحرب ١٩٦٧. وسارت الرسوم الكاريكاتورية على نفس المنوال حيث الإسراف في التهليل والترحيب بالحرب القادمة والمبالغة في التنكيل بالعدو والاستهانة بقدراته، مما يفسر حجم الصدمة التي تلقاها الشعب في قائده ونظامه ورموزه من الكتاب والصحفيين والرسامين والمطربين. وأصاب الرسامين أنفسهم الإحباط الشديد وشعروا بالمسؤولية تجاه الصدمة الرهيبة التي أصيب بها الناس، فهم يعتقدون أنهم قد ضللوا الرأي العام وأنهم بالتالي مسؤولون عن الصدمة التي أطاحت بالمصريين.

وكان للرسامين دور بارز في التحايل على الرقابة لتوصيل انطباعاتهم للناس. فهاجم عبد السميع الملك فاروق بالإشارة إليه بفردة البنطلون والحذاء اللامع أو الغوريلا. واعتمد الرسامون في الفترات التي تتسم بالتوترات وتشتد فيها بالتالي الرقابة على بديهية القارئ

المصري وقدرته على فهم ما بين السطور. ويؤمن أحمد طوغان بأن الحكومة تفرض رقابة عندما تفشل في ملء الفجوة بينها وبين شعبها، وأحيانًا لأسباب أمنية في أوقات الحرب[١].

ويرى جمعة فرحات بأنه لم يسجل صدام حقيقي بين الرسامين وناصر، وذلك لأن المبادئ والأفكار التي جاءت بها الثورة هي نفسها التي كان يؤمن بها الرسامون، فوجود الرقيب لم يكن يزعج الرسامين بالقدر الكبير. أما الرسام محمد حاكم فيعتقد بأن الوضع اختلف بعد النكسة، فقد أوقف ناصر الرقابة (باستثناء المواضيع المتعلقة بالجيش) ليقلل من درجة الإحباط ولإعطاء فرصة لطرح حلول[٢].

ويعتقد جمعة أنه على عكس فترة ناصر ظهرت الصراعات بين السادات ورسامي الكاريكاتير الذين حاربوا ضد فكرة الانفتاح وغياب الإنتاج الوطني وطلبوا بتقديم حلول للبطالة. ويعتقد جمعة بأنه عندما أعلن السادات إنهاء الرقابة على الصحف، أوجد مشكلة أكبر ورقابة أكبر متمثلة في رئيس التحرير الذي أصبح لديه الصلاحيات الكاملة لفرض رقابة على المواد التي يراها هو غير مناسبة، المشكلة التي ترمي بظلالها حتى يومنا هذا[٣].

وتعتبر حرية التعبير جزءًا لا يتجزأ من مفهوم الليبرالية الحديثة وهى مكفولة بموجب القانون الدولى من خلال المادة ١٩ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والذى ينص على "أنه لكل شخص حق التمتع بحرية الرأى والتعبير ويشمل هذا الحق حريته فى اعتناق الآراء دون مضايقة وفى التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها الى الآخرين بأية وسيلة و دون اعتبار للحدود". فحرية الرأي والتعبير تعتبر اللبنة الأساسية لقيام أي نظام ديمقراطي. ويؤمن الرسامون بأن لهم الحق في تحقيق رغبتهم في إحداث تغيير إيجابي من خلال رسومهم دون الحاجة إلى القلق حول إرضاء الحكومة[٤].

وفي ظل القيود المفروضة على الكاريكاتير، مع تعدد قنوات النشر من خلال مواقع التواصل الاجتماعي مثل "فيس بوك" و"تويتر"، كان أغلب الرسامين محبطين من المناخ العام في فترة مبارك. ومع اندلاع ثورة ٢٥ يناير ٢٠١٢، كان متوقعًا أن تأتي معها بشائر واقع أفضل للرسامين، إلا أنها أتت بتحديات عديدة وجديدة كما تم مناقشته في الفصل السادس. وليس غريبًا مدى الإحباط الذي يشعر به رسام الكاريكاتير في مصر، فهو يرى صورة أدق

(١) رانيا صالح:
Rania M.R. Saleh (2007). **Political Cartoons in Egypt.** International Journal of Comic Art. 9(2). 187-225

(٢) رانيا صالح، المرجع السابق.
(٣) رانيا صالح، المرجع السابق.
(٤) رانيا صالح، المرجع السابق.

وأشمل للوضع الحالي، وهذا بحكم عمله الذي يجعله أقرب للكواليس وصناع القرار من المتلقي العادي.

ولن نبالغ إذا قلنا أن مصر في حالة ثورية من قبل ثورة عرابي وحتى يومنا هذا، وأن مجموعة الثورات التي مرت بمصر ما هي إلا توابع لثورة أكبر قادمة. فمازال المصريون يرفعون نفس المطالب التي تمثل أبسط حقوقهم "عيش، حرية، عدالة اجتماعية". ومن الجدير بالذكر، أن مصر مرت اليوم بعدد من السيناريوهات المتشابهة لأحداث سبقت في الماضي، مثل الانقلاب الذي حدث على العرابين وثورتهم ووصفهم بالخيانة، والتشتيت والاختلاف على الأولويات بين الدستور أولًا أم الاستقلال أولًا لعام ١٩٣٦، وحريق القاهرة ١٩٥٢ الغامض الذي لم يحدد الفاعل من ورائه حتى اليوم، وفوضى الاعتصامات والمظاهرات ضد الديمقراطية لعام ١٩٥٤، وغيرها. هذا التكرار للتاريخ بهذا الشكل المربك، والبعيد عن المصادفة، يجعلنا ندرك أننا في أمس الحاجة لأن نقرأ ونعي، فمع القراءة المتأنية لتاريخنا سندرك أبعاد اللعبة السياسية التي كثيرًا ما يكون الشعب المصري ضحيتها.

نحن في أمس الحاجة أيضًا إلى التماس الشفافية عند تناول أحداث بعينها في تاريخنا، فتغليف حقبات من تاريخنا بورق سليفان، لن يجمله في عيوننا فقط، إنما سيعميها عن رؤية أخطائنا وبالتالي يحجب عنا فرصة التعلم منها وتفادي تكرارها. فالأخطاء كانت درسًا لأمم أمثالنا، واجهوها ولم يداروا عوراتهم، فتخطوا أزماتهم واستطاعوا اللحاق بأوائل الركب بعد أن كانوا في ذيله.

أرى في هذا الكتاب مرجعًا تاريخيًا خاصة لمن يجدون في قراءة التاريخ صعوبة ومشقة، لما تضيفه الرسوم الكاريكاتورية من بسمة وتسهل بالتالي عملية القراءة.

وأنهي كلماتي بكاريكاتير لأحمد حجازي يصور باختصار حالة رسامي الكاريكاتير اليوم ومعاناتهم للتغلب على إحباطاتهم في جو لا يشجع على الإبداع.



حجازى بريشته!

شكل ٦٦٠: حجازي بريشته!

"معقول ده شكل رسام كاريكاتير، أمال محرر صفحة الوفيات يبقى شكله إيه؟!"

(صباح الخير، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٣)

الفهرس